مؤلفات مارون عبّود

المجموعة الكاملة

الأقاصيص

المجلد السابع

دار مارون عبّود

مؤلفات مارون عبود
المجموعة الكاملة

الاقاصيص

المجلد السابع

يحتوي هذا المجلد على :

أحاديث القرية
وجوه وحكايات
اقزام جبابرة

دار مارون عبود

١٨٨٦ - ١٩٦٢

مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

الأول : في الدراسة

أدب العرب — الرؤوس

الثاني : رواد النهضة الحديثة — الشعر العامي — جدد وقدماء

الثالث : النقد الاجتماعي

سبل ومناهج — حبر على ورق — آخر حجر

الرابع : النقد الأدبي

على المحك — مجددون ومجترون — في المختبر

الخامس : دمقس وأرجوان — نقدات عابر — على الطائر

السادس : في القصة

فارس آغا — الأمير الأحمر

السابع : في الأقصوصة

أحاديث القرية — وجوه وحكايات — أقزام جبابرة

الثامن : في النقد السياسي

من الجراب — قبل انفجار البركان — أشباح ورموز — مناوشات

التاسع : التراجم

أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان ،

أبو العلاء المعري (زوبعة الدهور)

بديع الزمان الهمذاني

أمين الريحاني

العاشر : رسائل وأحاديث صحفية

تحت الطبع

الحادي عشر :

تقـــــديم

لمست من قرّاء الأدب العربي ، ولا سيما التلاميذ والطلاب ، إقبالاً مرموقاً على مطالعة مؤلفات مارون عبود، ما برح في ازدياد مطـّرد . وصارحني بعضهم بأن القارىء المدقق يجـد متعة خاصة في الأدب اللبناني القروي المطبوع بالعفوية واللون المحلي ، إلا أنه يعجز عن فهم بعض كلمات عامية أو منحوتة من الفصحى بالاسلوب العامي الظريف ، فآليت على نفسي أن أزيل هـذه الصعوبة بشرح هذه الكلمات في الهوامش ، مع العلم أن بعضها عامي صرف ، والبعض الآخر فصيح منسيّ لم يدرج على أقلام أدباء هذا العصر ، وفيها كلها من الرونق ما يضفي على أدب مارون عبود جمالاً خاصاً تميز به من جميع أدباء هذا العصر .

نظير عبود

القسم الأول

أحاديث القرية

أقاصيص وذكريات

بَابانوِيل

أول ما يواجهك في ذلك البيت العتيق فراش ممدود حـــد صندوق دهري أطول منه . صندوق ألبسته الايدي التي تعاورته[1] ثوبـاً دسماً فتنكر تحته خشبه . في خواصر ذلك البيت اللبناني القائم سقفـــه على ثـــلاث قناطر ، دقت اوتاد هنا وهناك ، كانت هي « البورتشابو » في ذلك الزمان .

اما أروع ما في صدر ذلك البيت ، فرف خشبي وُضِعَتْ عليه قوارير فخّـاريـة مختلفة الاشكال ، وشماعدين وثريّات للشموع البيضاء والصفراء ، وسُرُج وقناديل تضاء أمام صور وأيقونات وصلبان ومسابح تكاد تشغل مساحة لا تقل عن أربعة أذرع طولاً في أربعة عرضاً ، فيخال الداخل الى ذلك البيت أنه أمام مذبح لا ينقصه إلا « بيت الجسد »[2] .

وكان مندسّاً في ذلك الفراش هيكل بشري ما فيه إلا العظم والروح والجلد . أخذتْ الأيام من عرض أكتافه فدقّ واستطال . وأما لحية ذلك العملاق ، فظلت محافظة على أبّـهتها ولم تخسر منها إلا مقداراً زهيـداً لا

١ ـ تناقلته الايدي ولامسته تكراراً .

٢ ـ مكان صغير في الكنيسة يحفظ فيه الخبز المكرس، اي القربان المقدس.

ينقص من مهابة الشدياق ولا يحط من قدرها .

عمّر الشدياق اسطفان كثيراً ، فعزا العوام طول حياته الى عفّته ، فمنهم من يؤكد أنه مـــا اشتهى إمرأة قط ، ومنهم من نزّهه[1] عن ذلك تنزيهـــاً . ولولا زجر[1] الخوري للغلاة لقالوا : أنه حبل به ايضاً بلا دنس .

وكانت إمرأة طاعنة في السن من نساء القرية تنظر الى زوجهاالشيخ وتصرّ شفتيها وتسكت كلما سمعت ما يقول النـاس عن الشدياق ، ولا تزيد على القول : أعرفه عندما كنا وليدات نرعى المواشي .

وفي ليلة عيد الميلاد سنة الف وثمانمئة و .. كان الشدياق اسطفان قـد فات التسعين ، فتململ في فراشه بعد ظهر ذلك النهار . وتنبّهت ابنـة أخيه مرتا الى همهمته ، فهي تنتظر الساعة ، والانتظار صعب ، فمغمغ قائلاً : مرتا ، هاتي اسقينا .

وأخذ الابريق بيديه الثنتين ، ومع ذلك لم يحكم توجيـه أنبوبته الى الهدف فشرب هو واللحاف ... ولما ابطأ لهاثه تنهّد وقال : سامع حس ناس . من عندنا يا مرتا ؟

ــ عندنا متّى يا جدي .

ــ متّاه ، كيف الطقس ؟

ــ الشمس مريضة يا عمي ، ولكن النهار دافي جداً .

ــ وهذا الذي جاء من اميركا ، أيش خبّر عن الغائبين ؟

ــ الليلة يسهر عندك مع الضيعة .

---

١ زجره : نهاه صائحاً به .

ـ اهلا وسهلا ، سمعت يا مرتا ؟
ـ نعم سامعة .. النقل حاضر .

وأخذ الشدياق ينسحب من تحت لحافه رويداً رويداً ، وبعد جهد قعد في فراشه فبدا ، حين تكوّم ، كأنه كرسي عمود في قلعة متهدمة . وأراد النهوض فعجز ، ولكنه تماسك وابتدأ يصلي وهو يحاول شدّ صرمايته التي لم يَرقْ لها ان ينتعلها. وظل يعالجها ويتلو صلاته بحرارة، حتى استظهر عليها ، فمشى إذ ذاك يجرّ رجليه كأنهما ليستا منه . ولولا تقوّس ظهره لخلته مارداً أفلت من قماقم[1] سيّدنا سليمان : لحية بيضاء كأنها صوف فروة عتيقة ، أصبحت خصلها جدائل لما بينها وبين المشط من عداوة . فهي بنت عم لحية الشنفرى لحا[2] ، واذا ارتفع نظرك عنها قليلاً وقع على حاجبين كأنهما رفرف فوق انف مروّس معقوف كمنقار نسر .

كان ملبوس الشدايقة غنبازاً أسود مقلماً ، ولكن الهرم الذي اعترى غنباز الشدياق اسطفان أخذ الكثير من لونه وحلّت محل أقلامه أنهار من الحواء نمّت عن بطانة بيضاء . ومشى الشدياق غير محكم الزنار ، فتجمع برداه ، عن يمين وعن شمال ، كستار مسرح مفتوح نصف فتحة ، أمّا الممثلون فقد تواروا واضمحلوا . وما بلغ الباب القبلي حتى انهارَ على فروة مدّت له . ثم أخذ يستوي على مهل حتى تمثل بشراً سويّاً،واستندَ

---

١ قوارير ، يقال ان النبي سليمان كان يسجن فيها العمالقة .
٢ افتخر الشاعر الجاهلي الشنفرى بتلبد شعره لقلة غسله ، فجعل المؤلف لحية « شدياقه » شبيهة بهذا الشعر .

الى حائط البيت رازحاً تحت اثقال التسعين التي تمطت بصلبها وناءت بكلكها على منكبيه .

ونظر الى الطبيعة بعينين جفّت ماويتها فرآهـــا صفراء مغبرّة فقال : عجيب ! كيف أصفرت الدنيا ، ما كانت هكذا منذ ايام . وحكّ صلعته كمن يشغل باله أمر خطير ، وأطرق إطراقة طويلة . ورفـــع رأسه فإذا بدمعة تكرج في ثلم من وجنته لتنهار عند مدخل لحيته .

وطفق الشدياق يجهش ثم تعالى بكاؤه فلفت أنظار العابرين والعابرات. وشاع في القرية ان الشدياق اسطفان يبكي ، وهو من لم يُر قط باكياً فتضاربت في ذلك اقوالهم .

رأى الشمس جانحة لتتوارى خلف الجبل فانتحب . أدرك انه الى ما تصير اليه صائر ، فراح يناجي نفسه : هي تغيب وتشرق ، اما انت يا اسطفان فالى ظلمة القبر . لا شروق ولا غروب . إنه يضيق صدره وهو في فراشه اللين فكيف به متى وسّدوه التراب ؟ إنه يبرد وهو نائم حدّ الموقدة فكيف به متى نام في قلب الارض حيث يبقى في ظل الموت الى الابد ؟

ورأى نصف قرص الشمس قد أوشك أن يتوارى خلف الجبـــل فأرسل زفرة حرّى . وأخذ يتجلحل ليعود الى مرقده قبل ان يختفي كانون الله ويقرصه البرد .

وما ذكر الله والعذراء حتى عاد اليه ايمانه بالخلود والحياة الأبدية ، فتشدد ونسي البكاء .

ذكر أن المسيحي الصالح لا يموت بل ينتقل من وادي البكاء والدموع

إلى دار النعيم حيث يتمتّع برؤية الله وجها لوجه .

ثم عاودته نوبة الشك فانخرط في البكاء وقال : هل بعد الشقا بقا ... ترى نعيش ليوم عيدك يا مار مارون ؟ .. آه يا حبيب القلب ! نلتقي يا ترى في الخدر [1] السماوي ؟ من يعلم .. وبينا هو غارق في تلك الظلمة سمع صوت إمرأة تناديه : اسطفان ، ضيّعت إيمانك بالحياة الأبدية !

فتلفّتَ فلم تقع عينه على أحد ، فقال في قلبه : مؤكد ، هذي العضرا مريم ، من يقول لي هذا غيرها؟ ثم التفت وخاطبها كأنه يراها: لاتؤاخذيني يا ستّي السيدة . الآخرة مخيفة ، والموت يفزّع . عذري معي ، ابنك يسوع بكى في البستان [2] . أنا متّكل عليك يا حبيبتي . تعبنا وشقينا حتى نرى وجهك الحلو . لا تخيّبينا .

وخاف الشدياق أن يعتب عليه الله فاستوى ما استطاع مادّاً بصره إلى فوق وقال يناجيه بأعلى صوته :

– يا صاحب الخيمة العالية ، يا من تعيش في النعيم ، ويمجّدك الكاروبيم والساروفيم [3] ، ماذا عندك للشدياق اسطفان الذي قضى حياته متبتلاً ؟ هل تحاسبه على كل هفوة ؟ ألا تتساهل معه ؟ ألا تدخله أخدارك السماوية بعد أن عاش تسعين سنة تحت مظلتك الكبرى لا يهمه إلا طاعتك ؟

---

١ – غرفة العروس ، وهنا مكان الراحة والسعادة الابدية .

٢ – بستان الزيتون في القدس ، حيث صلّى السيد المسيح . وعرق دماً عشية صلبه .

٣ – فئتان من الملائكة .

إرحمني يا الله كعظيم رحمتك . مـا أرعب ساعة الميعاد يا الله ! قلبي يدق ، أنا خائف جـــداً . شددني يا الله . الشيطان يجرّبني دائماً . أينما رحت أراه حاضراً . تف له . ما أبشع وجهه ، وذنبه وقرونه .

وتذكر الشدياق انـــه أمس فراح يرتّل ، وهو مـاش ، الميمر [١] السرياني : برمشو صليبوخ روشيمنو على هادوماي [٢] .. الخ .

وكان متّى ومرتا قد أضرمـا النار في الموقد فحمي البيت ، وارتمى الشيخ ليتربّع قرب النار .

شيخ مُنَوْدل [٣] ، ينوس كرقّاص الساعة. نسي الشك والفزع حين تدفّا . ولذعته النار قليلاً فتجهّم وجهه وانقبض ، كأنه رأى في الموقـد نار جهنم . تذكّر عواقبه الأربع [٤] فارتاع وانكمش . وعلا اللهيب فخال انه يرى من خلاله شبابيك الجنة مفتوحـة مضاءة . فتهلل وتذكر عليقة موسى [٥] الـتي اشتعلت ولم تحترق .. فانحرف فكره عن نيران الجحيم . اذن في النار ذكريات طيبة للمؤمنين . فما باله ، وهو الرجـــل الصالح الذي راض نفسه على الفضائل المسيحية ، يفكر هذه الأفكار السوداء ؟

---

١ ــ نشيد كنسي ماروني .

٢ ــ صليبك مساء يسم جسمي ...

٣ ــ معصوب بمنديل .

٤ ــ الموت والدينونة والنعيم والجحيم .

٥ ــ العليقة التي ظهر فيها الرب لموسى بصورة شعلة على جبـــل حوريب سفر الخروج ٣ : ١ ــ ٦ .

لا شك في أن إبليس يجرّبه ليقطع أمله ويتزعزع إيمانه في أخريات حياته ، فصلّب على وجهه مرات وخرج من جو تلك الأفكار التي خاف منها ، وصاح : مرتا بخّري الصورة .

فنهضت مرتا بمجمرتها[1] ، تبخّر الصورة فملأت رائحة البخور الجوري البيت ، فتنشّقه الشدياق وهو يهتف : إخّايه ! صار كصوفي اسكرته المشاهدة[2] ، حتى خيّل اليه انه يرى في دخان المبخرة الصاعد سلماً مثل سلم يعقوب[3] يرتقي إلى سموات ذي العرش ، فاخذ يرتّل بصوت رخيم لا ارتجاف فيه ولا اهتزاز ، كأنه ابن اربعة عشر :

أنتِ الشفيعُ الاكرمُ عند ابنكِ يا مريمْ

وما انتهى من انشاد هذه المديحة حتى صرخ : يا بنت ! بَخَّرْتِ صورة مار مارون ؟

وبخّرت البنت ورتّل هو : لك شرف مفرد كبدر الضيا .. وأوما الى متّى فشاركه في ترتيلته التي لم يصرم حبلها إلا الفواق[4] . وما ارفضّ موكب صلاته الحافل ، حتى عاد الى قعدة الأربعاء[5] وهو يقول : ترى يكون لنا حظ ونسمع تهاليل الساروفيم ، ونرى الراكب على الكاروبيم!

---

١ – وعاء يوضع فيه الجمر لحرق البخور .

٢ – مشاهدة الله والانجذاب اليه في الاختبار الصوفي .

٣ – السلم الذي رآه يعقوب في منامه منتصباً بين الارض والسماء وهو في طريقه الى حاران . سفر التكوين (٢٨ : ١٠ – ٢٢) .

٤ – خروج النفس من الجسد .

٥ – جلس القرفصاء .

ما أحلى هاتيك الساعة . قريباً نلتقي يا مار مارون .

وقدّمت له مرتا العشاء ، وفيه ما تحرّمه الكنيسة في صوم الميلاد ـ وهو ابن تسعين يحل له أكل كل طعام ـ فكفّ عنه يده ونفسه تشتهيه . لم ياكل إلا بضع حبّات من الزيتون ورأس ثوم شواه . ولماذا الأكل ، أليحرم الأجر ؟ غداً نأكل إن شاء الله اللحوم والألبان . فديوك الميلاد تغلي على النار ، وتغنّي في القدور ، كأنها جوقة ترتل : المجد لله في العلا .

وقال لمرتا وهي ترفع الصينية: غداً نأكل مع الضيعة من طعام العيد. فمنذ صار الشدياق ذلك الشيخ الجليل الذي تقبل الناس يده ويلتمسون دعاءه وبركته ، أخذ يدعو أهل الضيعة الى مأدبة الميلاد التي يعدّها لهم كل عام .

وعاد الشدياق الى فراشه واحتبى[1] بلحافه ، ووفدت أهالي الضيعة عليه . المسنّون يمسّونه بالخير نصف ساجدين . تنحدر ايديهم من قمم رؤوسهم لتستقر على ساحات صدورهم الرحبة . والصغار ينكبّون على يديه يقبلونهما ، سيّان عندهم اليمنى أو اليسرى . وجلس الناس سطوراً سطوراً حوله وبين يديه ، وطفت على البيت رائحة منبعثة من مصابيح الزيت المطفأة ، فأخذ بخناق الشيخ سعال ديكي ، ولو لم يسرع أحدهم إلى فتح الأبواب لكان فطس وذهب ماسوفاً على شبابه ...

وساد البيتَ سكوتٌ رهيب ، لم يكن يسمع صوت نابس . فكان الناس في صحراء ، لا أنيس فيها ولا جليس . الجميع يتطلعون الى الشدياق بعيون مفتّحة ، والشدياق يحرّك شفتيه الراقصتين ، يتمتم ولا

---

١ ـ جلس جاعلا قدميه تحته .

يبين . وأخيراً إنشقّ فمه وخرجت منه هذه الكلمات : هذه ليلة مباركة يا إخوتي ، فيها ولد سيدنا يسوع المسيح بمزود البقر ليعلمنا التواضع . علينا أن نولد مثله كل سنة ، لأنه ، لإسمه السجود ، قال : الذي لا يرجع إلى بطن أمه ويولد ثانية لا يستحقّني. والولادة الثانية معناتها ان ينظّف الإنسان نفسه وجسده حتى يعود طاهراً نقياً كالمولود جديداً .

فهزّ الرجال رؤوسهم إعجاباً ، وتنهّدت العجائز متأسفات على مواهب الشدياق كيف ضاعت ولم يَصِر كاهناً .

أما خوري الضيعة فكان يؤمّن باعجاب على كل ما قاله الشدياق ، ويتحسّر في قلبه على قيراط من مثل فصاحته النادرة .. ثم يقول للذين حوله : هذا رجل قديس ، المثل الصالح أبلغ واعظ ، وشدياقنا طاهر تقي مثل الآباء الأبرار .

وقبل أن يتوغّل الشدياق في موعظته دخل المغترب الخواجه توما. فهمس بعضهم : جا ، جا .

وظل سمع الشدياق صادقاً فسأل : منو جا[1]؟ فخبّروه . والتفت الشدياق فرآه ، فهتف بلا شعور : بسم الآب والابن والروح القدس . هذا هو . لا ينقصه إلا الذنب .

وتقدّم منه الخواجه توما بزيّه الفرنجي الذي لم تر الضيعة مثله من قبل ، لأنه اول من هاجر وعاد ، فكاد الشدياق يتراجع لو استطاع ، ولكن الجدار خلفه .. وسلم توما سلام الاميركان فكاد يخلع يد الشدياق المزيلة . لم يرق للشدياق ذلك السلام الخارج عن حظيرة الاحترام التي

١ — من جاء .

اقامتها القرية حول شدياقها ، ولكنّ كل شيء مرّ بسلام . وقعد المستر توما قعدة بلادنا ، جلس على طرّاحـــة في صدر الحلقة فتضايق وكاد بنطلونه ينشقّ ، فقام ابن عم له وبنى له مقعداً من المسانـد والمخدّات ، والشدياق ينظر وقد غاظه خروج المساند من صفّـها . ولا سيّما ان الخواجه توما جلس ولم يحتفِ كالآخرين . ما خلع نعليه حين داس البلاس[1] الذي يصلي عليه الشدياق ويقبّـله مرات حين يسجد . وزادت في الطين بلة ، حركات توما الغريبة الدار . لم تعجب الشدياق حركات توما وسكناته ، وكان يجن حين يسمع منه بعض ألفاظ اميركية مثل : يِس ، وتنكيو ، وفاري كود ، وغود نايت ، وغيرها . ولكنه احتمـل ذلك وهو يتمتم : مع آلامك يا يسوع . ما صبر الشدياق هذا الصبر إلا ليسمع من المستر توم اخباراً جديدة َبلَـغَـتـْهُ عنه . فقال الشدياق : تُومَـاه ، اية ساعة جئت .

ـ امس الظهر يا عمي .

فأجاب الشدياق : لا تؤاخذني ، ما قمت بالواجب . عذري واضح ومقبول .

ـ يس ، يس ، القصد مشاهدتك . الحمد لله شاهدناك بخير .

ـ كيف تركت جماعتنا ؟

ـ الجميع بخير ، يسلّمون عليك .

فنكزه واحد ووشوشه : قل وُيقبّلون أياديك الطاهرة . ففتـــح توما فاه ليقولها ، ولكن السبق كان للشدياق الذي قال : وكيف أحوالهم

---

١ ـ بساط من شعر .

الروحية والمادية ؟

ـ بالف خير ، صاروا شبعانين كلهم .

وسكت الشدياق وهزّ برأسه ، وظل يحرّك شفتيه ، ولكنـــه لم يقل شيئاً .

وأشار أحدهم على توما ان يخبـّر الشدياق عن الموارنـــة ويطربهم ففعل ، فقال الشدياق : ما داموا متمسّكين بمارونيتهم لا خوف عليهم .

ـ يس ، عندنا كل شيء ، كنائس ، مدارس ، خوارنة ، إذا رأيتهم حسبت انك في لبنان .

ـ عال .. عال .

وانقشعت الغمامة عن وجه الشدياق واخذ يتغنـّى متهللاً بنشيد مار مارون الذي يعرفه كل قروي ، فسانده الجمهور في تلك الرحلة الشاقة إلا توما فكان مثل الأطرش في الزفـّة .

وما انتهى الشدياق من نشيده حتى فتح توما فمه ليحكي،فاوما اليه الشدياق بجمع كفـّه أن يمهله لياخذ النفس . واخيراً قال توما : سمعتك عند وصولي تحكي عن الميـلاد ، آه يا عمي لو عينك تنظر هذه الليلة في النايرك .. هذي عندنا في النايرك وفي اوروبا ليلة عظيمة جداً . احسن الهدايا تقدم للاولاد ، سي ، الأغنياء يعطون الأولاد الفقراء كل شيء ، الماكولات ، الملبوس ، اللعب . آه لو عينك تنظر يا عمي،كل بيتيعمل شجرة تكلفه المبلـغ المرقوم ، وفي هذه الشجرة أشكال والوان . ثم هزّ توم رأسه وعامت على فمه لفظة فاري كود الكرسموس في امباركا .

فقال الشدياق : أيش دين هذه الشجرة ؟.

ـ هذه شجرة الكرسموس ، يعني الميلاد . يعلّقون فيها الملائكـــة والشموع ، والشريط من كل لون ، علب شوكولا وبسكوت وكاتو .

فقال الشدياق متعجباً : أسامي غريبة ! ولأيش كل هذا ؟ .

ـ اكراماً للميلاد .

ـ تبارك اسم سيدنا يسوع المسيح ، واصل خبره لهناك ؟ اذن في البلاد التي كنت فيها ناس تعرفه مثل الموارنة ؟

ـ يس ، يس .. معلوم ، كلهم نصارى يا عمي .

ـ هذا حد علي ، عال عال .

ـ يا ليتك تعرف كيف يتصوّرون الميلاد.

ـ هات خبّرنا، ولكن قوس حنكك مرتخ . شدّ البراغي واحكِ.

فضحك المستر توم وقال : تعوّدت اللغظ الاميركاني . ثم صرّ بوزه قليلاً وقال : يتصوّرون الميلاد شيخاً كبيراً لحيته لزّناره وشواربه شبر واكثر . يحمل على ظهره كيساً فيه الهدايا للاولاد العاقلين . فينام جميع أولاد الأميركان تلك الليلة منتظرين هدايا سانت كلوز « بابا نويل » الذي ينزل الى البيت من المدخنة ... وفي الصباح يكون تحت مخـــدة كل ولد منهم سكربينة جديدة ، فيها ملبس ولعب ، وأشياء وأشياء .

فهزّ الشدياق رأسه وصاح : يه ، يه ، يه ، صار الميلاد بيّـــاع سكربينات ! المسيح الذي قال: من لا يدخل من الباب فهو لصّ وسارق، ينزل من المدخنة ... ما شاء الله عن بلادكم يا ابني . كل شيء فيها ينمسخ. نعم ، كل شيء ... انت ، مثلاً ، رحت تومـــا ورجعت توم وتومي . وقال باستهزاء : تعرف يا مستر توم، حكاية الميلاد عندنا غير حكايته في

بلادكم . اسمع يا ابني حتى اخبرك :

ـ كان في ضيعتنا خوري اسمه الخوري نصر الله . كان متزوجاً وماتت خوريته بلا اولاد . والخورية مثل الصنوبرة ، اذا انقلعت لا تفرّخ ، كما تعرف . وهذا الخوري كان من اغنياء الضيعة الكبار ، وليس له اخوة حتى يأخذوا التركة . وهو في الوقت نفسه رجل تقي وعمّال خير ، يريد أن يوزع مقتناه على المحتاجين . كان يعظ يوم احد النسبة ـ اظن ان اميركا نسمّيك احد النسبة ـ هو الاحد الذي قبل الميلاد ـ كان يعظ يوم هذا الأحد ويوصي الناس أن يكونوا أتقياء ، ويسيروا بخوف الله لتحلّ عليهم بركة الميلاد . ثم ينتظر عتمة ليلة عيد الميلاد ليحمل كيساً من الدراهم الى عائلة فقيرة ، ولهذا كان يقول لهم ، من يعتقد انه يستحق بركة الميلاد فليردّ بابه رداً . وهكذا كان كل سنة يقصد بيتاً ليترك فيه الكيس لتلك العائلة . وبقي يعمل ذلك سنين . واخيراً عرف الناس أن الخوري هو الذي يحمل اليهم ذلك الكيس ، فصاروا يسلكون سلوكاً حسناً ، ويصلون الى الله لتحل عليهم بركته مع هدية الميلاد .

هذه حكاية الميلاد عندنا لا حكاية ميلاد أميركانك الذين صيّروا الطفل الإلهي لعبة اولاد . قالوا : ان اميركا فيها جنون كثير فما صدّقت لولا هذي الخبرية .

واندحر المستر توم في هذه المعركة فأراد فتح جبهة ثانية ، فراح يحكي عن جورج واشنطون وتحريره اميركا .

فصاح الشدياق ، وكان صدره قد امتلأ غيظاً : منو هذا جرج شنتن حتى تذكره وتنسى مار مارون؟ مار مارون حررك من عبودية

الطاغوت[1] . خرفت يا توم ، رجعت إلينا تلفان ، ما فيك شعرة من الموازنة .

وكان الناس يعجبون بحديث المستر توم ولكنه لما احتك بالشدياق سقط من عيونهم . وقال واحد : شخص مثل الشدياق حرام يموت.

ولما تقهقر المستر ثانيــــة في معركة الاشخاص ، راح يتحدث عن الاختراعات الحديثة فقال : اليوم اخترعوا آلة تحكي وحدها . مثــلاً : حديثنا الليلة ، تلقطه هذه الآلة وتراجعه لنا ساعة نريد .

فلم يزد الشدياق على قوله : الدنيا فيها كذب كتير .

فاستــاء توم وحلف للشدياق انه رآها وسمعها ، وكان نوى ان يحضر معه واحدة منها ولكنّــه جاء على عجل . ثمّ خبّــره عن الأوتوموبيـــــل والبالون فاستولت على الشدياق الدهشة وأصابه شيء كالذهول . وفتّــش عن منفذ فوجده فقال : ربما انها صحيحة وإلاّ فكيف صعد مار الياس إلى السماء في مركبته النارية ؟

وطـــــاب للسامرين أن يتحدّثوا عن الآلة المسمّاة بالفونوغراف ، والشدياق يسمع ولا يجادل ، وعيون الناس شاخصة اليه · وظـــــلوا مستغربين سكوته العميق حتى رأوه يحـل حبوته[2] ويتمدّد ويصيح : ضعف الضو يا مرتا ؟

ورأى الناس المصباح يزهر كما كان، ولكن مرتا رفعت الفتيلة ففاض النور ، وبعد هنيهة صاح الشدياق : مرتا الضو ضعيف يا جـــدّي ،

١ — المعتدي الظالم أي الشيطان .

٢ — ما يشتمل به من ثوب أو عمامة ، حل حبوته اي قام وقعد .

مخّطي[1] السراج ، صبّي الزيت .

وجاء دور النقل وأخذ الجمهور يتلهى بأكل التين المطبّخ والزبيب واللوز والجوز . كانوا يلغـون ويلغطون ، والشدياق مشغول عنهم في انحـلال جسده ، فهو يموت عضواً فعضواً . وكان المستر توم يفيض في التحدث عن عجائب امريكا والناس يصغون اليه مرتخية أفواههم .

وفي تلك الفترة قال الشدياق بصوت كأنـه خارج من قعر بئر : أين الخوري ؟

فاقترب منه الكاهن ، فقال له : أتت الساعة ، صلوا جميعاً لأجلي ، صلوا يا أخوتي ، اغفروا لي من أجل المسيح . حلني يا محترم[2] .

فوقف الخوري على سلاحه منتظراً اللحظة الملائمة واستحال البيت كنيسة . ركع الجميـع يصلون ويرتلون طلبة المنازعين ليعاونوا الشدياق على رحيله من هذه الدنيا . وبصوت يكاد لا يسمع رتّـل الشدياق وعيناه مغمضتان ، النشيد المريمي :

ان قلبي في هوى مريم　　　لم يزل مشغوفاً مغرم
يرجـو　فرجـــا　　　من　ثقـــل　الآثام

وانقسم الجمهور جوقتين مرتّلين ، وسكت الشدياق ولكنه ظـل يحثّهم بهزة الرأس :

جرّني عملي لقطـع الرجا　　　ولم يبق لي قط ملجـا
الا　　مريـــم　　　حصن الخلاص والنجا

١– انتزعي الجزء المحارق من فتيلته .

٢ – لقب لرجال الاكليروس الماروني اصطلح عليه العوام .

زيت الشفا بلسم النقا — خبز العبادة خمر التقي
يا سعد من في باب مريم التقى
تمام سعادتنا في الثبوت — بعبادتك حتى نموت
هاللويا[1] — ونحظى بالملكوت

ولم ينته النشيد حتى كان الشدياق قد انتهى ، فاستحالت السهرة مأتماً . وفيما هم يخلعون ثياب الشدياق ليلبسوه الثوب اللائق بمقابلة القديس بطرس ، عثروا على ورقة فيها وصيته ، فقرأها الكاهن على الجمهور :

١ ــ يهب مرتا ، بنت ابن أخيه ، بيته وما حوله من أرض وما فيه من متاع ، بشرط ان تاخذ ابن عمها متى .

٢ ــ يلتمس من غبطة البطريرك ان يحقق بعد موته ما حرمه اياه من حياته فتبنى كنيسة على اسم مار مارون وقد جعل لها وقفاً ضيعة أخرى بكاملها .

٣ ــ يقف ما بقي عنده من عقار على بناء مدرسة لاحداث الضيعة ، ومن ريعها يدفع راتب المعلم ليدرّسهم السريانية والعربية .

وأصبح الناس والشمس مكسوفة والضيعة في عتمة ، فارتفع الشدياق عندهم الى مرتبة الطوباويين[2] . وفيما هم ياكلون مادبة الميلاد التي أعدها لهم الشدياق قال واحد ، والكلام يزاحم الطعام : بعدما رحت ، تطلعت صوب بيت الشدياق فرأيت الملائكة طالعين نازلين

١ ــ عبارة طقسية تدل على الفرح العارم .
٢ ــ القديسون المنعمون بالسعادة الابدية .

من البيت .

وقال جاره : وأنا رأيت كوكباً طلع من البيت وحلّق ثم اختفى خلف الجبل .

وقالت إمرأة : طول الليل ونحن نسمع اغاني وتراتيل وصنوج[1] ونواقيس تدقّ في بيت الشدياق .

وقال الخوري : الشدياق قديس لا شكّ فيه ، فالشمس كُسِفَتْ مرتين مثل هذا الكسوف : مرة يوم موت سيدنا يسوع المسيح ، ومرة اليوم ، هنيئاً لنا صار عندنا قدّيس ، وهو وحده يغلّ لنا ويدر علينا اكثر من ألف وقف .

---

١ ــ صفائح مستديرة من النحاس تضرب احداها بالاخرى للطرب .

الأرملة مارينا

- ١ -

الأرملة « مارينا » من « عين كفاع »[١] . بيتها علّية[٢] مؤلفة من أربع غرف وبهو مسقوف بالقرميد ، والى جانبيه الشمالي والقبلي بئر وقبو . تواجه بوّابته كنيسة مار روحانا[٣] المشيّدة على انقاض برج قديم ، وفي ظلّها تتفيأ المقبرة النائم فيها من رقدوا بالرب على رجاء القيامة .

أما عين كفاع فقرية متواضعة ، قائمة على رابية بين الجبال ، تطلّ على البحر من الجهة الشمالية ، حيث يمتد نهر شتوي طويل متعرج ، تتناوح حوله شماريخ الجبال فتكاد تتصافح ، وتتفكك سلسلة ذلك المنظر الرائع عند جسر المدفون[٤] . وفي الجبال المنتصبة حول عين كفاع مغاور عديدة مُفتّحة الأشداق كحناجر المظلومين .. اشهرها مغارة

١ – قرية في بلاد جبيل ، (مسقط رأس المؤلف) .
٢ – طبقة علوية في مسكن .
٣ – شفيع قرية عين كفاع .
٤ – جسر بين جبيل والبترون .

سيدة القطّين[1] التي كانت ديراً للحبساء الابرار في ذلك الزمـــان ، ولا تزال آثاره قائمة في قلب ذلك الصخر ، تلقي على الذين يقصّرون دروساً وعبراً .

وأمام القرية، شرقاً ، ينبسط سهل صغير مقعّر يسمونه «الوطا»[2] ، كله أشجار زيتون يتخللها تين وسفرجل واجاص ، وأدواح سنديان وعفص وبطم تتعرّش عليهـا الكرمة ، فتغني الملاّكين عن القلال[3] . ويلتفّ الوطا ، قبلة ، حول القرية فيتّصل غرباً بواد يمتدّ حتى يتّصل بالنهر الشتوي الذي كأنما سموه المدفون لاختفائه بين الجبـــال حتى تكاد لا تراه .

فعين كفاع ، كما رأيت ، جزيرة بريّة لا يدخلها قادم الا من الجهـة الشرقية ، فكأنها حصن طبيعي . وبيت جرجس يوسف عبود ، زوج مارينا ، ثاني بيت تراه إذا دخلت القرية من بابها الشرقي الشمالي . اشتراه جرجس ورممّه فصار من بيوت القرية المعدودة . موقعه جميـل ، على كتف الوطا . وكان جرجس ميسوراً فأنفق عليه أموالاً كثيرة ، فجدّد شباب التوت – رحم الله عهده – واعدّ قسماً لزراعـــة الدخان المثلثة الرحمات .

وما استراح جرجس من اعماله حتى تتالت عليه المصائب والبلايا ،

---

١ – مغارة حوّلها المؤمنون معبداً في فجوة من الجبل تدعى القطين. ودرج اللبنانيون على تسمية كل مغارة قطيناً .

٢ – مكان منخفض من الارض .

٣ – أعمدة ترفع بها الكروم .

فلم ينعم طويلاً بهذا البيت ، فكأنما اعدّه ليموت فيه . توفاه الله فجأة صباح عيد الميلاد منذ سنين ، بعد وفاة ابنه يوسف الشاب بثلاثة أشهر ، فترك زوجاً ارملة لها بنون وبنات قاصرون وقاصرات .

وكثيراً ما علّل الناس ، في القرية وجوارها ، مصائب جرجس ونكباته ، فعدوها من عجائب العذراء ـ عليها السلام ـ فبيت جرجس وما يتبعه من عقار كان وقفاً لها فاشتراه من بكركي[1] بعثسات الليرات الصفراء الرنانة

السيدة « ضيّقة » يقول أهل القرية ، فكم أماتت من ابقار وغنم ومعزى وحمير رعت العشب من ارضها ، وسركيس الكريدي مات محروقاً لأنه كان يزعج وكيل وقفها ـ الخوري يوسف مسرح ـ ويطالبه باسترداد عقار ابيه وجده الذي اغتصبه الوكيل المذكور وضمّه لأملاك السيدة .

أجل ، لقد نكبت سيدة البياض[2] قرية عين كفاع الهادئة بمصائب جمة ، منذ وطئت ارضها اقدام هذا الخوري . لقد اقلقها في حياته ، وازعجها في مماته . فنكبة مارينا الأرملة التي ترى ، مأثر هذا الكاهن التي لا تحصى ، وسجلات محاكم كسروان والبترون وبعبدا على عهد المتصرفيّة حافلة بالدعاوى التي أقامها المحترم على أهالي القرية ، ولم ينج منها الاّ نفر .

عفاه رستم باشا برسوم خاص من الرسوم ، فأخذ يقيم الدعاوى بلا

---

١ ــ مقر البطريرك الماروني شتاء ، على مقربة من جونية .

٢ ــ كنيسة في بلاد جبيل .

رويّة ، فتساق الناس إلى دوائر الحكومة . وليس أبغض الى القروي الهادىء المطمئن من رؤية جندي يبلّغه دعوة الى محكمة. أمّا الخوري يوسف مسرح فما يهمّه ؟ فرسه عنده ، عليقها من كيس الوقف ومرعاها زروع القرية ، ومن يردّها عن زرعه يزور غزير[1] ، وينام في « بيت خالته » . وهكذا قضى الخوري حياته في كسروان والبترون وبعبدا وبكركي وبيروت وحريصا[2] ، لأن دعاويه كانت تتناول حتى رئيسه الروحي ، بطرك الموارنة ، فلا تراه إلا على فرسه رائحاً جائيـــاً على سيف البحر . وأخــــيراً ركب البحر ابن سبعين ليبلغ شكواه الحبر الاعظم بابا رومية .

- ٢ -

ما انسلخ جلد الليل وانشقّ الفجر حتى كان الحمار وعليه خرج[3] من الجنفيص بباب مارينا ، وكان أولادها اليتامى يروحون ويجيئون واحداً إثر واحد . هذا يحمل الرداء ، وتلك الحذاء ، وذاك كيساً، وتلك صرة، والمكاري يحشو بها الخرج مراعياً التوازن بين عينتيه، وكلما وضع قطعة هز رأسه آسفاً .

---

١ – بلدة لبنانية في كسروان. وكانت آنذاك مركزاً للقضاء.
٢ – بلدة لبنانية في كسروان .
٣ – وعاء يوضع على ظهر الدابة .

وبعد هنيهة أطلت مارينا من البوابة بوجهها الكالح[1] الجعّد وقامتها الطويلة النحيلة ، عليها فسطان اسود بسيط طويل فضفاض مشدود على خصرها النحيل ، فوقفت على عتبة البـــاب كأنها تتذكر إذا كانت ناسية شيئاً من عدة السفر ، فما وقـــع بصرها على المقبرة حتى صرخت بملء فيها .

ـ على من تركتني يا جرجس ؟ قم وانظر مارينا على طرقات البحر ، من يعول اليتامى يا جرجس ؟ من يفضّ المشاكل يا جرجس ؟ يا ويـلي ! أنا امرأة أرملة ، مسكينة ، كلمتي غير مسموعة . من يخلصني يا ناس ، من يخلصني ؟ يا يوسف ، قم وانظر أمك كيف صارت ، الله يبـــلي الذين بلوني ، يا ضيعان التعب ! عشرين سنة في امـيركا قضيناها حتى نرتاح في آخرتنا . اين الراحة ؟ اشترينا الهم والتعب . راح المـــال والرجال ، راح المال والرجال يا حسرتاه يا ذلي !

فجاء أهل القرية جَرْدْ العصا[2] على هذا الصراخ الشاذ ـ وفي القرى يستيقظون باكراً ، والتمّوا على صراخ مارينا ، الذي لم يسمعوا مثله إلا يوم اصيب ابنها يوسف الشاب بنوبة أخذته ، ويوم مات زوجها جرجس فجأة بعد ولده يوسف بثلاثة اشهر .

رأوا مارينا مصروعة ، فتجمعوا عليها يسعفونها . ودواء من يغمى عليه في القرى رقعة تحرق ، فأفاقت مارينا وهي تردد :

ـ يا عذرا ، يا عذرا ، يا عذرا ، الله ينتقم منك يا ...

---

١ ـ الكالح : عابس ، مكشر .

٢ ـ الجميع بلا استثناء .

جلد ۷

فاخذ الناس يهدّئون ثورتها ويصبّرونها على بلواها ، وهي تثور كالقدر الهائج قاذفة اللعنات بالمئات والألوف من قلب مقروح . ولما شفت نفسها همدت ، فقال لها المكاري :

- قومي يا مارينا ، تعالي يا ست ، الله يرضى عليك ، النهار شبر ، لا نَصِلْ الى جبيل قبل غدا الرهبان[1] .عجّلي، قومي ، راحت الغدوة . أيش ينفع الصراخ هنا ؟ صرّخي عند سيدنا البطرك . الله معــــك . يالله قومي .

فما فاه المكاري بكلمة سيدنا حتى ازرقّ وجه مارينا وفـــاض على لسانها ما امتلأ به قلبها ، وأعادت الكرة فامتلأ الجو سباباً وشتائم ...

وكان بين الناس شيخ جليل يتعكز على عصاه ، في قلبه إيمان كثير ، ووجه طافح بالطاعة المارونية ، فغاظه ما سمع ، فقال لمارينا :

- اسكتي يا بنت ، لا تسبّي الرؤساء.

فاقبلت عليه مارينا وانطرحت أمامه على الأرض صارخة :

حقي يا عمي ، حقي ، حقي ضاع يا عمي جناديوس .

فتغرغرت عينا ذلك الشيــخ ، وبعد أخذ ورد ، أقنعوها فركبت الحمار دامعة ، فالتفت الشيخ بالحاضرين وقال : ما هذه الأيام التي وصلنا اليها ؟!

وتوقع الجمهور ان يقول جناديوس أكثر من هذا فلم يزد ، وسار في طريق بيته .

ما تقدمت مارينا بضع خطوات حتى قاقت الدجاجة ، فصاحت :

---

١ - موعد غداء الرهبان وهو الظهر تماماً .

هش .. ولوت عنقها صوب بيتها توصي أولادهـــا بالإنتباه للدجاجات والبسّة والخروف ، ثم أدارت وجهها صوب الشمال توصي إبنتها رشيدة لتنام مع اخوتها ، إذا لم ترجع مارينا من سفرتهـــا في تلك الايلة ، وسارت تبكي .

وبعد خطوات أخرى أوقفت الحمار ولم تلتفت لأنه صعب المراس ثم صاحت :

– يا رنسيّة ، بيعو الدخان إذا جاء الحواط ، ولا تخلوه ينقّيه. وما بلغت الوطا حتى صاحت :

– اوخ . نسيت الأوراق بالبيت ، حنا بحياتك ارجـــع عني أو انتظرني ، فعاد حنا يتذمّر من رفقة النسوان ، وجَلَب الصكوك وكل أوراق المرحوم جرجس ، ولحق بمارينا في منتصف الوطا .

وكانت مارينا قد انضمت الى بعض مكارين ذاهبين الى جبيل، بندر تلك الناحية ، فاخذت تقص عليهم أخبـــارها وتحدثهم عن مصائبها وبلاياها ، مفتخرة على أيوب ، وهي لا تدري من تلوم ، وأخيراً أطلقت قنبلتها فاصابت شظاياها الجميع ـ من مارون الى خليفته الجالس على كرسي أنطاكية[1]

وفيما هي مشغولة بالحديث أرخت من رسن الحمار ، فسكّ[2] بها فصاح المكارون بصوت واحد : مار شليطا ، مار شليطا[3] !

١ – بطريركية انطاكية وسائر المشرق .

٢ – تعثر .

٣ – قديس .

فما هوت مارينا الى الأرض ، واستوى الحمار وتابع سيره ، ومضت مارينا في حديثها كأن لم يحدث شيء مما كان ، والتفتت بالمكارين فاذا هم يضحكون وأيديهم على أفواههم ، فكظمت غيظها ، ولم تقل كلمة بل تنهّدت طويلاً .

- ٣ -

ركبت السيارة من جبيل بعدما بدّلت ورافقها أخوها زخيا في هذه الرحلة ، فما تحركت السيارة حتى رسمت مارينا على وجهها إشارة الصليب وتوكلت على الرب يسوع .

وبعد مسير مئتي متر أطل تمثال سيدة مرتين[1] فصلّبت مارينا يدها على وجهها وصلت الأبانا والسلام ، ثم قالت :

– سفرة موفقة يا ستي السيدة ، لك مني كعب زيتون في وطا عين كفاع نذر حلال زلال .

والتفتت الى زخيا وقالت :

– ما قولتك يا زخيا ، هل تتحنن قلوبهم هذه المرّة أم يصيبنا مثل كل مرّة ؟

وانقطعت عن حديثها فجأة لأنها واجهت هيكلاً آخر هو كنيسة مار زخيا ، فمار زخيا[2] شفيع الغرقى ، ومارينا غارقة في بحر هائج ،

---

١ – تمثال في كنيسة لبنانية .

٢ – قديس .

فبسملت وصلّت كالعادة ، الأبانا والسلام ، ثم قالت لأخيها :

ـ قرفت الصلاة يا زخيا ، ما رأيك بسفرتنا هذه المرة ؟

فَهَزَّ زخيا رأسه وقال لها :

- انا نبي ؟! التدبير عند الله يا اختي .

وأخذا في الحديث ورفيقهما الراهب يَسْتَرِقُ حديثهما ولا يفوه بكلمة بل كان يهز رأسه حيناً بعد حين ، ويسرّح بصره في البحر المعرَوْرِف[1] ، تارة يفتل شاربيه وطوراً يمشّط لحيته باصابعه ، ولشدّ ما كان دَهِشُ الراهب عندما استوقفت مارينا السائق بحركة غريبة ، فصاح الراهب :

ـ أيش بك يا بنتي !

فقالت مارينا : مار ضومط[2] يا محترم ، أنا ناذرة أن أصلّي راكعة أمام صورته ، ربّي الهمني أن مار ضومط يساعدني ، ولمار ضومط فضل على زوجي شفاه من « العصي » .

وانبطحت مارينا أمـــام صورة مار ضومط على السكّة تصلّي بعين دامعة وقلب جريح ، ثم ناجت مار ضومط بصوت مسموع :

- بحياتك يا مار ضومط، كملها معنا، ولك منّي ما تريد، وانحنت فقبلت عتبة صومعته الصغيرة، وألقت فلسها في صندوق النذور وعادت الى السيارة ، فقال السائق :

- خلصنا يا ست ؟ فأجابته :

---

١ — المرتفع الامواج .

٢ — قديس .

- إن كان الله قبل ، سق .

فتحول الراهب من السيارة بعد أن قال لمارينا :

- رزقك الله حسب نيتك يا بنتي ، ثم فتح صندوقة النذر واخذ ما بها وحاسب السائق ووضع ما بقي في جيبه ، وقال وفقكم الله .

وسار صعداً الى مار ضومط القريب من الصومعة ، فهو رئيس ذاك الدير الذي يجترح قديسه العجائب ، فهو اختصاصي بمرض العصبي ، اختصاص مار شليطا بالبهائم ، وقزحيا بالمجانين. واستأنف السائق السير ، أمّا زخيا فظلّ يتبع الراهب بنظره حتى دخل الدير ، فهزّ رأسه وتنهّد . وبعد بضع دقائق أطلّ تمثال سيدة حريصا العظيم فقال زخيا لاخته .

- سيّدة حريصا يا اختي !

فقالت مارينا : يه ! وبسملت بعجلة وصلّت صلاة غير خفيفة .

- ٤ -

وصلت مارينا وأخوها زخيا قصراً عالياً يشرف على البحر تكتنفه أشجار الصنوبر ، وأجراس قبّته المثلّثة تقرع كلّها ، فسأل زخيا عن السبب فاجيب : عيد جلوس سيّد القصر المغبوط ، فلم ترق لمارينا هده الصدفة ، وعند تحوّلهما من السيارة في ساحة القصر التقيا بكاهن كهل قصير القامة بدين ، نظّارتاه سوداوان ، فتقدّمت منه مارينا وحيّته قائلة :

- الحمد لله يا معلمي .

فأجابها : دائماً لله يا ابنتي . وفيما هي تقبّل يده قال لها :

- كيف حالك ، وكيف حال أولادك ؟ فأجابت بانكسار :

- بخير ، بصلاتك ودعاك يا محترم .

أمـــا زخيا فسـّلم على الخوري هازاً يده .. وكان بينهم ثلاثتهم حديث ثم تفـرّقوا .

وتقدمت مارينا من البوابة تريد الدخول فمنعها البوّاب قائلاً :

- لا اذن لكم اليوم ، اليوم عندنا مندوبو الحكومات ورؤساؤهـا وأعيان البلاد ووجوههـا . قالوا لك أمس ما قالوه ، فماذا تريدين منهم اليوم ؟

فأجابت مارينا :

- أريد إمّا مالي ، وامـّا عقاري . أطلب حقـّي .

- لا اذن اليوم .

- مالي هنا ، حقـّي عندكم .

- قلت لك لا إذن ، روحي إلى المحكمة .

فادهش زخيا ما رأى ، فوقف مسبوعاً ، ثم اقتحم البـاب حتى كاد يشاجر البوّاب ، فخافت مارينا لما رأت الشر في عيني أخيها ، فتعلّقت بردائه وأخذته وابتعدت مرددة :

- مليح ، مليح .

أمّا البواب فهزّ رأسه وأقفل البوابة .

وظل زخيا يتمشـّى ذهاباً وإياباً . أما مارينا فوقفت إلى جـــدار

الكنيسة تسمع القداس من وراء الحائط كأنها يهودية إزاء جدار الهيكل في أورشليم .

وبينما كان الشمامسة يرتّلون في الداخل :

ـ مستعدٌّ قلبي يا رب ..

كانت مارينا تتمتم في الخارج :

ـ اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نحن نغفر لمن اخطأ الينا . ولكن نجّنا من الشرير ..

- ٥ -

كان القداس « احتفالياً صارخاً »[١] ، شمامسة يسبّحون وكهنة يترنّمون وأحبار يرتّلون . ألفاظ خليط من السريانية والعربية ، واهتزازات أصوات لا يقام لها وزن ، فلا يسمع من الخارج إلا دندنة ، ولا يفهم من كل ما يقولون إلا الخاتمة ـ هللويا كيرياليسون[٢] .

وأجالت مارينا يدها فأخرجت من عبّها سبحتها الطويلة « الوردية »[٣] والتصقت بجدار الهيكل جهدها لتدنو من المذبح ويفي قداسها .

---

١ ـ فيه تراتيل بأصوات مرتفعة وزينة طقسية .
٢ ـ عبادة كنسية للتسبيح : يا رب ارحم (يونانية) .
٣ ـ سبحة طويلة مؤلفة من خمسة عشر بيتاً .

ومضت ساعة على انتصابها فأعياها التعب ، فقرفصت ووجهها للحائط . ومرّت ساعة ثانية ولم تنته « الرتبة[1] والقداس » فرنق[2] النوم في عينيها ، فبدت لما بها من يأس ، كالنمرة الهامدة . امّا أخوها زخيا فجلس على صفّة تجاه البوّابة ، يرقب النوافذ علّه يرى من يعلمه إذا كانت مقابلة غبطته ممكنة . وبعد انتظار طويل لمح كاهناً يعرف وجهه، فجرّأهُ عليه ما ذكره من حديثه مرة عن قضية اخته ، فهذا الكاهن قال مرة : ان مارينا تطلب حقاً صراحاً لا صدقة ، فتقابل بعنف وتطرد ، وقضيّتها قضيّة وقف وأيتام وأرملة ، كلها منوطة بذلك المقام لا سواه .

فسأله زخيا عن « المواجهة » ، فهزّ كتفيه ، ثم فكر قليلاً واجاب : لا أظن . ثم تحوّل عنه ، فانتقل زخيا مغيظاً ، ودنا من اخته مارينا فسمعها تغمغم كمن في حلم ، فتردد في ايقاظها إلا ان الضجر والسأم حرّكا يده فهزّ أخته فصرخت :

ـ بحياتك يا سيدنا .

استيقظت مارينا مضنوكة كمن أفاق من غيبوبة ، وأخذت تفرك عينيها متنهّدة ، فما صدقت انها ترى أمامها أخاها زخيا ، وما هدأ روعها حتى قصّت عليه حلمها الرهيب ، واليكه ملخصاً :

رأت البطريرك الحويك ، ودار بينها وبينه حديث « قضيتها » ، فخبّرته أن المحكمة أزالت يدها عن العقار وهي لا تدري إلى من تلتجيء.

١ ـ مجموعة صلوات وقراءات واناشيد دينية مرتبة لإقامة احتفال طقسي معين.

٢ ـ اختلط .

وبعد حديث غير قصير توارى البطريرك الياس عن نظرها في الضباب.

ورأت مارينا انها في الكنيسة بين المصلّين وراء غبطة البطريرك ، وبعد هنيهة رأت شخصاً عملاقاً ضخم الجثة ، عبوساً ، عريض الجبهة مجعّدها، انفه مروس معقوف كمنقار الطير ، مرتخي الشاربين ، معتدل اللحية ، قليـــل الشعر تحت العثنون[1] ، يلبس رداءاً مقوّراً عند العنق ، لا ياقة له ، قصير الاكام يبـدو منه الذراعان ، وهو مزنّر بقد[2] ، وفوق الرداء جبّة فضفاضة ، والدم يفجر من وسطه كأنه نبع غزير يتدفّق .

خرج هذا الشيخ الجبار من « السكرستيا[3] » كأنه جاف ، وتنهّـد وتأفّف ، فأطفات زفرتـــه الشمع ثم انقلبت الشماعدين،وارتجفت الأيقونات ، وتحرّك الصليب ، فذعر الجميع أيما ذعر . انشلّت حركة الطقسيّـات[4] وابتعد الناس عن الخورس[5] ، وتالبوا على بعضهم في صحن الكنيسة كقطيع غنم جافل ، وهرب الذين استطاعوا ، يدفـــع بعضهم بعضاً ، وعلا الصراخ ، وارتجف الشيوخ ، كأنما أصابتهم البرداء .

أما الشيخ الراعب فسدّد يده الى المتقدمين في الأخوة ، وقـــال لهم كلمات قليلة جداً ، تذكرت مارينا انهـــا سمعتها يوم الأحد في كنيسة

---

١ – اللحية او ما ينبت منها تحت الشفة السفلى وفوق الذقن .

٢– قطعة من جلد .

٣ – حجرة في الكنيسة تحفظ فيها الثياب البيعية والادوات الكنسية والكتب الطقسية (لاتينية) .

٤ – الاحتفالات الدينية .

٥ – مكان مرتفع في الكنيسة ، يوجد فيه المذبح الكبير .

الضيعة ، عندما تلا ابراهيم ملحم « الريش قريان »[1] ، فخالت ان الكنيسة تقضقض لتتهدّم ، فخافت جداً ، فإذا البطريرك الياس يلوح لهـــا من بعيد ويصرخ بها : لا تخافي .

فصاحت مارينا بكل قواها : بحياتك يا سيّدنا .

وانقطع خيط حلمها ، كما تقدم ، عندما أيقظها اخوها زخيا .

فشبك زخيا يده بيد أخته وقال لها :

ـ لا نتيجة لنا هنا يا اختي ، لم يبق قدّامنا إلاّ روميـة إذا أردت . الحقائق لا تصح فكيف الاحلام ..

فصاحت مارينا : رومية ! إذا كان مع ابناء العرب مثلي لم اسلك ، فكيف مع الطليان ؟ يا الله ، يا الله .

ثم سارت مع اخيها تولول قاذفة الدعوات الخيرية ، ولما صارت بـين يدي بيوت غادير وحارة صخر[2] اسكتها اخوها زخيا .

٦

رجعت إلى جبيل مع أخيها فرأت كاهناً تعهده يعـــبّر الرؤى ، فتذكرت حلمها المزعج وقصته عليه ، فسمعه المحترم بكل اصغاء ، ولما انتهت القى عليها اسئلة كثيرة يسألها غالباً معبرو الاحلام . وبعد تفكير

١ ـ كتاب طقسي يضم قراءات مختارة من الكتاب المقدس تتـلى في اسبوع الآلام .

٢ ـ اسم بلدة من ارباض جونية .

هنيهة خالتها مارينا دهراً ، غرز الخوري يوسف الزناتي اصابعه في لحيته طويلاً ، فلاحت ثناياه من شفتيه المقلصتين ، ثم انتزعها وتنهـــد كمن اثقل صدره وضيـق نفسه همّ ثقيل :

ـ أما الشيخ الكبير يا بنتي فهو النبي اشعيا يهدّدنا بالويل كما تهـــددّ ملوك بني إسرائيل وأحبارهم . وأما الكلام الذي سمعته فاظنه هذا :

« ويل للـّذين يشترعون شرائع الظلم،والذين يكتبون كتابة الجور ليحرفوا حكم المساكين ويسلبوا حق بائسي شعبي،لتكون الارامل مغنماً لهم وينهبوا اليتامى »

فصاحت مارينا وقد تذكرت تلك الكلمات :

ـــ نعم نعم ، أنت نبي يا محترم ، والنتيجة ؟

فردّ الكاهن هازئاً آسفاً :

ـ النتيجة .. النتيجة .. النتيجة يا بنتي عيب علينا . صلـّي للعذراء مريم واشركي نيـّتك مع نيـّة الكنيسة . قدّامنا احتـــلال روماني ، والطوفان قريب .. الله ينجـّينا .

وانصرف الكاهن . وخابت مارينا في حلمها خيبتها في يقظتهـا ، ثم تغلغلت في سوق جبيل .

ركبوه العجل

ــ ما أكبرها مصيبة يا أم سليم .

منصور أول فلاّح خبير بتنقية الاشجار ، كأنه تعلّمها في مدرسة. يبني الحيط علو ثلاث قامات وطول يوم الجوع كأنه مخطوط بالميـل . إذا دخل القرش عبّه لا يقدر أحد أن يخرجه منه . خبس مؤبد . أمس طلب منه أخوه خمسة قروش فقامت قيامته . كان جوابه : من يكسر حق الفدان[1] ؟ حق الفدان مثل مال الوقف ، لا تقرّبوا صوبه.

فاجابتها أم سليم : هنيئاً لك يا أم منصور . ولد ممتاز ، يسوى ألف تلميذ مدرسة ، مثل إبننا . إبننا لا يهمّه إلاّ صقل شعره وفرقه يميناً وشمالاً ، يقف قبالة المرآة ساعة ، ساعتـين ، والله يعلم متى ينتهي . إذا قلت له انقل الحروف من الشمس نظر إليّ نظرة تفزع . كأنّـه يريد أن ياكلني بعينيه .

وبعد أن دقّت على ظهر جارتها أم منصور دقات عنيفة صاحت بها: طيّـبي خاطرك يا اختي ، إبنك ممتاز. جدّه ما كان متعلماً وأملاكه نصف الضيعة . لا تتاسّفي على العلم .

---

١ ــ ثور يستعمل عادة للفلاحة .

ولكنّه من ناحية ثانية يا أم سليم ، يضحك عليه أصغر ولد . يصدق كل ما يقوله له . أعلّمه كل يوم ولا يتعلّم . صدّقيني ، إذا قلت لك : فكري يرافقه أينما راح . أخاف عليه من أولاد الحرام .

فقالت أم سليم : ما دام لا يفرّط بقرش فخوفك في غير محله .

فتنهّدت أم منصور وقالت : وضَحِكْ الناس يا مستورة!! . راح الخنّوص وجاء الخنّوص[1] .

وما فتحت أم سليم فمها لتجيب حتى كان ابو منصور منتصباً بالباب كالمارد يردّد حديث زوجته ، مقلّداً نبرة صوتها وحركاتها قائلاً : وضحك الناس يا مستورة راح الخنّوص وجاء الخنّوص . والخنّوص مستغنٍ عن الكبير والصغير . إشكري ربّك ، عندك ابراهيم يسطو على طابور ، وعندك خليل ينزع الدبس عن الطحينة . وعندك جميل مثل البدر . أم منصور يا أم سليم ، تريد أولادها مثل بعضهم ، والناس لا تكون شغل فبركة . إذا كان منصور لا يصلح للديوان،فهو اكبر معلم في سَوْقْ الفدان والبيت يلزمه كل شيء .

فتنهّدت الأمّ وقالت : منصور مصمّم على الرواح وحده لمشترى الفدان .

فصاح أبو منصور : من غير شر . يروح ويرجع مثل السبع .

— اقنعه حتى تروح معه .

— إذا ترّجاني وباسها ـ وأشار إلى يده ـ وجهاً وقفا ، رحت معه ، وإلا فليذهب وحده أهي سفرة إلى أميركا؟يعرف الناس والناس تعرفه.

١ـ ولد الخنزير ، تقال بالعامية للتحبب .

– وهنا البليّة يا رجل . خف ربك .

– ومتى مت من يروح معه ؟! إتركيه .. الإنسان لا يتعلّم إلاّ من كيسه .

وبينما كانت الأم والجارة والأب يتحاورون كان منصور على المصطبة قدّام الباب سابحاً في احلام الشعراء يتأمل البقر تحرث الحقول ويتفتت قلبه حسرات . ندم لأنه كسر فدانه ، ولم تقع عينه بعد على عجل يماشي البقرة الباقية عنده . جمَعَ قواه العقليّة وأخذ يقلّب المشكلة على جميع وجوهها ، فما وجد أمامه إلاّ حلّين : إمّا أن يبيع البقرة ويشتري زوجاً ملائماً ، او أن يفتش أيضاً فلعلّه يجد . فتأفّف وقال : تأخّرنا ، فات الفوت . أملاك الضيعة كلها تضحك وكرومنا معبسة . لا يضحّك الأرض غير السكة . خيرات البشر على أكتاف البقر . طغاني الشيطان وكسرت فداني . الحق كله على خالي . ثم حرق على أنيابه وأعاد العبارة شاداً على كل كلمة : كل .. الحق .. على خالي .

ودخل البيت فاذا بوالده يقول له : امس كان الحق على عمك واليوم على خالك ، وغداً على من ؟

لم يجب منصور على تهكم والده ، ولكنه قال لأمه : اليوم عملت مثلما قلت لي .

فتمتمت الام : مصيبة . مصيبة جديدة . خير ان شاء الله . هات خبرنا .

فقال منصور: كنت مقيّلاً تحت الزيتونة الكبيرة في الوطا[1] وكلبنا

---

١ – اسم يستعمل للاماكن المنخفضة من الأرض .

بارود نائم حدّي . وجاء « كبّر عقلك » اي الناطور .

ــ مرحباً منصور .

ــ مرحباً عمّي فنيانوس . أهلاً وسهلاً . تفضّل . تفضّل .

وما استراح ومسح عرقه حتى قال : يا بارك الله ، خروفك سمن .

فقلت له : أي خروف ؟ فأشار إلى الكلب وقال : هذا .

قلت له : هذا خروف يا عمّي فنيانوس .

فقال : كبّر عقلك يا منصور . يا حيف عليك ، لا تعرف الخروف؟

فقلت له : هذا كلبنا بارود ، وأنا ربّيته جرواً .

فقال : كبّر عقلك . ماذا يقول الناس إذا عرفوا أنك تخلط بين الكلب والخروف ؟

فَحِرْتُ في امري وكدت اصدق ولكني تذكرت كلمتك: لا تصدق قبلما تجرّب . فقلت لفنيانوس :

وهذي الأذن أذن ايش ؟

فأجاب : والو ، اذن غنم .

ــ وهذا الناب ؟

ــ ناب غنم .

وهذا الصوف ؟

فهزّ رأسه وقال : غنم . كبّر عقلك .

ولما ضاقت حيلتي أمسكت بذنب الكلب فكشّر عن أنيابه ، فقلت له : وهذا الذنب ذَنب أيش ؟

فقال لي : ذنب غنم يا منصور ، قلت لك كبّر عقلك .

ولمّا عجزت عن إقناعه ، وكدت أنا أصدق أنه غنم ، قلت في نفسي ما بقي إلاّ حجر واحد ، أضربه يا ولد بالجوزة . وكان فنيانوس فطن للعبة ، فوقف ينفض ما علق من التراب بذيل شرواله استعداداً للذهاب . وما خطا خطوتين حتى صحت بالكلب : امسكه بارود . واخذ « كبّر عقلك » يركض والكلب يركض ، وأنا أصرخ : كبّر عقلك لا تهرب هذا خروف .

يا ليتك كنت حاضرة . كانت ضحكة لمن يضحك .

فضحكت الأم بملء فيها . وقد أعجبها انتصار ابنهـــا ، وتضاحك الأب . وقد ارتاح الى تقهقر فنيانوس أمام ابنه منصور ، فقال لزوجته: تهنيك السلامة . لا يهمك شيء . ما على قلب منصور شر إذا راح وحده ليشتري العجل .

وعصارى ذلك النهار بارح منصور البيت متوكئاً على عصا زعرور ذات عقد كان يسمّيها عصا الكلاب . وشرع منذ خرج من الضيعـــة يسأل كل فلاح يمر به عن عجل علوه كذا وصفته كذا . وكل فلاح يرشده الى ما رأي وشاهد .

المهمّة صعبة فقلّما يبيـع فلاح ثوره في بدء الربيـع . لا يباع إلا العجل الذي فيه عيب . وهذا لا يريده منصور ، فأخذ يردّد في طريقه: بعنا عجلنا لأنه ينفخ على الأولاد الصغار ، فمن يدرينا اننا لا نشتري عجلاً ينطح الكبار ! حقيقة ان مسالة شراء العجول مسالة دقيقة .

ووقف هنيهة يتأمل سوء المصير ويحسب للمستقبل الف حساب . ثم مشى وهو يقول : الدنيا قسمة ونصيب . امش يا صبي ، ما احـــلى ما

يقدّر الله . وبعد ساعات بلغ مفترق الطرق فتحـــير اين يذهب،الى جاج[1] ام الى مشمش[2] . وبعد استراحة قليلة على العين أكل نقرة ممـــا زودته به امه ، وحاول أن يشرب فلم يستطـع لأن قامته القصيرة جداً لا تكفي للانحناء فوق الجرن الكبير وبلوغ رأس النبـع ، فالتفت يمنـة ويسرة، وإذ لم ير احداً شرب من الحوض ومشي ، فعلت نحنحةوقهقهة من احد البيوت ، فمشي ولم يلتفت .

ودخل قرية جاج قرب الغروب يسأل عن العجل المطلوب ، فاراه السمسار عدّة عجول ، فأعجبه واحد منها ، ولكنّـه استغلاه ، فـترك جاج قاصداً ترتج[3] .

أمّا فلاحو جاج فقعدوا يتحدثون ، فقال احدهم : غداً يرجـــع صاحبنا ومعه عجل مخايل بطرس . هذا مشتر وهذاك بياع . فلا أقل من أن نتسلى ونضحك . خسرنا البيعة . فلا أقل من أن نربـح السلوى . غداً الأحد ، لا شغل ولا عمل ، فكلما مرّ على واحد منا يحدثه عن العجل انه حصان ويبارك له فيه .

وقعدوا صباح الأحد ينتظرون عودة الخنوص ، وإذا به مقبل قرب الظهر . يقود عجلاً أسود اللون ذا قرنين معقوفين ، في جبهته نكتـة بيضاء . كان منصور يقوده معتزاً معجباً بما اشترى وكانه يقود جواداً أصيلاً لا عجل بقر . فحيّـاه أول واحد ببرودة ، وقال له : كنت قلت يا شاطر انك طالب حصان كنّـا أريناك عشرين حصاناً ، وكلها أحسن

١و٢ — بلدان في منطقة جبيل .

٣ — بلدة في منطقة جبيل .

من هذا . هذا حصان مخايل بطرس ، آه . فهز منصور برأسه ومشى ، وما خطا بضع خطوات حتى وقف آخر في طريقه وصاح بـــه : الله يوفقك ، حصان مخايل بطرس أصيل . ولكن فهمنا منك انك تطلب عجلاً لا حصاناً. ما عليك لوم، الانسان يغيّـر فكره عشرين مرةبالساعة.

فضحك منصور وتمشى . فاذا بامرأة تقول له : اركب يا شب، تقود الحصان وتمشي. ثم نبرت كمن أفاق من غفلة وقالت:الحق معك الركوب قلة احترام للضيعة ، كلّـك لطف ، مع السلامة .

وبلغ ساحة القرية فلقي رجالاً كثيرين ، شيوخاً وكهولاً وشباباً فاستوقفوه . وتساقطت عليه الأسئلة من كل فج : كل واحد يبدي رأياً ، هذا يقول : لو كان اشترى حصان مرهج كان أرخص وأحسن . وآخر : هذا نصيب .. السر في التوفيق . وأخذوا يطوفون حول العجل ، هذا يمتدح محاسنه وهذاك يذكر بعض عيوبه . وأخيراً قالوا كلمتهم المعروفة: مسهار خيل ، أي وسط . وباركوا لمنصور فيـــه من كل قلبهم ، فمضى في سبيله .

وتربّـصوا لمنصور في ظاهر القرية ليروا ماذا يفعل متى غاب من الأبصار .

أمّـا منصور فطفق يغربل أقوالهم فقال في نفسه : مستحيل ان يكذبوا كلهم . ووقف قليلاً يتأمل العجل فقال في نفسه : عجل جميل ، نعم ، إنه مثل الحصان ، أما انه حصان فهذا بعيد . ثم مد يده الى احـد قرنيه وقال : ما رأيت بعد حصاناً له قرون .

وإذا بشيخ من وراء الحيط يقول له : كم حصاناً رأيت في حياتك ؟

الخيل أشكال يا ابني ، إيّاك ان تنغشّ وتبيعه على أنه عجل . هـــذا حصان ، مؤكد . الخيل تفلح مثل البقر . لا تندم .

ومشى منصور على خيرة الله ، وتذكر وصيّة الوالدة : لا تصدّق ما لم تجرّب . فقال في نفسه : ماذا نخسر اذا جربنا .

وتذكر حادثته الطريفة مع «كبّر عقلك» الناطور فتجرّأ وضحك. ومشى وهو يتلفت خلفه ليرى إذا كان لا يراه أحد . ولمّا استوثق من الوحدة ، قرّب العجل من حائط على جانب الطريق ونط . ولكن .. ما رؤي على ظهره حتى كان بين أرجله ، وهو يعركه بقرنيه .

وأقبل المتآمرون لمؤاساة ضحيّتهم . وللقرى ما للدول صليب أحمر ، فتفرقوا فرقـــاً ، هؤلاء يسعفون منصور المهشّم ، وأولئك يركضون وراء العجل الشارد ، إلاّ واحداً لم يات عملاً غير وقوفه عنـــد رأس الخنّوص وقوله : الحق معه .. هذا عجل .. التجربة أكبر برهان .

وعظة يونا اسطفان

فغال[1] قرية لاطية في لحف جبل ، تنظر اليها من عين كفاع[2] فلا ترى إلاّ قبّة كنيستها الشامخة ـ اليوم ـ كأنها اصبع جبارة تومىء بها الى الاعالي . أمّا بيوت القرية فمستكنّة في ظلال الأشجار صيفاً شتاء ، ولعلّها القرية اللبنانية الوحيدة التي لا ترى بيوتها الشمس بالمرة حين يقصر عمر النهار .

ولو درجت العادة ان تعطى قرية الوسام الزراعي لاستحقّت قرية فغال أرفع النياشين . انها غزيرة المياه ، فكأن عيونها أنداء تدرّ للقرية خيرات كثيرة ، وتنعش أشجارها المتلازة فتعيش متعانقة متآخية لا تعرف الانقسام الطائفي ... فاللوزة تعانق التينة والزيتونة حد المشمشة . والتوت ، رحم الله أيام التوت ، قائم بين هذه كلها والبحر ترقص امواجه قبالة الضيعة ، فتضاحكها راضية ، وتتوعّدها وتهاجمها من بعد ، غاضبه .

إذا سرْت في هذه الضيعة الغابة تلتبس عليك الطريق ، ولا ترى

١ ـ قرية في منطقة جبيل .

٢ ـ قرية من بلاد جبيل ، مسقط رأس المؤلف .

بيتاً من بيوتها المظللة بالاشجار المختلفة حتى تطا عتبته . أهل قرية فغال عاملون قانعون يتقون الله ، شعارهم : على قد بساطك مد رجليك ، لا ينفقون فوق طاقتهم . فأكره ما يكرهون الدّين ، ولذلك تراهم دائنين لا مديونين، يحبّون الأرض ويتكلون على كرمها فيحرثونها ويسقونهامن الينابيع المتفجرة من صدر الجبل الناتئة قريتهم في حضنه ، ومن يتّكل على الأرض لا يبتعد عن خالقها .

انهم ككل أبناء القرى يتّكلون على السماء . فاذا لم تمطر رفعوا اليها أبصارهم واستسقوها مصلّين مبتهلين ..ان بدعـــة المطر الاصطناعي لم تعث بينهم ولو حدّثتهم عنه لأجابوك : لا نريده غصباً عن الله . أمّــا السياسة فلهـــا اخصّاء يسمّونهم زعماء . فهؤلاء يروحون ويجيئون ويعيشون على هامش المدينـــة ليكونوا سفراء القرية . وهم يسمّونهم لبطالتهم مهندسي طرقات.وقد يبطر واحد من هؤلاء ويطغى فيستحيل حاكماً بامره إذا تعرّف بأصحاب النفوذ . يتقرّب من المسؤولين ليستبد بالأهلين المساكين . والزعامة عند هؤلاء محل قومسيون نقّال ، وغالباً ما تكون في ذلك الزمان ، في بيت خوري الضيعة لأن تحت جبـــة كل اكليريكي ، كبيراً كان ام صغيراً ، حاكماً مستبداً .

واذا تغلغلت في قرية فغـــال بدا لك في رأس الضيعة بيت ضخم بالنسبة إلى البيوت الأخرى المتواضعة . فهو مؤلف من ثلاث غرف قائمة لصق بيت طويـل عريض ، ينام سقفه الخشي على قناطر معمّدة . في هذا البيت الواسع يسهر جمهور القرية شاتـــين مصطلين بناره التي لا تطفأ ، لأن في هذا البيت تنام قفّة عظام ليلاً نهـــاراً . عجوز تسعينية

عقلها وحواسها كاملة وإن كانت ملامحها غير قابلة الوصف .

أمّا الغرف فواحدة يسمّونها الصالون ، وان كانت لا تتسع لعشرة أشخاص ، والثانية لمنامة الخوري البتول وحده . وهذا الخوري مديد القامة كبير الهامة لا يقل تكعيب هيكله عن ثلاثة اذرع معمارية . لا يتزنّر على خصره بل تحت إبطيه ، لأنّ كرشه يحتاج إلى حبل جمل .. . وكان زنّاره عرض اصبعين حتى لا ينطوي فوق كرشه .

كانت تنام مع هلّون العجوز بنت بنتها ، الست لوسيا ، الأرملة الشابة . كانت تداعب جدّتها ولا تبالي بزواجر أمها . وكانت الجدة تحب هذه البنت حبّاً جمّاً رغم شيطنتها ، وتستجيب لأكثر رغباتها . فاقبلت البنيّة على جدّتها تطلب منها حكاية المساء كما عودتها كل ليلة ، فقعدت البنت على حافة فراش ستّها وأصغت تنتظر الحكاية العتيدة .

ولكن هلّون كانت مضطربة تفكر بعواقبها الأربع : الموت والدينونة ، والجحيم والنعيم . وفيما هي منتظرة وصول الواعظ الشهير الأب اسطفان البنتاعلي ، نادت بأعلى صوتها المرتجف : يا خوري بطرس، واين صار بونا اسطفان ؟

وشخصت عينا هلّون إلى الباب لأنها كانت تستدل على مجيء الخوري بطرس من العتمة التي كانت تسبقه وتنتشر رويداً رويداً ثم تسد الباب لأن الخوري كان عملاقاً ضخماً بلا جبّة فكيف به اذا تنقل في كانون ؟ وبعد هنيهة دخل الخوري ليقول : أبونا اسطفان صار في عين كفاع . واليوم ختم الرياضة . والليلة يكون عندنا . إفحصي ضميرك جيّداً .

فقالت هلّون : يهمّني أن أسمع وعظته اولاً ، وبعد ذلك افحص

ضميري وأعترف واتناول .

فقال الخوري : أظن انك عارفة أن الليلة ليلة البربارة[1] .

ـ وكيف ! معلوم عارفة .

فطوّقت كاترين عنق ستها وقالت بغنج صبياني بريء : فاذن يا ستي احكي لي حكاية البربارة .

ـ تكرم عيونك ولكن بشرطين : أولاً ان تقولي سيرة القديسة بربارة ، وثانياً ان تتلشي لأن بربارة قديسة ، ولا يجـوز ان تسمعي سيرتها وشعرك منبوش مثل الجنية . اسم الصليب وذكر الصلبان .

فأخذت البنت تتلم وتتوقّر ، وتترصّن ، وأرهفت اذنيها للسمع ، وبدأت هلّون بقصة القديسة بربارة . وغادر الخوري المكان .

والتفتت البنت إلى ستها مستغربة خروج عمّها الخوري حين بدأت ستّها بالحكاية القديسة ، فقالت العجوز : عمك يا بنتي سمعها في السنكسار[2] اربعين خمسين مرة . ما لك وما له ، اسمعي انت .

بربارة يا بنتي قديسة كبيرة ولها اعظم اكرام في الكنيسة . أبوها وثني اسمه ديوسقوروس . كان يحبّها جداً لطباعها الكريمة وجمالها . رباها في حصن منفرد حتى لا تقع عليها عيون الرجال .

قالت البنت : وكيف قدرت عاشت ، وحدها ، يا ستي ؟

فقالت الجدّة : عاشت وحدها لأنها ما كانت مثل بنات اليوم . وفي الحصن أخذت تتأمل في الدنيا وشكّت بآلهة ابيها وآمنت بالمسيح

١ ـ عيد طقسي لقديسة تحمل هذا الاسم .
٢ ـ كتاب سيرة القديسين .

له المجد .

فقالت البنت : قلت يا ستي انه رباها وحيدة في حصن ، فمن دلّها على المسيح ؟

ـ الهام ربّاني . تقبريني يا شاطره ! بس اسكتي ولا تقاطعيني . ولما بلغت ، أراد ابوها أن يزوّجها بأمــير من امراء البلد فرفضت ، وطلبت منه أن يبني لها حماماً فبناه وامر أن تفتح فيه طاقتان، فأشارت هي ان تفتح فيه ثلاث .

وقالت البنت : ما الفرق بين الثنتين والثلاث طاقات ؟

فاجابت هلّون : على اسم الثالوث يا بنتي ، لا تكثري السؤالات . القصّة طويلة حتى تخلصها قبل وصول بونا اسطفان والهيلجي .

رسمت القديسة بربارة إشارة الصليب على عمود رخام بالحمام فأثرت أصابعها به ، وظل رسم الصليب عليه . ثم اخذت تكسر أصنام والدها وتبصق عليها . ودرى أبوها بعملها فهبّ ليفتك بها بسيفه ، فهربت من وجهه وركض خلفهـا . وكانت في الطريق صخرة تسدّها فانشقت الصخرة حتى مرقت بربارة ثم عادت الصخرة الى حالها كأنها لم تنشق .

فابتسمت الصبية كاترين ولحظت العجوز ذلك فقالت لحفيدتها : آمني يا ابنتي ، لا تشكي بعجائب الله . ثم تابعت سرد حكايتها : ودار ابوها الدورة فوجد بعد التفتيش ان بنته بربارة مختبئة في مغارة فضربها بقساوة وجرّها بشعر رأسها إلى بيته . ثم قادها الى الحاكم ، ولكن الحاكم لاطفها لأنها أعجبته . ووعدها وعوداً كثيرة إذا كفرت بالمسيح وسجدت للاصنام . فلم ترض لا بكثير ولا بقليل . ولما عجز الحاكم عن ردها الى

دينـه ، وهو دين أبيها ، أصدر أمره بتعذيبها . فجلدوا جسدها الطاهر فامتلأ جراحات .

وأجهشت البنت للبكاء فقالت جدتها : اصبري يجيئك الخـــبر . والبسوا بربارة ثوباً من شعر، والقوها في حبس الدم[1] فظهر لهــا المسيح وعزّاها . وشفى جراحها .

فاطمان قلب البنت كاترين حين شفيت بربارة . امّا الجدة فقالت : وفي ثاني يوم قدمت للحاكم فامر أن يمزّقوا جلدهــا بأمشاط حديدية ، وأحرقوا خواصرها بشموع وقطعوا ثدييها .

فصرخت البنت ، فجاء عمها الخوري وقال لهلّون : لا تفزّعي البنت بحكاية البربارة .

فقالت هلّون: يه ، أنت خوري ووكيل بطرك وتقول:لا تفزّعي البنت بحكاية بربارة ! أهي حكاية يا خوري بطرس ؟

فاستضحكت كاترين وقالت هلّون : ما وصل بونا اسطفان ؟

فقال الخوري : بونا اسطفان على الطريق. بحياتك لا تفزّعي البنت.

فعقدت هلّون نونتها وازداد وجهها تجعداً وقالت : لو كانت البنت في القداس ألا تسمــــع السنكسار ؟ انا ما زدت ولا نقصت . والتفتت بكاترين وقالت : وصلنا عند قطعوا ثدييها وساقوها عريانة في أسواق المدينة والجلادون يضربونها بالكرابيج ، فابتهلت الى الله فسترها بثوب من نور فلم يعد أحد يبصر عريها

وأخيراً حكم الحاكم مرسيانوس بقطع رأسها. فاستأذنه أبوها بذلك،

١ - سجن المحكوم بالاعدام .

فأخذها الى الجبل القريب وهناك قطع رأسها بيده .

فصاحت البنت : أمّا والد وحش . ديب كاسر . ستي، كيف حفظت السنكسار مثل كرج الماء ! فصرّت هلّون اصابع يدها اشارة الانتظار فأصغت البنت وقالت الجدة : وبينما كان الوالد القاسي راجعاً الى بيته وثيابه مصبوغة بدم الشهيدة البتول ، أرعدت السماء بغتة وانقضّت عليه صاعقة ومات . وبعد ايام قليلة مات الحاكم فجأة .

فصاحت البنت : آهيك . وقالت هلّون : ولذلك يصلّي الناس للقديسة بربارة كيلا يموتوا بغتة بلا اعتراف ومناولة . البربارة سلام الله على اسمها عجائبها كثيرة . منها ان رجلاً كان متعبّداً لها، ولما احترق بيته وأحاطت به النار صرخ يا قديسة بربارة ! فجاءت اليه حالاً وهو على آخر رمق فسترته بثوبها وحمته من النار ، وظل حياً حتى اعترف وتناول ودهن بزيت المسحة وفاضت روحه .

وما أنهت هلّون حكاية بربارة حتى سمع حداء الغوغاء في القرية:

هيلجي بربارة والقمح بالكواره[1]

فقالت هلّون : سمعت يا بنتي هذا الاحتفال ؟ هو تذكار طواف بربارة عريانة في شوارع المدينة . واقترب الغناء ودخل المعيّدون بيت الخوري وخلفهم صبيان القرية وشبابها ، وهم يصرخون :

هيلجي هيلجينا ايش ما كان عندك عطينا

وتقدم « المسوّد[2] » يرقص عند فراش هلّون ويهتف :

١ — مستودع صغير للحبوب .

٢ — تحريف شعبي لـ (هيلجي) من احتفالات عيد البربارة المقنعة .

شيحا فوق شيحا صاحبة البيت مليحا

فصاحت هلّون : اعطوهم وبحبحوا .

ودخل الخوري بطرس وهو يقول : عجّلوا روحوا ، جاء المحترم بونا اسطفان . لك البشارة يا ست هلّون !

فهتفت هلّون : الله يبشرك بالخير ، ويرزقك آخرة صالحة .

ودخل المحترم بونا اسطفان الصالون بقامته المربوعة يتغربل ويتدحرج كأنه برميل سنموره . لون وجهه أسود ولا يعرف من ثوبه إلا اذا ابتسم . فلو كان علمانياً لكان « مسوّداً » بلا صبغة . وعاد الخوري بطرس لاستقبال الواعظ في القاعة ، ودار بينهما حديث هلّون العجوز وإنها تنتظر بحرارة ، تريد ان تسمع وعظ بونا اسطفان .

فقال المحترم : وكيف أعظ امرأة بمفردها ، وماذا اقول لها ؟

فقال الخوري بطرس : الكلام الذي يدور على لسانك .

فقال الأب اسطفان : قولوا لها تستعد . أنا حاضر .

فنادت هلّون بنتهـا لوسيا لترتب فرشتها وتساعدها على الجلوس جلسة لائقة بكلام الله وبكهنوت الواعظ الجليل . وبعد هنيهة دخل المحترم البيت يتوكا على عصاه الأبنوسية ، وأعطى هلّون يده فقبلتها ، ثم ابتدأت المعركة البتراء[1] ، وما قال حضرته :

حصاني كان دلال المنايا فخاض غبارها وشرى وباعا

حتى ضربت هلّون صدرها تلتمس شفاعة القدّيس التي تخيّلته . وكاد الخوري بطرس يقرض شفته السفلى المندلقة من شدة العض عليها

١ — من جانب واحد .

ستراً للضحك ، وتابع المحترم :

وسيفي كان في الهيجا طبيباً يداوي رأس من يشكو الصداعا

فاشتد القرع وتحمست الشيخة وقد أخذتها بلاغة الوعظ ، فقال لها خوري الرعيّة : توقّ صدرك ، قتلت حالك يا بنت الحلال . ولما قال بونا اسطفان :

ولو ارسلت رمحي مع جبان لكان بهيبتي يلقي السباعا

امتلأت هلّون ايماناً ، وظنت انها اذا قالت للجبل انتقل ينتقل . واقعنسس[1] المحترم وازداد كرشه نتوءاً حين رفع عقيرته وأنشد مسك الختام :

إذا التنين هرول من أمامي يظن البحر باعاً أو ذراعا

وكان يشد على هذه الكلمات : حصاني ، وسيفي ، ورمحي ، والتنين. فرسم بذلك الصورة الواضحة التي أراد طبعها في مخيلة هلّون. واقترب من العجوز وصلى على رأسها متمنياً لها خلاص نفسها .

وجاء حفيدها طانيوس شقيق كاترين يسأل جدتـــه عن موضوع الوعظة فأجابته : والوْ ! خمنتني[2] خرفت ... مَن مِن القديسين راعي الحصان ، وحامل سيف ، وناقل رمح، وقاتل التنين ، غير مارجرجس؟ يقبرني حصانه ، وسيفه ورمحه . نسيت يا ابني ان صورته على الليرة الانكليزية ، خذ تفرّج عليه وحطها بعبك .

وهمّ طانيوس بإخبارها ان ما جرجسها هو عنتر عبس ، فنكزه

---

١ – تأخر وتراجع .

٢ – حسبتني .

خوري الرعية الذي حضر تمثيل الرواية المؤلمة ، فامسك عن الكلام. وقال الخوري وهو يلملم أذيال جبته استعداداً للخروج : ايمانك أحيـــاك يا ست هلـّون .

فأجابته متهللة : الحمد لله ، قبل الرب طلبتي ، فما مت قبلما سمعت كلام الله من بوز[1] بونا اسطفان .

فقال الخوري : حظك كبير . ثم خرج وهو يتمتم : الكنيسة القريبة لا تشفي

---

١ ـ فم بالعامية .

طبيبُ امرأته

أبصرت أسما أم شاكر قادمة فهتفت بها من بعيد : صحيح أن إبنك تزوّج من المدينة ؟ أين كان عقلك لما شاورك ؟

فابتسمت ام شاكر ابتسامة مريضة ، وقالت : ولكنـّها لطيفة جداً يا ست أسما .

فصفّقت الأميرة كفاً على كف وصاحت: مغشوشة أنت. مغشوشة. امهلي حتى تحط رجلها في الركاب . الله لا يغرّك منها . وقعت يا شيخة.

ومدت الست أسما يدها تصافح أم شاكر ، وانطوت عليها توشوشها. امتلأت نفس الشيخة شكاً فسارت في سبيلها واجمة تفكر . ثم انقشعت غمامة سوء الظن فقالت بصوت مسموع ، لا عرس بــــلا قرص . متى عرفت الست أسما كل هذا ؟

وكأنها في تلك اللحظة قد اهتدت إلى الحقيقة فصاحت : شهادتهـــا مجروحة . كانت عينها على شاكر وخاب أملها . وما اطمأن قلبها قليلاً حتى عاودتها حمى الشك فقالت: ومع ذلك من يدري ! ربما كانت تعرف شيئاً عن أمها ، عن خالتها ، عن عمتها ، أمّا البنت فمسكينة . عمرها سبعة عشر . وما تاهت أم شاكر في مجاهل الظنون هنيهة حتى هبّت

الذاكرة لتجدتها ثانية فقالت لنفسها : لا يجيء على أبيه وأمه غير الغراب.

وما سري عنها حتى بدت لها امرأة أخرى تضاحكها من بعيد وهي تهتف : ساعة مباركة يا شيخة . ثم هزّت برأسها ، فاصفر وجـــه أم شاكر . تهيأت لاستقبال صدمة جديدة ، ولكن هذه قالت : اشكري ربك على هذه النعمة . أنت عشت حتى زوّجت المحروس ، أمّا أنا ، يا حسرتي ، فمن يدري ؟

فاطمان قلب أم شاكر وقالت : الله كريم يا ام يوسف . قالت هذا وراحت تجيل عينيها في غضون وجهها فلم يبد لها شيء غـــير التهنئة البريئة ، فحمدت الله ومضت بسلام .

السماء تتوّعد وتتهدّد، غيوم تحشد على حدود اليابسة إعلاناً لحرب عوان ، فكل ما على الأرض يرتجف ويرتعد ، والغنم هرولت الى المراح بدون إذن الراعي .

دخلت أم شاكر بيتها وأسرجت[1] ،فالظلام سريع الخطى،والسنديانة تتماسك قـدام بيت الشيخ حين تزعزعها العاصفة . ومصاريع الأبواب تصطك كانما البيت مصاب بالبرداء ، والسراج يحرّك ألسنته كانه يهزأ بالزوبعة .

وكان الشيخ قابعاً في الزاوية فقال لزوجته : دبّي للنار بالحطب . فشبّت النار وقعدا يصطليانها[2] . ومـــا افتتحا الحديث حتى انقضّت

---

١ — اضاءت السراج .

٢ — يتدفآن بها .

صاعقة هزّت البيت ، فهتفا بلسان واحد : قدّوس . قدّوس. قدّوس[1] .

الغيم يكبّ ما في جيوبه ، وخيول البرق تتراكض يطارد بعضها بعضاً فتخترق صميم قلب البيت وتشع فيه شعاً. الصواعق كخيل الطراد وأبو شاكر وزوجته يصدّانها عنهما بالقدوس والبسملة .

ونقلت السماء رحى حربها إلى الجنوب فقال الشيخ : ترى يخدمنا الحظ ونرمّم هذا البيت ؟ فكان الجواب صوت صاعقة قاما لها وقعدا . ثم تلتها واحدة أخرى غير مزمجرة ، فاطمأن ، وأشار بيسراه قائلاً : بعيدة عنا .

فاجابت الأم : ومن يدريك انها بعيدة عن ابننا ؟

فاجاب ابو شاكر ساخراً : دائماً ابنك .. صار ابنك حكيماً ، وتقولين ابني ابني . كان ما في الدنيا أحد غير ابنك .. قولي : تعبنا ولقينا . قولي غداً نفك الرهن ونوفي الدين . العروس غنيّة .

فتنهدت الأم وقالت : هربنا من الدب وقعنا في الجب .

فصوّب ابو شاكر نحو ذقنها شباة انف ابن حرب[2] ، وأشار بهزّة رأس وغمزة عين : خير إنشا الله .؟

فاطرقت الشيخة وراح الشيخ ينظر اليها ويبرم شاربيه ويفتلهما بيديه الثنتين . ولما استقرّت عقارب الساعة على العشرة وعشرة ، وأبطأت عليه الجواب نكمها نكمة كادت تقلعها وصاح : قولي لي أي دب وأي جب ؟ ابنك وحيد يا مستورة .. آهي مصيبة اذا تزوج ..

١ – قدوس – نعت لله تعالى ، وهو أيضاً بدء نشيد كنسي .

٢ – اعرابي اشتهر بطول انفه .

ما تزوجت انت ؟ ما تزوجت انا ؟ ولكنها قصة الحماة والكنة ...

فاجهشت ام شاكر وقالت ، وهي تجر الكلمات جراً : عندك للسر موضع ؟ فاستضحك ابو شاكر حتى ابدى نواجذه[1] وصاح : هـذا آخر زمان .. الحرمة تسأل زوجها إذا كان عنده للسر مطرح .. نعم عندي ، وحق العضرا مريم،عندي قبر لا بئر . فحدّقت إليه كأنها تسأله بعينيها الكتمان فصاح ثانية عندي جهنم الحمرا ، قولي يا بنت الحلال .

فتنهّدت أم شاكر وقالت : خبّرتني الست أسما أن عروس ابننا ترقص على الحبلين . قضت عمرها مع هذا وهذا.

فصاح الرجل : الله المجير من لسان النسوان . أهي بنت خمسين حتى تقول الست اسما عنها « قضت عمرها » ؟ وقبل وبعـد انت كم سهر عندك من شب ؟ كان بيتكم يفرغ ويمتلي كل ليلة عشر مرات .. واخيراً كنت من نصيبي ، وكنت من خير النساء .

ثم استضحك وامسك طوقه بيده ونفضه قائلاً : هذا اذا لم اكن مخدوعاً .

فابتسمت الام نصف ابتسامة واستطرد هو قائلاً : كان يجب ان تفهمي يا ذكيـة ، ان جناب الست أسما كانت منتظرة ابنك . فحدقت الى وجهه مستغربة كلامه ، فحملق وكزّ قائلاً : نا .. عم . اذا كانت هي بنت مير فابنك دكتور وابوه شيخ الضيعة .

وفيما هما يتناطحان زحفت المياه في صحن البيت فهبّا يطاردانها . كان الشيخ ابو شاكر يسوق الماء صوب صحن الباب ويقـول :

١ — اضراس اربعة .

هذي آخر سنة . وعد الصبي بهدّ البيت وبنـــاء بيت يليق بالشيخ والدكتور .

فقالت الأم : انا لا اطلب إلا ان يكون حظي ببنت أو ادم .

فصرخ الأب : عـــدت الى نغمتك الأولى ... اشطفي . اشطُفي . مسّحي وقولي : الله يرزق الست اسما ابن حلال مثل ابنكْ .

وراح الشتاء وجاء الصيف . أقبل العروسان على الضيعة فكانت في دار الشيخ ابي شاكر أيام وليلات جرى فيها النبيذ وسال العرق . كانت تهـب من كل فنجان زوبعة دعوات للدكتور وعروسه . وكان الدكتور وأبوه يردون الكيل كيلين.أمّا العروس فكانت غريبة عما يدور حولها. كانت تجهل الكثير من عبارات القرية وأجوبتها،فتنبري حماتها للجواب رادة عنها هجمات من يقصدون لها امتحاناً لزلاقة لسانها . كانت عـــين الحماة على كنتها تروزها، وكانت الكنـّة مسرورة سروراً يخالطه شيء من الازدراء . ادرك الدكتور ذلك فامتعض ، أما ابوه المستأسد في الستـين فما كان يدرك شيئاً أو لا يبالي قط بمـــا يدور حوله . ينفخ من أنف كالكير ، وينظر بعيني نسر عتيق ، وينطق بصوت أعرض وأحدّ من صوت الببغاء : شباب ، كاس العريس . اشربوا . ابن كذا وكذا كل من لا يشرب . يا نسوان ، كاس العروس .. كاس سعادتك يا ست اسما شرفتينا ..

فابتسمت الاميرة وشربت كاس الشيخ والعروسين فاجابها الشيخ : وطول عمر سعادتك .

كانت العروس تعجب بفتوة عمها الجبار، تهابه وأن ازدرت هندامه العتيق ، تتحاشى مصافحته لأن اصابعها الدقيقة تضيع في يـــده الروادنية[1] .

ثم انقضى الصيف وانطوى بساط ليالي أفراحه البلدية ، وعـــاد الطبيب وعروسه إلى المدينة ولم تبحث مشكلة الديون قط .. فشاكر كان يفر بزلاقة كلما استدرجه والده الى ذلك ، فضرب الشيخ ابو شاكر لدائنيه موعداً جديداً ، ولكل أجل كتاب .

ومرّ الخريف وبات الزيت في خوابيه[2] ، وهبط الشيخ الى المدينة ليشتّي عند ابنه الدكتور ، وكم كانت دهشته ودهشة امرأته عظيمة حين قيل لهما : هذا بيت الدكتور شاكر .

اعتز الشيخ وكاد يخرج من ثيابه وقال : هذا بيت ... ولكن كلمة طائشة هاجت النمر. سمع ابو شاكر بنت الجيران تقول لأمها: جبليّان، رجل وامرأته . فحوّل ابو شاكر نحوها وجهه الفرزدقي[3]،وأراها عينيه الكبيرتين المحمرّتين ، وصلعته البرّاقة فوق حاجبين غليظين، وشاربين كقرني الكبش ، فاقشعرّت وتوارت في بيتها ترتعد ، وهمّ ان يطاردها في عقر دارها ، فامسكت أم شاكر بذيل شرواله وانكسر الشر .

وانشقّ الباب ودخلا بالكد .. ولكنهما رأيا دنيا غير دنياهما. كراسي خيزران لامّعة ومقاعد مخملية ارجوانية أين منها مقاعد الخيش المحشوة

١ – الكبيرة (تعبير قروي) .

٢ – اوعية فخارية يجمع فيها الزيت .

٣ – نسبة الى الفرزدق الشاعر المعروف بضخامة وجهه.

هشيماً وقشاً والجللة بالشيت الرخيص . أوانٍ ، أشكال والوان ، يجهل الشيخ والشيخة عنها كل شيء حتى اسماءها ، فكان ارتباك زال بعد حين. كان الاستقبال حاراً ساعة القدوم السعيد ثم أخذ يفتر رويداً رويداً حتى صار بارداً مثلوجاً بعد اسبوع . مُسّت عزة ابي شاكر ، لأنه لا يحب الوجوه الجامدة .. قضى العمر شيخ شباب ولا يريد ان يموت إلاّ شيخ شباب .

ــ شاكر .

ــ نعم بابا .

ــ لا بابا ولا بطرك ..

فضحك الدكتور وأجاب : ولا خوري ولا مطران .

فعبس أبو شاكر وقال : ابتدأت تهزل معي ؟ إوعَ هَهْ . العين لا ترتفع فوق الحاجب .

ــ أمرك لا تواخذني .

فصمت هنيهة ثم قال : بنت الطيّان[1] لو كان عندها مال قارون لا ترتفع على بيت بو شاكر . كأنه ما عندها علم ولا خبر عن جدّك وجد جدّك ؟ بنت من هي حتى تتأبى علينا .. بنت طيّان ولو كان المال فوقها وتحتها . اسمع يا ابني ما قالت القدماء : زوان بلدك ولا القمح الصليبي[2] .. أكنت بلا عينين لما نقّيتها؟ . وجه أحمر مثل قفا السعدان .

١ ــ عامل في الطين .

٢ ــ نوع من القمح الممتاز .

تضحك منّا بنت الكلب كلما لفظنا القاف وقلنا هادا وما قلنا هيدي مثلها . وحق الذي قال لها كوني فكانت ، نهار غد أطرح أملاكي بالمزاد . الله لا يردّها عن يد بقرة سودا مثلها .

ورنّت في أذن أبي شاكر قهقهة فانتفض كالعقاب ، ولو لم يقف ابنه بالباب لدخل غرفة العروس وانتهى كل شيء . .

وتعلّق الطبيب بابيه يتملقه ويسترضيه : مصّ القصب عقدة عقدة يا شيخ . فكشّر ابو شاكر وصاح : هذي قصب ؟ هذي عظم على مزبلة

قال هذا وانتفض كالملدوغ ، وبعد أن أطرق قليلاً ، أخذ امرأته بيدها وهو يومي برأسه : قومي . وخرجا دون أن يودّعا . ولما ابتعدا قليلاً قال لزوجته : العوض بالله ، خسرناه يا أم شاكر ، ابنك ما في يده شيء . صار جحش المره[1] . يخرب بيتها ، كلّها شبر وعندها هذا الفعل . دحروجة[2] تقود رجلاً طول المارد . ولكن البيت والمال لها ، ويا ذل رجل يأكل من تحت يد إمرأته .

بنت الحرام كانت تغطس عندنا في الدجاج والسمك واللحم ، أمّا في بيتها فتطعم الناس بقانون . لا تنتظري الكرم من ناس يفتحون بابهم ربع فتحة . وابنك التنبل أي إكرام قدمه لوالده ؟ لا أحوج الله والداً إلى ولده . لو أنفقت على نبش النبع نصف ما صرفت عليه كنت اغتنيت . لو كنّا غرسنا أرضنا زيتوناً ولوزاً وتفاحاً لكان عندنا الآن

١ ـــ اي المرأة هي الآمرة والناهية .

٢ ـــ دحروجة : مدورة لكثرة سمنتها .

محصول يغنينا ويغنيه عن التلوث بالمرضى . ولكن أين المرضى ؟ قعدنا عندهم جمعتين ما نظرنا وجه مريض ، ولا استدعاه احد . ابنك طبيب مراته .. أما كان أحسن له ولنا لو بقي في الضيعة ؟

ثم وقف وأخذ ذراع امرأته وهزّها هزّة تعتعتها وقال : يفرجها ربك يا أم شاكر . كنت آكل اللقمة من قلب السبع ولا أزال بقوّة الله .

فتنهّدت وقالت بعين مكسورة وقلب منسحق : ولكن البيت مرهون .

فضرب أبو شاكر صدره وصاح : ولكن أنا مفكوك ، تسلم اميركا.

فشهقت وكادت تسقط ، فتلقاها بيده وقال : أنا وأنت يا مجنونة !

فصاحت وهي تشهق : لا أنا ولا أنت . نموت هنا ، ولا نضيع في الغربة كما ضاع اخوك في بر البرازيل .

وبلغ الشيخ والشيخة الضيعة فامتلأ البيت بالمسلّمين . وبعد أيام عاد الدائنون الى الحاحهم فقال لهم أبو شاكر باباه : أبو شاكر لا يوطي نفسه للنسوان . لا قامرت ولا صاحبت ، ولا سكرت . ركبني الدين لسببين : نبش النبع وتعليم ابني . لا النبع طلع ولا الصبي نفع ، خذوا الخشبة التي فوق رأسي واريحوني ..

فهزّت كلمته أحدهم فقال : نمهلك سنة وسنتين ، وبدون فائض[1] يا

---

١ — فائض : فائدة .

شيخ ، ولا نخرب بيتاً للسيف والضيف .

فتنفش أبو شاكر ، ومدّ يده إلى شاربيه ، فعادت عقارب الساعة الى العشرة وعشرة بعدما كانت تشير إلى الثامنة والثلث، وجاءت القهوة فشربوها وانصرفوا .

وظلت الايام والشهور تمر بلا جدوى،واخيراً قضي الأمر وطرحت عقارات الشيخ فبات صريع الهم في الليل وأسير الذل في النهار ، يؤلمه ان يسمع من كانوا يخدمون ضيوفه يقولون : بيت الشيخ مطروح بالمزاد ، ماذا ينفع العلم الذي يخرب البيوت ؟

وكان يجن جنونه كلما وقعت عينه على تلك الوريقات الملصوقة على أبواب الكنيسة والدكاكين ، محددة موعد المزايدة في عقار الشيخ. وقعد عصارى آخر يوم من ايلول يفكر كيف يخرج من مضيقه ، فلم يلح له بصيص أمل فتنهد وقال بلا وعي : فرجك قريب يا رب .

وما كاد ينتهي من دعائه حتى ماد به البيت. سمع طقطقة على السطح أشبه بوقع حوافر معزي تركض فاستبق وزوجته الباب ، وما أطلا حتى سمعا قرقعة انهيار الجدران هنا وهناك . رأيا الغبار يتصاعد والأرض تميد ، فسقطت زوجته على الأرض مذعورة ـ فصاح بها : لا تخافي ، الدنيا تنهز ولا تقع .

وسارت الهزّة الأرضية في سبيلها وراح الشيخ يتفقّد جدران بيته، فرأى العيب في واحد منها فقعد يناجي ربه وهو بين الباكي والضاحك: أهذا فرجك يا رب ؟ طلبنا منك الفرج فزعزعت أركان البيت ..

وما انتهى من معاتبة ربّه ومحاورته حتى أقبل عليه الناطور

صائحاً : البشارة لك يا شيخ . عوض الله عليك وطلـــع النبـع . والله العظيم نخن بوز الجرة .

فالتفت الشيخ إلى زوجته وقال : صدقت . قلت لك كنت آكلها من قلب السبـع ، واليوم أكلتها من قلب الأرض . فاستدارت عينا أم شاكر ، وانشق فمها ، ولكن الكلام بقي محاصراً هناك .

البهائم تفكر في مصيرها

وعاد الثور والحمار ليتزربا بعدما أنهكهما التعب . كانا تحت النـــير يحرثان الأرض طـول النهار ، فما دخلا المزرب حتى ربطهما صاحبهما ، وراحا يلحسان ما علق في أرض المعلف من بقايا التبن والهشيم ، ولمّا لم يظفرا بشيء انبطحا وجهاً لوجه وشرعا يعالجان مشكلتهما الإجتماعية المعقدة على مستوى عال .. فقال الثور : نحرث ونحرث ، والعشاء تـبن وحشيش يابس ، وعند طلوع الضوء يأتينا الطعام المعهود.أتقول أنّ على وجه الأرض من هم أشقى منا ؟

فاجهش الحمار بالبكاء ثم نهق قائلاً : نعم ، نحن أشقى من عليهـــا وأنا أشقى الأشقياء.أنت يا زميلي لك عمل واحد تفلح الأرض وتستريح.. أمّا أنا فأين كنت اليوم ؟! أمّا كنت مشدوداً معـــك لأن رفيقتك نفساء[1] ؟ ويوم لا تكون للفلاحة يد يفكر صاحبنا بإيجاد عمل لي ، وإذا لم يجـده خلقه . فإما أن يسوقني لحمل الحطب ، وإما أن يذهب بي إلى الطاحون ، وإن كان لا عمل عنده حطّ الجلال على ظهري وبسط فوقـه طرّاحـة وركب ليزور أحد أصحابه في القرى المجاورة . والأنكى من

١ ـ وضعت وليدا منذ قليل .

كل هــذا الشقا والتعب . مثلهم الذي يردد ويرددونه على مسمعي: حمّله واركب . آخرته للكلاب .

فخار العجل يقول : ألا يكفيك يا ذكي أنك تموت موتة ربّك ! لا تذبح مثلي متى شيّخت أو قصّرت فتموت قبل الأوان .

وفي تلك المنيهة الحافلة بالتأملات العقلية دخل صاحبهما يحمل سل التبن ، فقطعا الحديث لئلا يتسرّب إليه شيء من أسرارهما الاجتماعية .

ولمّا امتلأ المعلف تبناً تاما . وهما يقولان معاً : وهل يعطى حمار وثور غير مثل هذا العشاء ؟

فقال الثور : نحن ولّت أيّامنا ، وانقضى زمان عزّنا . رحم الله نصيف اليازجي القائل :

متى ترى الكلبَ في أيّامِ دولتِهِ فاجْعَلْ لرجليك أطواقاً من الزَرَدِ[1]

هذا زمان الكلاب والقطط يا أخي . ليس الكلاب التي تطـارد الوحوش الضارية ، ولا القطط التي تصطاد الفيران والجرذان ، بل تلك التي تجلس في الاحضان ، وتتبادل وأصحابها القبلات وتُدلّلْ وتأكل خير الطعام من ألباننـا ولحومنا ، ومن السمك والسردين واللحوم المعلبّة .. أمّـا نحن الذين نخدم خدمة نصوحا ونستخرج الخيرات من قلب الأرض فنرضى بالأكل من حيث كان .. ليس من يبالي بنـا ، فلولا كتفي وظهرك من أين كانت تأكل الناس ؟ أما كانوا يحلّون محلّنـا ليقوموا بأعمالنا واشغالنا الشاقة ؟

فقاطعه الحمار قائلاً : ولماذا لم تقـل كتفي أيضاً ، اما كنّا اليوم

---

١ – حلقات مشبكة من الحديد .

نفلح الأرض معاً ؟

- بلى يا صاحبي ، فلولانا ما أعطت الأرض غـــلة . تأمّل ، نزرع ما نزرع ، تحت المطر ، محتملين البرد ، ولا نذوق حبة من الحبوب التي نسقيها عرق جلودنا . وإذا نبت الزرع وحاولنا رعيه أو أن نقضم قضمة منه ، علا الصياح من كل فج عميق ، وانقضوُّا علينا بعصيهم ، كان لا حق لنا بشيء من انتاجنا . الحق مـــع الذي قال : ابن آدم كافر أسود راس .

فقال الحمار : وطّ صوتـــك لئلاّ يسمع صاحبنا . قرّب حتى أوشوشك . أما سمعت بعد بالآلات التي تفلح وتزرع وتقلب الأرض ظهراً لبطن ؟ قصرت حياتنا على وجه الارض . سوف يستغنى عنا .

فقال الثور : كيف ؟ ومن أين يأتون باللحوم والالبان إذا انقرضنا؟ أيا كل بعضهم لحم بعض ؟

فضحك الحمار وقال : ما أقـل عقلك يا بهيم ، صحيح انك فدّان ! نسيت ان عندهم الغنم والمعزى وحيوانات أخرى ؟

فتضاحك الثور وقال : كل عشرين رأس غنم لا تحلب قـدر بقرة واحدة . ولكن أنت ماذا يحلّ بـــك يا مسكين ؟ فجلدك لا يسكّف ولحمك لا يؤكل ..

فاستضحك الحمار وقـال هازئاً : ناس كثيرون يأكلون لحمي .. فإذا ضاق بوجهي هذا المحيط وقل الرزق أهاجر ، مع الذين يهاجرون ... أما قال الشاعر : وأرض الله واسعة الفضاء ؟

فهزّ الثور قرنيه استخفافاً وقال : هذا آخر زمان ، الحمار فيه يقول

الشعر . إلى أين تهـــاجر يا جحش ، ومن يستقبلك على البور أو في المطار ؟ .. نحن همّل[1] ليس من يسال عنا . الكلاب خير منّا ، الكلاب محظوظة في هذا الزمان . فبعدما كانوا يتنجّسون منها ، حتى قالوا : فلان قعد مني مقعد الكلب ، صار للكلاب صدر الديوان .

فحرّك الحمار أذنيه وقال : سبحان الله ! الدنيا أدوار،وهذا الانسان يلعب بمقدراتنا .

وسمع الثور حسّ صاحبه فأسرّ الكلام وقال الحمار : هس ، هس... ذهبت أيام البراذع والجـــلال والجلاجل[2] ، كما مضت الأيام التي لم تكن تذبح فيها بقرة .

– أنا ما رأيت يوماً ابيض في حياتي ، فكل أيّامي إما أن أكون محملا وأما مركوبا ، واليوم صرت أفلـــح . اكتمل النقل بالزعرور[3] كما يقولون .

وشقّ الفلاح باب القبو فكفّا عن الكلام وشرعـــا يقضمان . فرد الباب عليهما وذهب . وبعد ساعة زمان جاء وفكهما وأطلق سراحهما ليرعيا في مرج قريب ، فصادفا جملا وبغلا وقعدوا جميعاً يتشاكون فقال البغل : أنتما يا حمار ويا ثور ، رضيتما بالتبن الحاف فصار طعامكما الدائم، ألا تعرفان الانسان طمّيعاً بخيلاً شحيحاً ؟ الحـــق على من خلّفوكما وعوّدوكما هذه العيشة الذليلة . الذنب ذنب المربي ، أمّا أنا فلا بد لي

---

١ – مهملون .

٢ – اجراس صغيرة تعلق بأعناق الدواب .

٣ – فاكهة صغيرة .

من الشعير ، كما لا بد لأخي الجمل من الفول والكرسنة . اضربنـــا عن الطعام فوقف العمل ، واضطر صاحبنا أن يرضينا ليشتغل ويقبض ...

فشقشق الجمل وقال : هاتيك أيام راحت وآحزني عليها . أيّام كنّا ناكل فيها الكرسنة والفول المنقوعين ، أما اليوم فلا فول ولا مكيول ولا من يحزنون . كنت فيا مضى اشكو الاحمال الثقيلة،أمّا في هذه الأيام فالحمل نادر والأكل اندر . هذا الزمان كما قلنا ، زمان الكلاب والقطط، تاكل خير أكل وتنام على صوف ، ولا تعمل شيئاً .

فنظر الحمار الى الثور نظرة ذات معنى فقال البغل : صرّح يا ابن أبي ، قل بماذا تفكر ، فنحن في المصيبة سواء .

ولمّا استوثق الحمار من أخيه البغل قال له : اسأل خالك الحصان ، أمّا مرّ ورآني مكدوناً قبالة هذا العجل لأن رفيقته نفساء ؟

فقال البغل : وماذا عملت يا حمار ؟ هم يتزوّجون ويخلّفون وأنت تشتغل عنهم ! قل لي ماذا عملت ؟

ـ ماذا عملت ؟ أكلت كم عصا ومشيت غصباً عن رقبتي .

فتقدم البغل ينظر الى الجرح الذي أحدثه النير في رقبة الحمار ، ثم هزّ رأسه وقال : لم يسمّوك حماراً عن عبث ، فلو عملت مثلي لنجوت.

فصاح الحمار : وماذا عملت ! علّمني حتى أعمل مثلك .

فقال البغل : تعنفصت[1] ولبطت وكدشت ... ولما لم أنقد له خاف وتركني ، وجاء بك يا جحش لتحل محلّي .

فقال : الحكم إذن على الطائع .

---

١ ـ تكبرت ، تعجرفت .

فقال البغل : هذي يا ابن أمّي شريعة الناس ، ما بلغك بعد قول شاعرهم : ومن لا يَظلِم الناس يُظلم ؟ إذا أردت أن تعرف أخلاق أمة ففتّش عن أمثالها ، فمَثَل البشر يقول : الفاجر أكل ماله ومال التاجر. يعدّ الانسان ألف عشرة قبل أن يركب بغلاً ، بينما تراه يركب الحمار ارتجالاً . يقولون في مثلهم : الحيط الواطي كل الناس تركبه ، أنت حيطك واطي ، فعبثاً تشكو شكوى الجريح إلى البثزان والرخم[1] .

وهنا تدخل الثور ليعرض قضيّته فقال له البغل : سد بوزك .. ولا كلمة . أنت أقل فهماً من الحمار . ولذلك قال الشاعر :

عليّ نحتَ القوافي من معادِنها وما عليَّ إذا لم تفهم البقرُ

كان يقدر الشاعر أن يقول : الحمر بدلاً من البقر ولا ينكسر الشعر ولا القافية .. فكيف تترك ابن آدم يجيّمك ويكدنك مع الحمار ؟ ألا يحطّ هذا من مقامك مع أنه معك سلاح ليس لأحد منا ؟

فأجاب الثور : أنا معي سلاح ؟ أين هو سلاحي ؟

فقال الجمل : معلوم .. ألا تراه ؟ أنت أعمى يا ترى ؟

فقال البغل للجمل: أسكت يا هبيل ، كل الحيوانات تحكي ما عداك. أنت طمّعت البشر فينا ، رقبتك باع ويقودك ولد أقل من ذراع .

وبربر الجمل ودلق[2] جرابه الاحمر ، فقال البغل : هس[3] ولا كلمة.فلو

---

١ – نوع من الطير .
٢ – اخرجه من فمه .
٣ – اسكت بالعامية .

عرفت قوتك لما أناخوك[1] ، وحطوا على ظهرك الجبال من الاحمال ، ثم نهضت بها ومشيت .

فقال الثور للبغل : يا سيّدنا ، قطعت حديثك معي ورحت تحدث غيري . قلت لي معك سلاح ولم تدلّني عليه .

فنط الحمار وقال : أعرفتم من منا هو الحمار ؟ هـذا هو الحمار . ألا تعرف يا ثور أنك صاحب سلاح لا ينتزع منك ؟ فو الله ثم والله ثم والله لو كان لي أحد قرنيك لما تركت انساناً يقودني .

فاجابه البغل : ولكن لك حافر فلماذا تتركه يسوقك ؟

ولما حان وقت المغيب جاء صاحبها ليسوقها الى الزريبة كالمعتاد ، فلبطه الحمار لبطة موفقة أطلعت روحـــه ، فمات لساعته . وكرّ الحيوانان إلى مزربهما لا يلويان[2] على شيء .

ثم كان البحث عن القاتل فاتهم من اتهـــم . وبينما كانت التحقيقات جارية كان الحمار والثور يتحاوران ، فقال الحمار للثور : هل وصلك خبر الكلب العجيب الذي ينبش الجرم ويقبض عليه ؟

قال الثور : صحيح ؟ ويعرفه تماماً ؟

قال الحمار : هكذا يقولون ، حقاً انه ذكاء عجيب .

فقال الثور : ما هذا ذكاء . هذي قوّة شم .

فاجاب الحمار : أنت لا تعترف لأحد بشيء . ثم أنت مثله لترى ما يكون . نسيت أنه ابن جنسنا ويقبض على الناس متى اعتدوا ؟ هـذا

---

١ ـ اجبروك على الجثو.

٢ ـ لا يحيدان عن طريقهما .

فخر لنا يا حبيبي ، فخر وأي فخر ان يخوّف المجرمين من البشر كلب . ويقرّ الأمن فيما بينهم .

فمغمغ الثور : تفّ لهذا الزمان ما أرداه ! صار المقام الرفيع فيه للكلب . كان يمشي خلفنا ذليلاً ، وكانوا يتنجسون منه اذا لمسهم لمساً ، فصار ينام على السرير ، يأخذون حليبنا ليطعموه إياه في صحن صيني ، ونحن ما زلنا نأكل في المعالف ، وننام على زبلنا وزبل غيرنا ، ونشرب من الجرن العفن الأزرق .

فقال الحمار : لا تحسد الكلاب ، يكفي أن فرعاً منّا يأخذ بثأرنا من البشر ، الناس الجبناء الذين يغدرون ، ويقتلون في الخفاء . فلو كانت لهم سلامة النية والشجاعة ما احتاجوا إلى كلاب تدل على المجرمين منهم . حسبنا فخراً ان حيواناً واحداً من جنسنا يكشف مظالم الانسان المستبد المعتقد أن الله سلّطه علينا فيذبحنا ساعة يشاء . ثم يذبح أخاه الإنسان ليأخذ ماله وهو غير محتاج إليه . هل سمعت أن حيواناً اهتم للغد ، فطالب بأكثر من القوت ؟ ومع ذلك يسعون للاستغناء عنّا بآلات صماء ، فما عساه يحل بنا في الغد ؟ حقيقة إن المستقبل مظلم .

فقال الثور : والله ما اعرف لماذا لا نفكر بأن يكون لنا ضمان جماعي يؤمّننا مخاوف الشيخوخة عند العجز عن السعي، أما قال المثل: من سعى على رجله رعى ؟ وهل يحمل الرجل غير البطن الملآن ؟

فقال الحمار : انا متكل على الذي خلقني . ومع ذلك أقول ، وأعني ما اقول ، إذا كان ليس عند الناس في لبنان مثل هذا الضمان ، فكيف يكون لنا نحن البهائم ؟

وبينما هما يتناجيان انشق باب القبو فدخل كلب غريب لم يعرفا له صورة وجه من قبل ، فظنّاه الكلب الذي تحدثت الصحف عن عبقريته والاستقبال الذي جرى له في المطار ، فنفخ الثور وعج . ونهق الحمار وحاول أن يقطع الرسن . تمثل له شبح جريمته وتذكر حديث الكلب الذي ينبش المجرمين ، فخال أنه هو ، وأنه جاء ليقبض عليه .. أمّا الثور ، وهو البريء من كل اثم ، فتشدد وقال : مرحباً بالضيف ، شرّفتنا بهذه الزيارة أيها النسيب العزيز ، الضيف له الكرامة، ولكن بيتنا خالٍ حتى من عظمة . وكل ما نرجوه منك غضّ النظر عن جريمتنا ، ولا تفضحنا بين الناس فيشمتوا بنا . كن نصيراً لبني عمك ، فنحن كلنا من ذوي الأذناب وهم بشر ظالمون . إذا قتلنا واحداً منهم خطأ فكم قتلوا من الملايين منا عمداً . كن حيواناً ولا تبع بني عمك بطعام مريء يعدونه لك ، كنا مظلومين ففار دمنا وقتلنا صاحبنا عن غير سابق تصوّر وتصميم .

أمّا الكلب فوقف مبهوتاً صامتاً لا يفهم شيئاً ممّا حكاه الثور . وتشجّع الحمار وقاطع الثور قائلاً : يقولون إنك ذكي جداً يا ابن العم، والذكي مثلك لا يجهل المادة الكلية القائلة : جناية العجماء جبّار[1] ، وخصوصاً أن الجاني حمار .. ثم زوى ما بين عينيه ونصب أذنيه وقال : إذا كان « الاجتهاد » يبرّىء الإنسان العاقل من جناية القتل عمداً ، أفلا يبرىء هذا النص الواضح كعين الشمس جحشاً مثلي ؟ كن فهيماً . هذا نص وليس حيلة تلبس رداء القانون ..

---

١ ـ جناية الحيوان فطيمة .

فابتهج الثور واستضحك في عبه وقال : ومتى تعلم الحقوق هذا الحمار ؟

ولم يفهم الحمار ما قاله الثور وأتم حديثه: ثم لو سلّمتني ماذا يصير؟ انهم يخلون سبيلي بلا كفالة . في هذا البلد جناة كثيرون ، فاذا أردت أن تبيّض وجهك مع أصحابك فاقبض على واحد منهم بدلاً مني . لا تخف أن تتعب ضميرك ، ففي اليوم الواحد ترتكب عدة جنايات .

وبينما كان الثور يحاول إقناع الكلب ، والكلب لا يفهم شيئاً ممّا يقال ، كان الحمار يتهيّأ لمغامرة . يريد أن يموت قبل ان يستسلم لكلب، فلو كان أسداً أو نمراً لهان عليه الأمر . اذ كان المثل يقول : يا كلها السبع ولا يا كلها الضبع فكيف بالكلب ؟

ولم تنجل الغمرة إلا عندما لف الكلب ذنبه وخرج . وظلّ الحمار حيناً قلقاً مشغول الفكر يبكته ضميره حتى عرف أن الكلب سوقي لا بوليسي ، وقد مرّ من هناك عرضاً ...

قَصَصٌ وأخبار

مدارس الأمس ومدارس اليوم

أليس من حق الطالب أن نعرض عليه شريط ذكريات مدرسية قديمة وحديثة ؟ أليس هو منصبّاً على دروسه حالماً بشهادته ، عروس آماله ، التي يرى السعادة كلها في تزاويقها[1] وحروفها !

يقول الناس عموما وذوو التلاميذ خصوصا : أين مدارس هذا العصر من مدارس ذلك الزمان ؟ وأين تلاميذنا من أولئك التلاميذ ؟

إنهم طبعا يضعون الحق على المدارس ، ويبرّئون أنفسهم حين يقولون هذا . ولهذا أنا أروي ما مرّ على رأسي من شؤون المدارس وشجونها ، فيقابل القارىء بين مربي ذلك الزمان ، ومربي اليوم .

دقّ قلبي دقّات عنيفة عندما قال أبي لأمي : دبرنا له مدرسة . والتفتَ إليّ وهو يجر كلماته : غداً تصير الشدياق[2] مارون ، فلم أبدِ ما كان ينتظره من الارتياح فأعرض عني .

ودخلت المدرسة مع من دخلوا فكانت الفاتحة ان أكلت قضيبين سخنين على سفح ظهري ... فارخيت لرجلي العنان فاستقبلني والدي

١ – زينتها من الرسوم .

٢ – أدنى من الكاهن درجة واحدة (يونانية !)

العملاق باحد قضبانه .

كان ، غفر الله له ، يعمل بنصيحة ابن سيراخ القائل : إذا أحببت ولدك فهيّىء له القضبان حزماً حزماً . ثم قادني باذني كالمعزة الشاردة ، وهناك على أعين التلاميذ قال الكلمة المأثورة للمعلم : اللحم لك ، والجلد والعظم لي . ثم التفت بي وقال : فهمت يا بني ؟ ومنذ ذلك الحين صرت أطوع من الخاتم في الخنصر ، وانعم من المخمل .

ويوم أحد الوردية[1] الكبيرة خرجنا من الزّياح[2] فاذا بزّمارين معهم دب يغنّون له ويرقص على وقع الدف والقصب ، فعجبت من طواعية الدب واستوائه كالبشر . يعرض العصا بين كتفيه كالناطور ، ويمشي مشية الصبايا والعجائز ، ينام ويقوم كما يكلفه صاحبه ، حتى انه يدخن بالغليون .

قلت لوالدي : الدب كيف تعلم كل هذا ؟ فضحك وقال لي المثل المعروف : العصا تعلم الدب الرقص .

ففهمت تعريضه بي وقلت في نفسي : إذا كانت كقضبانك تعلّم اكثر من دب .

هذي واحدة من ذكريات مدرستي الاولى ، مدرسة تحت السنديانة ، حيث كنا نصطف خطاً طويلاً حدّ حيط الكنيسة ، الأعلى فالأعلى علماً . وفي تلك المدارس كانت تسوسنا العصا ، استاذة الدب . امّا عقاب الجرائم الكبرى فكان « الفلق » . . لُيتك تذوق طعمه . الفلق:

١ – اول احد من شهر تشرين الأول وهو مخصص لعبادة العذراء.

٢ – طقس ديني .

خشبة تكمش الساقين كالعض، لتعرض القدمين الى قضيب المعلم فينصبّ بلا شفقة . إنني لم أذق هذا العلاج، والفضل لحزمة قضبان الوالد التي إذا مات منها سيّد قام سيّد .

وواحدة ثانية من ذكريات اول مدرسة داخلية: اذكر ولا انسى ابداً انني بكيت اول ليلة بكاءً مراً حتى بللت دموعي مخدّتي وتعكرت من الغيظ عيناي ، كما قال داود بعد فعلته تلك[1] .. كنت كالغريب في تلك المدرسة فاستوحشت جداً ، وعللت النفس بالسلو فاذا بي في الغد التفت صوب بيتنا فابكي . سخر مني رفاقي وسموني البكّاء . ولكني فقتهم درساً حين نسيت ملاعب صبوتي فراح ذلك الاسم .

ومرّت الايام فجاء أحــد المرفع[2] فتذكرت الخروف الذي ذبحناه عام أول ، وارتمينا بشحمه ولحمه كعذارى امرىء القيس . تذكّرت الكّبة النيّة والهريسة والكروش المحشوة وجميع أصناف المآكل اللبنانية، فبكيت في فراشي حتى درى احد رفاقي فقال لي : تبكي يا مارون ؟ فأجبته لا . باصر بنومي . فضحك وضحكت .

وسمع حديثنا الراعي ، أي الناظر العام ، فلم يزد على قوله : شر الصباح ولا خير المسا . ناموا .

ما غمضت لي عين تلك الليلة . أحاول النوم ولا قرار على زأر من

١ ــ بعد استيلائه على زوجة اوريا .

٢ ــ ايام معلومة تتقدم الصوم عند المسيحيين وهو الزمن الذي فيه ترفع بعض المأكولات . اي ينقطع عنها المسيحيون ولا يعودون إليها الا بعد عيد الفصح .

الأسد . إن شبح القصاص رهيب ، أخاف على جلدي ، فكلّ شيء إلاّ العصا . ولكنها مضت على خير . هاودنا المـــدير بمناسبة « اوكازيون » المرفـع .

ويوم عيد البشارة[1] ، ٢٥ آذار ، ساقنا « الراعي » إلى نزهة في وطا عين كفاع فسرحنا في تلك البطحاء المقفرة نتنافس في جمع الأزهار لدفن الصليب ، فكنت كلّما قطفت زهرة التفت صوب العقبة ، ولكنني لا أرى امي مهرولة فأعود الى انتقاء زهراتي ، ثم أتلفت فلا أراها .

ودقّ جرس الضيعة معلناً الظهر فانسلخ قلبي . وقفنا جميعاً لصلاة التبشير ثم قعدنا نتغدّى على مرجة عين الوطا . إنها عين بلا ماء ، كما يقول المثل : اسمك عروس فلا تحزني . ولمـــا يئست من مجيء الوالدة همست في اذان اصحابي من التلامذة: اطلبوا من الراعي أن يفرجكم على كنيسة ضيعتنا . فصاح بهم : يا قليلي الادب ، قولوا زيارة مار روحانا[2] عليه السلام ، وأخـــذ يسرد لهم عجائبه عن ظهر قلب ، كأنه يتلو السنكسار .

فصاحوا : لا تواخذنا يا معلمي . غلطنا . زيارة مار روحانا عليه ألف سلام ... فصاح إذ ذاك: اصطفوا . وايّاكم أن تتلفّتوا في الضيعة يميناً وشمالاً . لا تردوا على من يسلّم عليكم قبل الصلاة ، واعطـــاء « الديو كراسياس »[3] .

---

١ — عيد بشارة العذراء مريم من الملاك جبرائيل .

٢ — قديس شفيع قرية المؤلف.

٣ — صلاة الشكر بعد تناول الطعام .

ودخلنا الضيعة أصناماً أو كالاصنام، وصلّينا في كنيسة مار روحانا صلاة طويلة . ولما خرجنا عرضنا في الساحة ، وصلّينا أيضاً السلام الملائكي واعطانا « الديوكراسياس » .

ورحنا نلعب بالطابة في تلك الساحة وجيران الكنيسة يتفرجون علينا من بعيد ، لا يسمح الراعي لأحد أن يخالطنا .

وبينا انا اغمز ابن عم لي ليذهب ويخبّر أمي فإذا بها مقبلة ، تحمل على صينية ، الفول الأخضر، واللوز الفريك[1] ، والتبولة مع ورق العنب. وبعد ألف رجاء سمح الراعي لرفاقي بأكل ذلك .

وطلبت والدتي من حضرته أن يأذنني ربع ساعة لأرى اخوتي الصغار فامتنع ، وقال للوالدة : القانون مقدس يا ام مارون .

فأجابت الوالدة : القانون على رأسنا يا محـــترم ، ولكن هذا ولد ، وإخوته صغار ، والبيت على رمية حجر ، فما عليه لو رأى اخوته ربع ساعة ؟

فأجابها : هذا لا ينفعه ، اتركيه ، قسّي قلبك يا أم مارون .

فأجابت : اهو قلب الأم حديد حتى تقسّيه ؟

فقال ، وهو يشدّ على كل كلمة : العلم لا يسع معه شيئاً . رؤية إخوته ربع ساعة تشغل باله جمعة . الله يجبرك يا ام مارون ، اتركي ابنك يتعلّم، الصبي شاطر . لا تشغلي باله . قال هذا ودق الجرس وعجّ : « اناڤان ».

لم يعز والدتي إلا بهذه الكلمة ، قالها وهو مشمر[2] : تموز قريب ، ما

---

١ ــ السهل الكسر .

٢ ــ رفع غنبازه قليلاً عن الأرض استعداداً للمشي السريع .

بقي إلاّ ثلاثة أشهر ونصف . وأدارت امي ظهرها وأظنّها بكت . أمّا أنا فالتفت صوبها ، فزجرني الراعي كما يزجر المعاز عنزة خرجت من الصف ، فلعنت لحيته في قلبي .

قلت : تموز . تموز . نعم ، يا قارئي العزيز ، كنّا ندخل المدارس في أول تشرين الاول ، ثم لا نخرج منها إلاّ في منتصف تموز . لا فرص ولا أعياد . لا مرفع ولا من يحزنون . قلت هذا لأذكر أنظمة مدارس ذلك الزمان .

أمّا اليوم ، فتمّوز محذوف من تاريخ السنة المدرسية ، وتشرين الأول أكلوا ثلثه ، والفرص أكثر من الهم على القلب . في كل أسبوع يصبّح التلميذ أهله ويمسيهم ، ناهيك بمخالطته الناس في المدن ، فمن قهوة الى سينما ، ومن مرقص إلى سباق خيل ، إلى جهنم الحمرا ...

إذا وبّخ الاستاذ تلميذاً وقعت السماء على الأرض . واذا فرك المعلم اذن صبي أقعد والده شاربيه وكشّر عن نابيه وشمّر عن ساعديه،وجاء المدرسة للمصارعة .

ولا تنسَ الاضرابات والتظاهرات ، فهي تذهب بقسم كبير من أوقات الطالب ، خصوصاً اذا كان الموسم مقبلاً ... وهناك بلية هي شر تلك البلايا . إنها بلية الأذن ، وقد سهّلها التلفون ، ففي كل يوم يزعجنا الطلاّب وذووهم . وإليك نموذجاً :

دق جرس التلفون . ـ نعم هنا المدرسة ، من تريد الست ؟

ـ من فضلك مدير المدرسة .

ـ نعم ، أنا المدير ، وحضرتك ؟

ـ أنا أم فؤاد يا أستاذ .

ـ أي فؤاد منهم ؟ عندي أكثر من فؤاد يا ست .

ـ فؤاد ... فؤاد عيطو . أرجوك أن تسمح له يوم السبت .

ـ لا إذن في التلفون .

ـ كيف ؟

ـ نعم ، هذا ممنوع .

ـ والسبب ؟

ـ السبب ... بسيط ... أنا لا أعرف صوتك . وأحياناً تكون الأم غير أم ...

ـ شو عمبتقول ؟ (بارول دونور) ، أنا أمه .

ـ أمس كان عندكم يا ست ، والاذن بالشهر مرة .

ولما عرفت ان حيلتها لم تجز علي راحت تقهقه وتغنّي بلا حياء : زوروني بالسني مرة .

هذه واحدة ، وواحدة اخرى أتت من واحد لم تعجبني سيماه . أقبل علي يستأذن لطالب زاعماً أنه جاء من عند أبيه الذي ينتظره ببيروت .

فبغتّه بالسؤال : حضرتك اخوه ؟

فأجاب : ابن عمه .

قلت : مؤكد ؟

فانتفخ وتعالى وقال : نحن لا نكذب يا استاذ .

قلت : بما أنك لا تحمل رسالة من والده ، تفضل وأرني بطاقة هويّتك .

فاصفرّ ، واحمرّ ، واخضرّ ، وذهب متعثّراً ، فكلت له التوبيخ بالمد ، ولكنه وليّ صابراً عليه صبراً جميلاً .

إن أحوالاً كهذه تقلقل معاهد العلم وتقف حجر عثرة في سبيل إعداد جيل صالح ، ولهذا لا أرى مستقبلاً باسماً لثقافتنا .

إذا لم يحتل العلم ، وحده ، ساحة شعور الطالب ، فهيهات أن يفلح .

كيف تعلمنا

أظن أن للأبجدية التي أبصرت النور على شاطئنا عملاً عظيماً في العقلية اللبنانية . لقد فصلتنا الدهر المستهزىء ببنيه عن ذلك الزمن الحافل بالأمجاد ، ولكننا مشينا في ظهور جدودنا نحلم في كل عصر بالقراءة والكتابة . فمنذ قرن وأكثر كان شعار اللبناني المثقف دواة يشكها في زناره ، سيان في ذلك من يلبس غنبازاً يجرر اذياله ، وهي الصورة الغالبة على هؤلاء كالشيخ نصيف اليازجي ، أو من يلبس شروالاً كالمعلم بطرس البستاني .

كان الكاتب اللبناني يتباهى بتلك الأداة النحاسية ، ذات الباقول[1] المنقش ، والقصبة التي تنام فيها أقلام « الغزار » مطمئنة . فإذا دخلت قصر الأمير اللبناني رأيت فيه رجلين : رجل السيف يزين صدره خنجر ذهبي الغمد[2] ، ورجل القلم وحليته[3] الدواة التي جود صنعها آل نفاع في بيت شباب فاصبحت تحفة طريفة ، بل وساماً لبنانياً بكل ما

١ – دواة من خزف (يونانية)

٢ – قراب ، بيت السيف او الخنجر .

٣ – زينته .

تتحمل لفظة الوسام من شرف ومجد .

وكانت الكتابة ، منذ قرن تقريباً ، مفخرة يتباهى بها من يحسنها فيمشي الشدياق كابن الرومي مشية يغربل فيها . وقد سمعت في عرس منذ نصف قرن واكثر واحدة غنت لي « زلغوطة » . تلك أول مرة سمعت فيها اسمي في الهواء ، ويذكر في محفل .

من عادات اللبنانيين في أعراسهم أن يغنّوا ، رجالاً ونساء ، في تمجيد بعضهم أولاً ، وقد لا يحرم من له بعض الشأن من « ترويدة »[2] رجل أو « زلغوطة » إمرأة ، وهذا ما ظفرت به أنا في ذلك العرس. غنّت لي السيّدة ياقوت فقالت :

آووها ــ انا مـا بغني عالهوا وبغنّي لهالجمع كلّو سوا
وبخص من بينهن شدياق مارون ملفان وبيلبقلو شك الدوا

كانت تلك الاغنية كنفخة في فقاعة صابون ، فهرعت الى دواة مهجورة كانت عند جدي فجلوتها وشككتها في زنّاري ، ولم أدع زقاقاً من الضيعة الاّ عرضتُ فيه دواتي على الأنظار ، فكنت شدياقاً صغيراً يشكّ دواة لا يقل وزنها عن نصف أقة .

اللبناني لا يتمنّى ثروة وافرة ، فحسبه القوت . نشأ وهو يردد : هنيئاً لنفس ما عليها ولا لها . إنـه خشن كصخوره ، إذا حصل على البرغلات والزيتات والتينات عاش عيشة راضية . أمّا ما يشغل باله فهو تعليم ابنه ولو القراءة البسيطة ، وتعليق الحرف وكتابة الهندي ، أي

١ ــ هتاف في الاعراس .
٢ ــ هتاف يطلقه الجمهور تكريماً لعريس او زعيم .

الارقام الحسابية .

واذا قلت لواحد منهم كيف الحال ، فلا يشتكي الفقر ولا يتذمر من خشونة العيش . الهم الاكبر هو خوفه من أن يفوته تعليم أولاده .

واذا عرفنا تاريخ الوقف اللبناني في كل قرية عرفنا أن غاية الواقف ، منذ مئات السنين ، كانت تعليم الاولاد . ففي ظل الكنيسة تنشأ المدرسة . وإذا تهاون وكيل الوقف قامت قيامة القرية ، وكذلك قُلْ عن ديورة الرهبان . فعلى الدير أن يخص راهباً بتعليم الصغار القراءة والكتابة مجاناً .

أمّا كيف كانوا يعلمون ويتعلمون فاليك الخبر : يكتب المعلم الألف باءً على ورقة يشكها الولد بخشبة مفروضة لها متكأ ، ويأخذ مدلاً وهو عود رفيع يدل به على كل حرف تعلمه . ومتى عرف الالف باء طرداً وعكساً وانتقاء ، كتب له القسيس الأبجد ، ثم ينقله الى « القدوس »[1] . وغاية الغايات كان مزامير داود . يقرأونه ولا يفهمونه .

هذه المرحلة هي المرحلة الأولى التي يقف عندها الاكثرون وهي تضاهي الشهادة الابتدائية اليوم ، وإذا كان الولد ابن بيت ميسور أدخله أبوه مدرسة أعلى . وهذه المدارس الصغيرة كانت منتشرة في لبنان ، يُقْدِمُ على فتحها الكهنة المتبتّلون فيعلمون بها أبناء القرى المجاورة . ومن يقدر أبوه على تعليمه فهناك مدارس عالية للتعمّق في درس النحو واللغة .

وكانوا في ذلك الزمان يعتمدون على الذاكرة يحشون عقل الطالب

---

١ ــ اسم كتاب .

محفوظات لا أول لها ولا آخر . شعر ونثر ومن كل عصر ، والويـــل لمن يلحن أو يخرم حرفاً أو يخطيء في حركة عين المضارع فتقلع عينه وتصلم أذنه . المتقدم من الطلاب يعلم النحو في ابن مالك . شعر منظوم يحفظه التلميذ كالماء الجاري . أمّا شرح المعلم فهكذا . يقول اولاً بيت ابن مالك بكامله :

(كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثم حرف والكلم)

ثم يشرح قائلاً : يعني كلامنا لفظ مفيد مثـل استقم . وينتقل إلى الشطر الثاني فيقول : معنى هذا الشطر الكلم اسم وفعل وحرف. فهمتم يا أولادي ؟ فنجيب بصوت واحد : نعم معلمي .

ـ طيّـب ، عافاكم ، عافاكم .

وينتقل إلى درس آخر فيقول مثلاً :

والاسم منـه معرب ومبني   لشبه من الحروف مدني

ويسير في شرحه الدرب الدرب[1] فيقول : يعني الاسم منه معرب ومبني لشبه من الحروف مدني . فهمتم ؟ فقلنا نعم ، إلا واحداً اجترأ وقال : لا . ما فهمت يا معلمي .

فردّ المعلم ذيل كوفيته الايمن على كتفه اليسرى وقال : شربـــل جحش ، مهما شرحنا له لا يفهم . فضحكنا وبكي شربل . ومضى المعلم يشرح بتلك البراعة ، يقول لنا أشياء وأشياء وقلّ منـــا من فهم عنه شيئاً .

ومضت السنة على ذلك المنوال ، يلقي علينا ألفاظاً يضل في واديهـا

---

١ ــ على طريقة رتيبة .

الشنفرى ، ويتبه امرؤ القيس .

وفي ذات يوم جاء والد يحمل الزاد لابنه ، فقعـــد يستريح قرب شبّاك غرفة درسنا ، فسمع معلمنا الخوري يترنّم بهذا البيت مستشهداً به على مضارع كان وحذف نونه :

صاح شمّر ولاتك ذاكر الموت فنسيانه ضـــلال مبين[1]

فصاح ذلك الولد من الخارج وهـــو يصفق على فخذه : يه يه يه . أستح يا خوري يوسف ! لا تعلّـم أولادنا قلة الهيبة .

ويجيء رأس السنة فيفرض علينا أن نكتب إلى آبائنا مكتـــوب معايدة ، فنحك رؤوسنا فلا يخرج منها شيء ، فنهرع إلى الكتب المختصة بالمراسلات كالشهاب الثاقب[2] وغيره، حتى اذا وقعنا على المكتوب المطلوب نقلناه بكل أمانة وبعثنا به إلى أهلنا . وأليك واحدة من هذه الرسائـل الطريفة التي نقلها رفيق لي عن تلك الكتب ، و وَجّههَا إلى والده :

والدي العزيز ،

بعد لثم يديكم وطلب رضاكم الأبوي على الدوام . أحاول أن أكتب إليكم فيفت[3] في عضدي لأن باعي قصير ، ولكن شوقي إلى محياكم يجري قلمي في هذا المضمار ... إلى أن يقول ، طبعاً نقلاً عن الكتاب : « نحن متوجهون نهار الخميس القادمَ إلى طرابلس الفيحاء. ثم نقل خاتمة المكتوب بشحمها ولحمها ، وبعث برسالته الى والده فوصلـته مساء الأربعاء .

١ — ظاهر ، واضح .

٢ — نافذ .

٣ — يضعفني .

فما قرأه الوالد حتى اضطرب . شغلت باله عبارة فتّ في عضدي ، وباعي قصير . فخشي أن يكون قد أصاب ولده مكروه وفتّ عضده ، وقصر باعه ! وازداد اضطراباً حين علم ان ولده متوجه إلى طرابلس . وقعد الرجل يفكر ، ولكنّه لم يتوصّل إلى حل ألغاز مكتوب ابنه ، وأخيراً قال للمكاري : عشّ البغلة ، وبات على السفر. فما انشقّ فجر الغد حتى كان في البحصاص[1] .

وقضى ذلك النهار يفتّش عن المحروس في شوارع طرابلس وأزقّتها، ولما أعيا قصد المدرسة فوجد ابنه فيها سالماً ، لا باعــه قصر ولا عضده مفتوت ، فحمد الله وسأل ابنه : متى رجعت من طرابلس ؟ فهزّ الفتى كتفيه وقال : أية طرابلس ؟

– طرابلس . أنت كتبت لي انكم متوجهون الى طرابلس،فشغلت بالي ولاقيتك .

فقال الطالب النجيب : هكذا مكتوب في الكتاب .

وكانت دقيقة صمت جزم الوالد فيها أن تعبه غير ضائع ، وان المحروس سيكون من النوابغ إذا عاش ...

وحكى لي مرة البطرك الياس قال : دخلنا مدرسة غزير وكتبنا لوالدنا نذكره بالنجاصة التي حد بيتنا،فأرسلوا لي سلة فأكلت وأطعمت.

وفي العام الثاني تعمّقت في اللغة ، وأخذت عن معلمي أن الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة ، فدققت ورميت والدي بمكتوب الكلمــة الصغيرة فيه رطل . ولما بلغت ذكر النجاص استعنت بفصاحة معلمي ،

١ – من ارباض طرابلس .

فارشدني إلى الكلمـــة الفصيحة . فكتبت : يا والدنا لا تأكلوا الكمثرى وحدكم ، ولا يغرب عن نيـّرتكم تذكـّر ولدكم الذي يحبّ ذلك الجنى. فحـُرِمـْت تلك السنة أكل النجاص لأن والدي لم يفهم ما قصدت.

هكذا كانوا يعلمون في ذلك الزمان ، ومع عقم هذا التعليم فقـــد أنبتت البلاد رجالاً كان لهم شان مذكور في تاريخنا . استفادوا وأفادوا لأنهم أرادوا . والارادة أم الابداع .

أولى معاركي الأدبية

كان جدّي لوالديّ ، رحمهما الله ، من علماء زمانه . وكان يخشى أن يرفع العلم من بيته حين يخفض أو يرفع هو من هذه الدنيا .. ولما رأى فيّ قبساً[1] من ذكاء توهّم أنه سيصير ناراً آكلة ، فجعل وكده[2] فيّ بعد خيبته في بنيه . وأخذ يناقشني في أمور فوق عقلي فكنت أجاريـه في شوطه فيتفاءل ويتشاءم مع رياح الأجوبة والاسئلة التي تهبّ عليه من ناحيتي . فالكلام بيننا أخذ ورد ، وكما يكون الحوار بين رجل خنق التسعين وابن أربعة عشر .

كدت أصير ظلاً لشيخي الزهيري[3] الذي لم يسأم الحياة ، فهو يجري معها في المضمار وان قطّع الجري انفاسه .. وأسطع صورة له وأوضحها في ذهني هي لحيته المندلقة على صدره . وكنت إذا أبديت إعجابي بها ، وقايست بينها وبين لحى زملائه الآخرين هَمْهَمَ أبي وقال لي: هذا ربعها يا صبي ! يا ليتك نظرتها في عزها . حظك قليل ، يا سلام ، يا سلام

١ – لمة ، بصيص من نور .

٢ – جهده ،

٣ – زهير بن ابي سلمى الشاعر العربي المعمّر .

عليهـــا .

وقال جدّي لوالدي في احدى ليـــالي الصيف : افتكر بمدرسة كبيرة . هذه المدرسات صارت صغيرة على الصبي ، ربما طلم منه شيء ، من يعلم ؟

ثم عُقدت جلسات عديدة شاركت فيها الوالدة ، وأخيراً : أقروا بالاجماع أن يدخلوني أكبر مدرسة في المقاطعة . وكان العهد بالعلم في ذلك الزمان غير العهد به اليوم . ندخل المدرسة في أول تشرين الاول ، ثم لا نرى وجه الضيعة قبل منتصف تموز . لا أعيـــاد ، ولا مرافع ، ولا فرص ، ولا ولا . كنا نودّع أهلنا جادّين غير هازلين ، فهي غيبـــة لا هوادة فيها .

وإذا عدت صيفاً فلأكون في كنف شيخي ، أي من مدرسة ثابتـة عنيفة الى مدرسة متنقلة اعنف . كان ، رحمه الله ، يذاكرني في كل فنّ ومطلب . في الإعراب والتصريف ، ورواية الشعر والنثر .

وعـدتُ من المدرسة في سنة ۱۹۰۰ فرأيت شيخي مهدوداً ، ولكن نفسه ما زالت كما كانت . ظل يذاكر في كل ما يعلم ؛ ويبدي آراء أعجب بها ، وأستغرب صدورها من مثله .

ونُعيـَتْ إلينا في منتصف آب إمرأة صاهرنا أحد أبنائها ، فقال لي جدّي: شكر لي ريس مدرستك جرأتك ووقفتك على المنـــبر ، وأنا أحب أن أسمعك قبل غياب شمسي . هيّيء مرثاة تقولها غداً في المحفل ، وأحب أن أسمعها لأعطيك رأيي فيها .

---

١ ــ لا تساهل .

وكانت علامـــة انصرافي من حضرته فتحه كتاب صلواته الخمس ـ الشحيمة ـ فدخلت البيت ، وأنا افكّر إلى أي كتاب التجيء . إلى مجاني الادب ، إلى مجالي الغرر ، أم إلى الدرر لأديب اسحق ؟ تلك كانت كتب مطالعتنا في ذلك الزمان ، فتابطتها مع كف ورق وقلم رصاص وقصدت موضع خلوتي وانفرادي . صخرة عالية في القرقفة[1] ، تحتها واد عميق استحليتها مقامـــاً للدينونة ، حواليها منطقة تكسوها خضرة السنديان والآس وأشجار بريـة مختلفة . هناك جلست على مقعدي الذي تعودت أن اقرأ ، وأنا عليه، الكتب التي احبها . قرأت عدة تآبين لاديب اسحق وفيه .

كنت سمعت أن تغاريد الطيور تهيّج القريحـــة فتمنيت لو يجيء الحسّون ويغرّد بالقرب مني ، ولكنني ما سمعت إلاّ زقزقة عصافير غير ملهمة ، ثم أخذت الحجال تتكلم في الأحراج المناوحة[2] فما نفعتني ولا هاجت قريحتي ، فصرت أقول : آه على الحسّون ! أين الحسّون الآن ؟ الحسّون وحده يوقظ هذه القريحة النائمة . واخيبتي عندك يا جدي . ها قد مضت ساعة وساعتان ولم أكتب شيئاً . فلأكتب . وكتبت :

كذا فليجل الخطب ... وقبل أن أتم البيت ، قلت : لا : غداً عيد السيدة[3] ، وهذا عيد عظيم في البلاد كلها، وخصوصاً في ضيعة المرحومة، فكنيستهم على اسم السيدة . اذن الأفضل ان أبدأ هكذا :

---

١ ـ اسم المكان .

٢ ـ المقابلة .

٣ ـ العذراء مريم .

لبس الرجال جديدهم في عيدهم ولبست حزن الامهات جديدا

الآن جرى القلم . فلنكتب على خيرة الله ، فكتبت :

إنني في موقف حرج بين الموت والحياة،تخنقني الزفرات،وتغرقني أمواج البليـــات ، قلبي مصاب بسهام الاحزان ، وصرت هدفاً لنوئب[1] الزمان .

ـ غاق ، غاق ، غاق . هذا غراب ينعق . لعن الله الغربان ! وزاد في الطين بلّة أنه فرد غراب[2] ... وهكذا قطــع الغراب مجرى الوحي والإلهام ، فطويت ورقتي ودفنتها في عبي . وعدت الى البيت ، فوجدت جدي قاعداً ينتظر ، فحكيت له ما جرى فضحك ضحكة مُرّة وقال :

قريحة تهيّجها دقّات حجل ويهمدها نقيق غراب ما هي قريحة ..

فقلت له : شر الصباح ولا خير المساء . غداً تسمع ما يعجبك .

فقال . اتكلنا على الله .

فقلت : وربما الليلة .

فقال : إذا فاض النهر ، وما طار غراب ..

وكانت الوالدة تسمع هذا الحديث، وكانها مرتبكة في حلّ رموزه، فاشارت بمدراهـــا كصاحبة ابن أبي ربيعة ، وقالت : ايش ؟ فقلت : ماش ، بحياتك يا أمي إجْلي[3] زجاجة القنديل . وقصّي فتيلته . بالك مشغول بحديثي مع جدي . غداً تسمعين مـــا يرضيك . فانكبّت على

١ ـ نوائب ، مصائب .

٢ ـ يتشاءم اللبنانيون برؤية غراب واحد .

٣ ـ نظفي .

إصلاح هندام المصباح وهي تردّد ضاحكة : ما صبح إلاّ فتح .

وقعدنا على المصطبة قدّام الباب ، وأصغى جدي ليسمع تابيني لأم أنطون ، فما أسمعته قولي : إنني في موقف حرِج بين الموت والحياة ، تغرقني أمواج البليّات ، حتى ضحك وقال : لا ، لا ، كثّرتها يا ابني. طيب قل ، فأتممت : يحق لي ذرف الدموع ، وندب هاتيك الربوع،ولعن الدهر الخؤون ، لأجل ما يبقره مخلب المنون .

والتفتّ بجدّي فرأيته يهز برأسه ، فقلت : ما بك ، ان كانت لا تعجبك امزّقها .

قال كمل ، عافاك ، ولكنك زدت العيار . بعدئذ اعطيك رأيي .

فقلت :

والدهر نقّاد على كفّه جواهر يختار منها الجياد

فقال : يختار منها ؟ قلت : الجياد .

قال : مليح .

ومضيت في قراءتي : هي الدنيا غرور ، وما بها من سرور ، ولكن تعزّوا بالمقول ، واذكروا كلام الرسول ، حين يقول (ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي ان تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم .)

فاهتزّ جدّي وبان الرضا في وجهه وقال : عال .. عال .

وكانت الوالدة كامنـــة وراء الزاوية تتنصت ، ولما رأت براعتي

وضعت إصبعها في أذنها ، وأسرعت إلى جارتنا تبشّر بفصاحة ابنها ، فطار الخبر في الضيعة ان مارون عامل خطبة متينة لأم انطون .

قال جدي : كمل . فقلت ، إن المرحومة كانت شجرة مثمرة بحقول الصلاح ، تصطاد السانح والبراح[1] .

قال جدي : ما قالوا البراح ، قالوا البارح .

فقلت : والسجعة . فقال : أهي فرض ؟ طيب ، أعملها هكذا : حط محل « بحقول الصلاح » بالحقل الصالح فتستقيم لك السجعة .

فاعجبني منه ذلك ، ودونت ما قال . ومضيت حتى قلت : كانت المرحومة درة نفيسة وعلطميساً كنيسة .

فاستغرب ما قلت وصاح : آخ ، آخ ، آخ ، ما معنى علطميس ؟ لفظة ثقيلة ما شاء الله ! .. أكثر من رطل .

قلت : قال معلمنا إن معناها : العفيفة الحسنة القوام .

فقال : ومن يفهمها من الناس ؟ إذا سمعوا كلمة علطميس حسبوا أنك تسبّها . اضرب عليها . ثم ما معنى كنيسة ؟

قلت : المرأة الحسناء المستورة . قال : بعيد الشبه ألف مرة ، المرأة كنيسة ؟ ثم ما دخل الحسن في التأبين ؟ هل انت تتغزّل؟ وهذي احذفها .

فحذفتها وأنا اقول : بقي لفظة صار من الواجب حذفها . قـــال وما هي ؟ قلت : كانت المرحومة عجنجرة .

قال : وماذا قال معلمك عن عجنجرة ؟

---

١ ــ السانح الطير يمر من اليمين الى اليسار ، والبارح الطير يمر من اليسار الى اليمين .

قلت : قال المكتّلة ، الخفيفة الروح .

قال : يا ابني أم انطون مكتّلة ؟ يا جدّي ، أعمى انت ؟ ام انطون جلد على عظم .

قلت : إذن اشطب على هذا ، وجررت القلم فوقها . ورحت اقرأ حتى بلغت قولي :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضّلت النساء على الرجال

قال : وهذا كذب ، لا تفضل إمرأة على الرجال مهما كانت .

فقلت : ومريم العذراء ؟

فارتبك جدّي وكزّ على اسنانه ، وقال : إقرأ قدّامك ، كمّل . احذف البيت . هذا كثير على واحدة مثل أم أنطون .

فقلت : ولا شك أنها ذهبت من دار الاتراح[1] ، لتحلّ في الضراح .

فصرخ : ايش هو الضراح ؟ ما كفاك انك قتلتنا بالسجع حتى تهلكنا بهذه الألفاظ الوحشية ؟

فقلت : الضراح هو البيت المعمور في السماء الرابعة .

فصرخ : وهذا ايضاً من فضل معلمك ؟ ليتني أعرفه لأحشّ لحيته ولو وقعت في « الحرم »[2] من ذات الفعل ، لا يا جدي ، أكتب أكتب : ولا شك أنها ذهبت من دار الفناء لتلقى ربها في دار البقاء .

فكتبت ما أملاه وقرأت : إن فقيدتنا الجليلة أم صالحة قديسة ، وستحلّ ، ولا شكّ ، بالمكان المعدّ لها من قديم الأجيال .

فرقصت لحية جدي الدبكة ، ودفعني بيديه الثنتين فاستلقيت على

---

١ — الاحزان .

٢ قرار يصدره مرجع ديني يمنع فيه الاشتراك في الصلوات والمراسم الدينية .

ظهري ، وصرخ : قم عـــني يا ولد ، أنت بابا حتى تتبـّت قديّسين ؟ القداسة ! قضينا تسعين سنة بالصلاة والصوم وخوف الله ، وقلبنا يدق خوفاً من تلك الساعة ، وأنت تتبت أم أنطون قديسة بشطحة قلم!! هذا رثاء ؟! هذا طق حنك ، سجع ومزع، كلام فارغ مثل راس الذين علموك.

فلملمت قوامي المسفوح ، ونهضت متأثراً من تلك الخيبة المرة ، ومن هاتيك الساعة طلقت الغريب والسجع ، وهجرت الغلو ، وإعتصمت بالواقع ..

سنتان في مدرسة الحكمة

١٩٠٥ - ١٩٠٦

رأى عيني شاردة ، وهو يربأ بالكهنوت ان يهان في الدهر العتيد ، فغضب غضبة بينها وبين حسان بن ثابت أقرب النسب . سب ، رحمه الله ، دين لحيتي سلفاً ، فعلق على صدري وساماً مرصعاً يوم كانت تحلم العائلة بالطيب النازل على لحية هارون ، وبعودة المجد الى بيت لاوي.. .فالكاهن لا يقلّ شرفاً عن الملائكة ، أولئك يسبحون الحمل المقبول ، وهـذا يولم عليه بكرة ، ويسبحه عشياً .

أغضبناه ، دفّأ الله ضريحه، ولم نكن عند ظنه فسبّ تلك العوسجة قبل أن تنبت . أنذرنا ، عظم الله أجره ، بالخطر الاشمط ، فادركنا في تلك اللحظة من العمر اننا سننصب هدفاً سياراً على صدرنا ترميه ألسنة الغاضبين ، أولهم والدنا الفاضل ، كلما أحوجت الضرورة .

إذا كنت ممّن سمعوا بخبر التينة التي يبست لساعتها لأن المسيح لعنها، فلا تتعجّب . هكذا اصاب لحيتي قبل ان يحبل بها في البطن . والمسيح ، لاسمه السجود ، وأبي ، سامحه الله ، استعجلا الشيء قبل أوانه. طلبمني أبي تعفف الكاهن البتول وأنا شرخ كقوم الجنة لم أذق بعد طعم الدنيا

وحلاوتها . والسيّد ، له المجد ، عنّ له التين في غير ابّانه فعوقب بحرمانه وماتت التينة شهيدة مظلومة كما قضى كهنوتي ماسوفاً على شبابه الروجي: ما تقول أني فعلت إذ هبّت على غابتي هذه العاصفة الهوجاء ؟ لا شيء . مرّ في خاطري أن أرجعها ادراجها فلاحت لعيني الوصيّة الرابعة كما ظهرت إشارة الصليب لذلك الملك فانتصر بهـــا ... وخفت أن يقصر عمري إذا قلت له افّ فأحجمت . وكان سكوت عميق شوّشه ضحك إخوتي الصغار فهرولت إلى فراشي أبلّ مخدتي بدموعي حتى تعكّرت من الغيظ عيناي كما قال داود. ولو فعلت مثله لقلت هذا جزائي، ولكنني لم أزن ولم اقتـــل . أغضبت والدي نظرة فابتسامة ذقت غبّها شتيمة مبتكرة فعملت بالمثل القائل : نصف الدرب ولا كلها .

يا لك ليلة لم أنم فيها، ومن أين يجيئني النوم بعد تلك الاهانة العبقرية التي تضحكني كلما تذكرتها . ولكنني لا أجحد يدها البيضاء عندي وحسبي إنها فتحت لي باب الحبس المؤبد ...

وكيف يغفى فتى في عنفوانه وقد أوتر[1] أبوه قوسه ورماه في صميم أمله ؟ وفيما أنا التمس فرجاً لهذه الازمة إذا بيد تمتـد الى جبيني فعرفت أنها يد أمي ، فتأفّـفت وقلت لها : مالك ومالي ، اتركيني في مصيبتي .

فما نبست ، رحمها الله ، وسكتنا بضع دقائق كنت احس فيها أنهـا تبكي، فقلت لها : واين راح ؟

فاجابت كمن تخنقه العبرة : عند بيت عمك .

---

١ - شد وتر القوس .

فارتفع صوتي وقلت بحزم : بشّريه ، الرجعة لمار يوحنا مارون[1] مستحيلة .

فأجابت كمن يضحك ويبكي : يا تقبرها بشارة . والخورنة يا ابني ؟

قلت : نفكّر فيها .

فقالت كمن يشجّعني ، ويفتح لي باب الصيرة التي رفع سياجهـــا الشائك حولي : افحص ضميرك ، ورز حملتك ، إن قدرت كان بـه . فهمت ، لا تعلق ولا تعلقنا .

– ما فهمت .

– إفهم على مهلك .

– يعني ؟

– يعني : أما خوري مليح وإما لا . البيت متعوّد على خوارنة أوادم . إن سبّ أبوك لحيتك يسبّ الغريب لحيتك وإكليلك[2] . مارون يا مارون ، اصح يا ابني . علماني خائف الله احسن من مطران بلا شتمة.

قلت : وقضية المدرسة ؟ هو لا يرضى إلاّ مار يوحنا مارون .

– ومار يوحنا مارون مليحة يا ابني ، اين تعلم ابن عمتك وخالك؟

قلت : ولكني ختمت دروسها .

فسكتت هنيهة ثم قالت : لعله يقنـع ، أبوك يحمى ويهبّ ، ولكن قلبه طيب . أية مدرسة تريد ؟

---

١ – اسم مدرسة .

٢ – اكليل يوضع على رأس الكاهن عند سيامته .

ـ ما كنت سامعة امس ؟ نسيت الحكي عن مدرسة الدبس[1] ؟

ـ لا ، ما نسيت ، ولكن ابوك يخاف من بيروت . قال : إذا علمناه ببيروت خسرنا الخورنة للأبد .

ـ ولكن ، أنا أربح .

فضحكت وقالت : من يكره الربح ؟ هات خبرني عن ربحك .

قلت : علم وخبرة . خوري متفتح أحسن من خوري اعمى .

فقهقهت وقالت : متفتح أم مفلقح[2] ؟

فتبالهت كمن لم يسمع وقلت بهوس : تلميذ مدرسة الدبس غير تلميذ مار يوحنا مارون ، وتلميذ بيروت غير تلميذ كفرحي[3] .

ـ يا ما احلى كفرحي ، لا دبس ولا عسل ، كل المدارس تعلم . المليح مليح أينما كان . جدك تعلم تحت السنديانة وكان أحسن خوري . صل ونم على خيرة الله . شر الصباح ولا خير المساء .

ثم قامت ترسم اشارة الصليب في الهواء فوق رأسي . وصليت كما شاءت، فنمت نوماً لذيذاً ورأيت أحلاماً أقاحية[4] كنت أتلفت فيها عن يمين وعن شمال لأرى إذا كان أبي ينظرني ويسب دين لحيتي مرة ثانية .

وكان في الضيعة رجل داهية من اقاربنا. فقير الحال ولكنه ابن جلا: نبيه كلمته مسموعة . جاء يسهر عندنا مع الساهرين . وذكروا المدارس

١ ـ مدرسة الحكمة التي تعرف ايضاً باسم مؤسسها المطران الدبس .

٢ وقح بالعامية .

٣ ـ بلدة فيها مدرسة شهيرة ـ لبنان .

٤ ـ فيها اقاح (ازهار ورياحين) .

فامتدح مدرسة الدبس جداً ، ثم وجه الكلام إلى والدي قائلاً : إذا كنا نريد أن يقوم منا خوري مثل البشر ابعث مارون إلى مدرسة الدبس .

وأمن ابن عمي على كلام خاله هذا وقال : عمي حنّا رجل مكفي ومارون مليح . من يعلم ! ربما صار مطراناً ..

وما زالا بأبي حتى انتخى وتبسم ، والتفت بي وبوالدتي كأنه تذكر تلك الآية التي هبطت عليه أول أمس وقال : طيّب ، مدرسة الدبس ، مدرسة الدبس . ابشري يا أم مارون . جهّزي حوائج ابنك .

فتهلل وجه الأم لهذا الفوز العاجل ، وبعد أسبوع كنت في مدرسة الحكمة بين تلاميذ من كل البلاد حتى قبرص ... كدت أنكر نفسي بعدما خلعت غنبازي الجوخ الأسود وشروالي الكتّان وصدرية المخمل المزررة وزناري المقلّم ، ولبست ثوباً إفرنجياً انيقاً . راح الشدياق وجاء الافندي . وكان الطوق المكوي يشد الزيار على رقبتي الغليظة فاخال الياقة[1] كأنها الخناق وأبدو لعيني كأنني الهر المشنوق . بعد ذلك الشروال الرحراح وحرّيته الواسعة النطاق لبست الثوب المزمّك[2] فشعرت كأن كلامني في حبس ، وصرت أسيراً مكبّلاً كحرباء الأخطل . ولكني فرحت بخلاصي ونجاتي من الفخ الذي نصبوه لي .

وشاع في المدرسة أنني انظم الكلام الموزون المقفى الذي كانوا لا يزالون يسمّونه شعراً ، فتجمعوا علي كأنهم حول دب يرقص ، وكان منهم رشيد وأحمد تقي الدين ، ومرشد خاطر ، وحبيب جرجس —

١ — قبة القميص .

٢ — الضيق .

الدكتور حبيب اسطفان ـ وسعيد عقل الشهيد، وأمين رزق ابن صفي، وغيرهم ممن نسيت اسماءهم . استنشدوني فأنشدتهم بعض فرائدي الدرية في العذراء مريم وابنها يسوع ، والقلبين الأقدسين ، ويوبيل الحبل بلا دنس ، ثم تشطير : لو كان للافلاك نطق أو فم لترغت بمديحك يا مريم ، وتخميس : عجيب إنك العذراء حبلى برب قد تعالى في العجائب . هذه كنا نرتلها كل أحد في صلاة « الاخوية[1] » ، ثم باقة أزهار لملكة أيار ، فضحك رشيد تقي الدين ضحكته الصارخة كنكتته وحزبيته ، وقال لعصابته الطاهرة : الشب مليح ، ولكن ينقصه علم .. دربوه يا شباب .

فتعلمت منهم ما ينقصني .. فطرت معهم في افقهم وعرفوا بعدئذ اني أستاذ كبير .. ولكنني كتمت علمي تواضعاً .. وصرنا عصبة تهتز الأرض تحت أرجلنا والويل لمن يعلق بلساننا . كانوا يلهجون كثيراً بـ : (خدعوها بقولهم حسناء) ، فوجدتني في نعيم وشكرت ربي على حرية اضطهدت لأجلها ، وتذكّرت القصاص الذي أنزله بي رئيس مدرستي السابقة ـ المنسنيور[2] ارسانيوس ـ لأجل قصيدة غزلية شطرتها ونشرتها في جريدة الروضة تحت عنوان : قتيل الغرام .

وفي ذلك الزمان كان سيد الموقف الأستاذ شبلي الملاط ، فبيروت كلها تتنوه به ، وموشحه « الجمال والكبرياء » ملء الأفواه ، وعلى كل لسان :

طفلة فوق سرير من خشب ... في زوايا بيت صياد قديم

١ ـ جمعية دينية للصلاة .
٢ ـ درجة كهنوتية (رومانية) .

بخَّلَ الدهر عليها بالحسب والغنى والجاه والبيت الكريم

هذه القصيدة القصصية كانت آية زمانها، بل الزاوية الأولى في تطوّر الشعر الحديث، وكان صاحبها الملاط مثل الشعراء الأعلى. ولأجلها لقّبوه «الشاعر العصري» لخروجه على القديم وافتتانهم بجديده الرائع. وكان شبلي يمر في أروقة الحكمة كأنه أحد أعمدتها في شموخه، وليس بين الأستاذ الجليل والسماء أكثر من شبر.

كانت السنة الأولى ثقيلة عليّ، وما قولك بمن ينتقل من مدرسة تكتنفها غابة في برية إلى معهد يشرف على بيروت وما فيها؟ بَيْدَ أنني ألفت محيطي بعد عناء ولابسته بعد ضيق شديد بالزي الفرنجي. لم تعد تدهشني قصور بيت سرسق وبسترس وتويني، ولا مقبرة الأشرفية وتماثيلها النافخة في الأبواق مشيرة الى فوق. ولا البنايات الضخمة ولا النسر اللازق بجبين بيت ثابت، ولا البواخر ولا البوارج والأساطيل. لم أعد أستغرب شيئاً حتى الصدور العاريه ولا الجمال المعروض على الناس في الطرقات، ولا القطط والكلاب المضطجعة في أحضان السيدّات المترفات، في عجلاتهنّ ذات النوافذ البلّورية.

صرت جبلاً لا يهزني ريح بعدما كنت أخفّ من الريشة. فأمسيت أمرّ بهذه الغرائب مرّ النسر في الجو، لا أسأل عن شيء لأنني عرفت كلّ شيء فاسترحت وأرحت أعزّ أصحابي المرحوم الدكتور مسعد كرم من سؤالاتي الكثيرة.

بعدما كنت أحسب الدرزي غولاً يأكل الاولاد اصبح أكثر اصحابي دروزاً. فهذا الشيخ سليم حماده من غريفه، القصير القامة، يمشي بيني

وبين مارون نطين الدعوني ، فتخالنا صورة العائلة المقدسة تمشي على أرض مدرسة الحكمة ، وسليم يصرخ في ذلك الملعب : ما حال درزي بين مارونيين ؟

بعدما كنت أفزع من الدرزي مثل مار ساسين[1] ، صرت والأمير رفيق أرسلان على مركع واحد في بيعة الله تجمعنا وليمة القدّاس كل صباح،عدا ما هنالك من «هوردفر زيّاحات وصلوات وزيارة قربان بعد الغداء . كان سعادة المير كالزئبق الرجراج لا يستقرّ ولا يستكين ، وكثيراً ما كان نصيبي النقط السوداء والقصاص وينجو هو ، لأني وعر والأمير أليق مني وأكيس ، يعرف كيف يداري جناحه . وقد كان يسبق النصارى إلى جائزة التعليم المسيحي .

وبالاختصار لم يحتضر العام المدرسي حتى صارت الدجاجة الغريبة ديكاً ينقر ويناقر ، ويهجو وتهجى ذقنه السوداء الكثة الكالحة كما يذكر كل الرفاق، أخص منهم الصديقين الاديبين القاضي مراد ابي نادر والتاجر الياس غانم .

فما أعظم أجرك يا والدي ، وأجزل احسانك . أنت التي أرحتني منها .

كنت أهجو بلا رحمة ولا شفقة الخوارنة والعوام ، التلاميذ والاساتذة . أكتب هنا وهناك ، في الروضة والنصير والمنار والحقيقة والمشرق ، ولم أعف المقتطف من هجوم. الخلاصة: كنت معمل نثر وشعر . كنت لو قال لي واحد: كيف حال الجناب ، أجبته نظماً : بخير

---

١ — قديس .

نحن يا شيخ الشباب . كنت غرّاً أحمق أحسب كلّ مـــا يكتب ادبـاً فاخرجت كتباً لعنة الله عليهـــا ، وقصائد أتمنى لأكثرها ما نزل على صدوم وعمورة[1] .. وليس الحق عليّ فهذا جو مدرسة الحكمة ، موئل[2] لغة الضاد ، ومحيط الأدب والشعر ، فكأنها البصرة والكوفة[3] معاً .

وكانت المدرسة تعلم اللغة الانجليزية والتركية مع العربية والفرنسية والسريانية ، وكانت تدرس الحقوق لمن يحب من العلمانيين ، واللاهوت[4] للإكليريكيين[5] . فتعلمت شهراً واحداً لغة انكليزية فحفظت الوقتين الأولين من الفعل المساعد وما زلت أذكر : «أي هاف نت هبّي» . وقـد تكون غير صحيحة . مـــا ندمت على شيء مثل تركي اللغة الانكليزية ، وسبب ذلك معلم هذه اللغة الخوري يوسف الخوري الذي احفظ له ذكرى مرّة . كان هذا الخوري خفيفاً وقد أضحك التلاميذ مني يوم وصف لي ذروراً[6] يذهب الشعر من وجنتي الفاتنتين فاستغني عن المقاريض[7] والملاقط . كان دواؤه هذا من الذي يستعمل في الحمامـات ، فأثر ببشرتي الناعمة .. فسخطت على ذلك الاستاذ الكريم .

---

١ – مدينتان جاء في التوراة أن الله احرقها بسبب فسادهما .

٢ – ملجأ ، ملاذ .

٣ – مدينتان في العراق .

٤ – علم موضوعه الله .

٥ – رجال الدين .

٦ – دواء سحيق يذر ذراً .

٧ – مقص .

أمّا أستاذنا في اللغة الافرنسية المير يوسف شهاب فاكليريكي أيضاً ، ولكنه شدياق لا خوري ، بصير جداً باصول هذه اللغة . كنّا نداعبه بسماجة وكان يحتملنا . دخل يوماً الصف فرأى مكتوباً على اللوح بالقلم العريض : حمار . فتوجه إليه بالبديهة وجعل شدة فوق الميم وقعد . فبلعنا بريقنا وتغامزنا ، وهكذا كان يردّ كيدنا في نحرنا [1] . ما كنّا نسرّه. يرحمه الله ، إلا ساعة يعرض ذكر الأعمار لأنه بقي في الخامسة والأربعين ربع قرن وأخيراً قفزة واحدة الى الثانين . وآخر مرة التقيت به في أحد مطاعم بيروت قال لي : صرت في التسعين والمعلم عبد الله – البستاني – باق في الستين لا يتحلحل ..

فرض علينا هذا الأستاذ نظم الشعر الإفرنسي ففاتت أبيات أحدنا العشرين مقطعاً ، وأخطأ رفيقنا هذا تهجئة العنوان فجعله Ver اي دودة بدلاً من Vers شعر. فما وقعت عين الأستاذ على العنوان حتى غطّى شاربيه بيسراه كعادته حين تحضره النكتة ، فاعرناه إنتباهنا ، فقال : يا الياس ، يا حبيبي ، هذه دودة ؟ هذه أم أربعة وأربعين . فعجّ الصف عجيجاً وضحك حتى أنبج . وجاء المدير – الخوري بطرس مبارك – على ضوضائنا فشاركنا بابتسامته الهادئة الساحرة الحائرة – أعجز عن وصفها – وانصرف .

وكان الخوري فرنسيس الشمالي يعلّمنا التعليم المسيحي ، وكان لنا رفيق إكليريكي كلع [2] يقعد حدّي ، وكنت أتندّر عليه . شرح لنا

١ – مكان الذبح من العنق .

٢ – في راسه وسخ .

الخوري لماذا اختتن [1] المسيح فقلت له : أنطون ، صحيح ان المسيح قد اختتن ؟

فاجاب : ما سمعت الخوري ؟

قلت : وايش عملوا بالقلفة [2] .

فقال : رموها . ونظر ليرى كيف كان وقع جوابه، فرأى أني غير مطمئن فقال : حقيقة يا مارون ، المسالة فيها نظر .

فقلت : اسال المعلم .

فانتصب أنطون كالمارد ودقّ على الطـاولة ، فاستعاذ الخوري بالله واضطرب على كرسيـــه لأن اسئلة أنطون الغريبة كانت تضعضعه . وطرح أنطون سؤاله فملا الضحك والضجيج وأخـذ الخوري يضرب المنبر ويصيح : كلب ، تيس ، يقصف عمرك . اقعد مطرحك يا بغل .

وأراد الشماس ان يدافع غن قضيته فلم يمهله المعلم الألثغ [3] بل صرخ به : هث ، هث ، ثد بوزك . وبعـد التحقيق الاداري كانت لي الحصّة الكبيرة من القصاص،وشتمني المدير بيني وبينه وقال لي: حق على المسيح يا مارون ، وقدام تلاميذ من كل الملل والشعوب ! هذا المنتظر من تلميذ مار يوحنا مارون ؟ هتيكه [4] ، عيب . زيّن اسمك ، لئلا يصح فينـــا وفيك : يا ذلكم يا موارنة إن كان هذا مارونكم .

---

١ — تطهر .

٢ — الجزء المنتزع من التطهير .

٣ — يلفظ السين كالثاء والراء كالغين والياء كاللام .

٤ — عيب كبير .

وخرجت من عنده خزيان[1] ، خجلان أدعو على خصلة البدن التي لا يغيّرها إلا الكفن .

أما أستاذنا الشيخ سعيد الشرتوني فلم يكن صاحب نكتة ، وإن حاولها جاءت باردة . كانت السذاجة تكسو وجه ذلك العملاق،والوقار يسود مجلسه . أحببته كثيراً وأحبني حتى صرنا صديقين لا كلفةبيننا. اسمعته يوماً بيتين في هجو لحية معلم لي ختمتها بهذا الشطر : فخري بلحيته فخري بلحيته ، فقال : تفخر بلحيته مرتين ؟ هذا كثير . ارني كيف كتبتها . ثم تبسم وقال : التورية مليحة ولكن ايصح فيك : وكم علمته نظم القوافي ... لا تغط قلمك في هذه الدواة . وقد فعلت كما قال .

كان استاذنا عالما كاتباً ، اجتهاده يفوق ذكاءه . يريد أن يقول الشعر فيخرجه كالنثر أو أرذل .

كان الشعر فاكهة كل حضرة ، وكانت المدرسة تعوّل على الملاّط فيما يلم بهـــا من مناسبات فجائية . فيهدر ذلك الفحل كالبحر الزاخر ويبيّض الوجه . وكان زعيم الجدديين ، كما قلنا ، وأثره واضـــح في توجيه الأدب لا يجحده إلا كافر . وإن انتقدناه ، فنقدنا لا يضّره شيئاً فالكمال للأدب الأزلي شيخ المشايخ ...

وكانت المدرسة على عهدنا حزبين: حزب الرئيس الخوربسكبوس[2] بولس الدبس ، وحزب المدير الخوري بطرس مبارك . الشماليون حزب

---

١ – خائب .

٢ – درجة كهنوتية .

الرئيس ، والجنوبيون حزب المدير ، والحد الفاصل جسر المعاملتين [1] . وانتهت المعركة في آخر السنة الأولى بقصائد هجاء طبعت ، أمّا أنا فما كنت لبولس ولا لافلو [2] بل لله الذي أنبت ..

وعدت إلى البيت أطأ الثرى كأسد المتنبي، أمتن على الارض ان مشيت عليها . أنا تلميذ مدرسة الدبس . يا أرض اشتدي ما أحد قدّي ...

وجسّ الوالد نبضي ليعلم أين تكمن الفكرة الكهنوتيـة واين غوّرت ، فرأى مني رجلاً رصيناً متكتماً ، بعيد القعر ، كأني أحد دهاة الانكليز . واخيراً قلت له : قبل ست سنين لا أستطيع الصعود إلى هذه الدرجة المقدّسة ، وفي ست سنين يموت ألف ويعيش ألف . فلنصبر .

ففتل وجهه عني وقال : على مهل . لا تستعجل . إيّاك لئـلا تقع وتفك رقبتك . السلّم عال .

ولا أدري كيف غلطت وتمثلت بهذا البيت :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي انت فيها

فصفق كفاً على كف واستضحك وقال : اكتمل النقل بالزعرور . ثم طفق يصيح : يا أم مارون ، اسمعي إبنك البيروتي صار مثل الخوري نعمة الله حنـون . كنا بصيبة صرنا بثنتين . هاتي من يترجم بيننا وبين الأفندي البرّي ..

وفي ذات ليلة خبرته إني ذاهب الى بيروت لاحرّر جريدة ، وأعلم في اليسوعية والفرير ، فوضع طوقه في كفه وقال : أنا لا يعنيني، شاور

١ ـ بلدة من لبنان ـ من ارباض جونية .

٢ ـ تلميذ القديس بولس .

الست كاترينا ، صار الحكم للنسوان .. هذي طبخة أمك .

قال هذا بغضب وسبّ ، وتركني وهو يردد : كلي واشبعي يا أم مارون . عمر بيتك .

وبعد أسبوع كنت محرر جريدة الروضة مع ذلك الرجـــل التقي النقي المرحوم خليل طنوس باخوس . وبعد عام مات الدبس فقمنا بما يقضي به الوفاء نحو الفقيد العظيم . وخلفه المطران بطرس شبلي فهبّت الطائفة بزعامة يوسف الهاني تطلب أن يكون لها مجلس ملّي كغيرها من الطوائف الشرقية. وكان يومئذ قد انتدبني الصديق عبود بك أبي راشد لتحرير جريدة النصير لسان حال المطالبين بالمجلس ، فأخرجت من كلية القديس يوسف ، والفرير ، وهكذا انقطع الحبل بيني وبين مدرستي .

وظللت أحن إلى آمالي التي ماتت في زواياها وذكرياتي المدفونة بين جدرانها . بعدت الشقّة بيني وبينها، وأنكرتني لتطرفي . أمّا أنا فبقيت أذكر أيّامها بالخير مع أنني ركعت في قاعة الدرس قبل انتهاء دراستي باسبوعين وكان شاربي فتراً وأكثر ..

أصبح من فضول الكلام أن نذكر احسان مدرسة الحكمة إلى لغة العرب والأدب الحديث ، وأبناؤها ملء الدنيا يعلمونها الناس . أحدقت بالمدرسة أحوال وظروف فهمدت كما تخمد النار وظلت تصارع في سبيل البقاء . ودارت الأيام دورتها وتداولتها الأيدي فكانت تعلو وتهبط حتى جاء هذا الرئيس النحيل الذي لو رآه المتنبي لقال :

وهو ناسه ناس كبـار وإن كانت لهم جثث نحيله

حرث هذا الأب كرم سيده ولا تزال يده على المحراث يخرج الجفنة[1] حبلى بالعناقيد . أعاد الى المدرسة عزها الأول ولا يزال يمشي بها بأقـدام الجبابرة . فما اجمل خطواتك بالحذاء يا بنت الامير . كلك جميلة يا خليلتي ولا عيب فيك ..

لا خوف على كرم سليمان ما زال الناطور الأكبر يقنص الثعالب الصغار التي تتلف الكروم.. كانت الرئاسة أمثولة فصيّـرها هذا الخوري بطولة .. كان يوحنـــا مارون الأول بطريركاً يناضل في سبيل عقيدة دينية ، وهذا يوحنا مارون الكاهن يكافح في سبيل العـــلم والتربية والوطنية . ولولا المربّـي ما عرفت ربّـي .

عشت يا أبتِ ، حقّق الله حلمك الأغر .

---

١ – الكرمة الصغيرة .

صباحية

استقلُّ عيد الميلاد بكلِّ ما يتعلل به القلب الإنساني من رموز سامية وأمل بعالم أصلح وحسبك هذه الكلمة : المجد لله في العلاء وعلى الأرض السلام والرجاء الصالح لبني البشر . لم يدع لعيد رأس السنة شيئاً من المعاني الإلهية ، فكان عيد السماء وظل عيد رأس السنة عيد الأرض ، ولذلك خلا هذا العيد من المعاني التي تربط الأرض بالسماء .

لقد أمسى من تقويم الدهر ، كهنيهة يتنفس فيها المسافر الصعداء ثم يستأنف الخبط في بيداءِ الأمل. يلتفت المرء ، في هذه الوقفة ، إلى الوراء فيمتلىء قلبه مرارة إن كان خاب ، ويزوّد سنته بالكلمة المشهورة : تذكر ولا تعاد . وإن كانت سنة خير وبركة تلهف على واحدة مثلها تقبر الفقر .

الخائب في هذا اليوم يرجو ظفراً عتيداً ، والمفلح يتمنى مزيداً ، ولولا هذا الرجاء لخلا هذا العيد من كل معنى .

إني أرى الناس فيه سواسيةً ، فالشيوخ المطلّون على هاوية الأبدية، وأصحاب الرؤى والأحلام من الفتيان والفتيات ، يلتقون جميعاً عند عتبة رأس السنة . كلّهم يتقبّلون التهنئات بحرارة وابتسام . لا شكّ في أن ابتسامة الشيخ رخوة ولكنّها إبتسامة في كل حال .

وعلى ماذا يُهنأ الشيخ؟ ألأنه ماض لسبيله غداً أو بعد غد ؟ ولكن لا. الشيخ يرجو عمر لبد ، وعلى الأقل عمر لبيد الذي سئم الحياة وطولها وسؤال الناس كيف لبيد ؟ فليأمل . ليس عند الله أمر عسير .

هذا سر الحياة وهذا لغزها المعقّد المقعد وكلّما طول الحبل طاب للجواد المرعى .

أصبح هذا اليوم محطة لإذاعة التمنيات ، فلا تسل عما يتبادله فيه الناس من هدايا طريفة ، وما تهدر فيه من ثروات على الموائد الخضراء[1] . أما الفقير فحصته ألم وحنق وسبّ الدهر . كشف البخت في كل مكان . في كل بيت يستخبرون الورق ، فيضيّعون ما عندهم في سبيل استكشاف ما تضمره لهم الأيّام ، ومتى كانت الأيام تكشف ضميرها للناس ، إن كان لها ضمير .

هذا حديث رأس السنة العام ، أمّا الخاص فهو ذكريات عن شيخي . كان لجدي في ليلة هذا العيد رأي غير رأي الناس . كان يجلس متربصاً عن يمين الموقد ، كعادته كل ليلة وعصاه حدّه ، فيذكّرني قول زهير : والقوا عصيّ الحاضر المتخيم[2] . أجل لقد ألقى جدّي عصاه ، وقعد في قاعة الانتظار ... يقضي السهرة وشفتاه ترقصان الهوينا ، قد تفلت من بينهما ألفاظ ولكنها لا تفهم .. يولي ظهره السامرين كانه لا يعرف أحداً منهم ، وكلّهم أولاده وأحفاده وأنسباؤه .

القيامة قائمة حواليه ، لعب ورق يتفاعل به الغالب ويتشاءم المغلوب.

---

١ — موائد المقامرة .

٢ — عبق بالطيب .

كلاهما يخال أن هذا اللعب جدّ ، وعليه يتوقف نحس عامـه وسعده ، فكأنما سر الغيب يكمن في تقاط الورق وتراويقـه . يحتال كل منهم على الفوز ، ويتوسّل له ، بالحيلة والغش ، زاعماً أنه إذا غلب استولى على أمد الحظ ، وواكبه التوفيق والإقبال في سنته الجديدة .

وتدار على الناس أكلة ليلة العيد التقليدية : القمح المسلوق ، المخلوط بالجوز واللوز ، وما يتبعه من نقل فلا يأكل جدّي إلا نقرة ، فأخاله من تلك الطيور القواطع[1] التي طالما شبّه لي بهـا الناس في طريقهم إلى دنيا الأبدية .

وينام جدّي ، وأنام أنا ، والجمهور لا يزال في صخبـه ، لا أعرف ماذا كان يحلم ابن تسع وثمانين بمناسبة هذه الذكرى . أمـا أنا فمهما نسيت فلا أنسى أنني كنت أحلم بالصباحيات : بالسكربينـة الجديدة ، بالقنباز المقلم ، بالزنّار الحريري ، بالطربوش الأحمر العزيزي ، بمجاني الأدب الذي وعدني به ابن عمّتي الخوري ، بالساعة التي قال لخالي الخوري أنه يرسلها من القدس .

إن هذه الصباحيات تافهة بالنسبة لصباحية جدّي. كانت «صباحيتي» أولاً ، ريالاً مجيدياً ثم أخذت تكبر معي حتى جعلها أخيراً ليرة ذهبية .

كنت ووالدي مع هذا الدينار على طرفي نقيض ، تعجبني أنـا طلعته ورنته ، وتعجبه هو قيمته . أمّا ضمن حق قنطار طحين ؟ فيظل الدينار في حوزتي حتى الظهر ثم يزج في سجنه الموقت . أمـا لداتي[2] فكانوا

١ — الطويلة الاسفار .

٢ — رفقائي في مثل سني .

يتسابقون على « تصبيح » ذويهم ، والضربة في « الصباحيـة » لمن سبق . ولكن من أين لهم جد كجدّي تسخى نفسه عـــن أصفر رنّان ؟ كانوا يخوضون الضيعة خوضاً من كعبهـا إلى رأسهـا وما يجمعون إلا متاليك وبشالك . أما الليرة الذهبية ، وعليها صورة خيـال ـ مار جرجس ـ فـكان لا يظفر برؤيتها أحد غير مارون .

أذكر أننا تجمّعنا مرّة وقصدنا قرابةٍ لنا اشتهر بالشحّ[1] ، لنصبّحه بالخير . وعند انشقاق الفجر شققنـــا بابه واستولينا على المبادرة هاتفين بصوت واحد : صبّحك بالخير .

فهالته كثرة عددنـا وأوجمه صباحنـا ، ولكنّـه تجلد وقال : الله يصبحكم بألف خير .

وسكت وسكتنا ، فقـــال أحدنا : هات صباحيتنا . فأجاب : ألا يرضيكم أن يكون الواحد بألف . قال هذا وأيقظ زوجته ، وهي عجوز مثله ، فقابلتنا بوجه كالنعل . ولمّـا قـال أعطيهم صباحيتهم استبشرنـا وظننا أننا فتحنا القلعة . وما خاب الأمل إلاّ حين قامت إلى قدر هرمة جاءت معها في جهاز عرسها وقعدت تصب القمح البـائت بكرم حاتمي ، فقلنا لها : هذي أكلة السهرة ، والصباحية تكون من الكيس .

فتنطح العم للجواب وقال : ماسمعتم قول الانجيل : لا تعبدوا ربّين الله والمال .

وقالت هي : أولاد وقاح بلا مربى .

ومرّة حـــاول أخ لي أن يوقظني ليصبحني في رأس السنة ولكنني

---

١ ـ البخل .

سبقته فخاب ، فراح وهو يبربر : الله لا يسعد صباحك .

وفي آخر عمر جدّي وكنت صرت أفهم الخمس الطمس ، والكوع من البوع ، تجرّأت عليـــه وقلت له : أنت تعبس وحدك ، يا جدّي في هذه الليلة .

وكأنه قد أعجبـه مني أني فطنت لبعض سرّه فانبسط وجهه وقال لي ، هذي ليلة محبـّة ذات عندنا نحن البشر . نودّع السنة الرائحة بالطمع ونستقبل الغادية بفم مثل فم الحوت ، قلّـما تجد رجـــلا يحاسب نفسه حساباً صارماً . أمّا جدك يا مارون فموقفه في هذه الليلة من نفسه موقف الديّان الرهيب . يستعرض كل أعماله في بحر السنة .

أتذكّـر حسناتي وسيـّئاتي ، أكلّـف نفسي التكفير عن إساءاتي في عامي الجديد بمـا أزيده من حسنات . فـلو كان كل رجل بل كل صاحب سلطان يحاسب نفسه حسابـاً عسيراً في رأس كل سنة لمـا بقي في الأرض مظلوم ، ولملأ السلام الأرض وعاشت البشر بسلام . ولكن المادة سدّت الأبواب على المحبة فنامت خارج البيوت .

صدّقني يا ولدي إذا قلت لك ، ما وقعت عيني في هذا اليوم إلاّ على ناس يتمنّـون زيادة المال ، ولا فرق عندهم بين حرام وحلال . فما داموا لا يفكـّرون إلاّ بالمادة ، ولا يعنيهم غير زيادتهـا في العـام الجديد ، فمن أين تدخل الرحمة إلى القلوب ؟

أبواب القلوب مغلقـة ، الإحسان يقرع ولا يفتح له . فرأس السنـة عندنا عيد ابتهـاج وطمع ومنافسة . إبتهـاج بما كنزنا . وطمع بجذب المادة صوبنا ، لينتفخ كيسنا ويكبر صندوقنـــا ، ومنافسة على ادخار

ما تيسر لنا من حطام الدنيا .

فإذا ظل الناس لا يحاسبون أنفسهم كل عام إن لم أقـــل كل ليلة ، ماتت ضمائرهم ، وموت الضمير موت السلام ، ولا سلام ما دام المـــال معبوداً .

ثم حملق بوجهي وقال : أتفحص ضميرك كل ليلة كما علمتك ؟

فترددت في الجواب ، فقال : أيش بك ؟ ردّ .

فقلت : نعم .

فقال : « نعمك » ضعيفة . افحص ضميرك ونم . وما صبح إلاّ فتح.

وفي الغد فتح مصرّه[1] ، ونزل « الخيال » إلى الساحة ... وكان مارون بطل الصباحين ـ لا السباهيين[2] ـ في الجيرة .

---

١ ـ صرته .

٢ ـ نوع من الخيالة المغاربة .

استسقاء

لو رجعت اليوم يا سيد ، لاشتهينا أكل التبن .

كان الخوري يوحنا عبود ، جدي ومعلمي . وهو أول شخص لَزِمْته في فجر الحياة ، فما أحسنت قراءة السريانية حتى حملني على الصلاة معه ، فكنّا نقيمها أينما اتفق ، في البيت ، قدام الباب ، على البيدر ، في الحقل ، في الكنيسة ، كلانا يحمل « شحيمة »[1] فكنّا « خورساً » متنقّلاً نقيم الصلاة حيث تدركنا ، وكانت صبوتي صلوات متتابعة فكأنني كنت كاهناً « بالمقلوب » ..

كرّرت تلك الصلوات مئات المرات ، وما هي إلاّ ترانيم وأناشيد صوفيّة رائعة ، حتى حفظتها عن ظهر لساني ولا يزال جلها عالقاً بذهني على بعد عهدي بها ، وأشهد أنني ما برحت أهتز لسماعها كما كان يرتاح الخليفة المنصور إلى الحداء أكثر من الرصد والبايات[2] .

وفي ٨ شباط سنة ١٨٩٩ فرغنا من صلاة « النهار » وجلسنا على المصطبة الشرقية فقصّ علي جدي نبأ مار مارون وتلاميذه الثلاثة

---

١ – كتاب صلاة الكاهن الماروني الاسبوعية .

والحسين شهيداً ، وكانت تنهّداته متتابعة حتى أجهش بالبكاء فخفّفت عليه ، ثم ذكر رهبان دير « القطّين » وهو كهف عظيم قبالة قريتنا عين كفاع لا تزال آثاره ماثلة وان أقوت وطال عليها سالف الأمد[1] .

وبعدما حشا ذاكرتي بقصص أولئك النسّاك الحبساء نهض قائلاً : الحقني يا صبي .

ومشى ، ومشيت وراءه وانقطع الكلام وشرع يصلّي في طريقه إلى الهيكل تارة يهمس ، وحيناً يهمر[2] ، وان حيّاه أحد رد التحيّة بإيماءة كالومضة ، زاوياً ما بين عينيه كخلقته ، وما بلغ الكنيسة حتى رأى أخاه بالرب الخوري يوحنا الحداد في ساحتها فسلما « بالمجد لله » تحيّة القدماء. وجلسنا على مقعد حجري ودار حديث قصير فاستكبرا أمر القيظ[3] ، نذير المحل والقحط والجراد ، وعزا الكاهنان انحباس المطر إلى خطايا البشر الكثيرة ، ورأيا أن هذا « الغضب » لا يرفعه عن الأرض إلا الصلاة والزياحات فعزما على إقامة زياح حافل لصورة مار مارون استسقاء للمطر .

ثم قرأ جدي فصلاً من « مرشد الكاهن » ، وقرأت لهما فصلاً من كتاب « الإقتداء بالمسيح » ثم استأنفا الحديث فذكرا ثالثهما الخوري موسى – جدي لأمي – الذي مات منذ أشهر ، فقص جدي على الخوري حنا حلماً أذكر منه أنه رأى أخاه الخوري موسى يقيم قداساً « كبيراً »

---

١ – الزمان .

٢ – يرفع صوته .

٣ – اشتداد الحر وانحباس المطر .

في برّية واسعة وحوله جمع غفير من أحياء وأموات يعرفهم جدي. وبعد التأويل والتعبير ربح الميت قداساً وجنازاً أقاماه له في الغد . .

وانفض مجلسهما ودخلا الهيكل فقرعا الجرس وزيّنا البيمة وأسرجا قناديلها ثم تحوّلا إلى « القرّاية[4] » فنبشا الصلوات الخاصة بمار مارون في الشحيم والسنكسار والريش قريان وأعلما عليها جميعاً .

وقرع الجرس ثانية ، وما أمسينا حتى دقّ به ثالثة فأقبل كل جمهور الضيعـــة وقامت الصلاة وامتلأت الكنيسة رنيناً وهزيزاً ، ثم تليت على الملأ سيرة أبيهم القديس مارون وما قاسى من الشياطين التي كانت تجرّ به فانفجرت الصدور تنهداً ، ولما نال اكليل السعادة الأبدية فارقتهم النوبة وابتهجوا .

وكان الكاهنان يرصدان القارئين حتى إذا بدرت من أحدهم غلطة أخذوه بها واصلحوا خطاه بنبرة عنيفة ، وكان جدي اكثر تحدّيـــاً للشمامسة ، وكثيراً ما كانوا يكرهون معاونته ويهربون منها . ولكنه لم يلن لهم ومات لا يعرف الهوادة، كأنما كان يعتقد أن الغلطة تفسد الصلاة فما كان يحابي أحداً حتى الكهنة .

ولما انحلّت الصلاة قال للشعب قبل منحهم البركة : غـــداً نقيم قدّاساً وزيّاحاً كبيرين ، فعلى الجميع أن يعترفوا ويتناولوا ليربحـــوا الغفران الكامل الممنوح من سيدنا البابا لعيد مار مارون بشرط زيارة الكنيسة الخورنية والصلاة لاجل ارتفاع شان الكنيسة البطرسية .

---

٤ ـ طاولة يوضع عليها كتب الصلاة في الكنيسة .

ومع الصبح سمعت جدي يقول لأبي : ما افاق مارون ؟

فقال ابي : انا اروح معك ، خل الصبي ينام .

فنفر جدي وقال : صحّ فيكم قول الإنجيل يا حنّا ، أنتم ما دخلتم ومنعتم الذين يدخلون . يا ضيعان تعبي ، هيهات أن يكون خوريٌّ بعدي في هذا البيت .

فرفعت رأسي إذ ذاك وصبّحته ونهضت وقبّلت يده ، فباركني وضحك لي ضحكة مليئة ما رأيتها منه من قبـــل ، وانتقل يصلي حتى لبست ثياب الأحد والعيد،وسار وتبعته وظل يردّد حتى دخل الكنيسة، قطعة سريانية هذه ترجمتها: إن كان العبد بلا خطيئة من اين تعرف رحمة السيد ، إرحمني يا الله كعظيم رحمتك . وسجد وزميله الخوري يوحنا سجدة الصبح ، فقاما وركعا مئة مرة وأكثر . ولمّا أقبل الناس تحوّلا الى كرسي الإعتراف وظلاّ يعرّفان حتى الضحى ، ثم أقاما الذبيحة الالهية . وبعد الانجيل ألقى جدي هذه الخطبة :

يا إخوتي المباركين ،

اجتمعنا اليوم لنعيّد عيد أبينا العظيم . فمار مارون هو التاجر الذي حكى عنه الإنجيل أنه وجد درة ثمينة فمضى وباع ماله واشتراها . نعم يا أولادي، إن مار مارون هو العبد الصالح الذي ربح بالخمس وزنات خمساً أخر ، وفلح كرم الرب من الصبح حتى المساء ، كما سمعتم أمس ، وتسمعون الآن ، من مديحه . فالذي انقطع عن الدنيا كلها وقعد في مغارة يصوم ويصلي ليلاً ونهاراً ، ويدافع عن الايمان بتقوى وحرارة يستأهل أكثر من هذا المدح . صحّ فيه قول مار أفرام ملفان البيعة : ويكون لهم

بعد موتهم أعظم إكرام . وأيّ إكرام أعظم من العبادة ؟

ما كان أبونا مار مارون يعيش كما نعيش نحن ، وما كان يفتكر بما نفتكر به نحن ، كان يطلب ملكوت الله وبرّه . ومار مارون ما كان يلبس كما يلبس إكليروس اليوم الغنابيز المزرّرة ، ولم يكن يحمل عصا مذهبة ومفضضة . كان لباسه الشعر ليقهر النفس المتكبرة ، وعصاه من الزعرور ليردّ بها عنه الكلاب... وصليبه كان في عبه ليخزي به إبليس اللعين ، لا للزينة والبهرجة ... وهذا التاج الذي على رأسه ، والعصا التي بيده ، نحن الذين يغرّنا المجد العالمي . حملناه إياهما . ولو كان أبونا غير هكذا ما طلب يوحنا فم الذهب صلاته ودعاه. فمار مارون قس، والقديس يوحنا فم الذهب مطران عظيم ومن ملافنة البيعة .

إن مار مارون غلب الشيطان ، كما خبّرنا السنكسار ، ونحن أولاده يغلبنا الشيطان كل ساعة . مار مارون شفى مرضى كثيرين ونحن المرضى في قلوبنا وليس من يشفينا. نحن كما قال مار أفرام كنار الروح: دبّت الآكلة في الجسم وسرت .

يا حسرتي علينا يا أولادي ، إذا حجب الرب عنا رحمته فلانتا ماعدنا نفتكر به . تركناه فتركنا . ما عدنا نفتكر إلاّ بالدنيا ، كبيرنا إلى صغيرنا ، أبونا مار مارون أسّس ونحن ما وضعنا حجراً على الحيط . خراب عمومي في الدنيا والدين ، الروح الطيّبة راحت مع القدماء، وخطايانا الكثيرة ورّثت كل هذه الضربات والبلايا والضيق . متى كان ينقطع المطر في كانون وشباط ؟ ومتى كان يخاف الناس من الجوع والعطش في جبل لبنان؟

كيف نخاف نحن المسيحيين من الجوع ، وانجيلنا يقول: أبوكم السماوي يقيتكم ، ولا تهتمّوا بما للغد . كيف نخاف الغضب الرباني وعندنا التوبة والاعتراف ، والمناولة والصلاة . فاذا كنا نحن البشر يرق قلبنا على من يصرخ حول بيوتنا ، وعلى بقرة تعج في القبو ، فماذا تراه يفعل ربنـــا الذي قال : من منكم إذا طلب منه ابنه سمكة يعطيه حية ؟ أما هو الذي جرّأنا على الطلب منه بإلحاح ؟ أما هو قال لنا : أطلبوا تجدوا ، إقرعوا يفتح لكم ؟ قوّوا قلبكم واقرعوا بابه ولا تخافوا .

صلوا يا أولادي ولا تملّوا ، لا تتكلوا علينا وحدنـا ، فنحن فقراء بالروح . عندمـا كانت الكاسات والصلبان من خشب كانت القلوب من ذهب ، واليوم بالعكس ، كاسات وصلبان من ذهب وقلوب من خشب.. ويا ليت .. خشب منخور . ألويل لنا من تلك الساعة التي يقيم فيها ربنا الخراف من عن يمينه والجداء من عن شماله .

كلكم تعرفون مَثَل التينة ، فربّنا يسوع المسيح لا يقصد بالتينة إلاّ نحن الرعاة . فلو رجع المخلص اليوم يا أولادي ماذا كان يعمل ؟ الله يعلم.

وضاق به الكلام وخانه اللسان وتغرغرت عيناه بالدموع ، فالتفت صوب المذبح ليمسحها ، فوقعت عينه على الصليب فقال بصوت أعجز عن وصفه ، هذه الكلمة العظيمة على سذاجتها : لو عدت اليوم يا سيّـد لاشتهينا أكل التين ..

وكان سكوت عميق ، وأجهشت العجائز وقرعت الصدور وعاد جدّي إلى الكلام فقال : فلنصلّ يا أولادي ، فلنتشبه بأبينا مار مارون ، فبصلواته عمل العجائب الكثيرة . ما هي الصلاة ؟ الصلاة حكي الإنسان

مع ربه ، فإذا كان حكي الناس مع بعضهم يولد المحبة والإلفة، وإذا كان انقطاع الجيران عن الكلام يقوّي العداوة حتى نعجز عن حلها ، فايش قولكم بمن لا يحاكي ربه ؟ إذا كان أهل البيت لا يكلمون بعضهم فماذا يكون البيت ؟ طبعاً كلكم تقولون : جهنم الحمرا .

صلوا إذن فكلّ ما تطلبونه تنالونه كما يعلمنا الانجيل الطاهر،أطلبوا من ربّنا أن يتحنّن علينا ويرحمنا، أن يروّي قلوبنا العطشانة إلى النعمة الالهية ، ويسقي زروعنا ويبارك علينا ويحمينا من الجراد .

صلّوا عن نيّة بطركنا الجديد مار الياس بطرس الحويك حتى يساعده الله على تجديد البيعة وصيانة عزّها الروحي ، ويسير على درب بطاركتنا القديسين . وصلّوا له حتي يقوم بوظيفته ، فحملته ثقيلة . ولكنّه يقوم بها بعونة الله لا يخيب المتكلين عليه كما قال داود. البطرك الياس ، كلكم تعرفونه، رجل مجرّد عن الدنيا وفيه روح آبائنا الاقدمين، وقد حكينا عنه منذ شهر من على هذا المذبح المقدس .

أما أنا وأخي الخوري حنا فعبدان حقيران خاطئان ، تقع وتقوم تحت نير الرب سبعين مرة لا سبع مرّات ، كما قال النبي داود . فصلوا لأجلنا كما نصلي لأجلكم ، ولنتضرّع جميعنا إلى أبينا مار مارون ليسمع صلواتنا ويساعدنا ويسهر على كنيسته،ولا يهملها لأجل خطايانا الكثيرة. رزقنا الله شفاعته ، آمين .

ولما انتهى القُداس سار الجمهور بصورة أبيهم مار مارون يحملها الخوري حنا الحداد ، وجدّي يبخّرها ، والشمامسة يرّتلون ويترغون ، والشباب يقرعون الجرس قرعاً عنيفاً ،فالفرصة سانحة،وقرع الجرس أحب

شيء إلى قلوبهم ، ولا سيما ان قرعه في غير وقته كان فلتة في تلك الايام .

لا أزال اتذكر جدّي كيف كان يبخّر دائماً بحماسة ، وهو ابن ثمان وثمانين ، ويرتّل بصوته الجهوري الجميل ، الذي لم أرث منه شيئاً . يبخر وهو يعود القهقرى ، وانا خائف ان تعثر بحجر رجله فيقع. كان جدي ينظر احياناً إلى السماء ، وما دريت لماذا حتى كان المساء وتلبّدت الغيوم وسقط المطر .. وقال لكنّته أمي : هاتي عشّيني ، الرب قبل صيامي وصلاتي . كثّر خيره .

مار عبدا والمطران

كان شهر آب عام ١٩٠٠ يلفظ آخر نفس لمّا دعاني فليبّت. وتماشينا، هو شيخ يحمل على منكبيه أثقال قرن، وأنا غلام ظهره خفيف. وما جاز بيت أخيه الخوري موسى، جدّي لأمي، حتّى رأيته يكتم دمعة ويسترها ويقول:

هم السابقون ونحن اللاحقون، رافقني عام أول لزيارة مار عبدا ليلة عيده، فأين هو اليوم!

وكأنه ذكر قول رسول الامم: «ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي أن تحزنوا عليهم كالناس الذين لا رجاء لهم»، فصلّب ومشى يصلي. ولمّا توسطنا القرية نتر[1] يده من يدي، وما دريت لماذا حتى مال نظره الى ردم فيه بهيمة ترعى، فغضب ونادى صاحبها، فاقبل هذا يصفّق على فخذيه، وساقها بعد اعتذار طويل فاغتفر له جدّي زلة لم يتعمّدها.

ثم أخذ بيدي قائلاً: أتعرف اسم قديس هذا الهيكل؟ فقلت: لا. قال: اسمه برصوما، وهذه الخربة أقدم كنائس البلاد، كانت للروم والموارنة والفاصل بينهما حائط.

---

١ — سحب بشدة ونزق.

قلت : مثل بيتنا وبيت عمي . فابتسم للتشبيه وقال : تماماً .

قلت : واليوم لماذا لا تكون الكنائس هكذا ؟ قال : ما كان الأخوة يتفرّقون في الزمان الماضي ما زال البيت واسعاً ، واليوم يتفرّقون عند « البلوغ » . راحت الإلفة وكثر البغض .

وسألت أيضاً كعادتي ، فقال لا تكثر من السؤالات . أنا تعبان والشمس على الغياب .

ومشينا فأسرع نازلاً تسوقه الشيخوخة بعصاها ، فكان يجاهد نفسه فيبدو نشيطاً رغم التسعين. ولما بلغنا « الوطا» انسابت حيّة فصرخت: حيّة حيّة !! فوقف مضطرباً يهزّ عصاه، ولما رآها هاربة تبسم ابتسامة غير مشرقة وقال لي : خفت يا صبي ؟ نسيت قول إنجيل اليوم : « هـا هوذا أنا أعطيكم سلطاناً أن تدوسوا الحيات والعقارب وكل قوّة العدو، فلا يضر بكم شيء » ؟

وطوينا السهل فواجهنا رجل في يده ورقة سوداء الحواشي ، فوقف جدّي وقال : الله يعطينا خيره . فدنا منه الرجل وقبّل يده ، ودفع اليه الرسالة ، فقرأها وقال : الله يرحمها ، كانت امرأة فاضلة ، ماتت ليلة عيد شفيعها ودفنها يوم عيده . وأعاد الورقة إلى الرسول فأخذها بعد تقبيل يد الخوري ثانية وراح في طريقه . وأخذنا في العقبة فانقطع الحديث . وبلغنا دير مار عبدا فما رأينا هناك غير خمسة أنفار ؟ جزّارين أمامهما الضحايا ، ومكارين يحملون الشراب والنقل للعيد .

ودخلنا الكنيسة المهجورة فصلّى وصلّيت وراءه راكعين على الحصى والتراب أكثر من نصف ساعـة . قد يكون الوقت أقل وأنا توهمت

كذلك ، لأن زيارة الكنائس والصلوات كانت أتخمتني . وخرجنا فجلسنا في الدهليز على صفة ، فتنحنح وقال : ستسمع مني الآن قصتين : قصة الدير وقديسه ، وقصة مطران تخفى فيه . فتحركت يمينـــاً وشمالاً وأحكمت قعدتي فقال :

ما ترك الزمان من هذا الدير الكبير إلا هذا القبو والدهليز[1] التي يلاصقه . كان ذلك القبو مقام مار سمعان العامودي عليه السلام ، وهذا المكان كان ديراً للراهبات ، وبقايا المعاصر والآبار تدل على أنـــه كان مسكوناً لا مزاراً على تلة . كنا نعمل فيه رياضتنا الروحية قبلما فتح لنا الرهبان أبواب الديورة . أما قديس هذا الدير – مار عبدا – ففارسي الأصل من تلامذة يهوذا .

فخفقت برأسي ، فاستدرك قائلاً : يهوذا الرسول لا يوضاس اللعين. سام الحبر يهوذا مار عبدا أسقفاً على مدينة خشكار في بابل . فضحكت لها فقال : ما لك ! أعجبتك كلمة خشكار ؟ قلت : وضحكتني .

فتابع حديثه : وكان مار عبدا كثير الصلاة يشتهي اكليل الشهادة[2] جداً . فقلت : مطران يشتهي اكليل الشهادة يا جدي ! أما كان عنده تاج مثل مطارينا اليوم ؟ فتغاضى عن كلمتي هـذه وقال : فسار إلى مدينة « نوا » في تخوم الهند . فهززت رأسي ونفخت ، فتعبس وزأرني سائلاً : ما بك ؟ قلت كيف يذهب مطران ماشياً ؟ ما رأيت مطرانـــاً يمشي ، فالمطران ل. جاءنا على حصان احمر والمط .. فزجرني قائـــلاً : هس يا

---

١ – ممر ضيق ومظلم .

٢ – الاستشهاد .

صبي ، سماع . أما عجائب مار عبدا فكثيرة جداً ، مرّ بمدينة كان سكانها كفّاراً فطردوا القديس بالضرب والاهانة .

فقلت : وكيف يضربون المطران وأنا رأيت المطران بعيني يضرب بالعصا ؟ فتمتم : يا ويلاه يا حالاه !! ولمّا رأى كثرة الاعتراضات أسرع يعدّد عجائب القديس ، فقال شفى جمـــلاً كان « يسكنه » شيطان .. فقلت: ولماذا يسكن الشيطان جملاً؟أما علّمتني أن أقول وقتالتجربة: يخزيك يا عدو البشر ؟ إذن الشيطان عدوّ الجمال أيضاً .

فتململ وقال : وقتل تنيناً وشفى مرضى كثيرين. قلت: واليوم ألا يشفي ؟ قال : بلى . يشفي من البردية « حمى النفض » من يستشفعون به وينذرون له . وحاول أن يواصل كلامه فقاطعته : وإذا كانوا فقراء ولم ينذروا له شيئاً ألا يشفيهم ؟ قال : بلى ، إذا صلوا بحرارة . قلت : وهل النذر يغني عن الصلاة ؟ فأجاب : لا .

وكأنه ضاق بي فحتم علي ألا أقاطعه ، وقال : فآمن اربعـة آلاف فعمـدّهم وسام لهم كهنة وشمامسة . فقلت وبرادطة[1] وخوارنة أسقفيين أما رسم ؟ فأمرني بالصمت وقال : لا تقاطعني . ومضى يقول : وخرج من القرية فطلع عليه ثعبان في الطريق ، فرسمه بالصليب فمات . فقلت : أنت خلصت منه بلا رسم صليب ، فازهى وما أبدى وقـــال : وعاد القديس إلى مدينة « نوا » فرآهم مالوا إلى الكفر وهدّموا الكنائس وطردوا المسيحيين . وتنهـدّ ، فتمثّلت : طوبى لكم إذا عيّروكم واضطهدوكم .. فقال عافاكـ وجرها جداً ـ ولكن اسكت لا تقاطعني

---

١ ــ رتبة كهنوتية ادارية .

ولما علم اسقف البلد بعود مار عبدا جاءه يخبره بقتل الكهنة وهد الكنائس، فعزاه القديس..ودخلوا المدينة فهاجمهم أهلها فصلّى مار عبدا فحدثت زلزلة زعزعت المدينة ، وتراءت ظلمة ونار في السماء فخضعوا جميعاً قائلين : ارحمنا يا قديس الله ، فاسكت الرجفات بصلاته وشفى رجلاً مخلعاً .

قلت مبتسماً : مثل سيدنا يسوع المسيح . فقال بنفرة : نعم . ما قلت لك لا تقاطعني ؟ فامررت يدي على فمي ، وتابع حديثه : ورجع الاسقف إلى خشكار . فعاودني الضحك ، فاغتفرها لي ولكنه صبر علي لحظات وقال : فوجدهم رجعوا إلى عبادة الاوثان ، فوعظهم فاضطهدوه وسجنوه . وفي السجن عمل عجائب كثيرة ، وجاءه ملاك الرب في السجن وقعد يشدده ويعزيه .

قلت : الملاك الذي بشّر مريم؟ قال : عند ربنا ملائكة كثير .. وفي الغد جلدوه حتى انتثر لحمه وبانت عظامه فدهنوه عسلاً ووضعوه في الشمس لتلذعه الزنابير ، وأخيراً قطع الملك راسه وقتل معه كهنة وشمامسة وبتولات . صلاته تحفظنا . فقلت كالمعتاد : آمين .

وتحرّك للنهوض قائلاً : يا مار عبدا . فحزنت وتمنّيت لو يتمهّل قليلاً لأشهد العيد ، وخرجنا .. فردّد الناس فيما بينهم لما رأوه : خوري حنا عين كفاع . ودنوا منه فباركهم واحداً واحداً ، وكان يقبض على يد من لا يعرفه ويسأله : ابن من أنت ، ولو كان ابن ستين .. وانصرف وهو يقول لهم : توّقوا السكر يا أولادي .

فوقّفته لأطيل بقاءه ريثما أملأ عيني من مشاهدة العيد فقلت له :

وقصة المطران ؟ فأجاب : إمش . تسمعها في الطريق . ومشى وهـــو يبربر : كانت الأعياد للصلاة والعبادة ، فصارت لشرب العرق والنبيذ ، وأكل اللحم يوم الجمعة .. وما بلغنا الوطا حتى دخلنا في العتمة . وأضرم الشباب النار في المشيم ــ زينة الاعياد في القرى ــ فمشينا على ضوء نارهم حتى البيت .

وحدّثني في الطريق عن فرار المطران يوسف اسطفان من وجه المير بشير بعد عامية لحفد[1] ،واختفائه مدة في هذا الدير ، لأنه اتهم بكتابة صك الاتحاد بين الدروز والنصارى على أن لا يدفعوا للأمير إلاّ المال المعين .

وأقام المطران في الدير منتظراً صفح المير بشير ،ولما بلغه أن التوسط له لم يجدِ ، عزم على الرحيل إلى اضاليـــا مسقط رأس المردة ، فلحق به الشيخ يعقوب سمعان البيطار ، فادركه عند نهر البارد، وابلغه صفو خاطر الامـــير ، وأرجعه . ومثل بين يدي أبي سعدى فسقاه القهوة القاضية ..

ولما أنهى جدّي قصة المطران ــ كما لخصتها ــ أخذني من كتفي وهزّني بعنف قائلاً : كيف يا مارون ، أما رأيت مطراناً يمشي ؟

قلت : ولكن يا جدي هذا مطران .. فقاطعني بنبرة قائلاً : مـــا هذا مطران ، هذا يا جدي ، شهيد مثل مار عبدا .

قلت : ولماذا خاصم المطران المير حتى اصابه هكذا ، فالمطارين اليوم بألف خير ...

فقال بعدما حلق بي : هـذه إرادة الله وستّنا مريم العضرا ، ومتى

---

١ – بلدة في لبنان.

اتفقنا نحن والحكام يا ويل الشعب في لبنان. فمرقصنا ـ مرقص الكفاعي ـ الله يرحمه نهى مير جبيل كثيراً عن ظلم الشعب فما سمع له . ولما حبسه باشا صيدا في البير ... قلت : في البير ! قـــال : نعم في البير . طلب الأب مرقص فذهب الى صيدا فقال له : صلّ لأجلي يا محترم، بلّغ صراخ الشعب مسامع الرب الصباووت[2] كما قلت لي مرّات . ومتى رجعت خــــذ من زيتون الحكومة في وطا عين كفاع ، مـا يعجبك ، ملكاً لديرك ـ دير معاد[3] ـ وهكذا صار . وغداً في ذهابنا الى « النموة»[4] أدلّـك على الصلبان التي رسمها الأب مرقص في بدن الزيتون النني تملكه .

قلت : وماذا أصاب المير ؟ فأجاب خلّصته صلاة القس مرقص ... ووقف فجاة وقال : مارون أتعرف تعمل « مرثاية »[5] ؟ المرأة التي جاءتنا خبرها من اقاربنا ، هذه امرأة فاضلة. وحدّق إليّ كمن يترقب الجواب. ولما أبطأت عليه قال لي : أحب أن اسمعك قبل ان اموت .

فقلت : العمر الطويل يا جـــدي ، فأجابني بفرح كالبكاء : ولك يا عيوني .

---

١ ــ من عين كفاع .
٢ ــ الفائق العظمة .
٣ ــ بلدة .
٤ ــ النمي .
٥ ــ الرثاء .

حقاً قام ولكن بلا صيام

خسرت القرى كثيراً من ورعها وتقواها ، فأمست أيام الصيام فيها كغيرها من الأيام ، قلما تجد واحداً من بنيها صائماً أو ممتنعاً عن « الزفر » أي عن أكل اللحوم والألبان والبيض .

ففي هاتيك الأيام ، أيام السلف الصالح ، كنا نرى اللبن والبيض باعيننا ولا نذوقها ، ولو بكينا حتى تبيض عيوننا .

ـ عيب يا ابني ، الصوم كله سبع جمع !

كنت في السابعة أو الثامنة من عمري ، وكان والدي يقول لي : أنت شب طويل عريض ، وكيف لا تصوم ؟ أترضى أن تكون مثل الأولاد الصغار ؟ عيب عليك ، ما سمعت قول المثل : الصلاة عادة والصوم جلادة ؟

وأنظر أنا إلى عرضي وطولي فاجدني بين بين ، فلا أنا شب ولا أنا طفل ، فاخضع للامر الواقع . وأخيراً تعودت فصرت صائم الدهر لا تطلب نفسي « الترويقة » أبداً . وإذا فككت ريقي ذهب نشاطي ، و « رواقي » فانعس وءتنع على العمل في ذلك النهار .

كنا ننتظر جرس الظهر ، حتى إذا ما دق ، سكتت الضيعة وحسر[1] الجميع عن رؤوسهم . الصمت في كل مـكان . الراعي يسكت مزماره ، والفلاح يوقف فدانه ، فلا تسمع في الحقـول صوت نابس[2] . ومدرسة الضيعة تصلي صلاة التبشير بصوت جهوري ، وتفكّ أولادها وجميعهم صائمون، إلاّ من هم دون السابعة من العمر . كنت أطرب لسماع أجراس الظهر تقرع في الصوم ، أما اليوم فلا أسمع إلا جرس دير معاد . فالناس كلهم مفطرون ، ولماذا تقرع الأجراس ، ولمن ؟

صوموا تصحّـوا .. هكذا قيل ، ومع ذلك تُرك الصوم ، وكذلك صار حظ الصلاة ضئيلاً جداً، فاولئك المشايخ الذين كانوا يقيمون الصلاة خلت الكنائس منهم ، فلا قارىء ولا مرتـل ، حتى ولا كاهن . فاكـثر قرى بلاد جبيل لا خوري فيها ، مع انها ابرشية البطريرك ..

الكل متراخون متهاونون . ارتفعت الكلفة بينهم وبين ربهــم ، فصاروا لا يهابونه ولا يصلّـون له مبتهلين . والكهنة الموارنة « تليتنوا»، أي صار صيام الشباب منهم لاتينياً .. وجبة خفيفة صباحاً ، وغداء يملا الكرش ظهراً ، وعشاء بين البينين مساء . وهذا صيام له أجره عند ربك الغفور الرحيم .

جــاء الضيعة كاهن يعرفني يوم خميس الأسرار[3] ، وشرّفني بزيارة

---

١ – كشف .

٢ – مرتفع .

٣ – يقع في اسبوع الآلام، دعي هكذا لكثرة الاسرار التي يحتفل بها فيه: تبريك الزيوت المقدسة ، العشاء السري وغسل الارجل .

فدعوته إلى الترويقة، مجاملة ، حين ودع لينتقل إلى قرية تبعد عنا نصف ساعة ركوباً ، فلبى الدعوة .

وكان والدي جالساً معنا فعبس وتولى حين قام الكاهن إلى المائدة . وقال والدي . يا الله . وغادر البيت .

ولما ذهب الخوري عـــاد الوالد وقد وقفت شعرات جفونه كريش القنفذ . وقال : راح المحترم ؟ إلى أين مسافر حضرته ؟ إلى بجه[1] ! جدك وأنا كنا نمشي خمس ساعات على رجلينا ولا نفطر في يوم عادي من أيام الصوم ، فكيف يوم خميس الأسرار في جمعة الآلام؟ يا حسرتي على الرز ضاعت ملاعقه . هذا البيت ما أفطر فيه أحد في الجمعة الحزينة يامارون، تكارم ما شئت واعزم على الناس ولكن بعد العيد. لا تزعج عظام جدك.

واذكر أن رجلاً ماتت عنده غنمة في الصوم فقعد « يقورمها[2] » على مرأى من اولاده ، ولم يذقها هو ولا أحد من أهل بيته . وكان ابن البقرة السعيد الحظ هو الذي يولد في الصوم فيبقى له لبن امه . وإذا حلبت فيما بعد فلكي يصنع حليبها جبناً أو لبنة لفرحة العيد .

وكثيراً مـــا كان جدي في جمعة الآلام يفطر على ورق البصل ولا يذوق طعاماً أدامه الزيت . ويتعشى رأس ثوم بعد أن يشويه، ويتحلى بالتين المطبوخ بالدبس ، بعد أن يعود من صلاة الحاش[3] « الآلام» ويكون قد شبع من سب اليهود الذي لم يبطل ولا يزال ، ولكن المصلين بتلك

---

١ – بلدة في لبنان .

٢ – يجعلها « قورما » اي لحماً مقلياً ومحفوظاً لايام الشتاء .

٣ – صلوات اسبوع الآلام (سريانية).

الحرارة قد فقدوا .

كان رحمه الله يقول : قال الله لعبده : كن حاراً أو بارداً ، ولا تكن فـــاتراً ، ولذلك كان هو حاراً وخصوصاً حين كان يضربنا بعكازه إذا قصرنا في واجباتنا الدينية .

وكانت والدتي أشد حرارة من جدّي – وهو عمّها في جهتين – لأنها بنت خوري وكنة خوري وكلاهما زميتان[1] محافظان على الصلوات الخمس يقيمانها في أوقاتها ومواعيدها .

وينشأ ناشيء الفتيان منا   على مـا كان عوده ابوه

تعوّدت المرحومة أن تضع الشمعة وعلبة النـــار حد فرشة أبيها الخوري وعند رأسه ، حتى إذا ما نهض ليصلّـي صلاة الليل ، والكـل نائمون ، أضاء هو الشمعة وقام بصلاته على موسيقى شخير أولاده . ولما انتقلت بنته إلى بيتنا ، بيت أخيه ، ظلت تعامل عمّها الخوري معاملتها والدها ، ثم ظلت على تلك العادة ، فكانت إذا ما أمسى عندنا خوري تضع له الشمعة وعلبة النار حد رأسه .

وجاءنا أحد هؤلاء الكهنة الذين لا يصلّـون فاختارت له الوالدة شمعة جديدة ، وكم كانت خيبتها مرة حين لاح لهـا النهار ورأت أن بكارة الشمعة لم تفض ، فنادت والدي وهي تولول ، فهرول ظاناً أن في الفراش حية لدغتها ، وما دنا منها حتى صاحت متعجبة : تفرّج يا حنا، الشمعة بقيت كما هي !! يه يه يه .

– بلا يه وبلا بلوط .. اليوم صار البيـع بالجملة . أيام أبيك وعمّـك

١ – متزمتان لا يتساهلان في امور الدين .

راحت يا كاترينا . كان الناس يودّعون المرفع ويستقبلون الصوم بهذه العبارة : كما رفعتم بخير تصوموا وتعيدوا بخير . واليوم إذا اردنا ان نكون صادقين فماذا نقول ؟

وكان النـاس يعيد بعضهم بعضاً بقولهم : المسيح حقاً قام ، وكان الجواب : حقاً قام . واليوم يصحّ أن يقال : المسيح حقـاً قام ، ولكن بدون صيام .

عين كفاع

القرية هي عين كفاع،وحديثها حديث كل قرية في الأرض والمرّيخ، فالناس ناس في كل مكان وزمان ولا يعقّد الحياة إلاّ المدنية .

عين كفاع لفظة سريانية مركبّة ، تعريبها : العين المخفية . ووافق الاسم المسمى ، فخفيت على الحكومة فكانت كأبي نواس حين قال :

تحجبت عن دهري بظل جناحه فصرت ارى دهري وليس يراني

ولو كانت تحت الجناح لانتظرت النقف[1] ولكنها بعيدة عن الحضانة، فلا فرخاً انتجت ولا بيضة سلحت[2] .

كانت على عهد لبنان معبر القوافل القادمة من جبيل وجونيه وبيروت وصيدا ودمشق متقلة بالبضائع إلى بنادر[3] الشمال: دوما وبشري وأهدن وغيرها من دساكر[4] لبنان . فكانت الطريق ثرثارة أبداً ، لا تخلو من الرجل والحافر . أجراس بغال وجمال تدقّ ، وجلاجل حمير

١ ــ انكسار البيضة وخروج الفرخ منها .

٢ ــ خروج البيضة من الطائر .

٣ ــ اسواق .

٤ ــ قرى صغيرة ، مفردها دسكرة .

تهمهم ، ومكارون يغنّون مع الفجر العتابا والميجانا والمواليا والمعنّى والقرّادي ، وأحياناً أناشيد كنسيّة مثل : إن قلبي في هوى مريم ، وصلاتك معنا،واطلبي عنا ، فتظن أن بيعة سيّارة فيها أجواق مرتّلين لولا سبّ الدين إذا تعس الحمار أو كبا البغل . أما اليوم فالطريق خرساء طرشاء كمسامع الحكومة عن نداءاتنا .

نعم خفيت عين كفاع على الحكومة اللبنانية فمّهد الاحدب ــ مهما يكن من شيء فللأحدب الشكر ــ طرق الدواليب إلى القرى المحيطة بها من الجهات الأربع ، فزمّرت السيارات حولنا في كل فج وعلى الذرى[1] ، ورقصنا نحن رقصة الطير ... وهكذا ظلّت هذه القرية ، وحدها ، بلا طريق . لو مهّدت الأميال الخمسة الباقية لاختزلت طريق الارز ، وامن المسافرون حر الصيف وبرد الشتاء .

عاتبنا الدباس عندما مهّد طريق مار يوسف جربتا ، ولم يبال ببعد الشقـــة ، ودير مار يوسف هذا في وحدة الرهبان فيه بضع راهبات متعبدات فاضلات . وعاتبنا الحكومة فقالوا لنا « غداً » ، ولولاكم ما مهّدناها . لقد صدقوا ، استعاروا اسمنا كي يحققوا قول المثل اللبناني : النذر للدير ... الخ .

وصبرنا حتى ضاق صدرنا فكتبنا إلى الدباس ، يوم كان دكتاتوراً ، نذكّره بوعده فتناساه ولم يجب . وقيل لنا أنه يطرب للشعر ، ورأينا شاعراً يمدحه فيستحق شكر لبنان ، فكتبنا اليه شعراً عاتبين لا مادحين، ومما قلناه له : أننا على دين بشار لا نمدح ريحانة قبل شم . أمـــا تلك

---

١ ــ القمم ، مفردها ذروة .

القصيدة فهذا مطلعها ، والكتاب يعرف من عنوانه :

قل للرئيس عداك حظ انكد أقرىً معذبة وذير يسعد ؟

فما نفعنا الشعر ، ولا اجد النثر ، ولم يعـــد الدباس ذلك الحـظ الأنكد .

قـال العرب : الحديث شجون . ألا ترى كيف ينجرّ الحديث ، فلنعد إلى عين كفاع . أمـّا موقعها الطبيعي فدونك وصفه الوجيز : « جزيرة بريّة » على رابية مخروطية مفرطحة قليلاً ، تعلو مئتـــين وخمسين متراً عن الاودية التي تطوقها . خطـّط الجدود قريتنا الصغيرة في عين حكومتنا ، فإذا نظرت اليها من جبل معاد تخالها حلزوناً، يحدها شمالاً نهر شتوي يسميه الجغرافيون نهر المدفون ، وغرباً واد شتوي أيضاً يصب في النهر ، وقبلة وشرقاً سهل مقعـّر قليلاً ، مساحته بضعة أميال مربعة « تمت حدود بطريركية فارناي Ferney [1] » إن صح مـــا قاله فينا الأب ل. خليل « بشير ٤ تموز ١٩٣٥ » .

في هذا السهل غرسوا وغرسنا الزيتون ، والحكومة من الملاكين أيضاً في هذا السهل الخصيب ، وكم زجت ــ على عهد السلاطين ــ في السجون من أبرياء اتهموا بعقر زيتونها ، وما كان الجاني غير العاصفة ... أمـا في صدور الجبال المتكئة حول عين كفاع كثير امرىء القيس في عرانين وبله ، فأغراس عنب وتين وكل ما عرف الفلاح اللبنـاني من أشجار مثمرة ، فصار يحق لنا أن نرتل : والتين والزيتون وطور سينين وهذا

١ ــ مقر الكاتب الفرنسي الشهير فولتير من عام ١٧٥٨ إلى عام ١٧٧٨، وقد لقبت بـ « بطريركية فولتير » ، كما لقب الكاتب بـ « بطريرك فرني » .

البلد الأمين . حقاً انها بلد أمين ممن يدخلون القرى فيفسدونها .

إذا تأملت ترى الحيطان منظمة كسطور ابن مقلة فتحسبك في مدرج روماني ، والعرائش كالعرائس تجلل قلالها كأنها عذارى دوار في ملاء مذيل .

والقمم ، وما اجمل تلك القمم تختبىء خلف بعضها كعذارى لبنان في محفل ، عنيت القرويات لا المتسابقات إلى عروش الجمال .

الوادي الشمالي رهيب جداً ، وضيّق جداً كصدور اللاهوتيين المتحرجين[1] ... تتناوح فوقه الجبال حتى تتصافح ، يمتد من ميفوق[2] إلى سيف البحر حيث بني على قدميه جسر المدفون . مسافته عشرون ميلاً أو تزيد ، وتعاريجه أوضح ما تكون في عين كفاع ، فكأنك أمام فسطان الملكة فكتوريا المثنى والمطوي بشكل ملوكي . ولو كان هذا الوادي الذي تطل منه القرية على البحر عريضاً تجري فيه المياه لقلت لك: الدردنيل أو البوسفور . ولكنه يضيق فيصير قيد باع فقط . وفي هذا كان يربض الناس لتحيّة بعضهم في الليالي السوداء ، وكل ليالي « الزرّادات »[3] سوداء ، وأنّى لضوء القمر ان يبدد ظلمة لا تكاد تنيرها أمه .

في القرية وحولها هوى عديدة ، فقرب بيتنا هوّة سدّها جدودنا

---

١ – المتشددون في الامر .

٢ – بلدة في لبنان .

٣ – اسم مكان .

فصرنا نقصد هوة « المساسير[1] » حيث ندهور الحجارة ونصغي إلى صوتها وصداها ، فتتساقط من درجة إلى درجة فنعدّ السبعين والثمانين ولا نزال نسمع التدهدي[2] ، حتى اعتقدنا صغاراً ان هناك باب جهنّم ... وكانوا يخوّفوننا بخروج الجن والشياطين والعفاريت والرصد من فم تلك الهوة الرهيبة ليصدّونا عنها ، وللرصد حديث مثير لا نضن به عليك .

حول القرية كهوف تعد بالعشرات ، مُهرّتة فوه[3] ككواسر لامية العرب ، فكأنها فم الدهر يحدثنا بما مر أمامها من مشاهد وعبر ولا نفهم ولا نعي شيئاً .

أما غابات القريـــة ، وجل أشجارها سنديان ، فمربعات ومثلثات وموشورات[4] على جوانب كرومها ، وفي الجهة الغربية غابة تكسو الجبل من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وفي الجهة الشمالية بقعة كبيرة كلها من الآس .

القرية نصرانية مارونية وقديسها مار روحـانا يعيّـدون له في ٢٩ ايلول كأنه عيد القطاف والعصير ، أو مناحة أمنا على فتى فصولها . ان عجائب القديس روحانا كثيرة ، أكثر من عجائب يسوع ، وحياتـه غرائب ساحدّثك عنها يوم عيده ، أمّا الآن فاليك انموذجاً منها :

نجّى القديس صبيين من أسد « رديء » كاد يفترسهما ، وإن سالت

---

١ – اسم مكان .

٢ – صوت الحجر المتدحرج .

٣ – ممزقة وموسعة .

٤ – شكل هندسي .

كيف ذلك ، قيل لك : « عجائب الله في قديسيه » .

أمّا صورة القديس فتنبئك أنـــه أجرى نهراً حال دون الأسد وفريسته ، فاقعى يعوي كالكلب بالمقلوب. وعندما شككت صبياً سألت جدي الخوري : ماذا صار بالنهر بعد نجاة الولدين، وأي أصعب أقتل أسد أم إجراء نهر؟فانتهرني قائلاً:سد بوزك . آمن يا صبي ولا تسأل.وسكتنا.

ومن عجائب قديس ضيعتنا أيضاً أنه « استنبع » عين ماء لقريـــة ظمأى استغاثت به ، ولم يذكر السنكسار أنه استعان بالعصا كموسى... ليته يرق للقرية المتعبّدة له . فهي ظمأى تفتّش منذ أجيال عن العـين الخفية ، « عين الوطى » ولا تجدها ، فالأسطورة القروية تقول أنهـا مغطاة بسبعة لحف ..

سألت القديس روحانا ليلة عيده عام أول ، بعد ما أعيتني الحيـــلة وبقيت الضيعة بلا درب ، أن يعمل عجيبة واحدة ، فأجابني : ان الله لا يأذن بعمل العجائب اليوم .

فقلت : ما أقل حظّـنا ! فأجاب : نعم . ألم تقف الحكومة عن تمهيد الطرق حين جاءت نوبتكم ؟

قلت : ولكن الحكومة تعمل متى شاءت ، وتنفق عشرات ألوف الليرات على توسيع طريق وتعبيدها ، وتعتذر بالمراسيم إذا أبت .

قال : ونحن أيضاً نحتج بقلة إيمانكم ..

قلت : لو لم تبق شماساً لظل الرب يستجيب لك ويرخص بالعجائب متى طلبت .

قال : وحكومتكم كذلك لا تسمع إلا للمتقدّمين في الأخوة ...

قلت : هذا تعبير عتيق ، فالذين تعنيهم يحملون اليوم ألقاباً فخمة.. وإذا لم تقبّل أيديهم راكعين، حاسرين ، يحردون .

قال ...

قلت ...

أما بيت هذا القديس، « كنيسة الحورنية » فبنيانه فخم متين مشيّد على بقايا برج قديم لا تزال آثاره ماثلة، فزاويته القبلية الغربية راسخة على حجارة ضخمة كأنها من قلعة بعلبك ، وإن كانت دون الكبرى ضخامة، فكأن حجارة الهيكلين من مقلع واحد . أما درج الكنيسة فداخلي وهي أشبه بحصار منها بهيكل ، وفي خاصرة حنية الكنيسة حجرة مخفية أعدّها القدماء مدفناً لكنوزهم ، إذا اجتاح الغاشمون قريتهم واخذوها عنوة . وسنديانة الكنيسة الضخمة الهرمة التي أكلت الايام جذعها ، كقلوب الفريسيين[1] ، فتحدثك بعمر الهيكل . فعين كفاع ، كما ترى ، حصار طبيعي لا يدخلها الجباة ومبلّغو أوامر الحكومة إلاّ من بابها الشرقي ، ولولا هؤلاء ما عرفت القرية أن في الدنيا حكومة . فعين كفاع ، قبل الطائرات ، كانت قرية محسّدة[2] في ليالي الاهوال لا يلجها أحد بلا تعب وعناء ، ومن يضلّ الطريق لا يستطيع الخروج منها إلاّ إذا عاد من حيث أتى .

حدثني جدي عن الاميرين الشهابيين يوسف وبشير ورجال حكومتهما كيف كانوا يأتونها لصيد الحجلان والقطا (الحمام البري) بحاشيتهم

---

١ ــ فئة من اليهود هاجمها السيد المسيح لمراوغتها.

٢ ــ محسودة جداً .

وبثزانهم ، ودلـني على مقعد الامير في الوادي الرهيب ـ القطّـين ـ .
في هذا الوادي الجبار المقطب الجبين كان لرهبان ذلك الزمان المتقـشفين دير عظيم جداً لا تزال آثاره ماثلة[1] . ولخراب الدير اسطورة نذكرهـا في حينها .

وعلى الجبال عدة هياكل يتهددها الدمار : مار عبدا ، ومار سمعان ، ومار سركيس . في دير مار عبدا تخفّـى المطران يوسف اسطفان حـين أهدر الأمير بشير دمه بعد « عاميتي انطلياس ولحفـد »، وفي الذروة الغربية تجثم كنيسة معاد القديمة[2] كأنها احدى قلاع دردنيلنا البرّي .

وعلى جبالنا وفي اوديتنا كان يلهو مواطننا الاله ادونيس ، وكانت نمورتنا اشد احتراماً للمعبود ، فلم تفترسه كخنزير الغينة[3] البري .

هذه هي عـــين كفاع المسكينة . ومن محاسنها اليوم بعدها عن الضوضاء ، فكأن الحكومة الجليلة أرادت ان تبقي في بلادها المحروسة نموذجاً للقديم فما وجدت اصلح من عين كفاع في بلاد جبيل ، مهـــد الديانة والحضارة الاولى ، فسدت آذانها عن نداء اهلها . تعتمد القريـة على الحرير وقد مات ، وعلى الزيتون وهو يحتضر ، وعلى الكرمة والتين وقد هرما ، وعلى التبـغ ، ويـــد شركة الحصر آخذة بخناقه ، وعلى السفرجل والاجاص وغيرهما فلا تبيع ثمرة لتعذر النقل ، فتسقط الثمار

---

١ ـ تسريح الابصار للامنس جزء ١ صفحة ٩٠ .

٢ ـ اخذ منها رينان كتابة يونانية للإله ستراب تاريخها قبل المسيح، وارسلها إلى باريس .

٣ ـ الخنزير الذي افترس ادونيس .

تحت اماتها وتغفي المزارعين عن الاسمدة .

سماء عين كفاع صافية كقلوب القرويين ، فلا ضباب ولا رطوبة . أفق كمين الديك لا يتعقد فيه سحاب إذا أصفنا . ثمار استبدت باللذاذة، وخمرة دونها خمرة شمبانيا بوردو ، ذاقها اجانب كثيرون فاعرضوا عن خمرتهم واحتسوها متمطقين .

عين كفاع بحرى هواء . وللريح فيها هينمة[1] أزلية ، ولولا أن عين كفاع على قمة لقلت لك أنها ومحيطها كصحن مثروم[2] . يمر الصيف ولا يلزم واحد فراشه . الجميع في عرازيلهم وعلى مصاطبهم . عرب متحضرون ينامون على ابتسامة القمر ، ويستيقظون على غمز النجوم. لا يعرفون البق والبرغش . الجداجد[3] تزمزم في اوديتهم كابن المقفع ليلة اسلامه ، والحجلان تقوقي[4] مترحمة على المعري، والثعالب تعوي مسبحة خالق الدجاج والعنب والقثاء ، فتجيبها الكلاب ، فتسد بوزها[5] .

في عين كفاع تنتهي حدود الزمن ، ومقاييس الناس ، وعرف البشر وتقاليدهم. فناموسيتي[6] فيها مذرقة[7] مدبجة بالماس غماز، ومناطها الجاذبية كما يزعم احفاد نيوتن ، وكرسي رفرف أو افريز أو صفة . المحصول

١ — صوت منغم .
٢ — مكسور الطرف .
٣ — جمع جدجد، دويبة على صورة جرادة صغيرة .
٤ — تصيح .
٥ — فم بالعامية .
٦ — غطاء للسرير يقي النائم من البعوض .
٧ — قبة .

مشترك ، لا بيع ولا شراء إلا إذا ضخمت الكمية . على الغريب ابن السبيل ان ينادي الناطور ثلاثاً فاذا لم يجبه حلّ له دخول الكروم والأكل من ثمارها . الأكل مباح امّا الأخذ فسرقة وتعدٍ ، تلك هي الاشتراكية المعتدلة .

كثيراً ما كان يزورنا مجهولون ويصرفون في وادينا اياماً واسابيع وشهوراً فنقريهم[1] مما ملكت إيماننا ، حتى يستسلموا الى الشريعة التي تطاردهم ، أو يعفى عنهم .

إن يد الشرطة والجند قصيرة عن مطاردة الأشقياء في وادينا الرهيب. سنقص عليك ، أيها القارىء ، احاديثنا ، وهي أنواع وألوان شتى . فإن شاقتك فحسبنا ، والا فنحن في حديثنا ماضون ، ففي النفس اشياء لا بد من البوح بها وتسجيلها عملاً بمثلنا القائل : « بحنا واسترحنا » .

---

١ – نقدم لهم الطعام .

عيد الصليب من عين كفاع

جبل جاج[1] أقرع ، قاعد بوجهنا ككبير أناس امرىء القيس. بجاده[2] رمادي مجعد ، وفي وجهه نكت كأنها البثور التي تأتي الوجوه على الهرم . تلك فضلة أرز تشهد لنا عند الدهر على « اصدقائنا » الذين يأخذون منا جزية المحبة ، بل بقيّة كاس شربناها منذ كانت الألوهة فينا والمعبود منّا وإلينا ، ابن التي كانت لأوريا فكان أطمع من أبيه . حلق الرؤوس ونعّم ، وصار الخالق عريساً والهيكل مضجعاً لحبيبته الجميلة بالحذاء .. ان « يهوه » كان في كل عهد حجل صيد ، وبيته ستارة ...

ساعحك الله يا حيرام ...

يظهر جبل جاج من عين كفاع كحنيّة مذبح سقط عقدها فعوّضها الله من قبته الزرقاء. تتدحرج إليه الذرى كالكاهن الى مذبح ربه،فما أجمله والغروب يلفّه بعباءته كما اشتهى الزاجل اللبناني أن تفعل به حبيبته .

تلوح في الامد الابعد « قرنة حفرون»[3] فتخالها منبر واعظ بليغ لا

---

١ – بلدة في لبنان .

٢ – ثوب مخطط .

٣ – اسم مكان .

يقلق الناس كلامه المعتاد ، ولا تمل العين حديثه الصامت ، وإذا لاحت عليها نار الرعاة حسبته منارة بحر الظلمات .

يؤثر بي جداً منظر الغروب ولا سيا بعدما مال النهار . وها أنا أرسمه لك من خلف تاركاً لغيري وصفه من قدّام . فإذا احتضرت الشمس خلت جبل جاج جمراً مكسورة حدته ، حتى إذا فارقت الشمس المريضة رمّد رويداً رويداً ، وازرقّ من خلفه الأفق الأغبر ، ثم تشتد الزرقة وتسودّ إذا طالت غيبة القمر . فـلو شهد فولتير غروبنا العجيب لنسّاه ذاك الشروق الذي انخلع عقله حين شاهده .

والجبل جاج منظر نهاري أريد أن تعرفه . ان اتزرت سماؤنا حلّقت الشمس فوق الغيم وضربته فيلوح كسبيكة فضّة خارجة من تحت يد الصائغ ، فالشمس عندنا تفضّض ولا تذهّب .

وإذا استقبلت عند الدغيشة ملعب أدونيس ومرتع الزهرة ـ جبل الفتوح[1] ـ تراءت لك سنديانة « اغبة » الوحيدة ، الواقفة في الرقيع بين عاليه وعين كفاع ، كأنها شبح أحد الأجداد الذين عمروا هذا الجبل. وإذا أشملت نظرك رأيت البحر كشقّة كرمسوت[2] تليق بعشاق البرفير والأرجوان .

كثيراً ما يصعد الدخان عند أقدام السيّد المتكيء فنحسب الناس يبخّرون ضيفهم الدائم. ويستنير الأفق قبل وصول راعي النجوم فتخال

---

١ ـ منطقة في لبنان .

٢ ـ نوع من القماش الازرق .

ناراً توقد خلف جبل « القرين »[1] وتوشك ان تحرق شعور بنيّات الجبل ثم تتّسع قنطرة النور وتبدو صلعة ملك الليل كرقيب يتسرّق من وراء جدار حتى إذا قارب قرصه الثلثين خلته قاووق[2] جدّي الخوري لو كان طوّبه البابا وصوّره داود القرن .

وإذا علا القمر ذراعاً تأخذ الظلال في المرب من وجهه واحداً خلف واحد ، كعذارى لبنان القرويات من وجوه الزائرين. ظلال تمثل للشاعر دنيا لا يحلم بها إلاّ من كان كشاعر بنت الرقمتين[3] يرى بعينيها وترى بعينيه ... وإذا علا القمر قامتين اشتدّ البهق[4] وتوارت الأشبــاح في الكهوف واختفت في الاودية هاربة من وجه الفاتـح ، وتجلّت كنيسة بجّه[5] تحت برقع النور كأنها قلعة فقرا[6] .

أمّا وادينا الرهيب فيظل متمـرّداً ولو استوى الملك على العرش ، فهو خارجي كابن الزبير لا يبايع ولو صلبوه . ضيّقت جباله علينـا ولكنّـها أرتنا الشمس على ضربة حجر منّا، فظننا يوم كنا نحلم أن ملكوت الله لنا وحدنا ، اننا ندركها بيدنا إذا استوينا على قمة « الشباع »[7] .

---

١ – مكان من لبنان .

٢ – غطاء الراس للكاهن .

٣ – اسم موضع .

٤ – البياض ، ويعني هنا نور القمر .

٥ – بلدة في لبنان .

٦ – مكان اثري في لبنان .

٧ – مكان في لبنان .

وإذا ترطب الهواء الغربي ظهر جبل « معاد » قرب الفجر الكاذب ككاهن مربوع عريض الكفل يلبس درعاً من القطن المندوف مشرشر الأطراف .

هذا مشهد أراه كلّما اكتمل القمر . أمّا المشهد الذي أراه في العام مرّة فهو ليلة عيد الصليب .

أقف ليلة العيد قرب الغروب فيطير عقلي من رنين الأجراس المتجاوبة حولي في أودية ومغاور وهوى وآبار عين كفاع واسمع ما لو سمعه بولس حين رجع غانماً من السماء ، لمّا قال : لم تسمع به أذن ولم تره عين . فهذا يتحقّق عندنا ليلة ١٤ ايلول .

التفتُّ صوب الشرق فرأيت نور الشمس يزنّر الجبل كأنه يشدّ حقويه[1] كبطرس وإن لم يذهب به حيث يشاء كما أنذره معلمه . . وصعّدت نظري إلى قرنة حفرون[2] الناتئة كعرف الديك فخلت يسوع والشيطان واقفين عليها يتعاتبان . يذكّره إبليس بفرصة ضيّعها ويعرض عليه الدنيا مرّة أخرى ، فعجبت وأعجب معي أنت لشيطان يعرضها على ربّه ! وإن قلت لكاهن هذا ، لدار بك حول « الطبيعة الانسانية » حتى تدوخ . . وإذا قلت شيئاً آخر لقال لك : « بحسبما هو اله» . وهكذا تكون دائماً بين نارين مع « الحامين » عن الله ، وهم كالهر لا يقع إلاّ واقفاً ، فارمه كيف شئت .

وكأنني رأيت الجدال انتهى بقول عدو البشر للمخلص : هذه شواربي

---

١ – الحقو : الخصر ، والحقوان : جانبا الخصر .

٢ – مكان في لبنان .

احشـها إن ظهرت لهم ولم تاكلهـــا ... ولكن السيـد تغلـب أيضاً على جبل جاج[1] ولم يدخل في التجارب ... وإن لم يتجرأ على الظهور فهـو يعرف ما عنده ويحب السترة ...

أخذتني هذه الافكار حتى بدت أنوار العيد فصعدت إلى « قبـــة الوادي » ودقت أجراس الجوار فحسبت داود قام وهو يرقص ويرتـل للتواب الرحيم ، وعينــــه على اوريا آخر ... لا تستبعد حديثي فمن عين كفاع أسمع ثلاثين جرساً واكثر تدق كلها في تلك الساعة،فتصور كيف تكون. ثم علت التهاليل على القمقم فخلت كهان الكنائس المتهدمة نفضوا غبار القبر وتجمعوا على الذرى يصرخون مع الصارخين : محبة بالمسيح كيرياليسون .

وبين تهاليل الفتيان وهتاف الصبيان وتسبيح الكهـول والشيوخ تندلق ألسنة النيران من رؤوس الجبال وأحشائها كأنهـــا ألسنة أفاعي الشك ... ثم يتعالى الدخان كسلم يعقوب المشهور فتقول : هذه ساعـــة القيامة والدنيا تحترق ، كما زعموا ، وتحسد المستعدين ... وهكــــذا تستحيل بقعتنا معبداً منـــيراً فتغبر الفقاقيع الغائمة على كأس الفضاء الذي يشكل عندنا كاس شمبانيا. واذا جاز القاطع والمانع[2] في التشبيه كما يحلو في المنطق قلت : محيطنا كقشرة بيضة ـ كبـر ما شئت ـ نصفها من الغبراء والنصف الآخر من السماء .

« تخيـل أنت ما تشاء ، امـا أنا فاصف ما أرى وإذا لم تصدقني فشرفنا

---

١ ـ بلدة في لبنان .

٢ ـ ما يمنع التشبيه في قواعد علم البيان .

بزيارة .

لاحت لي طغمات[1] الوقيد على رأس جبل « بوشال» كصفوف عسكر في الجبهة لا تضمحل فرقة حتى تتقدم أخرى ، والدخان ينعقد فوقها كليل بشار ، ولكنها حرب بلا رماح ولا سيوف. فالكواكب لا تتهاوى.

تحلّق الانوار على الجبال كانها جراحات السيّد تفتحت على التلال لتغرق الكتبة والفريسيين بطوفان أحمر .. أو كأن للجبال عيوناً محمرة تنفتح على الأمة الجريح ثم تنطبق خوفاً من جلال المشهد . وتسمع خشخشة الهشيم المحترق كأنها فحيح الثعابين وكل هذه الأصوات تتّحد لتصير صوتاً واحداً يهتف مع المعيّدين : محبة بالمسيح كيرياليسون.

إنهم يكرّمون المسيح باللهيب ويسوع كان لهيباً حقاً كما قال الشاعر السرياني في بيلاطس ومحكمته : قامت القشة على الكرسي حتى تدين اللهيب .

إن نار تلك الخشبة ستظلّ متقدة ما دامت الإنسانية في حاجة إلى نار ونور ، فمن للمقهورين غير الناصري الشهيد ؟ فهو إمام المجاهدين ، ومن يقتد به لا ييأس . فسلام عليك يوم ولدت ويوم تموت ويوم تبعث حياً . أهلا بك يا سيد ، ولكنك طوّلت الغيبة . عجّل عجّل .

لو ترى محبة بالمسيح كيرياليسون تطير عن رؤوس الجبال كالعقبان وتتصاعد من الاودية كاليمام ، لهتفت معهم : هاللويا[2] كيرياليسون. فما أعظم هذا الضعيف وما أسعده ، ولئن طرد من القصور فهو سيد

١ ــ جماعة امرهم واحد .

٢ ــ هاللويا : عبارة طقسية تدل على الفرح العارم .

الأكواخ ولا يذهب من مخيلة الشعراء .

عظيم هو هذا المصلوب . يدفّيء أنفاسنا ميلاده وتفرح معناالارض بقيامته ، ونودّع الصيف بمهرجان صليبه .

إن جبال بلادي أبهج منظراً وأعطر روائح من جبال الارز كما قلت يا رينان . فلو تراها ليلة هذه المحرقة البريئة لقلت اكثر ، ولو رأيت محبة الناس ليسوع ليلتها لتيمّمك خبّه .

يخزي الله من يكفرك،ولكن الذي كان في اورشليم كالدجاجةالغريبة صار عندنا أغرب .

حللت يا يسوع محل ابن عمنا العاشق ، والهنا الولهان الطماح ، فأهلاً وسهلا ومرحباً .

علمتنا : اعطنا خبزنا كفاف يومنا ، فهات خبزاً .

إننا ننسى ليلة عيد صليبك أوجاعنا ، ونصدّق من خبّروا أنك حملتها عنا ولكن صباحنا أسود . إن خيراتنا بين أيدي هؤلاء المهللين ليلة عيدك ، والمتوّجين في صباحه ، والمعجن عدو الرغيف .

أعطينا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فاصبحنا على الأرض البيضاء ، فهل عندك تعليم جديد تبلونا به لنؤجر ؟

البشرّية كلها علينا ، والدينار الذي رأيته في القدس نام مثلك في الحبس . قلت لا تعبدوا الربين فتركناه وتبعناك ، فانظر ماذا تعمل لنا، هات ما عندك يا يسوع فالاتكال عليك .

هل من هرقل[1] يخلصك من أكاسرة اليوم لنعيّد لك عيداً جديداً ؟

---

١ ــ امبراطور بيزنطي .

هل من هيلانة تنجيك من الرطوبة التي البستك قميصاً من الزنجار[1] ؟ انا والله خائف عليك من الاستسقاء[2] ...

سلام أيها القروي ، والمجد لك يا ابن الضيعة .

« نوّروا » يا مساكين ، نوّر الله عقول رعاتكم .. إن بساط الصيف واسع ، أمّا الشتاء فطوبى لمن يقطعه . إنه يعيش عمراً جديداً . تعللوا بقول معلمكم . من يصبر الى المنتهى يخلص .

عظموا الخشبة بعد ثلاثة عشر قرناً ، واسألوا الله ان لا تسوّس ..

***

وقرب نصف الليل انتهى الفيلم ، فقعدت منهوكاً كمن قطع عشرين وادياً . وهبط ربعي عن التلال وجرى حديث عن الرب يسوع سأنقله اليك فلا تلجّ بحياة ربك . وإذا عذرتني كما عذر جارته بنت الجدل فربحت سعادة الدارين ، نعمت واياك هناك بجيرة ذات النورين .. ليت لي ولك ربع حظها .

---

١ — الصدا .

٢ — مرض يسبب احتقان البطن بالماء .

مجلس القرية يلوم الحكومة

لا نعني بمجلس القرية المختار والعضوين المعيّنين من الحكومة . فمجلسنا هذا لا ينتخب ولا يعيّن، ولا يتقيد بعدد وليس له نصاب قانوني قبّته سنديانة الكنيسة ودورته دائمة ، قبل القداس أو الزياح . نعقده حيث نجتمع : في السهرات ، في عيادة المرضى ، أو السلام على الغائب . فالسلام عندنا يحل على من يغيب عن الضيعة ولو يومين .

من حضر باع واشترى . فالأمر شورى بيننا، ولا خلاف على الرئاسة، فما أحد خير من أحد الاّ بالصحة والعافية والرأي السديد . فإذا دارت الغربلة والنخل حسبتك في طاحون أنطلياس[1] .. لا محاباة ولا شفقة . المجلس دينونة رهيبة ، ومن يشهده خال أنه في وادي يوشافاط[2] ، والويل لمن ساءت سمعته وقلّت هيبته ، فالمجلس يشجبه ولو كان رأسه ينطح السحاب .

امّا الاجتماع الذي أحدّثك عنه فكان مساء الاثنين ١٦ ايلول. فاكثر القرية ينتظرون صاحب البريد عصر الاثنين او الجمعة وهو لا يخرم ولا

---

١ – بلدة في لبنان .

٢ – واد في فلسطين . يقال انه المكان المقرر ليوم الدينونة .

يخلف الميعاد . استبطاه الناس ذاك النهار فتفرّقوا ليتمشّوا ، وعشاء القروي مع غياب الشمس فكأنه صائم رمضان أبداً .

نهق حمار صاحب البريد في سفح القرية عند الدغشة فردّدوا : جاء، جاء . وازدردوا لقمتهم ملهوفين وعادوا إلى الاجتماع على سطح البئر ، وان شئت تعبيراً جديداً قلنا لك « الفيراندا » لا السطح والمسطبة .

كانوا فيما مضى يسألون بطرس ــ البوسطجي ــ عن المكاتيب المضمونة الحاملة بشائر الفلاح ، لاهل الكادحين عبر البحار ، ولكنّهم صاروا غير مرغوب فيهم حتى في السنغال .. أمّا اليوم فكل بضاعة البريد وطنية : بلاغات محاكم، وانذارات . رسوم مسقفات ومسكرات، وغرامات يجود بها بعض الجنود الخيّرين على من يفتح باب بئره ، أو لا يعمل السدادة باطوناً او حديداً . .فباتوا في هذه الايام الرحراحة يتهافتون على الجرائد . كل يتناول واحدة من الصحف والمجلات التي ترد عليّ . الجميع يعنون باخبار الحرب ، فالملسوع يخاف من جرة الحبل ، فحرب الأمس أهلكت نصف سكان القرية وسكّرت حارة برمّتها . استغفر القلم والذاكرة بل فتحت أبوابها وسقوفها ، امّا اليوم فعادت الضيعة كما كانت من قبل نقداً وعدداً .

كانوا يتوقّعون أن تعلق الحرب بأوربا فابتدروا سلاحهم من خروب ما كانوا يبالون به ، فصح قول المثل المحلي : جاء من يعرفك يا خروب ، وثمار لم يكونوا يحرصون عليها لو لم يتذكروا كيف كبرت قيمة التين وابيض وجه الخروب ، فصار دبسه سيد المائدة زمناً ككافور[1] في مصر .

---

١ ــ زنجي تولى الحكم في مصر .

بشّرتهم الصحف بالسلام العالمي فدعوا للافال ولجنة الخمسة، وحيّوا الأساطيل الانكليزية الساهرة على السلام بأعين لا تنام ، وانصرفوا الى الأخبار المحلية فلفتت نظرهم الموازنة فتداولوا حديثها. أمّا ساعي البريد بطرس فما وعي شيئاً من هذا . انبطح يشخر ، وكيف يسهر من يطوف زهاء ثلاثين قرية في الاسبوع مرتين وفي خرجه مئات الرسائل المضمونة التي تفتقد بها الحكومة رعيّتها .. وتحصّل الغرامات؟

وخفّ عدد الناس فصعدنا إلى « قبة الوادي » لأن الليلة كانت حارّة، فقعدنا حلقة على الحصير كأننا في حلقة النظام[1] ، أو أحد المحدثين. بضعة عشر شخصاً كلٌ وجريدته ، وبينا انا أفتش في صحف فرنسا عن نبأ الكاتب الشهير هنري بربوس ، إذا بواحد يشق الحديث قائلاً: هه،صدقوا الميزانية .

فاشرأبت الاعناق وقال واحد : أية جريدة معك ؟

ـ صوت الاحرار .

وقال آخر : كم مليوناً ؟

فأجاب : أربعة ملايين و .. و.. وكسور .

وسأل اكثرهم : والطريق ؟

وكان سكوت وتغامز . أمّا أنا فنمت عن هذا الحديث وتشاغلت بصحيفتي . إن قصتي مع قومي ، وكلهم خير مني ، كقصة الأرملة وطبختها لبنيها . وهل وعودُ حكومتنا غير هذا ؟

امّا تلك فجاءها عمر وكيس الطحين على ظهره ، امّا نحن فقدرنا لا

---

١ ـ حلقة المدرسة النظامية في بغداد .

تزال منصوبة على الموقد والطعام لم ينضج .. غير أننا ما تمنسا ولن ننام فالجوع فضّاح .

فنهرني شيخ مجلسنا ونهزني قائلاً : أيش بك ، احسك ، اكتب للدّباس[1] .

فضحك فتى منّا خفيف ، فخفت أن يغضب الشيخ لأنه شوّاط ، فتواضعت له وقلت : يا خال ، الدباس مات ، وموعد وصول جثّته من فرنسا يوم عيد مار روحانا (٢٩ ايلول) .

فهمد كالمخجول وقال : أنا ما عرفت ، الله يرحمه ، عمله مليح مع جيرتنا ، مَن الريس اليوم ؟

قلت : حبيب باشا السعد .

فقال : عال عال . اذن اكتب للباشا .

فاجبت : عرضنا له عام أول .

فابتدرني قائلاً : انت ومن ؟

فضحكت ، لان ضمير الجمع معدوم عندنا ، فقلت : أنا وأنتم .

فقال : وأيش صار ؟

قلت : .....

فهزّ رأسه وقال : هيهيء ، وأطرق طويلاً .

واستلم الحديث شاب فقال : الطرق تعني مدير النافعة ، لماذا لا تحكي معه ؟!

فقلت : حكيت . ويشهد لي صديقي كرم ملحم كرم .

---

١ — رئيس جمهورية لبنان .

فقاطعني قائلاً : صاحب الف ليلة وليلة ؟

فقلت : نعم هو بعينه .

فاعترض آخر وقال : عليك بمدير الداخلية .

فقلت : وكلّمته في بيت صديقي نسيب عازار ، في غرزوز. ورأى أحدهم أن المحافظ يقدّم ويؤخّر فاجبت : كذلك فعلت في غرزوز ، ثم ذكّرته في عاليه .

وقال أحدهم : والقائمقام ؟

فقلت : آخر حديث كان بيننا يوم عيد مار يوحنا (٢٤ حزيران). سألني اذا كان عندنا مشاع فقلت له : الضيعة كلها مشاع .. وعدني بزيارة وأظنه فزع من الطريق فتأخّر .

فقال احدنا : يا هو ، نسيتم النوّاب ؟

فأجابوه : النوّاب يسألون عنا ويعرفوننا قبل الانتخاب . النوّاب مساكين ما بيدهم شيء .

أمّا شيخنا فاحتد وانتخى ــ هو خائف أن يموت ولا يصلّي عليه المطران ــ وأخذ يشيخ علي : يظهر يا خالي أنك تعرف تخربش على الورق ، وتطقطق على الآلة (الآلة الكاتبة) ليل نهار . خبّرهم عن طريقنا انها أهم درب في جبل لبنان ، « قادومية » تربط الدنيا ببعضها . ما سمعت حكي الجرائد عن سيدنا البطرك ؟ لا تتعجّبوا ، البطرك ملزوم يمشي ! المجمع اللبناني يأمره بزيارة أبرشيته ، هكذا قل لهم حتى يعرفوا حالهم ..

فعلت ضحكة أحس بها الشيخ مع أن الفتى أكل ثلاثة أرباعها فعقد

حاجبيه ودار ثم قال لي مشيراً إلى الشباب : أولاد الحكي معهم ضائع . يا مارون ، ما قلت للحكام اننا دفعنا ربع المجيدي ونصف المجيدي والليرة والربع ... منذ سنة الستين الى اليوم ، والحكومة ما صرفت بارة واحدة على دربنا . لو ردوا لنا مالنا بلا فائض عملنا أحسن درب في لبنان كله بلا جميل مخلوق خلقه الله .

فقلت له : قلت لهم كل هذا ، وقلت لهم ايضاً ان الحكومة اعتبرت دربنا فعدّتها من "المنافع العامة" بقرار سجل في النافعة تحت رقم ٢١١٦ بتاريخ ٢٢ ايار ١٩٣٢ وقلت لهم أن شق الباقي منها ـ ٦ كيلو مترات ـ يربط الشمال بالجنوب وتنفتح أقرب درب إلى الارز وقلت ..

كأنه رثى لي فقال : طيب ، طيب ، يظهر أنك قلت كثيراً . لماذا ما سمعوا لك ؟

فاجبته : لا أعرف ! فهزّ رأسه واحتبى . فقال واحد : كل هذا تعب باطل ، ما لها الاّ الفرنجي .

وبهتنا محيّرين فضحك شاب من عادته قراءة الجريدة من العنوان إلى الإعلان وقال : خبر كويّس .

فأصغينا إليه ، فقرأ علينا خبراً أذاعته جريدة الراصد ، وهو أن مدير الداخلية طلب من القائمقامين تقديم تقرير عام عن حالة كل قرية ودسكرة[1] ومبلغ حاجتها إلى الإصلاح من ينابيع شحيحة وملّوثة وأمراض.

فهتفوا جميعاً : نشكر الله ، لا ينابيع ولا امراض.

فقال : اسمعوا . وأتمّ : والطرقات اللازم فتحها وإصلاحها ؟

---

١ ـ قرية صغيرة .

فصاحوا جميعاً فرحين : جاءت وجاء بها الله .

وخفتت أصواتنا فقال واحد مشؤوم : اقرأ تفرح جرّب تحزن .

وقال آخر لعين جداً : اذا وعدتكم الحكومة بضريبة صدّقوا ، امّا إذا قالت لكم أعمل الطريق فيا طولها غربة .

فهزّ الخال رأسه وقال : إذا بقينا على ما نحن كيف يزورنا سيدنا البطرك ؟ أظن الحكومة مهتمة بالطرق لهذا السبب .

فتبسّم الكثيرون فعدا الشيخ طوره[1] وكاد يخرج من جلده وصاح بنا : عيب علينا أن يجينا البطرك ماشياً . ثم هدأ لحظة فصمتنا نكظم الضحك فقال لنا : بدا لي فكر .

فقالوا جميعاً : هاته يا بو يوسف ، فأجابهم : غداً متى جـاء سيدنا احملوه من اول « خراجنا »[2] الى آخره لئلا تصيبه مصيبة عندنا تصيّرنا مثلاً بين الناس . استرنا يا رب .

وتحرّك للذهاب فنهضوا جميعاً كأنهم معلقون بخيط واحد .

أمّا ما أقرّه «برلماننا» قبل الانصراف فهو أن نقطع الصفحة السادسة من عدد صوت الأحرار (٢٠ تموز و ٢٤ آب) ونرفعها إلى حضرة مدير الداخلية مع العريضة التي نصّوها هم واليكها بعد الترجمة :

تطلبون افادة القائمقام عن قريتنا، فلكي تعجّلوا في شقّ طريقنا ـ وزاد الشيخ : قبل حضور غبطته ـ وتحسبوا حسابنا في الميزانيـة

---

١ ـ حده ، ومعنى العبارة هنا : فرغ صبره .

٢ ـ اراضي القرية ، دعيت كذلك باسم ضريبة الخراج التي كانت تفرض عليها في ايام العثمانيين .

الجديدة أرسلنا ما كتبه أحدنا مارون عبود عن قريتنا وطرقها، فإذا لذّ لكم « النحو » قراتم ما كتب ، وإن أعجبتكم البساطة قرأتم عريضتنا هذه - ثم سردوا موقع الطريق وعلاقتها القديمة والجديدة بالجمهور. وغب الفحص والتحقيق إذا لم تصدّقونا تتّضح لكم حالنا وحاجتنا إلى الطريق، واننا بقينا وحدنا بلا درب ، فان كنّا محسوبين من رعيتكم تشقّوها لنا ، وإن تتعذروا عن شقها كلّها اوصلوها إلى أول خراجنـــا ونحن تتكفل لكم بايصالها إلى ضيعتنا، وتسليمها لجيراننا أهالي صغار وجربتا وتولا والبقيعة وضهر ابي ياغي وشويت[1]، وهكذا نربط البلادين-جبيل والبترون - والمحافظتين - الشمال وجبل لبنان - ويصير عندنا طريق تمكننا من بيع العنب والتين والزيتون والاجاص والسفرجل ، وإيصال دخاننا إلى مستودع الشركة بالوقت فلا تغرّمنا وتخرب بيوتنا،وحينئذ نقدر على الدفع للجباة ولا نردّهم فارغين. كثيرون منا، يا أفندي،يموتون ولا يلحقهم طبيب ولا دوا،فاطباء البلاد نزحوا ، والفرمشيات سكّرها أصحابها ، فاملنا أن تلبّوا طلبنا الزهيد الذي لا يكلفكم إلاّ خمسماية ستماية ورقة ، أنتم من خير المولى تنفقون بكرم وجود ألوف ليرات على تقويم حيط ، وتصرفون الوف الليرات تعويضاً لواحد من المامورين ما خسر شيئاً في حياته بل ربح كثيراً وضب .. فاحسبوا - لا سمح الله بذلك - انه كان منّا موظف وصرفتم له تعويضاً ، فاصرفوا لنا مثل هذا المبلغ وسمّوه مثلما تريدون : قرضاً ، تعويضاً ، حسنة لوجه الله ، نحن

---

[1] - اسماء قرى في لبنان .

قابلون بذلك وإن كان لا يساوي قيراطاً من أربعة وعشرين مما دفعناه وندفعه إلى الصندوق منذ سنة الستين إلى اليوم، إن الذي يأكل ولا يطعم تذمه الناس ، ونحن نعرف الحكومة كالأب ، والأب لا يفرق بين أولاده حتى المعاتيه[1] منهم ، وفي الختام نشكر مساعيكم المشكورة ودمتم بخير سالمين .

حاشية : إلى مدير الداخلية السيد صبحي بك أبو النصر .

هذه صورة محضر مجلس القرية نقلتها بحروفها وسأنقل ايضاً شيئاً كثيراً بكل صراحة، ولولا تعميمكم ما وجهوا خطابهم إليكم ، فعسى أن تحيط به المراجع علماً ، فقد أغلينا الورق وما من مجيب .

وأزيد حضرتكم علماً أن متمشرقاً كبيراً شاء زيارتي في لبنان فأجبته: إذا جئتنا في عيد الفصح تجدني في عين كفاع، فإذا كنت رياضياً كجماعتك الانكليز ، فاستعد للسير على قدميك في طريق قلقة المجاز[2] تتعثر فيها المعزى . فتعجب الاستاذ كيف يكون هذا في جمهوريتنا السعيدة بطرقها الرئيسية المزفتة العريضة كشوارع لندرة ، حتى تنازل وقال : يظهر أنكم توجهون بضاعتكم .

إن هذه الصراحة التي أخاطبكم بها قد خسرتني الكثيرين من أصحابي، عوضني الله من هؤلاء جميعاً بصداقتكم التي أخطبها وأتمنى أن تكون كشهر الصوم في الطول ..

---

١ – جمع معتوه ، وهو الاحمق .

٢ – الممر .

رسالة إلى الدابس

إليك يا سيّدي الرئيس ، أوجّه ، بعد السلام ، أول كلمة تصدر عن عاليه . لا تتعجّب أن أسلم عليك بالرئاسة ، وقد سقطت من يدك ، فنحن الجبليّين نقول مع تلميذ لامنّه : من صار كاهناً مرة كان كاهناً إلى الأبد . فالخال بو يوسف ظل يحسبك رئيساً حتى ١٦ أيلول .

أكتب اليك لأبلّغك عرفان جميل قرية مهملة تحترم الأموات ، أحسنوا اليها أم اساؤوا . أنت لم تحسن إلينا بيد أنك ما أسأت قط ، فلا أدري كيف أصحّح فيك قول المتنبي :

انا لفي زمن ترك القبيح به   من أكثر الناس احسان واجمال

فشقّكم الطرقات محتجّين بإيصالها إلينا ، ثم وقفها على أبواب الاديار أفسد معنى البيت، فلا أدري كيف جوّزت هذا وأنت وعيت في صدرك قوانين الدول كما قال الدكتور فياض في تأبينك .

سيدي ،

ما مشينا في ركابك ، ولم نمر أمام نعشك . إلا أننا ، علم الله ، أسفنا

جداً على شبابك المتّقد، وثقافتك الواسعة العميقة . عذرنا واضح ياسيدي، حاولنا تأليف « وفد » لنظهر بين الناس، وان كان الظهور يقطع الظهور فحالت دون رغبتنا وعورة الدرب .. لا تظنّني مبالغاً ، فبالكد كنا ننقل الذين يمضون لسبيلهم من مستشفيات بيروت ، نقع ونقوم مرّات تحت النعش . يؤيد ما أزعم بيروتيون كرام شيّعوا معنا جثمان نسيبتهم ، ادال كيرللس عبّود ، منذ سنة ونصف ، ففاضت ألسنتهم بالادعية الخيرية للحكومة الساهرة على راحتنا !..

ستاسفون يوم يبلغكم تاخرنا ، عفواً ، بل فقدان بضع حلقات من سلسلة الموكب ، وستندمون حين تعلمون ما فعلت القرية الصغيرة التي لم تخطر على بالكم واستهنتم بها .

اجتمعنا ـ مجلس القرية ـ بعد ١٦ ايلول مرة واحدة واتفقت كلمتنا على تعطيل العيد الكبير (عيد مار روحانا ٢٩ ايلول) حداداً عليكم واحتراماً لوصولكم ميناء العاصمة ، فلم ندقّ الجرس إلاّ بضع ضربات حزن إيذاناً بحلول الصلاة مساء والقدّاس صباحاً ، ولم نحرق القندول والبلان والكاز على سطح الكنيسة ، ولم نشعل القناديل ، فكانت الضيعة خرساء سوداء لا دق جرس ولا تنوير ، ولا مجال « قول » ولا رقص ولا زمر ولا « دبك » حتى القداس كان صغيراً[1] ..

اسال القرية فانا « واقعي » في أحاديثها . كل هذا فعلناه بلا دعوة ، ومن يدعونا ونحن ما زلنا منسيين كما كنا في عهدك ؟ فعسى أن يفيد

---

١ ـ بسيطاً وغير احتفالي .

هذا الدرس فلا نهمل ولا ننسى غداً .

الكلام بيني وبينكم . الظاهر أن الحكومة مـا دعت إلى مأتمكم الا من « قيدت » اسماؤهم في دفتر « القروض » التي ابتدعتموها ، فحققتم أحلام كل قرية ودسكرة كما قال صديقي صاحب البيرق ، ولكن أظنه يذكر جيداً أن أحلامنا نحن ظلت اضغاثاً[1] .. ما اقرضتمونا لأنـــه لم يتوسط بيننا وبينكم غير « حقّنا » . خطيئتي عظيمة يا مولاي ، ليتني تركت قومي يتوسّلون إليك ببطاقات من يمنحون البركة الرسوليـــة والدعاء الأبوي .

لا أدري إذا كان بلغك أن كثيرين لم يلبـّوا الدعوة . هوّن عليك . لا تتعب يا استاذ . هذا حالنا . نحن مع الواقف، والموّلي ما له صاحب. لقد علمناهم درساً عميقاً من دروس المروءة والوفـــاء فلعلنا لم ننفخ في رماد ..

كانني أراك تحك رأسك وتقول : عين كفاع .. عين كفاع . تذكر جيداً . تفطن ملياً ، تذكـّر كتابي الأخير المسجل في بريد جبيل المذّيل بكلمة شخصي . ففيه « مصوّر » الطريق ، وفيه وعـد صريح بتخليد اسمك في صدر جبل « القطـّين » الجبار ، كالفاتحين المرقومة أسماؤهم عندنا على صخور وادي حربا[2] .

وبعد ، فالماضي مضى. عسى أن يكون الحق حبيب الله في « العالم » الذي صرت اليه وليس في عالم الآخرة قرية مهملة مظلومة كعين كفاع

١ – ما كان مختلطاً لا حقيقة له ، مفردها ضغث .

٢ – منقوش في صخورها بالقلم اليوناني : من هنا الطريق .. الخ .

ننقل اليها ونعلق بها الى الأبد فلا يعد « المجلس السماوي » طريقها من المنافع العامة لتصل إلى قصر مار بطرس وبولس،وتقف على باب كرسي مار يوحنا فم الذهب ... ونبقى نحن بلا درب ، حتى في الملكوت إلى دهر الداهرين .

أنا خائف كثيراً من هذا ، بحياتك تطمئني والسلام عليك .

وداع الرئيس حبيب باشا

اليوم سلّم شيخ لبنان مقاليد الحكم إلى فتاه ، ونعم الأب والابن .

أبى القلم إلا أن يودّع فارساً جالد عشرات السنين ، وشيخاً مفرداً حمل على منكبيه أثقال جبل وأهوال دهر .

ففي كل طية من جبينه تستريح أمنية متعبة ، وتحت كل شعرة من مفرقه يرقد أمل منهوك .

ما كان قط إلا قائداً ، شاباً وكهلاً وشيخاً ، فكأنما ولد للعظائم :

ما عجن لبنان وخبزه رجل مثله ، ولا رأى أحد منا ما رأى ابن هذا البيت .

فمن عهد الإقطاعات ، إلى زمن المتصرفيّة ، إلى يوم الانتداب ، والحكومة قائمة قاعدة في بيت سعد الخوري .

لست أؤرخ الآن ، فادرس تاريخ سعد ، فهو تاريخ لبنان الحديث .

فيا ابن البيت الذي « ذاب » في حب لبنان ، إننا نحييك .

إننا نودع رئاستك شاكرين حامدين ، فما أبقيت من جهدك شيئاً .

لئن غاب شخصك عن الديوان ، فرأيك ماثل في كل مكان .

يا أبا اللبنانيين .

يا ابن بنت الجبل .

أيها الوجه اللبناني المجيد .

يذكرنا محيّاك سماء لبنان المحضة .

السماء التي يبتلعها الأفق رويداً رويداً .

سيذكرك لبنان بالتعظيم ، ويعلم أنك كنت حاكماً له وأباً .

تهشّ للقمر وترحّب بالمثقّف ، وتداور العنيد الوقح .

خدمت بلادك حتى أعييت ، فأنت بالراحة الجليلة جدير .

فاجلس على عتبة بيتك،وانظر إلى البستان الذي حرثت حتى المساء.

لقد سقيته عرق جبينك ، ودفنت مع كل حبة ذرة من حياتك.

لقد ألقيت منجلك التي فضضها الحصاد ، فبارك الآتين بعدك .

هنيئاً لمن تحل عليه بركة اليد النظيفة .

الرؤوس تنحني باحترام أمام اليد العليا ...

أما اليد السفلى فتزدرى .

سنذكر ولايتك مرددين قول أبي الجهم في معاوية :

نميل على جوانبه كأنا إذا ملنا نميل على أبينا

نقلبه لنخبر حالتيـه فنخبر منهما كرماً ولينا

عمّرك الله ما لبقت بك الحياة .

فبقاؤك أمل أشهى من العنقود .

ورجاء أخصب من الحبّة .

بمناسبة الدستور والاستقلال

كسائي كسائي انه الدرب بيننا فلا تدع الثغر المخوف بلا درب

هذا ما قاله ابن الرمي في الدرب ، والدرب حديث ابن عين كفاع . فهو يتوجع ، وإن لم يبك كصاحب امرىء القيس لمّـا رأى الدرب دونه ... قالوا للجوعان : ثلاثة واربعة ؟ فقال : سبعة أرغفة . وأهالي عين كفاع المحرومون من حق المرور إذا وعظهم الخوري قائلاً لهم بلسان المخلّص : انا هو الطريق ، والحق ، والحياة ، جدّفوا في قلوبهم حانقين على من هضموا حقهم في الطريق التي هي الحياة .

طريق عين كفاع مشكلة دولية قد لا تفضّها جامعة الامم ، فكلما داويت جرحاً سال جرح .. جعلت في ظل جمهورية الاخوان وأبناء الاعمام غاية مبررة لوسائط سادتنا الأحبار المحترمين ، فتمسّحوا بنا كتيس[1] الخطيئة ، ولما تراءت ظلامتنا بعد حين لفخامة الرئيس السابق ، حبيب باشا السعد ، أدرك ان الطريق هي العلاج الشافي لجراح القرى والمزارع السبع فامر بشقّها . ولكن مبضع حضرة مدير النافعة تحوّل عنها ، أما لأنـــه كان يداوي الجرح الأقوى ، واما لأن قلبه رقيق لا

---

١ – ثمة اعتقاد ان السحرة يركبون تيساً سمي تيس الخطيئة .

يحتمل فظاظة الشق ... كان موعدها شهر آذار فنسيها ، كما قال، وهكذا انقضّ علينا آذار المدّار ابو الصواعق والامطار ، فترك الدار تنعي من بناها وعدنا نبني من جديد فتصدّى لنا «العجز» وصحّ بنا قول المثل: لسوء حظ الحزينه سكّروا المدينة . أما اليوم فالقرية سكرى بالآمال تحلم بالحياة والمساواة ، وإن شاء الله يشرب الكمّون[1] .

●

الليلة مساء الجمعة ، واليوم عيد رهبان مار مارون، وهؤلاء قديسون طاروا إلى السماء رفاً واحداً ، ٣٥٠ شهيداً ، فاحدث وصولهم لبكة في الملكوت كما يحصل في الفنادق الكبرى عند وصول أفواج السياح ... أما مانحهم إكليل الشهادة ، أي قاتلهم، فهو أخوهم بالرب الأسقف ساويروس من أتباع أوطاخي وديوسقوروس . قتلهم لتمسكهم بإيمان المجمع[2] الخلقيدوني ، وكم قتلت رؤساء المذاهب من أبرياء وأبادت من شعوب وأمم .

لهؤلاء الشهداء أخوة عندنا ـ الضمير يعود إلى عين كفاع ـ فالاسطورة تروي أن دير القطين المظيم ـ راجع آثار لبنان للامنس ـ كان مأوى رهبان أتقياء قتلوا كأخوتهم رهبان مار مارون ، ولم يعصمهم سور الدير الحصين القائم صامتاً كئيباً في وادينا الرهيب كجبّار مقهور . لهذا تغالي عين كفاع في احترام هذا العيد المثنى ، ويذكر أهلها بحسرة الرهبان

١ ـ اشارة الى المثل الدارج : اسقيك بالوعد يا كمون ـ والكمون نبات بزره من الافاويه .

٢ مجمع عقد سنة ٤٥١ حرم القائلين بالطبيعة الواحدة بالمسيح .

الشهداء كلما أطلوا من أبوابهم الشمالية ، ووقعت عيونهم على هـذا الدير الخرب الذي لا يشبهه في لبنان غير دير قزحيـــا ، مخرج الشيطان من الممسوسين[1] بعد أن يشبعه الراهب قتلا بمداسه..أمّا ديرنا فاروع وأقدم منه ، وفي الخراب روعة وعبرة لا تقرأها في سطور البنى العامرة . أما ماذا ينفع ديرنا المؤمنين ، فصاحبته « سيـــدة البزاز[2] » تغزّر حليب الأمهات فيهرّ من ثديهن هرّا ، أو يجري مثل النهر كما روت لي إحدى العجائز ..

إذن علمت ، لا شك ، ان سماع القداس في هذا النهار لازم ، والبطالة عن جميع الاشغال العالمية واجبة ، ومن يخالف يأثم ، والأفصح ، كما يعبّر اللاهوتيون ، يخطىء خطيئة مميتة تنزل إلى جهنم ، ولا يحلّ منها إلا يمين الخوري الطاهرة ، فننجو من الهلاك الأبدي ... فالعيد،علم الله، فضيل كما قال محمد محسن ، عضو مجلس إدارة متصرفية لبنان في عيد مار ساسين الواقع يوم السبت ، فاقترح تعطيله وقبل اقتراحه بالإجماع،فشم المجلس الهواء ثلاثة أيام ذكر فيها بالخير ابراهيم صادر، صاحب المفكرة، التي هدت محمد محسن إلى قديس اسمه ساسين نفزّع به الاولاد كيـــلا يتشيطنوا ...

وكانت للعيد أروع بهجة هذه السنة لأن المهندس وديع بعقليني أنهى ليلته تخطيط الطريق، فكان القداس وصلواته وتضرعاته وابتهالاته من نصيب فخامة الرئيس . أما فخامة الباشا الحبيب فأخذ نصيبه في حينه ،

١ – الممسكون بالشيطان .

٢ – اسم مكان .

ولا يزال الدعاء له ملء الافواه .

وليوم الجمعة عندنا ميزة أخرى لا تفارقه،فهو موعد وصول صاحب البريد. فلو مات ، مثلا ، عزيز علينا يوم السبت مساء لا يجيئنا نعيه قبل مساء الجمعة أي بعد اسبوع ، فيصحّ بنا قول المثل : يا معزّياً بعد حين يا مجدّد الأحزان . يقول المثل اللبناني : إذا كذبت بعّد شهودك ، أمّا أنا فشاهدي في يدي وهو ختم البريد وخبري فرح – يقطع الموت من الدنيا –

دعتني لجنة دار الأيتام الاسلامية لحضور الاحتفال بالاستاذين أحمد امين وعبد الرحمن عزام المصريين، وسماع محاضرة أحدهما أحمد أمين،وأنا ممن يحترمون اجتهاد أحمد الادبي ، فارسلت كتابها اليّ يوم السبت ٢٥ تموز فوصلني الجمعة مساء ، بعد الحفلة بيومين .

قد أدركت بعدما قدّمت لك ان سهرتنا ستكون حافلة . نعم يا سيدي ، وانها من ليالي الدهر . بحث فيها « مجلس القرية » شؤوناً هامة . وقبل تسجيل وقائع جلسته الخطيرة لا بدّ لي من أن أعرفك تواريخنا ، وحدودنا ، ومواقيتنا . الحدود والتخوم في عين كفاع كهوف ومغاور . فلو سئل أبو يوسف أين حصدت اليوم ؟ أجاب : عند مغارة القطين . ولو سالت المعاز أين سرحت المعزى الليلة؟قال لك : عند مغارة البابين . ولو سالت من أين اكلتم عنباً وتيناً ؟ أجابوك : من عند مغارة الفتاح . ولو قلت للصبايا الحاملات العنب المتلألىء كثغورهن ، من أين هذا ؟ قلن لك : من عند مغارة طنوس فرنسيس . ولو سالت الناطور : أين رأيت

أثر ديك فلان ، ودجاجة فليتان ؟ قال : عند مغارة القس مرقص أو مغارة القرقفة . ولو قلت لناظر يحملق ماذا ترى ؟ قال لك : رجلاً فوق مغارة شير بنّور لعله فلان. ولو خبّرك الشيخ عن بطولته في أيام عزّه، قال لك : كنت معهم عندما كبسنا اللصوص في المغارة السودا ، يوم عيد مار الياس ، وسلمناهم لطالب بك . مدير جبيل قبل ولده الشيخ وديع ، حاكم بيبلوس .

امّا مواقيتنا فصلوات، فهم يقولون جاءنا الجابي صلاة الظهر،وجاء عدّاد المعزى عند صلاة الرهبان ، ووصل المهندس بعقليني عند دقّة الصلاة ، وكبس مفتش المونوبول الضيعة والناس في الزيّاح ، ورجع المرسال قبل القداس .

امّا التواريخ فاعياد ، يقولون : ولد حنا يوم عيد مار بطرس وتزوجت صابات يوم عيد ماريحنا ــ يوحنا ــ ووقع البطرك الياس عن البغلة قبالة عين كفاع يوم عيد جميع القديسين ــ وعيد جميع القديسين في الكنيسة كالجندي المجهول في الدولة ــ ووصل جرجس من أميركا ليلة عيد مار روحانا ــ قديس الضيعة ــ ومات صباح الميلاد ، وكانت زلزلة «سنة ١٩١٨ » ثاني عيد مار روحانا ، وانتهت الحرب يوم عيد مار شليطا ، وماتت بقرة فلان ليلة الغطاس ، وهكذا .

والقرويّون يعتقدون باختصاص القديسين ، فكل قدّيس مختص بمرض ، يشفي منه أو يبلي فيه . فهو يعمل الأمرين ، كما يقول الشاعر : إذا انت لم تنفع فضرّ الخ...وبعض القدّيسين يخنق أيضاً،ولذلك ينذرون لهم عند وقوع أقل عارض لهم . فسبحان مقسم الرزق على عبيده الصالحين

في الحياة والممات . فالقرويـّون يتوقعون الري يوم عيد مار شليطا (٢٠ تشرين الأول) شفيع البقر والحمير ، وينتظرون نزول السماء يوم عيد مار جرجس البطل الصنديد الذي كان شفيع بني تغلب قبل الانكليز وموعده ٢٣ نيسان ، وريـّة نيسان تسوى السكة والفدان ، والخضر أو جريس أبو الحربة يخضخض البحر في هذا اليوم مفتشاً عن اولاد التنين الذي قتله وخلص بنت الملك من شره ...

•

أقبل الليل وأقبلوا ، وسلموا وسلّـم عليهم بطرس ، موزّع البريد ، اللطيف الأمين ، وجلسوا كل على هواه،وتناول من يقرأون منهم الجرائد بلا إذن ولا دستور . وتحـدّث الآخرون عن أعمالهم اليوميـّة ، عن بيادرهم، عن مصيبة أحدهم بموت بقرته على البيدر وانكسار فدّانه،وعن مؤاساة الضيعة له والمؤاساة أحسن مزايا القرى ، وخير ما فيها سلامتها من المن . وكان حديث العنب فاثنوا على كرمي « الكساير وشحواتا »[١] لأن عنبهما يحلوقبل الكروم كلها،وكانت المفاضلة بينهما كما يفاضل بعضهم بين الشاعرين شبلي الملاط وبشارة الخوري . وتحدّثوا عن السفرجل والاجاص والزيتون والتين وعللوا النفس باليسر في العام القادم لأن غلتهم تنفق ، فدعوا للأستاذ إده بطول العمر من صميم القلب ثم جاؤوا على ذكر الدستور والاستقلال ، فقال واحد : نحن على ما نحن ، بدستور وبلا دستور .

---

١ — اسم مكان .

وقال ثان : خلّوا الدستور لطلاب الوظائف الكبيرة نحن على هذه الحصيرة .

فهزّ ثالث رأسه وقال : هذا كلام ، الدستور مليح ، كيفما دارت الحال .

فاجاب رابع : عرفناهم فوق وعرفناهم تحت . العلّة من الرجال، هم نوّموا الدستور في القبور ، وصيّروا الاستقلال للاستغلال. الدستور منفعة لناس معلومين ، أيش نفعنا الاستقلال وأيش عمل لنا الدستور ؟ ابن الضيعة مسكين ما له حظ من الحكومة إلاّ إذا كان له فيها ظهر قوي.

فقال واحد : إذن نحن حظنا أكبر من جبل جاج ، إده إبن بلادنا.

وقال واحد بكل هدوء : هيء ، إده لكل الناس .

فاجابه ذاك ؟ بلهجة القاطعة حجّته : عال يا سيدي ، رضينا، نحن نطلب أن يساوينا باقل الناس .

فامن جاره على كلامه بقوله : وكثّر الله خيره ، فاعادها ذاك، وقال قارىء الجريدة : كتب إده للبطرك ... ــ فتغامز الشيوخ لانه لم يقل سيدنا ــ والمطارين والمفتي ومشايخ العقل وأصحاب الجرائد واعضاء المجلس ورؤساء الجمعيات يسالهم رأيهم في الدستور والاستقلال .

فقال بو يوسف : غنمت لحاكم . وجر « كم » حتى بلغت قانون المونوبول طولا ، وضحك كالساخر ثم عبس وقال بحدة ونزق : أيش هم الرؤسا والحكّام ، البطرك والمطارين يطلبون العشور وياكلون غلة المفلوح والبور ، والحكومة تطلب الضرائب . يا بحر الله خذ عبد الله ، كل هذا ما يرد علينا شيئاً .

فقال شاب متعلم: الحق مع الخال ، صار إده رئيس جمهوريةوأخذت الجرايد تطلب وتتمنى ، قولوا لي أية جريدة طلبت لنا شيئاً ؟ هل طلبت جريدة شق طريق ؟ هذا لا يهمهم لأن الطرقات حولهم وحواليهم، كل هذا باطل ، ما يعرف المرض إلا الواقع فيه .

فقال قارىء الجريدة كالمستغرب : اسمعوا يا بشر ، البطرك طلب ان يكون للافوكاتو ـ المحامي ـ ثلاثة اصوات ، وللطبيب مثله ، ولد .. فاتها واحد : وللخوري ؟ فضحكنا ، وأوما ذاك برأسه أن لا . فقال كثيرون : خسر سيدنا البطرك وما درى بتقليله من قيمتنا .. فقال واحد : نعم غلط سيدنا البطرك . فسمعها ابو يوسف فازورّ ورفع يده قائلا : يا صبي سد بوزك .. فضحك ذاك .. وشاؤوا أن يتنادروا على الياس فخبروه ان ليس له في الانتخاب القادم إلا ربع صوت لأنه امي . فحمي الياس علينا وعلى أولياء الأوقاف الذين ياكلون أموالها ويتركون الضيع بلا مدارس كما جرى في أيامه . وهوّسوه فتهوّس كعادته فشهر الحرب على رجال الدنيا والدين ، وسأل إذا كان القاصد[1] الجديد وصل ، فعلمنا ان المسألة ستتطور .

أمّا أبو يوسف فسكت عن حديثنا كأن لم يسمعه . ثم قال : في الزمان الماضي كان اعضاء المجلس من الضياع . الله ، الله يا دنيا كيف تقلبت الأحوال ، كيف راحت أيام فارس أفندي ، وأسعد بك ، والزغزغي . أعضاء اليوم مساكين ما ينفعونا شيئاً . كلهم أولاد مدن ، وابن المدينة ما عنده شيء من أخبار الضياع .

---

١ ـ السفير البابوي .

فقال واحد : ما كلفت الحكومة نفسها وسالت أحداً من الضياع ، ضاع حقنا يا ترى من سؤال بسيط ؟

فجاوبه أبو قزحيا : على حد سوا ، سالت أو لم تسال الرأي الاخير لمن ؟ للفرنجي .

وكانت كلمته فصل الخطاب ، فعادوا يستعرضون الماضي السعيد ، فقال كهل : العم أبو يوسف كان يقبض من موسم الشرانق وحده خمسين عسملية ، أي عثمانية . من عنــــد المغارة وحدها كان يستغل بأكثر من عشر ليرات ، أتتذكر يا خال قبضة عيد ماريحنا ؟ (٢٤ حزيران) عدّوها لك قدامي على الحصيرة ، كانت فوق الستين لـيرة واكثر . فابتسم ابو يوسف لذكراها الحلوة . وأشار المتكـلم إلى الجمهور بلباقة : تفضّلوا ، اسالوه كم قبض السنة ؟

فتنهّـد أبو يوسف وأجاب : سبــع ليرات . فقال أحـدنا متجاهلاً : ذهب أم ورق ؟ فصاح أبو يوسف : ذهب يا مجنون ؟ وأين الذهب؟ورق، ورق ، دفعتها مال طريق عنّـي وعن الأولاد ، ويا ليتها كانت كافية .

فتنهّـد أكثرهم عنـد ذكر الطريق وقال الكهل : وكان أبو يوسف يقبض نحو أربعين ليرة ثمن دخان ، كم قبضت يا خال عام أول ؟

فاجاب : ثلاثين ورقة قبض الجابي عني منها ١٧ ليرة وأعطاني وصلا بالميرة . فهمس أحدهم في اذن ابي يوسف : يسلم البيدر يا خال ، فضحك أبو يوسف وقال : آيه ، الحمد لله ، السنة طيب ، البيدر مليح ولو محل ، الجابي لا يجيء صوبه .

فقال واحد : ولكنّـه يحجز اللحاف والطنجرة . وقال آخر : أيوه،

الجابي وقح لا يذكر الخبز والملح . تمشى ونام عند سركيس ، وترك له الإنذار تحت المخدة .

فقال أبو يوسف : كلّه هين متى وجد الخبز « إطلبوا دستور يحمي التنّور » .

فأعجبتهم كلمته هذه فضحكوا جيماً ، وأبو يوسف كالمرحوم والده الخوري موسى يحب السجع . وهكـــذا عادوا إلى السياسة من حيث لا يدرون ، فقـــال قارىء الجريدة : يطلب البعض جعل النواب خمسة وأربعين ، فقال واحد : إذن زادوا واحداً على أم أربع وأربعين . وقال آخر : ما الفائدة لو صاروا مئة وخمسة وأربعين ؟ نحن على مـا نحن لا نخطر على بال أحـد منهم . كل نائب يفتكر بصحابه ، ونحن قش رز ، أحسن رأي أن تعتمد الضيع على جريدة تطالب بحقوقها .

فقال ناقم : عجيب ، كيف تغيرت الأحكام كلّها بعد الحرب .

فقال آخر : عندي شرح المجلة ، ولكنهم قالوا لي أنـه صار ملغى . فضحك واحد مشهور بالتنكيت فعلمنا أنها جاءت ، فسكتنا ننتظرها فتنحنح وقال : أخذت أم سمعان لإبنها كتاب لاهوت عتيق من عنـــد خوري الضيعة ، فلما رآه معلمه قال لها : رديه معك يا ستي ، هذا بطل ، فقالت له ام سمعان : يا ترى المسيح العتيق مات ..

فقال لبيب : كما في السما كذلك على الارض . فكمّـل واحد ضعيف العقل وهو يظننا نصلي : اعطنا خبزنا كفاف يومنا ، فجاءت في موضعها وصح فيه قول المثل اللبناني .

وقال مترصّن : وزاد الطين بلّة قانون المونوبول[1] ، من يخرم منه حرفاً خرب بيته ، فالسيف مسحوب فوق رؤوسنا ويقولون لنا الاستقلال ، الاستقلال . وأين الاستقلال لمن لا يزرع حقله بعقله ؟ وأين الاستقلال للذي لا يسحب كيسه على عيني وعينك يا تاجر؟ وأين استقلال ابن الضيعة والمزرعة ما دام تحت رحمة المفتش والورديان وبيته معرّض للنبش كل ساعة ، وغلّته في خطر الحرق إذا أرادت الشركة . مصيبة الضياع كبيرة جداً جداً وخصوصاً ضيعتنا عين كفاع .

فقال أبو ميشال : هذا الصحيح ، ثم هز رأسه وصاح : والله والله ، وحق جسد الرب ، وحياة الله ..

فسد أبو يوسف أذنيه كيلا يسمع الحلف بالله بالباطل. أمّا أبو ميشال فما بالى بل انتخى ووقف وقال : وحقّك يا مار روحانا ، فشخه ــ أي خطوة ــ ثنتين ثلاثة ، لو ما كان ديب ناضر مثل السبع وركض إلى عمشيت في الليل وعملوا له تسع حقن كان مات وبليت عظامه . يا هو ، لو كانت عقصت الحيّة عمي مارون من كان حمله إلى عمشيت ؟ كان مات معنا على الدرب ، اشكروا الله يا ناس .

فاخذ يشكر الله وابو يوسف يدق بيده على ظهره استحساناً لما قال كانني كنت أنا الملدوغ ، مع أنني كنت في عاليه ليلة عضت الأفعى أخانا ديب ناضر . واسترسل أبو ميشال في حديث مؤلم عن الذين ماتوا ولم يسعفهم طبيب ، فتنهّد الناس جميعاً ودعوا للرئيس بالخير لأنه أمر بشق الطريق وهندسها البعقليني .

---

١ ــ الحصر ، الاحتكار .

ثم آل الحديث إلى فتى حامل شهادة فقال بلهجة خطابية انما بدون سيداتي سادتي : لا بطرك ولا حاخام . ولا مفتي ولا مطران ، ما حك جلدك مثل ظفرك ، يجب أن نهتم بأمورنا ، كلنا نعرف أن القرى حياة الحكومة لا المدن فلماذا تهملها الحكومة؟ قولوا لي . هذا ناتج عن خمولنا نحن أهل القرى ، الحكومة لا تعرفنا إلا يوم الانتخاب ، وحين تحتاج إلى امضاءاتنا للشكر والتاييد ، فلو كنّا رجالاً ما انتخبنا ولا ايّدنا إلا من يؤيد مطالبنا العادلة ، يا ذوات .

فهز أبو يوسف رأسه وتبسم لكلمة « ذوات » ، ولكنه التفت صوبه، فقال الفتى : تذكرنا الحكومة في أيام المواسم فترسل الجبـــاة لسؤال خاطرنا ، فتهلل أبو يوسف لها وقال : صحيح .

وقال الفتي : تأخذ منا لتعطي غيرنا . فضحك أبو يوسف وقال آية الانجيل : من له يعطى ويزاد . فقال الفتى المتحمس : تتذكرنا الحكومة كما يتذكر المعلم ـ أي الملاك ـ شريكه يوم العيد إذا تأخرت العيدية ـ أي الهدية ـ أمّا في أيام البيدر فيحاسبه على الحبة .

وتوقّف قليلاً فخفنا أن يرتج عليه ولكنه استأنف كلامه قائلاً : البطوا الذين ركبوا على ظهورنا حتى وصلوا إلى الكراسي ، ولما صاروا في السرج ما عادوا ذكرونا ولا عرفونا . فلتعلفنا الحكومة حتى نسمن ، الحمار يعلق له صاحبه اقة شعير ليركبه طول النهار ..

فصاح ابو طنوس : عشت يا بطل ، وتحمس الجمهور فقال واحد : ربما كانَ بين الذين سالهم الرئيس من يعرف أحوالنا ، فقال الشاب : لا تعيشوا على : ربما ولعل ، إرفعوا أصواتكم والرئيس يسمع، أناأعرف

الأستاذ اده .

فناسبت الرؤوس تعجّباً ، وتناظروا هامسين : هو ، هو ، يعرف اده ! أمّا الفتى فلم يبال وأتم حديثه قائلاً : فهّموه أنكم تدفعون ولا تقبضون ، يأخذون منكم ليعطوا غيركم . خبّروه أن الموظف إذا كان بخير كانت البلاد بألف خير ، والعكس بالعكس . فهّموه أنكم تموتون ولا يعلم بكم أحد،لا أطباء ولا صيدليّات ولا طرقات ولا مدارس،ولا ماء ولا كهرباء . خبّروه أنكم منذ سبعين سنة مـــا صرف لكم غرش واحد من صندوق الحكومة لاصلاح طرقات القدم والحافر [١]،خبّروه كل شيء ، دقّوا الباب تسمعوا الجواب ...

فقال كبير المجلس : لا تخافوا يا ناس ، الارض تنهز ولا تقـــع ، شدّوا الحكم ، ثم التفت إلى الفتى وقال له : سماع يا ابني ، كن مطمئن البال ، ربنـــا قدير وهو يعرف كل شيء ، ثم لا تنس ان الدول تروح والفلاح باقٍ ، راحت تركيا ونحن بقينا ، واليوم كلنا نترحّم على المير يوسف لأنه كان يحب الفلاّحين .

وفتح الفتى فمه ليردّ عليه فسمعنا صراخاً وعويلاً غريبين فركضنا حفاة ومنتعلين فاذا امرأة تصرخ فوق رأس ابنها الوحيد وهو مصروع أمامها يقاسي غمرات الموت . بلع عجوة مشمش فسدت زلعومه،فركض أبوه إلى شبطين [٢] ، وعمه إلى جبيل ، وخاله لا أعلم إلى أين.وأخيراً تركته أمه بين ايدينا وأسرعت إلى مار روحانا لتضع على مذبحه فسطان العرس

١ ـــ الحافر للدابة بمنزلة القدم للانسان .

٢ ـــ قرية في لبنان .

وسوارها الذهبي، وحملت عمته إبريق الزيت لتضيء السيّدة،وهي كنيسة قديمة خربة لم يبق منها إلاّ آثار دارسة[1] ليس لها امرؤ قيس يبكي عليها. امّا نحن فالتففنا حول الصبي ننتظر الأطباء ولا ندري ماذا نصنع له .

الشّقة بعيدة ، والطريق عكشة ، والقمر غاب . ومن يعلم إذا كان يأتي الترياق من العراق قبـــل أن يكون العليل فارق ، ولكن الله ستر وعمل مار روحانا عجيبة_ ومنهم من يقول السيدة عليها اشرف السلام_ فبقّ الولد العجوة ...

---

١ ــ بالية ، متهدمة .

عن المونولوك والغلاء

بلغت بي السيارة كوع غلبون [1] ، فطرحت الصوت على الضيعة ، والصوت تلفون القرى ، فجاءني المكاري بدابة آية في الدواب ، وما ركبتها حتى أخذت في التحويل الصاعد والنازل فخلت جزيرة ترحل . بانت أذناها على الضهر وظل ذنبها في النهر . ولم أعد أدري إلى أي القطبين أنا أقرب .

أعلم علم اليقين أن من ذم زاملة [2] المكاري فكأنه قدح في عرضه ، ومع ذلك لم احتشم منه فقلت : يا سبحان الخالق ، من أين لك هذه العروس ، ومن هداك اليها ؟

فضحك وقال : الغـــلا جلاب . قلت : حقاً انها عجيبة . فامتعض وقال : البرهان أنها شغلتك عنا فما قلت كيف حالكم . قلت : خف ربك يا رجل ، وهلّتني دابتك ، كيف حالكم جميعاً ، كيف الضيعة من كعبها إلى رأسها ؟ فقال : بخير تسال خاطرك . قلت : والأحوال ؟ قال : لا تسال ، الأحوال أوحال . سنة ضيّقة .

---

١ — قرية في لبنان .

٢ — الدابة وغيرها مما توضع عليها الأحمال .

قلت : لا خوف عليكم ، الزيت غال جداً . فقال : وأين الزيت ، بعناه في المعصرة ، بأربعين وخمسة وأربعين ، ورأس السعر كان خمسين. قلت : الدخان يسدّ العوز [1] ، اضحكوا في عبكم .

فملأ الوادي دعاء للشركة ، وإذا لم يجد من يستبد به ضرب الدابة بعصا لسعني رأسها فخلتها عصا موسى تستحيل ثعباناً عند ذكر فرعون.. واثنيت من أجلها على طول الاثان الذي استبشعته واشتد إيماني بلا تكرهوا شيئاً .

ودخلنا الضيعة مع الدغيشة [2] ، فجاءت الوفود للسلام ، وطالت سهرتنا كليالي كانون . كنّا فرحين « بالطريق » لو لم يأتنا من جبيل نبأ غلاء الطحين ، فاسودّت الوجوه وقال المتّكئين : لولا غلاء الحبّة كنّا بألف خير ، يظهر أن ربنا لا يكمّلها .

كان عهدي بالضيعة فرحة مرحة ، إنجيلية لا تهتم للغد ، فإذا بوجوه الناس كابية [3] وابتساماتهم مغبرة ، وقلوبهم بلا رجاء . كلهم متشائمون خائفون ، لا نكت ولا نوادر . ذهبت ليالينا الكشكشية [4] ، ننتظر نكتة فنسمع آهة . وبعد صمت غير قليل قال أحدهم : كيف نعيش السنة ؟ ما بقي غير الدخان ، ويا ليته لنا ، تسلفنا عليه من هذا وذاك، ومن يعلم متى تستلمه الشركة منا ، وكيف تسعره ؟

---

١ – الحاجة .

٢ – عند بدء الليل .

٣ – منخفضة .

٤ – نسبة الى كشكش ، الممثل الهزلي المصري .

فأجاب آخر : استلمت عام أول في تشرين وتستلم السنة في شباط ، والسنة القادمة في نوار ، وبعد ثلاث أربع سنين تتركه في ذقوقنا إن لم توقفها الحكومة عند حدها .

فقلت له : كيف الأسعار ؟ فأجاب : كيف يعيش الفلاح مع غلاء الطحين وسقوط الليرة والدخان ؟

قلت : سمعت أنهم زادوا السعر ٢٥ بالمئة . فقال : عندهم ألف باب يخلصهم من الزيادة ، وما عندنا باب واحد يخلصنا من شرّهم . ما نظرت بعينك حرق الدخان في الصيف ؟

فتأفّف أحد المؤمنين بالقيامة العتيدة [١] وقال : هـذا آخر زمان . فاحتدّ آخر وقال : كيف العمل يا بشر . أيش ينفعنا الكلام في القرنة [٢] ؟ فأجاب أبو طنوس : العمل عند الله ، والأمل بسعي سيّدنا البطرك .

فأحب أن يداعبه شاب قاعد لصقه فقال له : خبرونا أن البطرك لان ، وسكت .

فلكزه [٣] أبو طنوس وقال له : اخرس يا صبي ، قلْ سيّدنا واحن رأسك . من خبرك أنه سكت ، هذا كلام ناس كذابين غشاشين ، سيّدنا البطرك انطون صخر أصم . فقـال الشاب : والصخر لا يصعب على « النقاش » [٤] .

---

١ – المقبلة ، المنتظرة .

٢ – الزاوية ، المكان المنفرد .

٣ – ضربه بجمع كفه .

٤ – هو اسكندر النقاش مدير شركة المونوبول .

واعجبت الصبي فصاحته ، وذبل أبو طنوس، فجبر أحدهم خاطره بقوله : عمي أبو طنوس أخبر منّا كلنا ، الجمعية [1] قابلت سيدنا البطرك، وخبرت انه مثل الحديد .

فتعالى أبو طنوس إذ ذاك ولكش الشاب لكشة أزخم من الأُولى وقال له : سمعت بأذنك يا ذكي . ثم هز رأسه والتفت الينا قائلاً كأنه يوبّخنا جميعاً : العوذ بالله ، يجينا كل قبز [2] لسانه يلحس قفاه، ويتطاول على الأوادم في بيوت الناس ولا نقول له كلمة. وتقلقل كمن يريد الخروج، فاسترضيناه . ولا تسألني كيف ، فللرضا عندنا تقاليد ، كثيراً ما تغسل الدم .

ثم عدنا إلى حديثنا فسألتهم عن جمعية مزارعي الدخان فأثنوا عليها جداً ، وخبروني أنها قابلت الرئيس ووعدها خيراً ، فقال متشائم : الحكومة ملتهية بالاستقلال ، والترتيب الجديد . فردّ عليه أحدهم: أنت لا يعجبك شيء ، النقلة من البيدر إلى البيت تكلّفك جمعة ، ومع هذا تلوم الحكومة إذا تأخرت ساعة .

فانتفض كهل عتل [3] ـ نسيب أبي طنوس ـ وقال : يا الله ، الليلة قصّتكم عجيبة يا جماعة ، هذا يقول البطرك لان ، وهذاك الحكومة ملتهية بالاستقلال . صح فينا قول المثل : القلة تورث النقار . نعم الاستقلال قبل الخبز ، غيرنا خسر المال والرجال ، ونحن أخذناه على

---

١ ـ جمعية مزارعي التبغ في بلادي جبيل والبترون .

٢ ـ القصير والبخيل .

٣ ـ سريع الغضب .

الميتة . مَن من لبنان يقف وقفة ، اده [1] ؟ الله يعطيه ستين ألف عافية ، ويطول عمره ما دامت الدنيا دنيا .

فاعجبت نخوة كهلنا الجمهور ، فاهتز بعد خمول ، ونسي الغـــلاء ورعبه ، وصفق بعض التلاميذ لكلامه كأنهم في المدرسة . فالتفت أبو يوسف يمناً وشمالاً مستغرباً وقال للأولاد : عندنا عرس ؟ استحوا ، أمس مات الشيخ ، كفنه ما تلوث بعد .

وأنثنى يسأل جاره عن التصفيق فخبّـره ، فسرّ . وحاول أن يتكلم فسبقه أحدهم وقال : أصبروا يا ناس ، الله يساعد الريّـس ، عنـده ألف مسألة أهم من مسائلكم . وأيّـده جـــاره بقوله : أي نعم ، مص القصب عقدة عقدة .

وتركوا الكلام لأبي يوسف فقـــال : سمعت من كثيرين أن ريّـسنا ممتاز، يحب الفلاّح، لا بد من الفرج في أيامه، اصبروا لا تكونوا لجوجين. ثم نظر إليّ وقال : خبره يا خال عن الحالة كما هي ، ولا تنس غـــلاء الطحين . لو بعنا إقة الدخان بورقتين – ليرتين – وبقي سعر الطحين على حاله ما ترقينا شيئاً . الفلاّح تهمه الحبّـة ، ومتى وجدها وجـــد كل شيء ، وإذا بقي الغلاء اشتهينا العضة بالرغيف .

فقال له أحد المعلمين وهو يومىء إليّ :ما باله فينا يا خال، بالهباحمد فارس [2] .

فحرّك أبو يوسف يده في وجه جاره وسأله : منو [3] أحمد فارس ؟

---

١ – اميل اده ، أحد رؤساء لبنان .

٢ – أحمد فارس الشدياق الكاتب اللبناني الشهير .

٣ – من هو .

فما فاز بجواب . وأخذ الأستاذ يخبّر عن تصريحات الرئيس وما ينوي عمله من مشاريع عمرانية حتى كان الكلام عن الري وجر المياه ، فقال أبو طنوس : نحن لا نحتاج جر نهور ، نحتاج جرّة قلم تقصف عمر الغول ، يعني الاحتكار .

فقال آخر : حسب الرئيس كل بلادنا مثل جبيل والبترون ، فلو زارنا ووقعت عينيه علينا رقّ قلبه لنا وكش الشركة من لبنان كله .

ودخل في تلك الساعة نسيبنا يوسف ، مراسل الشركة ، فتصافحنا وقعد . كأنه لم يعجبه « كش الشركة من لبنان كله » ، فأخـذ يبيّـن منافعها للزراع ، ويقابل بين أمس واليوم بإيمان وطيـد . وأفاض في تمجيد أعمال الشركة ونفعها كأنه خوري عتيق يعدّد عجائب العذراء في الشهر المريمي . ثم وجه كلامه إلى أبي يوسف وقال له : يا خال ، بذمتك بدينك بحياة أولادك ، قل لي أي أحسن ، احتكار غالان [1] أم احتـكار الحوّاط وملكان [2] ؟

فاطرق أبو يوسف وانتظرنا الجواب فإذا به يقول : الفـلاح في الحالتين مقهور، ولكن الحرية حلوة، وحرق الرزق قبالة العين من يطيقه؟

فقال كهلنا : سمعتم يا ذوات ، عرفتم قيمة الاستقلال ؟

وخفت أن يتطوّر الحديث فقطعته مسائلاً عن الجمعية، فقال واحد: الجمعية لسان حالنا كلنا ، تقضي وتمضي عنا ونحن نؤيدّها بكل قدرتنا .

قلت : من منكم موظف فيها ، فقال : طلبوا المختار فما رضي .

---

١ – مدير شركة حصر التبغ والتنباك في لبنان .

٢ – من محتكري التبغ في لبنان .

فالتفت باحدهم ، فأجابني: لا تتعجّب ، مامور يخاف على الوظيفة. ومثله ابن عمنا عضو الاختيارية . ولكن هذا لا يهمنا ، المهم العمـــل . قريبا تقدم الجمعية بيانا طويلاً عريضاً للحكومة ، والأمل بالله .

وانتقلنا إلى شؤون أخرى وبتّ أترقب الساعة التي تجمعني برئيس الجمعية أو نائب رئيسها ، لعلّي اصوّر الزراع للرئيس كما هم، فهم يرون فيه « المسيح الآتي ولا ينتظرون آخر » وحسبنا الآن أن نحدّدهــم له تحديداً قاطعــاً مانعاً كما يقول المناطقة [1] : الزرّاع أو القرويون أو الفلاحون ، هم وحدهم الذين يخاطبون ربهم بإيمان وطيد : أعطنا خبزنا كفاف يومنا . أحلال أن يؤخذ الرغيف من أيديهم ؟ .

---

١ – أهل المنطق .

رسالة شقت طريقاً وبنت جسراً

كنت في دار المكشوف أمعن مع الشيخ فؤاد حبيش في الأحماض [1] ، يوم تلفنت للمغفور له السيد عبد الحميد كرامي في سوق الغرب أسأله إذا كانت زيارته ممكنة . فأجاب ، رحمة الله عليه ، أهلاً وسهلاً إذا كانت زيارة غير أشغال . أمّا إذا كانت من أجل الطريق ـ طريق عين كفاع دير مـــا يوسف ـ فنصيحتي لك أن تبقي « العرايض » [2] معك يومين ثلاثة ، وبعدها نرى .

وفي اليوم الثالث استقال ، وساعتئذ أدركت معنى ذلك التأجيل .

وألّف الوزارة سامي بك ، فقلت في نفسي: ما الحيلة وأنا لا أعرفه إلاّ معرفة وجه . لا دالة لي عليه فإلى من نلتجي ؟

وبعد تفكير غير طويل قلت في نفسي : التجي يا صبي إلى نفسك ، ما حكّ جلدك مثل ظفرك . اما دلّتك سيماء سامي بك على طواياه ؟ ألا يقرأ المكتوب من عنوانه ؟ أما عرفت أن روح هذا الرجل في كفّه ؟

---

١ ــ كلام التسلية المرحة .

٢ ــ جمع عريضة .

٣ ــ لا أمون عليه .

وهو مستعد ، في كل ساعة ، أن يهبها لاثنين : الافضال والنضال .

وإذا لم يكن لديك شفيع غير قلمك وحق القرى في الحياة فهـذا يكفيك . أما سمعت أن سامي بك هو أبو المشاريع العمرانية وانه إذا بان له حق لا ينام حتى يقرّه ؟ أنسيت قول الشاعر : ان تطلبوا الحق نعط الحق صاحبه . هذا لسان حال كل رجل دولة نزيه كسامي بك .

ورحت إذا ذاك أفكر كيف أداور أمري ، فقـالت لي النفس : الحقيقة ، وحدها ، يجب أن تقال لرجل كهذا لا يحبّ إلاّ الصراحة . في يدك ثلاثون عريضة من ثلاثين قرية أهلها يستصرخون الحكومة طالبين شق طريق فيهـا لهم ولغيرهم حياة ، فاقدم ولا تتردد . وأخيراً اقدمت مستعيناً بالحبر والورق الذي خذلني في مواقف عديدة حتى اتخذتـه، مؤخراً ، عنواناً عاماً لما أكتب .

وقعدت أكتب رسالة لسامي بك مستلهماً وجهه المنير وابتسامته التي تضيء وجهه ووجوه من في حضرته ، وبدأت أبجّل واعظّم .

وبعد هنيهة قرأت ما كتبت فإذا به مبتذل ، حبر على ورق فقلت: أبهذه الثرثرة يواجه الرجل الحر ؟ أهذا كلام يدرّ ؟ هـذا كلام يسمعه أولياء الأمور كل يوم متأففّين متضّجرين ، وحبر على ورق لا يخرج من الظرف إلا لينام في سلة المهملات ، فان كان لا بد منه ، فغيّره .

واخذت تلك الورقة ومزقتها نتفاً نتفاً،ورحت اكتب على خيرة الله.

عين كفاع ٣ ـ ٩ ـ ١٩٤٥ .

صاحب الدولة الافخم،

العصر ، عصر هرولة[١] واستعجال ، فاسمح لي أن اهنئك بسرعة واخاطبك بسرعة .

يعتقد غيري بخيرات المقابلات الجزيلة ، أمّا أنا فبالعكس . فإذا أردت ان تصغيَ ، فالمكتوب خير من المسموع وأبقى . وإلاّ فاني أضن بوقتك ووقتي. أضن بوقتك الثمين وتضييعه في الاصغاء إلى وكيل مسّخر عن منطقة منسيّة لا يعرفها إلاّ الجباة ، ولا يرتادها إلاّ المرشحون، قبل ساعة الانتخاب بأيام... وهب ان المقابلة كانت ، فعمَّ تنجلي تلك الغمرة؟ نفتش كلانا عن عبارة يجمل بها الحديث ، اتحرك وتشكرني ، وانصرف من عندك لكي اتبجح[٢] في كل محضر: قابلت دولة سامي بك ... ماشالله، رجل لطيف جداً ... كأنه ليس رئيس دولة .

عفواً . والوعود ، كيف ننساها ، وهي بيت القصيد ؟ تعدني أنت وعداً واجعله أنا حكماً مبرماً ، فيتصاعد الدعاء من أفواه الآملين . إن الثناء حاصل في كل حال ، فنحن قوم تعوّد أن نكون دائماً مع « الواقف » ، أمّا من يقعد ، فيقعد وحده ... اننا نقوم مع القائمين ولا نركع مع الراكعين ...

إن الثناء على السلف واجب ، فكل من استوزر ـ وانت منهم ـ لم يترك شيئاً من جهده. وأنا من المؤمنين بقول المثل : الحرب بالنظارات

---

١ ـ الاسراع في السير .

٢ ـ ادعي بغرور .

هينة . لذلك أراني أوسّع على أولياء الأمور واعذرهم ، لأن أعباء السياسة تنوء بها الجبال ـ وخصوصاً في عهد القنابل ـ فكيف بأكتاف الرجال .

فلهذا اننا نطلب لك من الله المعونة لترضي، (أولاً وآخراً) أربعة وخمسين رجلاً ، فتبقى في كرسي الحكم زمناً تستطيع به القيـــام بعمل جليل .

الورق قليل جداً ، ولا فسحة للكلام والاكثار منه ـ فلنوجز :

ليس لنا في هيكل الحكومة شفيـع ، فنفوز بشيء عند « التوزيـع»، ومال الدولة كمال الصدقات يؤتى على حبّـه ، ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ... والقرويـّون عمومـــاً ، ونحن خصوصاً، يا سيـّد ، أبناء سبيل بكل ما في الكلمة من معنى . إن القرية متروكة على الله ، ومشاغل الله جل جلاله ، أكثر من مشاغل النواب الكرام ...

إن كل وكد من يقتسمون أموال الطرقات ، في طرق بيوتهم وبيوت أنصارهم ، ومـا بقي فلطرق مناطق الاصطياف . ونحن لو يعلمون ، « مصيّفون » في قرانا، ولسنا نبلغها إلاّ بشق النفس،وعلى ظهور الحمير . والحمير مهدودة القوى في أيامنا هذه ...

وإذا ركبنا سيارة دفعنا « أم الخمسين» فدى لعيني الأربعة والخمسين، عن بضعة عشر كيلو متراً ، وهيهات ان نبلغ بيوتنا سالمين من العطب .

هذه حال طرقاتنا ، حيث توجد . أمّـا ما نشرب فمن مياه الشتاء المجموع في الآبار والصهاريج ، وأغلبه ملوّث ، فتفشو بيننا (الدورية)[1] في ايلول وتشرين ، والكينا عزيزة نادرة .

---

١ ـ الحمى العائدة .

أمّا العلم فاخو الطرقات والمياه . مدارس ، إذا وجدت ، خير من تعليمها الجهل المطبق .. كان أحد العلماء نوى أن يزورني لغرض ادبي ، فلما درى بما دون بيتي من أهوال ، تغلبت مخاوف الطريق على لذتــــه الادبية والعلمية ، فنسي ما حلم برؤيته من آثار .

قرأت تصريحاً لك قلت فيه : إن الله خلق الكون في ستّة أيام . فما قولك في أرض تكون كما تركها الله في اليوم السادس ، لولا بقية آثار فيها؟فقرى بلاد جبيل أصلح مكان لاختبار علماء الجيولوجيا لأن طبقات الأرض فيها كما كانت بعد الطوفان ...

صرّحت أنك ستعتني بالقرية،فحسناً تصنع . وسمعت أنكستزورها فاحسن وأحسن تصنع . فما راء كمن سمعا .

فحال دولتنا كسيدة تلبس « روبا » مزركشاً ، فوق ثياب ممزقـة بالية . أو اننا كبائعي البندورة خير بضاعتنا على وجه « السحـّارة » . أمّا ما تحت ذلك فخبص في خبص .

الخلاصة إننا نستغيث بك ، نريد طرقات ، ومياهــــا ، ومدارس لمنطقتنا المحرومة ، وهذا آخر حجر نضربه في « الجوزة » .

إننا نرجو من نوابنا الكرام أن يمهلوا الحكومات ، رحمـة بنا نحن الذين انتخبناهم ، ريثما تسخن الكرسي تحتهم ، فلا نكاد نخابر حكومة حتى تنقلب ، فنعيد الأمر كما بدأناه ...

وفي الختام تفضلوا ، يا صاحب الدولة، بقبول احترام المعجب بمواهبكم والمقدر علمكم وعبقريتكم، وإننا نشكركم سلفاً وإن قال المثل:ماشكر

السوق إلا من ربح .

الداعي لدولتكم

مارون عبود

وحرصاً على بقاء هذه الرسالة سالمة من كل مبتذل ، اتبعتها بقصاصة كتبت فيها :

أضم إلى رسالتي هذه ثلاثين عريضة موقعة من ثلاثين قرية ، وهؤلاء جميعاً يلتمسون شق طريق عين كفاع ـ دير مار يوسف . فهذه العقبة ، إذا ذللت ، لا يضطرون إلى اللف والدوران وإضاعة وقتهم ، وان كان من حطب لا من ذهب ..

ونظّمت تلك الاوراق وأدرجتها في ظرف يسعها وأرسلتها مضمونة.

قال الكثيرون : ما أقل عقلك ، الغرض على قد المرسال . رح أنت .

وبعد أيام رحت أنا ، وكان مدير النافعة محمد بك رعد ، فتأهل وقال : سيدنا سامي بك قال لي : أسرع ، عجّل ، ضع ٥٠ ألف ليرة لطريق عين كفاع ـ دير مار يوسف . نحن في عصر السرعة ، كما قال ، فلا يكون هو أسرع منّا . إقرأ هذا المكتوب واعده اليّ ، مكتوب ظريف نازك ، يستأهل اكثر من خمسين ألف تدفع لاغاثة بلاد .

وهكذا عدت مظفراً من السراي أردّد قول أبي فراس :

إذا ما أرسل الأمراء جيشاً   إلى لأعداء أرسلنا كتابا

وهذه المرّة كان الحبر والورق أغلى من الالماس مئات المرات. صادف أرضاً طيّبة ، فاغل أيمّا غلة .

أمّا الطريق فشقّت الخمسون ألف ليرة قسماً منها، وبنت جسراً حال

دون النهر وأرواح العباد ، ولكنها لا تزال حيث تركها سامي بــك . لست أذكره بها لأن الكريم لا يعز ، والفاروق عمر بن الخطاب لم يذكره أحد بتلك الأرملة .

كم كنت أسمع الناس يقولون حين تقف بهم السيارة عنـد منتهى الطريق ويشمّرون للمشي : الله يرد أيامك يا سامي بك . وأنا أقـول معهم : الله يطول عمر هذا الصاروخ الذي يحق له كلما ولي الاحـكام ، أن يردد قـول الحجاج بن يوسف : لا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت ، ولا أعد الا وفـّيت .

جينا للضيعة جينا

إلى الدكتور سليم حيدر .

إذا كان أعجبهم فيما مضى ان يسمّوا ابن العميد والطغرائي ذا الوزارتين فكم تراه تعجبني ، وأنت أديب وشاعر ، مثلهما، أن تكون ذا وزارات : تلفون وبرق وبريد وزراعة . وليس من الغريب أن تفلح حيث تكون ، فالذي رآك مثلي هلالاً لا ينكرك بدراً كاملاً .

وبعد ، فلا أسمع إلاّ تقرير اعتمادات بالملايين للتلفون الاوتوماتيكي. فهل فاتك أن القرية التي يتغنّى بها شعراء العامية والفصحى فيها بشر ذوو أرواح ؟

إذا تحدّثت يا معالي الوزير ، عن الخبز والطعام أمام جوعان أخذ يبلع ريقه وطفقت شفتاه تنطقان بغير الكلام، فمشروع القانون المعجل لإنشاء ٢٥ ألف خط تلفوني الى الملحقات هو الذي اقتضى ان نوجّه إليك الخطاب .

ونحن ماذا ؟ أمن الملحقات أم من الذيول ؟ راجع الملفات في مديرية الهاتف تعلم أنه قرر لنا انشاء خط منذ سنوات ، فاذا كان كل وزير لا يعمل إلا المهم (في نظره) فنحن لن نسمع صوت « هاتف » إلاّ في

القبور ، يوم ينفخ في الصور ، لأنني لن أصير وزيراً لأعمل لضيعتي ومنطقتي .

لقد أرتني الأيام ، أن كل من يحل في الدست يحسب أنه ما جاء إلاّ ليركب « الدست » ويطبخ أطيب ما عنده لمن عنده ، أمّا نحن فبين حانا ومانا ضاعت لحانا .. وعشنا ونعيش منتوفين .

لنا سنوات واقفون عند الحوض ، والناس يردون ويصدرون، ولا نفوز بنقطة ماء . كل وزير يقدم الأهم على المهم ، ومن يكون الدفتر معه لا يقيّد نفسه من الأشقياء .

إذا كان الاصطياف ، يا صاحب المعالي ، هو المهم في نظر الدولة ، وهي لا تبالي إلاّ بالرجل الغريبة ، فنحن نربّع ونصيّف في قرانا ، ويشرّفنا بزياراتهم أناس يهم الدولة أن يذكروها بالخير ويثنوا على تقدّمها وعمرانها . فما لكم لا تذكرون إلاّ الاصطياف؟ الا فاذكروا النفوس ولو مرة. أتهمل ثلاثة ارباع الدولة وأكثر لنري السيّاح أننا الى الأمام سائرون؟

ان حياتنا أعزّ من قروش تمهدون سبل اكتسابها لأناس على حساب آخرين . فلو اعطيتمونا نقطة ماء ، وشرارة كهرباء، وتلفونا لا يلبي إلاّ بعد ساعات لصارت ضياعنا مصيفاً ومشتى ومربعاً .

حقاً لقد صرت أخاف الاقامة في بيتي ، وهذا أقصى الذعر وأسوأ حالة يبلغها الانسان . إن هذا القلب الذي كان يمشي بنظام أوتوماتيكي قد صار يحرن قليلاً ، واني لأخشى ان يتعس وليس له من يشدّ به..فأقرب طبيب اليه يبعد عنه ثلاث ساعات . أعرفتم الآن لماذا نلج ونلح ؟

أنا رايح بعد اسبوع الى عين كفاع ، واذا كان ما اخشى أن يكون،

فماذا تنفعني أو تنفعكم : إنّا لله وإنّا اليه راجعون ؟

يعزّ علينا أن نشكو ، ولكن طفح الكيل ، والوعاء الذي لا يمتلىء يكون مغيوباً . إذبحوا « للابن الشاطر [1] » ألف عجل مسمّن ، ولكن لا تبخلوا علينا بشاة بشارية [2] نعلق في جيدها جلجلاً . .

فمتى هذا الوعد ؟ ومن ينتظر سنوات غير الذي يحلم بالوزارة ؟

في حزيران ١٩٥١ قيل لي : في آخر تموز تتصل بالعالم تلفونيـــاً ، فشكرت وخرجت .

وما انقضى تموز حتى راجعت ، فأجبت في آخر آب . وذكرت في أوائل أيلول فما نفعت الذكرى ، وصح بتلك المواعد قول النابغة : تمرّ بها رياح الصيف دوني .

ولكن الغريق يتعلّق بحبال الهوا . فراجعت أيضاً فقيل لي: في آخر شباط ينتهي كل شيء . ولكن شباط شبط ولبط ، وآذار شخر وهدر ، ثم هب هواء نيسان السخن وما تفتّح في أرضنا برعم من براعم التلفون. وها قد مرت أربع سنوات ولا رجاء ولا حياة . ألسنا كلنا أبناء دولة واحدة ؟ أما لنا ما للعاصمة والملحقات ؟ إننا راضون أن يكون لنا من الجمل شعرات من ذنبه لا من أذنه كما يقولون .

أنشكو نزوح أهالي القرى إلى العاصمة ثم لا نعمل للقرية شيئاً ؟

أرى مثل الحكومة معنا كمثل أب يلبس زوجته وبنته الكبرى احدث

---

١ — شخصية (مثل) في الانجيل اكرمه أبوه لانه تاب بعد ركوب الخطأ مثال التوبة الحقيقية .

٢ — اشارة الى الشاعر العباسي بشار بن برد الذي كان يحب اللحم السمين.

الثياب وأغلاها ، وأنفس الحلى وأبدعها : للصباح حلى وثياب ، وللعصر حلى وثياب ، وللمساء حلى وثياب . أمّا أولاده وبناته الآخرون فليس لهم فسطان شيت ولا طقم كاكي .. عوراتهم مكشوفة يمشون بالزلط يا واو ..

أمن العدل أن لا يتصل ابن القرية بطبيب حتى يدركه قبل أن يفطس؟وهل من العدل أن نشقى ساعات مشياً على الأقدام لندعوالطبيب ونجلب الدواء ؟

يقولون اننا في عصر السرعة ثم لا نشعر بالسرعة إلا في الوعود . فقبل ان نسأل نجاب : نعم نعم . ولكنها نعم بلا نعيم .

٢٤ مليون ليرة وثلاثة أرباع المليون للتلفون الاوتوماتيكي،ونحن لا نرى ولو خازوقاً في أراضينا ، يعللنا بالآمال .. أنعيش على أغاني الاذاعات : جينا عالضيعا جينا . ضيعنا غامرها النور . يا ضيعا ما بنساك. غنوا للضيعة حتى تنام ، بنّجوها لتنسى أوجاعها وآلامها.

يقولون ان الايحاء بتكرار الكلام يشفي من المرض ، ولعلّ هذه الأغاني تجعل الضيعة تصدق ان السعادة فيها وما في الحواضر إلا الشقاء. فليت هؤلاء الذين ينادون : ترمس أحلى من اللوز ينامون في القرية ليلة لنرى كم يرون بها من نعمة ..

القرية تسعد في مخيلة الشعراء ، ولا تقصد إلاّ في موسم الانتخابات ، فإذ ذاك تصير يد الفلاح المبردية ناعمة كالحرير ، وعباءته أجمل من الفراك[1] ، وعصاه المعقدة قضيب ماريشال ، ومنجله وشاح الارز .

---

١ – نوع من الثياب الاوروبية .

مسكينة الضيعة، ومساكين فلاّحوها. فماخلقوا إلاّ للتطبيل والترمير واستقبال الزعماء ، والزحف إلى المدن للمظاهرات ، حين يصفرون لهم.

يا معالي الوزير ، إذا كان القصد من تركنا والاهتمام بغيرنا هو ان نري الغرباء ما أحرزه لبنان من تقدم ، فنحن مستعدون أن نريهم أن لبنان سحارة بندورة خير ما فيها على وجهها .

ما أسمع إلا من يحسدون القرية على فرنها وتنورها ، وكوخها وعرزالها ، ومعازها وكرازها ، وعنبها وتينها ، ناسين نفوس أهلها المتألمة وشقاءهم في سبيل العيش . فهل أقل من ان نسقيهم إذا عطشوا ، وإذا مرضوا ان نمكنهم من الحصول على الطبيب في الوقت المناسب ؟

وكيف يقدرون على ذلك وليس لهم بريد ولا برق ، ولا سيارات غب الطلب . إذا كان المكتوب يصل إلى أقصي عواصم الدنيا قبل أن تصل رسالة إلى القرية فكيف نستغيث ؟! ومع ذلك تشكو المدينة من تهافت الناس عليها. أليس كل فتى قروي ذاق حلاوة حياة المدينة اسابيع يطلق قريته البتات؟ فاذا شئتم ان تظل القرى عامرة فرفّهوا ، ولو قليلا ، عن سكانها المساكين ، فلا يكون عليهم الغرم ، ولغيرهم الغنم .

انها لقسمة ضئزى[1] ...

---

١ — ناقصة ، ظالمة .

حكاية الماء

ما شققنا الطريق ووصلنا إلى بيوتنا بالسلامة حتى أعلنت الحرب الهتلرية، وما انتهينا من قرع الجرس ابتهاجاً حتى حملت إلينا أول سيارة نبأ إعلان تلك الحرب المشؤومة فوجم الناس ، ولكن « الطريق » نفعتهم جداً فصاروا يبيعون محصولاتهم ، وسهل عليهم الأخذ والعطاء .

وبعد شقّ الطريق راودتنا فكرة جر ميـــاه الشرب الى القرى العطشى ، وكان النبع المسمى « نبع قطرة » هو أملنا الوحيد . راجعنا الحكومة بشأنه فوعدتنا خيراً ، وفي ساعة سوداء حمل إليّ احد الاصدقاء جريدة لبنان الرسمية لاقرأ فيها مرسوماً يجيز للرهبانية اللبنانية البلدية جر مياه ذلك النبع إلى دير كفيفان في بلاد البترون .

عقدنا الاجتماعات وطيرنا برقيات الاحتجاج ، فلجأ الرهبان إلى تهدئة الخواطر ، وعللوا أهالي القرى باقتسام المياه، ورأى الجميع: الصلح سيد الاحكام . وعندما كان فريق من وجهاء قرى ساحل بلاد جبيـل يشدّون العزائم إلى دير ميفوق ليقتسموا والرهبان ثياب العوام ويقترعوا على لباسهم ، وعندما كان رهبان ميفوق يشربون والمدعوين على جـــلد الدب ، كنت أنا في طريقي إلى بيروت ، فبتدين .

لم يكن بقي إلا بضعة ايام حتى يمسي المرسوم نافذاً ، فأقمت الدعوى في مجلس شوى الدولة وهرولت إلى بتدين ، فسبقتني اليها الصحف التي نشرت خبر الدعوى المقامة مني على رئيس الرهبانية العام والحكومـة اللبنانية .

وعلى الغداء قال لي فخامة الشيخ بشارة الخوري : تقيم الدعوى علينا ونغديك عندنا !

فأجبته بما لي عليه من دالة : عندك عندي ، وما أقمت الدعوى بدون اخبار إلا ّ لأن « الدق محاشر » ، وإذا لم أفعـل ذلك أخاف أن « تروح علينا » ويعدّي السبت.. فأولاد الحلال كثار . قد فعلت لأقطع الطريق عليهم وأترك لفخامتك مجال إعادة النظر . فالرهبان يعملون بقول المثل اللبناني : من بعد حماري لا ينبت العشب ، وقصتهم مشهورة .

فقال : وما هي ؟

قلت : في التقليد عندنا يروون حكاية هي أن راهباً انقطعت تكة[1] سرواله ، فالتفت في ذلك الليل البهيم فوقعت عينه على خيط يربط الأرض بالسماء فتناول السكين وقطعه ليربط به سرواله .. فابتسم الشيخ ، جزاه الله عنا خيراً ، وأرسل نكتته الناعمة ، ومن طبعه أن يرسلها ولا يجعلك تحس أنها داوية : إشكر ربك . هذا ما نتمناه ..

وهكذا خنق الشيخ ذلك المرسوم في المهد ، وأعطي الشعب حقّـه ، ولكن جرة الرهبان لم تطلع من البير فاضية ، قبضوا ثمن الميـــاه خمسين الف ليرة ..

---

١ ــ رباط السراويل .

وخططت السبل بعد خمس سنوات، فأعدت الكرة إلى بتدين وقلت لفخامة الشيخ : يقولون عندنا ان تخطيط السبل دعاية انتخابية .

فقال : لا . لقد أرصدنا مبلـــغ ثلاثمائة ألف ليرة . وستشربون إن شاء الله .

قلت : وندعو لفخامتكم بطول العمر .

ثم كان ما كان وجاء الاستاذ ريمون إده نائباً عن بلاد جبيل ، وها هو قد نفّـذ ووسّـع دائرة البيكار فشرب ساحل بلاد جبيل كله أو كاد، ولم يبق غير التلفون والكهرباء .

فإلى الشيخ الرئيس الذي سمع صوتنا وحفظ لنا هذا الحـق الحيوي أحر الدعاء ، وإلى الاستاذ ريمون اده الذي جاهد ولا يزال يجاهد في سبيل المنطقة التي ينوب عنها أجزل الشكر ، وهنيئاً لمن شرب ، هكذا نقول: نحن زائلون جميعاً أما المشروع فباق إلى ما شاء الله .

وفيما يلي فقرات من عرض القضية الذي رفعناه إلى مقام محكمة شورى الدولة الموقّـرة ننشره هنا ليذكرنا الناس ويترحّـموا على من أحسنوا إليهم، بعد الوفاة طبعاً ، عملا بسنّـة منح النياشين عندنا ..

عفواً ، نسينا أن نشكر الصحافة التي ناصرتنا وحملت إلى السلطات الثلاث صوتنا ، وأخص منها بالذكر جريدة التلغراف والطيّـار ولسان الحال والأحرار والأخبار ، وصوت الشعب التي نشرت عرض القضية ملخصاً في عددها ١٢٥٢ بتاريخ ٢٥ آب سنة ١٩٤٦ وهذا هو كما ورد فيها:

قرى بلاد جبيل العطشى

الاستاذ مارون عبود يقيم الدعوى على الحكومة وعلى رئيس الرهبانية

البلدية بعد صدور مرسوم بالترخيص للرهبان بأخذ مياه ميفوق إلى دير كفيفان !

في خراج قرية ميفوق من بلاد جبيل نبع اسمه « نبع قطرة » وفي هذه المنطقة ٣٦ قرية محرومة من المياه ، ولا سبيل لسقيها إلاّ من هذا النبع . وقد طالب أهاليها الحكومات السابقة كلّها بجر مياه النبع اليها دون جدوى . وظلت هذه القرى لا تجد ماء للشرب إلاّ المياه المجموعة من الأمطار. وبينما كان الاهلون يأملون أن تلبي الحكومة طلبهم، فتقوم بواجبها في جر مياه نبع قطرة إلى قراهم، فوجئوا بمرسوم يقضي بالترخيص لرهبان دير كفيفان « منطقة البترون » بجر مياه النبع إلى ديرهم، وحرمان أهالي بلاد جبيل من نبع ينبع ويجري في أرضهم، أي حرمانهم من مياه الشرب الى الأبد ، فأقام الأديب الكبير الاستاذ مارون عبود لذلك الدعوى على الحكومة وعلى رئيس الرهبانية البلدية الآباتي يوحنا العنداري ، لدى مجلس الشورى . والاستاذ عبود من سكان « عين كفاع » إحدى القرى صاحبة الحق في نبع قطرة . والدعوى التي أقامها الاستاذ مارون عبود، عدا عن حججها الحقوقية البالغة ، طرفة ادبية ، نقتطف منها بعض الفقرات ، قال :

« هذه القضية تشبه الأمراض المزمنة ، لقد طالبنا الحكومات السابقة كلها بجر هذه المياه إلى قرانا لأنها حقنا الشرعي ، أمّا هذه القرى فهي : بجّه ، عين كفاع ، غبالين ، غلبون ، بيت الاشقر . الصليّب ، معاد ، دير معاد ، غرزوز ، بخعاز ، شيخان ، الرومية ، جدّايل ، الريحانة ، المنصف ، البربارة ، الحلوة ، بعشتا ، عمشيت ، غرفين . العفص ،

حبالين ، شامات ، حصارات ، كور الهوا ، حصرايل .

إن هذه القرى جميعهـــا محرومة من مياه الشفة ، وهي تشرب من الآبار المجموعة مياهها من أمطار الشتاء، ولا أمل لها إلاّ بنبع قطرة الذي يحاول آباؤنا الرهبان المحترمون اختلاسه بمرسوم ..!»

وبعد أن يعدّد الاستاذ مارون عبود محاولات الرهبان لإتمام المشروع قبل صدور المرسوم، واحتجاجات الأهلين ، يشرح الحق الشرعي لسكان بلاد جبيل ، دون الرهبان ، في هذا النبع فيقول :

« ان هذا النبع ليس في خراج دير ميفوق ، كما ورد في المرسوم ، إذ ليس لدير ميفوق خراج ، وإنما هناك قرية اسمها ميفوق والدير فيها . أمّا هذا النبع، نبع قطرة ، فيصبّ فوق قرانا التي تطالب بالشرب منه، بينما آباؤنا الرهبان ، زادهم الله رشداً ، يكلّفون المياه ضد طباعهـــا ، يكلّفونها أن تتحدّى ناموسها الطبيعي ليرضوا عنادهم المشهور، يريدون أن تمشي المياه مشية السرطان « السلطعون» وتسير طلوعاً، ومن طبيعتها أن تشق طريقها نزولاً، فالمياه لا تعرف إلاّ التحويل النازل أمّا التحويل الصاعد فليس في حسابها ... وإن حاول الرهبان تعليمها حساباً جديداً ، فهيهات أن تتعلم وسنخرجها من مدرستهم تلك . « إنه لا يجوز » اخذ ماء من منطقة لا تستغني عن ذاك الماء لتسقى منطقة أخرى في استطاعتها أن تشرب من نبع آخر أغزر وأكمل منفعة وأعم فائدة وأقل تكاليف. إن المثل اللبناني يقول : الماء لا يمر على عطشان . فكيف تجهل هـــذا الرهبانية ، وهي لبنانية بلدية؟! فهل وصلنا إلى زمان تحرف فيه الأمثال، كما تحرّف القوانين ، مدنية ودينية ؟

إذا ادعى الرهبان إنهم يريدون سقيا دير لهم ، وعملوا بالمثل اللبناني القائل : بقر الدير ورزق الدير ، أجبناهم: ونحن عندنا دير هو دير معاد.

« كيف يسوغ الرهبان ان ياخذوا المياه من ميفوق في بلاد جبيل إلى دير كفيفان في بلاد البترون؟ إن دير كفيفان يستطيع الشرب، كما قلنا، من ينابيع عديدة ، أمّا دير معاد ، فإذا سمح الله ، ولن يسمح بذلك جلّ جلاله » وقدّر الرهبان أن يغتصبوا حقاً بمرسوم ، عطش هذا الدير وعطشنا معه إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين ، بلا آمين » .

وفي الختام يطلب :

ـ إلغاء أحكام المرسوم .

٢ ـ تصفية حساب مياه ميفوق كلّها ما عدا النبع الفوقاني .

٣ ـ جر مياه ميفوق الزائدة إلى جميع قرى بلاد جبيل المعطشى لأنها حقها الشرعي .

ونحن نؤيد هذه المطالب المحقة الشرعية، من جميع النواحي الحقوقية والعرفية ومن الناحية الواقعية أيضاً ، إذ أن قرى بلاد جبيل المذكورة ليس لها أمل بغير نبع قطرة ، ولا يجوز أن تحرم منه ، هذا فضلاً عن أنه ينبع من أراضيها .

ونحن نأمل من مجلس الشورى ان ينظر في القضية على هذا الضوء ، كما تلفت نظر المسؤولين إلى ضرورة إرواء عطش أبناء قرى بلاد جبيل الذين لم يتنازلوا عن حقهم في مياه قطره .

رُودَاج

كنا أعضاء عاملين في مادبة آل خير الله بمحطة بحمدون، أعدوا تلك المادبة على شرف عريسين حبيبين ، الدكتور اسكندر حتي وأخيه كمال. في تلك المنيهة نظر اليّ عمهما الطبيب الأعظم الدكتور يوسف حتي نظرة خبير ، وقال لي : رُح صوبنا حتى نعمل لك روداج.. فرحت أسأل وما الروداج ؟!! وأخيراً فهمت فقلت لنفسي ، ان سيارتي موديل سنة ١٨٨٦ أما كان الأحرى بالدكتور أن يقول تصليح ؟

كان ذلك في حزيران سنة ١٩٥٥ ، وكان مساء وكان صباح فنسيت حالي وذهبت إلى عين كفاع غير ذاكر ما قاله لي الطبيب الذي أنقذ حياتي ، أول مرة ، عام ١٩٢٦ . تداركني حين أصبت ببنت الحرا وقطع الطريق على عزرائيل الذي كان قابعاً في وصيد[١] بابي ينتظر الفرصة الملائمة ، فانتهره الدكتور يوسف حتي فلفّ ذنبه وراح مهرولاً يفتش عن غيري ...

وما تذكرت روداج الدكتور حتي إلاّ عندما قمت من صرعتي المشؤومة صباح يوم ٢٣ تموز ، وكان يوم سبت، كان الله النيا ستراحمن

---

١ – الضيق والمطبق .

جميـع اعماله أراد أيضاً ان يستريح مني .. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فاسرعت إلى بيروت ، بل أسرع بي أولادي إلى الدكتور حتي فاستقبلني تلميذي الطاهر الدكتور حتي الثاني ، وأحلت إلى الاستيداع في مستشفى سان شارل . وبعد هنيهة دخل علي الدكتور حتي وقال : ما جئت إلاّ بعد ان عملت اكسيدان ؟! ثم راح يفتّش عن الموتور. وما كان أشدتعجبي حين قال : إنه ما زال صالحاً . الموتور بضاعة قديمـــة وكذلك المراوح والمصافي ، إذن لا يزال في اليد حيلة . وأخذ الاطبّاء معاونو الدكتور يروحون ويجيئون ، يفحصون ويدققون . ومشت أسراب الراهبات والممرّضات فتخيلتهن كما قال شوقي في وصف سقف كنيسة آجيّا صوفيّا في عهدها البيزنطي :

فمن ملاك في الدجى رائح إلى ملاك في الدجى مغتد

هذه تحمل علاجاً يبلع ، وتلك في يدها ابرة تزج ، وهاتيك تجيء بميزان الحرارة ، وغيرها تحصي أنفاسي ونبضي . قيامة قائمة .

وإذا سألتني رأيي فيهن أجبتك بالمثل العربي القديم: لا رأي لحاقن[1] . كنت مشغولاً في جسدي، لا أرى الوجوه إلاّ صفراء،وأخال الابتسامات جهشة المتباكي .

دعاني الدكتور حتي بالأمس إلى الروداج ، فاذا بسيارتي أمست اليوم بحاجة إلى نفض . قالوا ان هارون الرشيد احتبس ليلة مـا ، فتمنى لو يعطي نصف ملكه بتلك الليلة ويستريح من تلك الملعونة . أما انا فماذا أقول ؟ بل ماذا أعطي؟بل هل انتظر شيئاً مما ينتظر الرشيد من جوار..

١ ـ المضطر الذي لا يملك امر نفسه .

سبعة عشر يوماً قضيتها بلا نوم ، لم تغمض لي عين ولا هــدأ لأولادي قلب .. سيارتي في الكاراج ، والله أعــلم متى تخرج ، وكيف تخرج .

كان امرؤ القيس ينتظر نجوم الليل ويراقبها . أمـا أنا فكنت أراقب من باب غرفتي الخلفي مصابيح السان جورج ولافتة بالم بيتش ، وهيهات أن تخبو تلك الأنوار . وكثيراً ما حدثتني نفسي عند اشتداد الأزمة أن أتدهور من البلكون وأستريح من تلك الآلام التي لا تطاق .

كانت ابتسامة الدكتور اسكندر والدكتور كنعان تشجـّعني على الطمع بالنجاة ، وبقيت كذلك حتى جاء خبر العملية . كانوا فيما مضى يقولون: آخر الدواء الكي ، أما في هذا العصر فآخره شق البطن .. ومن ينتظر العمليـّة كمن يلقي بنفسه في أشداق حوت يونان ، ثم ينتظر أن يبصقه ، وهل من حوت أوسع شدقاً وأحدّ أنياباً من الموت ؟

واخيراً جاء الجرّاح النطاسي الدكتور بولس يقول : إننـا نسن السياخ ، فهززت برأسي وقلت له :

إذا لم يكن غير الأسنـّة مركباً فليس على المضطر إلا ركوبها

يا مرحباً بالعملية وبك يا دكتور . وبعد ما تحدثنا مليـاً خرج من عندي ليقول لابني الكبير : أبوك معنوياته قويـّة جداً ، وهذا ما يساعدنا على نجاح العملية .

ثم دخل المبنج الدكتور أبو حيدر بعـد حين . وفي موعده جاء الدكتور حتي فسألته ، فقال : قرّرنا أن نفتح لك البوتنير[1] !

فقلت : وأي وسام نعد لها ؟ . فقال : وسام العمر الطويل .

---

١ – العروة .

ولمّا كان صباح الاثنين لم أرض ان احمل على المحفة[1] كالمعتاد ، بـــل مشيت إلى غرفة الحياة ، حتى بلا عصا ، مشيت بخطوات ثابتـة مشية جندي إلى ساحة القتال . وتذكرت « الإرادة » في تلك الدقيقة الفاصلة بين الحياة والموت فتشدّدت ، وقلت : لن أموت ، سوف أستريـح من أوجاعي وآلامي وأحيا .

وقبل ان استلقي على الوضم[2] ، قلت للمبنّج الدكتور أبو حيدر ،وأنا أقلّب عيني في زوايا الغرفة : وأين هو ؟ فخالني أهـذي ، فافهمته إنني اسأل عن الموت أين يتخبّأ ، وقلت للموت وقـد تمثّلته أمامي : إيّاك والغدر ، لا تكن كالسارق، كما قال المسيح ؛ فإن كنت بطلاً فهذهالساحة لي ولك ، فهلّم .

وأخيراً غبت لأعود بعد ساعات أحمل في بطني نبريشاً ظللت منه في جهد جهيد مدةخمسة أشهر ،كانت تعزيني على آلامها المزعجة أنهامكنّتني من نكتة لا باس بها . كانوا يتحدثون أمامي عن الإختصاص في هـــذه الأيّام ، فقلت لهم: أنا تخصصت مؤخراً في المستشفى ، ولكناختصاصي تحتاني ، فصار عندي لكل عمل آلة . .

وهناك نكاتأخرى كانت ترفـّه عنّـي وتنسيني قلق الليل،منهاهاتان النكتتان :

فواحدة جاءت من صوبنا : دخل عليّ واحد ، ولمّا كان لا بدّ من الحكي في مثل هذه الأحوال قال : الحمد لله على السلامة

---

١ — محمل يرفع بالايدي .

٢ — خشبة يقطع عليها اللحم .

فقلت : لا تتسرع ، يا عمي الخطر قدّامنا .

فأجاب : الله يبعده . ما على قلبك شر ، ولكن الذي حيرني وحيّر أهل الجيرة كلها ، هو انه كيف وصل اليك مرض البروستنت وبلادنا نظيفة منه ؟

وكان الدكتور أشقر حاضراً فمات من الضحك. فقلت له: إنها رمية من غير رام .

وواحدة ثانية أتت من امرأة نَصَف[1] . دخلت فرأت النبريش في الزجاجة المعهودة ، وأنا ممدّد على كرسي ، فقالت مستغربة: يه اخبّرونا ان مرضك ثقيل ، وهذا أنت تشرب أركيلة . على كل هي أحسن من العطوس[2] ، وخصوصاً إذا كانت مثل هني : لا جمر ، ولا دخان .

ورأت ماء أركيلتي أصفر، فتحلحلت لتكب الماء وتنظّف الزجاجة وهي تثرثر : معرفة الراهبات قليلة بعاملة الأركيلة ، ولا يشدّ بالبقرة غير صاحبها .

فقلت لها : نسيت أني ذكر! قولي المثل كما هو ولا تستحي: لا يشد بالفدان إلاّ صاحبه .

ودخلت الممرضة وأخذت الزجاجة التي كادت تمتلىء ، ففهمت أم حنا أنها أركيلة مستشفى ... هكذا سمّتها ، وهكذا كنّا نسمّيها ، عند حاجتنا إليها في البيت ..

قالت العرب: على الرائد أن يصدق أهله ، وأنا قد استسفرني القدر إلى

١ — في منتصف عمرها .

٢ — تبغ دقيق ينشق بالانف .

الأبدية ، ولكنني كنت سفيراً غير مرغوب فيه فارجعت عن الحدود . وقفت على أبوابها ولمّا أدخلها . وعدت على أعقابي أشكر من يشكر على المكروه ، وأبي وجدي اللذين أورثاني هـذا الموتور ، أي القلب ، الذي لم يحتج إلى خرط ولا ولا . . .

وما استرحت من آلام الاحتقان الطبيعي الحادة ، حتى بقيت ستة أشهر كاملة أعاني ألم الاحتقان الفكري . مرت أحداث خطيرة لم أعلق عليها ، ولكن الغد لنا ، فسوف نعلق إن شاء الله . إذا قلت لـك انني منذ بلوغي رشدي لم انقطع عن الكتابة يوماً واحداً فصدقني ، أمـا اذا كنت مثل توما لا تصدّق ما لم تضع إصبعك فتعال لأريـــك دفتراً من دفاتري يرجع تاريخه إلى أكثر من نصف قرن ، فترى آثاري الأولى وتضحك من مارون عبود الماضي ، إذ لا ترى فيه إلا شيئاً لا يـــكاد يدرك من ملامح مارون عبود الحاضر . فأنا ، يا أخي ، عملت نفسي على ذوقي ، فان كان أعجبك شيء فيّ فالفضل فيـــه لي لأنني ماشيت الزمن فلم أتخلّف عن ركبه ساعة ، وإني أعاهد الشباب على هـــذا وأرجوا أن يعملوا دائماً وأبداً وهم واصلون إلى ما يبغون .

عفواً ، قد قطعنا حديث العمليات ، فهناك عمليّة أخرى تنتظر ان أتحدث عنها . ها قد رجعنا إلى بيت خالتنا ، أليس المستشفى كالسجن ؟ كنت هذه المرة أشدّ خوفاً مني في المرّة الأولى. ولكني بقيت أشجع نفسي وأقول لها : العملية ناجحة بدون ريب . وظللت أكرّر ذلك حتى تمكّن هذا الاعتقاد في نفسي . وبعد فانا لم أخدعها مـا زال يسعف الجراح قلب كالمهدّة ، ورئتان كجناحي العقاب ، وكليتان كنبع افقا ، يحنو

على هذه كلّها صدر كالكبير عامر بالإستهزاء بالموت والإستخفاف به .

كان قبالتي في غرفتي مصلوب ـ لا تظن أنه ظهر لي كما ظهر للبابا ـ ولكني ذكرته لأروي لك ما حدثته به .

قلت له : هبني، يا سيّد، شيئاً من شجاعتك لأستقبل الموت، فالعمليّة ليست لعبة في كل حال . أنت طلبت من أبيك أن يجيز عنك الكأس ، ولكنك شربتها ولم تجزع ولم ترع. شربتها ليكسب الناس الحياة الأبدية فغلبت الموت بالموت، وأنا ساشربهـا لأغلب الموت بالحياة وأكتب بعد وعزائي على عيشتي أرمل دهر ، هـو ان ابنائي لم يكونوا كتلاميذك الذين لم يسهروا معك ليلة واحدة . انهم لم يناموا قط .

وأخيراً كما مشيت أول مرة الى غرفة العملية بخطوات ثابتة، مشيت اليها ثاني مرة ، وقد سمعني تلميذي الاستاذ رشاد بيبي اقول لأولادي : أنا راجع بعد قليل . .

وقلت للجراح النطاسي الدكتور حسيب بولس : لا تربط لساني كما تفعل بغيري . لا تخف ان ابلعه فهو الحيلة والفتيلة .

فاتني ان اذكر لك حادثة طريفة : قبل العملية الأولى جاءني كاهن وهو صديق ونسيب ، يريد ان يمهد لي الدرب الى الابدية ، فقلت له : ثق يا ابن عمي انني لا احتاج الى من يدلني على درب بيت ابي. . وانني في غنى عن وسيط يفتح لي الباب . وانا والرسل جميعاً اصحاب فلا بدمن ان يفتح لي واحد منهم . ناهيك ان معي جواز سفر من الأب الاقدس ، باص ديبلوماسي يساعدني على الدخول ، تكفي معه كلمة واحـدة لأطهر من آثامي وادخل الجنة بثيابي ، كما يقولون . وقبل وبعد «بعد بكّير»

يا محترم ، فانا لا امـــوت في هذه النقلة ، واذا عشت وعشنا وعزناك لا نخيبك .

ومضت المعركةالثانية بسلام،وكان جنودها اطباء وعلماءنطاسيون، وجراح شاب واثق من علمه ومن نفسه ، وراهبات ساهرات، وممرضات كأنهن راهبـات . فاذا قلت لك انني شعرت اثناء اقامتي في المستشفى ان كل من فيه من كبير وصغير ، كان يسهر علي ويهمه ان تنجح عمليتي ، فصدقني .

وأخيراً اني اشكر من عاودوني وآسوني في بلواي ، وأنا هنا في مقام الشكر . أما العتب فله مكان آخر وسيكون حسابه عسيراً .

مذكرات شباط

شباط شهر ناقص لا تفعل فعله ملوك الشهور . حقاً ، ان كل ذي عاهة جبار . كانت أمي تخاف شباط وتخوفني منه . فلا تنتشر غيمة في الجو حتى تغرزني حدّ الموقد كالوتد ، ولو قدرت ان تكتّفني وتربطني بخناق ، لفعلت .

كان حديث الشتاء حديث شبـاط متى جاء . فكلّما مات شيخ أو عجوز كنت أسمعهم يقولون : أخـذه أو أخذها شباط . وكانت أمـّي تردّد ، دائماً ، هذه اللازمة : ومن يعصي عليه ؟ وأخيراً فارقت هي فيه.

ودخلنا المدرسة فانستنا الشيطنة حديث شباط ، إلى أن كانت سنة قارسة البرد ، فقلنا : راح شباط وراح معه الشتاء ، فقـال معلمنا وكان يفخـّم اللفظ ويؤثـِر الغريب من الكلام : رويدكم يا أولادي، راح الصنّ ونحن اليوم في الصنـّبر . فقلنا كالمستهزئين : وما الصنبر ؟ فأجاب : هو ثاني أيام العجوز . فضحكنا ورددنا : أيام العجوز ؟ فصاح : هيهيء ، أي نعم أيام العجوز ، المستقرضات في لغة العوام ، أربعة أيام من شباط وثلاثة اقترضها شباط من آذار ليتشفـّى من عجوز شمتت به .

فقلت : وماذا عمل بها ؟

فأجاب : سد بوزك . لا تضيّع الوقت .

وفي الثامنة عشرة من عمري انتشرت الحمى في المدرسة ، فكانت لنا فرصة مرفع في شباط ، والتلميذ يرحب بالطاعون إذا كان يعطي فرصة. وفي طريقي الى البيت نزلت على صاحب لوالدي وبتّ عنده ، فكان حديث السهرة عن عنترة الشهور ، وكم جادت يداه بعاجل طعنة . فقال صاحب البيت : شباط قاشوش . فابتسمت . فقال لي : إن شاء الله تكبر وتخبرنا فيما بعد . فأوحت إليّ كلمته ان أكتب مذكرات شباطية . ولما عدت إلى المدرسة شاورت « مرشدي » في الأمر فقال : اكتب ، ولكن توقّ الفلسفة .. فالتفت اليه مستفهماً ، فأومأ بيده إيماءة من لا يريد البحث ، وقال : ليس ، اكتب . فشرعت في عملي بعد سنوات ، وهذا بعض ما كتبت :

في الثانية والعشرين كنا ندرس كتاب الذمّة ـ كانوا يسمّون علم اللاهوت هكذا، يوم كانت شئون الذمّة وشجونها تشغل البال ـ فرفعت إصبعي في أحد أيّام شباط وقلت : مسألة .

فأجاب المعلم : هاتها . فقلت : هذي العلامات التي نراها على الأبواب في شباط ، ألا تظن أنها ماخوذة عن العبرانيين عندما أمرهم الرب ان يعلّموا بيوتهم بعلامة لئلا يدخلها غلطاً ويقتل أبكارهم خطأ ؟ فقال مغيظاً : هذي من مذكرات شباط ؟ أقعد يا إبني . بس .

في الخامسة والثلاثين بدأت أحس بوجود شهر اسمه شباط . أمّا في السنين التي مرّت قبلها فكنت أفرح بقدومه ويعجبني ثلجه وهواه وشمسه وشتاه ، وأتهلل حين أرى اللوزة تتخطّر بثوب الزهر . وأذكر لمّا كنت

صبياً ، أنني رأيت جملاً يرغي ويزبد دالقاً جرابه الأحمر ، فقلت لعشير أكبر مني وأخبر : أتقول قلبه بوجعه ؟ فاجابني ضاحكاً من سذاجتي : عجّل ، هات له الطست .

ولما بلغت الاربعين تهيبت شباط ولبست لاستقباله طاقاً فوق طاق، فقالت الشباب : صرت تخاف شباط ؟! فأجبت : درهم وقاية خير من قنطار علاج . فقال أحدهم : وكيف يكون قنطار العـــلاج إذا لم يكن هذي الثياب التي عليك ؟

وبين الخمسين والستين صرت كلما انقضى شباط أقول في قلبي : دعسنا رقبته . وفي الستين أحسست برقة جلد ووهن عظم ولكنني كنت أتجاهى بقوتي عند من جاوزوا حد الأربعين ، لتطمئن قلوبهم: يظهر أن الانسان متى كبر يظهر من الضعف قوة .

في الثانية والستين غطى الثلج البلاد حتى المراكب في المينا ، ومع ذلك انقضى شباط ولم يمت إلا طفلة بنت ستة أشهر .

في السابعة والستين . غريب شباط ، المزفع فيه ، والأعراس فيه ، وأكثر الأمراض والوفيات فيه . جمال تهدر ، وسنانير تتنادى من كل فج ــ لكل خطاب يا بثين جواب ــ وفي زوايا البيوت شيوخ وعجائز تغص بسعالها وتشرق بريقها، متضايقين من ضجيج الحياة حولهم، فيصرخون ولعابهم يسيل : الله يقطع جنسكم، ما أفضى بالكم!! وما يكون الجواب غير مواء موسيقي منغم ..

في السبعين ارتخت ركبتاي فدعمتها بالعصا . أغلقت الباب طول الشهر . صارت أخف نسمة هوا تفزعني . وإذا تجوّلت في يوم دافىء

تحسبني فراشاً يمشي على الأرض .

في الثالثة والسبعين زارني أبو الركب[1] فهدّ حيلي ، الله يهدّ عظامه ، ولكن رحمة الله كانت واسعة . تخلصنا منه .

هذه السنة هي الخامسة والسبعون، الصحة مثل الحديد، لا رشح ولا من يحزنون . أكثر الناس ناموا جمعه وجمعتين ، ما خلا بيت من فراش وفراشين . أنا كنت مثل السبع . نشكر الله !!

في السابعة والسبعين راح شباط وفي ظهره مخباط . كل شباط ونحن بخير .

شباط الثامنة والسبعين كان هيناً علينا كأنه شهر تموز . ما مرض أحد . صح فيه قول المثل : لو شبط ولو لبط ريحة الصيف فيه . الله يبعد الجراد . شمس شباط تخوف .

في التاسعة والسبعين . شباط هذه السنة متقلب مثل أكثر الناس. الحق مع من قال : شباط ما عليه رباط .

اليوم دعست في الثمانين - العمر كله إن شاء الله - ولكني تفكرت كثيراً في شباط هذه السنة الملعونة . الموت كثير ، إذا قلنا من شدة البرد ، فشهر كانون فحل الشتاء . ما عرفت لماذا ينتظر الناس شباط حتى يموتوا !

أنا اليوم في الثانية والثمانين. الصحة ممتازة . الأبواب كلها مسدودة. ومن أين يخش المقصوف العمر ؟! ولكن قضية شباط ترافقني إلى القبر . لا نحل مشكلة حتى تجيئنا الثانية . قال لي أمس الشدياق جرجس،وهذا

---

١ - مرض الضنك .

ملفـان من تلاميذ روميه : إن أغلب العلماء والرجال الكبار ولدوا في شباط . استحيت أن أقول له : إني أنا من مواليد شباط . ولكني قلت في قلبي : إذن أنا عظيم وما عرفت حالي . طلبت دفتر العماد من الخوري وما فتحت أول وجـــه حتى عرفت أن الخوري من مواليده فقلت : النظرية صحيحة !؟ ولما قلبت الدفتر كله رأيت أغلب بهاليـل الضيعة ولدوا فيه ، ما ترقّينا شيئاً !!

في الرابعة والثمانين كان شباط قاسياً جداً . مات جمهور كبـير . مشيت خلفهم كلهم . الهمّـة قويّـة وهذا أجر عظيم. وفي الخامسةوالثمانين مات نحو عشرين نسمة في آذار ونيسان ، وما مات أحـــد في شباط . سالت من هم اكبر منّـي فضحكوا وقالوا : لعلّ عزرائيل خرف. قلت: ياليت . ربمّا ينسانا .

شباط السابعة والثمانين أقسى شباط مر علينا . صواعق متلاحقة ، اكتب والرعود تهزّ البيت هزاً . قدّوس قدّوس قدّوس . صاعقة قريبة جداً . نشكر الله .

في التسعين صحّ الصحيح وطينّـت الباب الشمالي والشبابيك كلّـها . تذكرت ما كنت أراه على الأبواب فقلت لابن إبن إبني : أرسم على الباب شكل صليب ، فضحك الصبي واستفهم . فتذكرت مسالتي لمعلم اللاهوت من سبعين سنة ، وقلت بصوت ربما يكون سمعه الصبي : آه ، كم كنت جاهلاً ومتمرداً .

في الواحد والتسعين زارني واحد من جيلي . دخل عليّ وهويضحك ويقول : صارت تنفع اليوم صلبان شباط !

فقلت له : صرنا في الواحدة والتسعين ...

وفي الثانيـة والتسعين ، ظاهرة غريبة : أتخيّـل الموتى من رفاقي وأقاربي قاعدين حولي . ما هذي التصوّرات الغريبة ؟!

في الثالثة والتسعين راح شباط وجاء آذار . عيّـدت مع المعيّـدين . أكلت خمس بيضات مسلوقة ولو أعطوا أكثر أكلت .

اليوم في الخامس من شباط بلغت الرابعة والتسعين . طيّـنت الباب وأرخيت البلاس على الشباك الذي عنـــد رأسي . صرت كأني محبوس في قنينة .

السنة كبيس واليوم آخر شباط . انتهى والحمــد لله . حاولت أن أكتب فما طاوعتني أصابعي . فنبدهت فجــاء إبن إبني ، فقلت له : أكتب عنّي .

وهنا تغيّـر الخط وكتب الحفيد : قعدت لأكتب ولكن جدي نتش الورقة من يدي وقال :

غداً أكتب أنا بخطي . هذا طرف فالج ، عارض ويزول .

وكنت أرى حنكه يرتخي وأسمعه يقول : جدّك يقنطر إن شاء الله ـ يعني أنه يبلغ المئة ـ .

وبعد قليل انعقد لسانه ، ومات من ساعته ، وهو ينظر اليّ بعينين يكسرها الموت . فعرفت أن في وجهه كلامــاً لم يقله في الأربع والتسعين سنة .

وجوہ و حکایات

دايم دايم

ليلة «الغطاس»[١] ليلة خصبة تحبل فيها العقول بالأحلام والأماني، فتلد العجائب والغرائب، وهنيئاً لك يا فاعل الخير.

تربّع[٢] الخوري نصر الله، في تلك الليلة، عن يمين الموقدة، وتقرفصت[٣] قبالته خوريته كأنها قفّة ثياب.

الخوري معبّس حيران، تارة يمشط لحيته الطويلة بأصابعه، وطوراً يحكش النار[٤] وينفخها، فيتطاير الرماد في سماء العليّة[٥]، ثم يستقر

---

(١) ليلة الغطاس: ليلة السادس من شهر كانون الثاني من كل عـــام وهي ذكرى حلول الروح القدس على السيد المسيح في نهر الاردن.

(٢) تربع: ثنى قدميه تحت فخذيه مخالفاً لهما.

(٣) تقرفصت: جلست على ركبتيها وألصقت بطنها بفخذيها.

(٤) يحكش النار: يحركها.

(٥) العلية: الطابق العلوي من المسكن.

أجلى ما يكون على جبته ، وقاووقه ، والبلاس [1] ، فتصر الخورية فمها المتكرّش [2] ،فيصغر حتى يصير كالخاتم. تتذكر كم حفّتْ ثياب الخوري، ليظهر نظيفاً ، يوم عيد الغطاس ، فتتنهد وترقص على شفتيها كلمة ، ثم تتوارى ، فتنفض ثيابها وكوفيتها بتأفف كأنه توبيخ لبق للمحترم العكِش [3] ، ولكنه لا يحس .

بماذا كان يفكر الخوري في تلك الساعة ؟ أبنسله المقطوع ؟ فهو ، علم الله ، مؤمن بأنه ابن الكنيسة ، ومن أبنائها ذرية واحدة لأب واحـد هو المسيح ، فسيّـان عنده أعْقبَ [4] أم لم يعقب . ثم ماذا يرتجي ابن الثمانين من امرأة تحبو الى السبعين ؟

لو كان علمانياً لترقّـب الموت فضّاض المشاكل [5] ، ولكن الخورية كالصنوبرة إذا قطعت لا تفرّخ ... فماذا يحيّـر الخوري إذن ؟ وما يشغل باله ، وهو الحاكم المطلق ، وليس على الرعية إلا الطاعة ؟ أنقول إنه مؤمن

---

(١) القاووق : غطاء الرأس للكاهن . والبلاس : بساط من شعر .
(٢) المتكرش : المتقبض ، الكثير التجاعيد .
(٣) العكش : القليل الترتيب . والمحترم : صفة أصبحت شبه لقب يطلق على رجل الدين المسيحي .
(٤) أعقب : أنجب ولداً .
(٥) الموت فضاض المشاكل : أي تموت زوجته فيتزوج غيرها . الخورية كالصنوبرة : إذا ماتت زوجة الكاهن لا يحق له أن يتزوج ثانية ، فهي كالصنوبرة التي لا يفرّخ بعدها إذا قطعت .

كالعوام من النـــاس بمرور « الفادي » على بيوت النصارى ، ومن يعمل ساعة مروره عملاً دام عليه ، إن حسناً فحسناً وإن سيئاً فسيئاً ؟

كل هذا تخمين . أما الثابت فهو أن الخورية لم ترَ زوجها قط كما رأته الليلة . حاولت أن تنبهه، فقامت إلى مغزلها، هاتفةً : يا يسوع ! ثم جاءت به من عن يمين مخدتها وقعدت قائلة: يا مريم ! ولكن بلا جدوى . الخوري في دنيا غير هـذه الدنيا . فانكبّـت أخيراً على نفش الصوف وغزله ، غير منفكّـة عن التامل في خوريّها المنتصب أمام وجهها كالوتد .

وبعد صمت طويل فتح الخوري فمه وقال : كم رطلاً عجنت ؟.

فتنهدت الخورية وقالت : أربعة أرطال .

فقال : قليل . الضيعة كلها عندك الليلة .

فقالت وهي تعد على أصابعها : القمح ، والحمص ، والتين ، والجوز ، واللوز ، والزبيب .

فاجابها بهدوءٍ مرحٍ : عادتك يا مبيّـضة الوجوه ، احسبي حساب الضيعة كلها . أطعمي ولا تبعزقي[1] .

فاجابته وقـد هزّها ثناؤه : ما عليك ، عندنا خير كثير ، وبركتك تغنينا عن كل شيء .

فحنا الخوري رأسه اتضاعاً وقال : أنا خاطىء يا خورية .

---

(١) بعزق الشيء : أنفقه بإسراف وبغير حساب .

فحسبت أن خطايا رجلها تتراءى له في هذه الليلة المباركة ، فانغمت وسكتت .

وعاود الخوري الصمت ، فأخذ يعدّل النـــار وينفخها ، فيتطاير الشرار من أرومات التوت التي توقد خصيصاً ليلة الغطاس. ومرّت فترة لا نفخ فيها ، كأنما كانت استعداداً لعاصفة أثارها الخوري في الموقدة ، وذرّى الرماد .

لم تطق الخورية ، فقالت بنبرة تخالطها ابتسامة مرة : وسّخت الدنيا يا خوري ، توقّ ثيابك .

فانبسط وجهه اعتذاراً ، وطلب السراج ، فنهضت على الأربع ، فقال لها مداعباً : قصّرت يا خورية. فاستضحكت ، ومشت وهي تقول: نشكر الله ، بيّن الخوري سنّه الليلة (١) .

وأجلست المسرجة (٢) عن يمينه وقعدت في مبركها (٣) تغزل

حوّل الخوري وجهه نحو الشرق ، وركع يصلّي . ثم نظر شزراً فرآها تغزل ، فتنحنح ، ثم أحّ الأحة المعهودة ، فحلّت محل المغزل مسبحة وردية (٤) طول الحبل .

---

(١) بيّن سنه : أي ابتسم .
(٢) المسرجة : القائمة التي تجعل عليها السرج – القنديل – .
(٣) برك : جثا للركب ، والمبرك موضع البروك .
(٤) سبحة طويلة للصلاة مؤلفة من خمسة عشر بيتاً .

وأخذ الناس يتوافدون على بيت الخوري ، فجلسوا صامتين .

لم تكن تخرج كلمة إلا من أفواه الأطفال ، فتحبسها الأمهات في تلك الأكام ، ولا يفلت منها إلا القليل ، وإن أبطأوا عن إسكات طفل جار[١] الخوري وهرّ[٢] ، فيُسدّ فم الصبي سدّاً هرمسياً[٣] .

وأطبق الخوري شحيمته[٤] وتحرّك للقعود، فسّوه[٥] جميعاً بصوت واحد، وتكوّموا[٦] حوله يقبّلون يده ـ والمورد العذب كثير الزحام ـ فاصطدمت الرؤوس بالرؤوس كأكر البليار . لم يرتدّوا حتى باسوها ، جميعاً ، ثم قعدوا ، سكوتاً ، ينتظرون كلمته ، فقـال لهم : هذي ليلة شريفة ينتظرها الناس كل عام مرة . هي تذكار حلول الروح القدس على المخلّص في نهر الأردن . طوبى لأنقياء القلوب ، فإنهم يعاينون الله ، كما قال مخلّصنا وإلهنا له المجد ، هل أنتم مستعدون يا أولادي المباركين ؟

فأجابه الذين لا يفكرون بزلابية الخورية : نعم يا معلمي .

فقال الخوري بتواضع : هذا ما أتمناه لي ولكم يا إخوتي .

---

(١) جأر : هنا حدّق بقوة .

(٢) هر : أرسل صوتاً غامضاً دلالة على الإنزعاج .

(٣) هرمسياً : أي محكماً بقوة .

(٤) الشحيمة : كتاب صلاة الكاهن الماروني الاسبوعية .

(٥) مسّوه : ألقوا عليه تحية المساء : مساء الخير .

(٦) تكوموا : اجتمعوا حوله .

وجرّأهم عليه تلطفه في الحديث،فذكروا له رجلاً طرده من الكنيسة لأنه وشوش[1] جاره فيها ، فغفر له ، وأدخلوه .

وعاد الخوري إلى سهوته ، وانطلقت ألسن الرعية في الحديث عن شؤونهم القروية ، فلم ينسوا شيئاً منها . أما عيونهم فكانت في الغالب تتجه صوب المعجن والقدر . ولما أتت الساعة تحلحلت[2] الخورية من موضعها لتضع المعجنة على طرف المصطبة[3] ، فامتدّت لرفعها عشرون يداً وشمّرت[4] الصبايا عن أذرعهن يقرّصن العجين[5] .

وعلا صراخ الزلابية في المقلى ، وأخذ الصغار ينتشون[6] ما في أيدي الآباء والأمهات . وألهاهم انتظار النوبة[7] عن الحديث ــ وعند البطون تضيع العقول ــ فظلّ منقطعاً حتى قالت صبية ، وهي تمطّ قرن زلابية فوق المقلى : عجينك تخّ يا عمتي .

فأجاب شاب في نفسه شيء من تلك البنية : إذا كان عجين الخورية لا يتخ فعجين من يطلع ؟

---

(١) وشوش : همس اليه الكلام .
(٢) تحلحلت : تزحزحت من مكانها .
(٣) المصطبة : مكان ممهد قليل الارتفاع عن الأرض يُجلس عليه .
(٤) شمر الثوب : رفعه .
(٥) قرّص العجين : قطعه قطعاً متساوية .
(٦) ينتشون : يخطفون بسرعة .
(٧) النوبة : الدور .

فاعجبت الكلمة الجمهور وكان الإيمــان بالعجيبة الاولى[1] . وامتلأ البيت غبطة ورائحة زيت .

واستلذوا زلابية الخورية المقرفلة مغموسة بالدبس فذكروا «الدايم»[2] الذي ياكلون على ذكره ، فقال واحـد : هنيئاً لمن يركع الليلة على السطح ليباركه المسيح بروره .

فاجابه شاب : لا تفوتنا هذه النعمة إن شاء الله .

وصاح شيخ رعشن[3] من الزاوية : يا نسوان ، الليلة يتركون خلايا الطحين مفتّحة ليباركها الرب .

فتنبّهت لذلك امرأة خليّتها مسدودة ، فصفّقت كفاً على كف ، وهرولت إلى بيتها،ثم عادت تلهث،خائفة على فوات شيء من زلابية العيد.

وعلى ذكر الخمير قالت امرأة أنها علّقت عجينتها بالمشمشة ، فأجابها الرعشن ، راوية أخبار الدايم : لا يا أم يوسف ، هــذا غلط . المشمش يركع . علّقيها بالتينة أو التوتة. التوت متكبر لا يسجد. والتينة حاقدة على المسيح .. لأنه لعنها .

فقال شاب : نسيت الخروبة يا جدي .

---

(١) يعتقد بعض العامة أن العجين يختمر في هذه الليلة بدون خمير .

(٢) الدايم : يريد به المسيح.ومن معتقدات العامة أن المسيح يمر على البيوت عند منتصف ليلة الغطاس ، ويبارك الخيّرة منها ، فيدوم فيها فيض النعم سنة كاملة .

(٣) رعشن : أي كثير الارتجاف ، مرتعش .

فقال : نعم ، نعم ، الخروبة تقول للرب : حبلى مرضعة على كل كتف أربعة .

فأعجبوا بفصاحته، وصدّقت كلامه امرأة علّقت عجينتها بالمشمشة عام أول،فتلوثت بالتراب..فأسرعت أم يوسف لتنقل عجينتها الى التينة.

وكان الزيت يغنّي ، والعجين يرقص ، والناس يأكلون ويتحدثون، والخوري غارق في بحرانه [1] كانه لا يرى ولا يسمع ، والخورية تتعجب كيف لا يأكل قرناً من زلابية العيد مع أنه يموت عليها [2] .

وكان الامتشاط في التبّان [3] بعد قلي الزلابية ، فتطاير الشرار من رؤوس بعض البنات وتراكض الساهرون ليروا، والتفت الخوري التفاتة غير كاملة ، ولم يتكلم .

وجاء دور القمح والحمص المسلوقين ، فصبّت الخورية في صحون الفخار الصفراء ، وأعطت كل كومة [4] صحناً ، فاقبلوا عليها يغرفون، وقال شاب فمه محشو : مرّ الدايم في زي فقير على مرأة تسلق قمحاً ، فقالت له إنها تسلق بحصاً ـ أي حصى ـ فدعا عليها . ولما كشفت قدرها امتلأ بيتها حجارة ، ولو لم يصلّ الخوري على الباب طمّت الحجارة الضيعة .

فأجابه ثان : وبالعكس حصل لمرأة فقيرة ، ولكنها بنت أوادم ،

---

(١) بحران : شبه غيبوبة .

(٢) يموت عليها : يحبها كثيراً .

(٣) التبان : مستودع علف البقر ، كان موضعه في مسكن الفلاح اللبناني يوم كان الخوري كمامة الناس يفلح ويزرع .

(٤) كومة : جماعة .

فاكل أولادها من الحول الى الحول .

وتذكروا عجائب لا تحصى . أما الخورية ، فكانت تغمز حبقوق ليحدّث الخوري ، فقد شغل بالها سكوته الطويل .

فلبى حبقوق الذي هو على سن الخوري وساله : ما قولك يا معلمي ، البحر يحلو الليلة مثلما خبّروناً ؟

فلم يجب الخوري ، وظلّ ناظراً الى الباب الذي يفتحونه خصيصاً ليدخل منه الدايم ، ولا يدعو على البيت بالتسكير الى الأبد .

فقال روحانا، وهو ابن ستين وما فوق: مؤكد عند نصف الليل تماماً. أعرف كثيرين جرّبوا وشربوا فكان أحلى من الدبس .

ونكعت[1] الخورية حبقوق ليسأل الخوري سؤالاً آخر لأنها اعتقدت أن الله ربط لسانه كما عقد لسان زكريا[2] في الهيكل.فقال حبقوق بصوت عال : خوري نصرالله أين أخبارك الحلوة ؟ ما سمعنا منها شيئاً ، الليلة .

فنظر اليه الخوري نصرالله نظرة مفلطحة[3] ، ولم يتكلم . فراع

(١) نكع : لكز برفقه أو بكوعه .

(٢) زكريا : كاهن من العهد القديم، تراءى له الله في الهيكل ، وربط لسانه عن النطق حتى يتم وضع زوجه اليصابات التي حملت بعــد أن كانت عاقراً وطاعنة في السن ، فولد لهــا يوحنا المعمدان الذي عاش متقشفاً وظهر في الثلاثين من عمره على شاطىء نهر الاردن داعياً الناس الى التوبة والرجوع الى الله ، مبشراً بمجيء المسيح . وقــد قطع الملك هيرودس رأسه (٣١ م) .

(٣) مفلطحة : منبسطة وعريضة .

الخورية منظره ، وأيقنت أنها سترزق ولداً في الستين ، وقد يكون عند الله يوحنا آخر . ولماذا لا ؟ فالإنجيل يقول : ليس عند الله أمر عسير . وهنا الخوري مربوط اللسان ، وهو كاهن مثل زكريا ، والخورية عاقر كاليصابات ، ونقية طاهرة مثلها .

أما الجماعة فلم يدركوا شيئاً مما يحدث ، وأفاضوا في حديثهم عن « الدايم » لأن ساعة مروره قربت ، فقال واحد : طلبت بنت كسيحة من سيدنا يسوع المسيح أن يعمل واحدة من يديها منجلاً [١] ، والثانية فرّاعة [٢] ، فقبل طلبها ، وخلّصت من الذين يعذبونها .

وقال غيره: كان لواحد عمة اسمها خرستين غنية بخيلة لا يستنتج منها شيئاً ، فقالت له: اطلب لي طلبة من الدايم. فقال: يا دايم المجد والطهارة صيّر عمتي مثل الكاره [٣] . فساله شاب: صارت كاره؟ فاجابه بإيمان: وأية كاره ! فمال ذاك الى جاره وقال له : هينة عليك . اطلب الليلة من الدايم يعمل عمتك مثلما تريد واسترح من دينها .

وبينا الشباب يكسرون الجوز واللوز ، والشيوخ يضغضغون [٤] الزبيب والتين ، فرّ الخوري إلى الباب بغتة ، فهاج الجمهور متعجباً من فرّته الغريبة . وتبعه بعضهم ثم عادوا معه يسألونه عما رأى ، ولكنه لم يتكلم ، فتحرك الجنين في بطن الخورية ...

---

(١) منجل : آلة من الحديد عكفاء يقضب بها الزرع .

(٢) الفراعة : الفأس .

(٣) سبق شرحها بالمقدمة .

(٤) يضغضغون : يلوكونه في الفم بدون أسنان .

وبعد سكوت غير قليل قال كبير القوم قوموا يا جماعة ، الثريا [1] مالت فودّعوا كما سلّموا .

وتعلق نظر الخورية بشفتي الخوري ، وإذ لم يتكلم شعرت أن بطنها انتفخ كأنها في شهرها السابع . فمدّت فراشها ونامت تتوقى الطرح والإسقاط .. ولكن الخوري بدّد حلمها الشهي حين صاح بالنـــاس من الباب : القدّاس نصف الليل .

فأخذت الخورية تتململ ، وتفحّ في فراشها . سألها الخوري عن مصيبتها فما ردّت جواباً ، فتوهم أنهـــا آسفة على ما أنفقت لأن حاشية الخوري رقيقة [2] ، فتركها وقعــــد يصلي صلاة « الستار والليل » . ثم اتكأ قرب الموقد فغفى . وتراءى له الطيف الذي مرّ بباله منذ ساعة ، وسمع دقاً على البـاب ، فاستيقظ مذعوراً يرسم إشارة الصليب ويغمغم . وهبّ الى قنديله يشعله ، وتلفلف بجبته ، وقبل أن يمشي الى الهيكل ، نكز الخورية بعصاه ، فقعدت تتمطى .

ولم يبتعد عن البيت بضع خطوات حتى أخذته أفكار غريبة،ورأى رؤى مخيفة ، فهات فزعاً .. وهمّ بالرجوع الى البيت ولكنه تجلد ، وأكثر من إشارات الصليب والصلاة ، فاشتد عزمه وتبدّد كل شيء .. وبلغ الكنيسة غير مصدّق أنه فيها ، وتعلق بحبل الجرس ، فدقه بعــــد عناء

---

(١) الثريا : مجموعة كواكب ، وهنا أوشك الليل أن ينتصف .

(٢) حاشيته رقيقة : ليس له مال كثير .

بضع ضربات وصعد الى الخورس [1] ، وهو يرتل الأناشيد البيعية [2] ، ليتشجع .

أوقد السرج والشموع بيد ترتجف وجلد يقشعر . وكان كلما شجع نفسه ازداد خوفاً ورعباً .

وانتقل أخيراً الى زاوية الكنيسة الشمالية ، وأخـــذ يقلب الكتب البيعية مفتشاً عن رتبة الغطاس [3] وقدّاسه، لعله ينسى مخاوفه، فاستوى قدّامه شاب غريب رأى فيه ملامح من يسوع. فصاح الخوري بالسريانية: « بار حايو داكاس بت ميته [4] » فمدّ الشاب يديه نحو الخوري مفتوحتين. فزاد إيمانه بأنه المسيح ، فخرّ أمامهُ ساجداً ، وأغمي عليه .

وأقبل الشمامسة الذين يلبون دعوة الجرس قبـــل الرعية ، فرأوا الخوري نصرالله منبطحاً على البلاط كالميت . فأسرع أحدهم إلى المـــاء ينضحه به ، وأحرق آخر رقعـــة أدناها من منخريه [5] ، وقرع ثالث الجرس قرعاً عنيفاً ، ثم دقه الضربات المعلومة بين الأهالي للاستغاثة ، فانصبوا على الكنيسة كالسيل ، وكانت الخورية آخر من جاء .

---

(١) الخورس : مكان مرتفع في الكنيسة يقوم عليه المذبح الكبير .

(٢) البيعية : الدينية الكنسية .

(٣) رتبة الغطاس : صلوات خاصة تقام في هذه المناسبة .

(٤) جملة سريانية معناها : ابن الحي الذي مكث بين الأموات .

(٥) يلجأ أهل القرى عادة الى إحراق قطعة قماش وإدنائها من أنف المغمى عليه لأن رائحتها تساعد في استفاقته .

رأت زوجها صريعاً فانحنت فوق رأسه تولول وتبربر [1] : راح الخوري، يا ويلي ! مات، مات خوري نصرالله. يخرب بيتك يا عزرايل. ومطت ياء عزرايل ولامه مطاً طويلاً جـــداً ، انتهى بنتف شعرها ، وقعدت ترحر وتطحر [2] . وأخيراً أرسلت صوتاً رعب السامعين : خرب بيتي يا ناس . يا حسرتي عليك يا خورية نصرالله !

ففتح الخوري عينيه ، ولكنه، لم يتكلم ، فهدأت الخورية وعاودها، حالاً ، الإيمان بالحبل ، وآمنت أكثر من ذي قبل ، لأن ما أصاب الخوري أصاب زكريا تماماً ، وفي الهيكل ، وعن يمينه أيضاً ...

وأشار الخوري بجمع كفه الى النـــاس ، فتهللت الخورية وكادت ترقص ... وبعد قليل غمغم الخوري بعض الكلمات ، ثم انفكّ لسانه فخبر الشعب كيف رأى الدايم أول مرة في البيت عندما فرّ الى البـاب . ثم كيف ظهر له في الهيكل وعاينه وجهاً لوجـه . فسجدوا شاكرين الله إلا الخورية، فالرؤيا لم تعجبها لأنها كانت تحلم بأخرى [3] . غير أنها سلمت وقنعت قائلة في قلبها : تقبر الأولاد ، السلامة غنيمة .

وبعد قليل ، نشط الخوري وشعر أن شبابه يتجدد كالنسر ، فأقام قداساً صارخاً رناناً بوجه يقطر منه الإيمـان ، واحتفل برتبـة الغطاس

---

(١) تبربر : تقول كلاماً غير مفهوم .
(٢) ترحر وتطحر : ترسل أصواتاً خشنة .
(٣) أي كانت تفكر بأن تحمل بعد عقمها .

احتفالاً دام ساعة وأكثر ، فكان يمغط الترانيم والتهاليل ، وإن رأى من شماس فتوراً أو تراخياً غمزه وانتخى[1] ، ثم ختم القداس بمرح يشبه رقص داود أمام التابوت[2] .

وعند الضحى طاف في القرية يرش ماء الغطاس على البيوت، فاستقبلته الرعية بإجلال وفرح عظيمين . إن قعد قعدوا حواليه ، وإن مشى مشوا خلفه فعاد الى بيته عصر النهار فارغاً دلوه من الماء ، ولكنه مليء بشالك وأنصاف بشالك وزهراويات وأرباع مجيدية[3] ، فقد أجزل الجميع عطاءه حتى الأرامل . وابن المذبح من المذبح يعيش .

وتناقلت الألسن خبر العجيبة العظمى ، فجاء الزوار من أماكن بعيدة يلتمسون البركة والدعاء . ومن لم يجـد الخوري اكتفى بمقابلة الخورية وسمع من فمهـا حكاية « الدايم » . وكثيراً ما كانت تهم بقص حكاية حبلها ، فتبتسم ابتسامة قليلة ، ثم لا تقول شيئاً .

حلت على أبينا الخوري نعم « الدايم » فصار نافـذ الكلمة عند الله ، تنتظره الجماهير في المناحات ليفوزوا بلثم يـده الطاهرة ، وتحل بركته عليهم ، وأمسى يصلي على الماء فيطرد الفار والجرذان والحيات ، ثم عظم

---

(١) انتخى : أبدى شيئاً من النخوة . تحمّس .

(٢) رقص داود أمام التابوت : دليل الفرحة الكبيرة ، وكان ذلك عند إعادة تابوت العهد الى اورشليم .

(٣) عملات تركية في العهد العثماني .

سلطانه الديني ، فأضحى يبارك الأرض الجدبة فتستغني عن السماد ، ويركض نباتها طلوعاً .

* * *

وبعد شهر جاء عيد مار مارون ، فطلب الخوري نصر الله الكأس الذهبية فلم يجدها ، فطرّ عقله[1] ، ولكنه تجلد وقدّس قداساً وجيزاً استغربته الرعية ، وظنت الخوري مريضاً . وجدّ في البحث سراً عن مرتكب الجريمة العظمى فلم يوفق .

ودرى أهل القرية بسرقة الكأس المخصص بهـا عيد أبي الطائفة ، والميلاد والفصح[2] فطوّلوا ألسنتهم كثيراً ، حتى استخفوا بقديس الضيعة واتهموه بالعجز والشيخوخة، لأنه لم يخنق السارق قبل أن امتدت يده الى بيت « الجسد » .

وبلغ الخبر الكرسي البطريركي، فرشق السارق « بالحرم الكبير[3] » الذي يخرق العظام كما يخرق الزيت الصوف . وتلاه الكهنة في كنائس عديدة بيوم واحد ، فبات المؤمنون يترقبون عودة الكأس ولكنها لم ترجع ...

---

(١) طرّ عقله : فقد صوابه من الحيرة .

(٢) أبو الطائفة : مار مارون . الميلاد : ذكرى مولد المسيح . الفصح : ذكرى قيامة المسيح من الموت .

(٣) الحرم : قرار يصدره مرجع ديني كبير يمنع من يرمي به من الاشتراك في الصلوات والمراسم والحقوق الدينية .

وفي التاسع عشر من آذار ـ عيد مار يوسف ـ دخل الضيعة غريب راكب بغلة، فاطلوا من الأبواب على وقع حوافرها . وتبعه ـ كعادتهم ـ نفر منهم ، ودخلوا وراءه بيت الخوري . فعلموا من حديثه أنه رسول الوكيل البطريركي الخوري بطرس ضو ، وأن الكاس قد وجدت ، فزرعوا الخبر في القرية .

وما بدّل الخوري ثيابه ولبس جبته الزرقاء حتى كانوا كلهم متجمعين حول مركوبه قدام الباب ، ينتظرون سفره السعيد ليدعوا له بالتوفيق . عدّوا وجدان الكأس إحدى عجائبه لأنه تغضب على السارق مرتين: بعد تلاوة الحرم الكبير ، وفي ختام زياح القربان المقدس .

وبلغ المحترم جبيل ، فاستقبله الوكيل البطريركي باحترام جزيل يليق بصاحب الغبطة ، وخبره أن الكأس محجوزة عند خليل الصائغ ، وسارقها محبوس في القلعة ، وذهبا معاً ليريا الكأس والسارق .

ولما وقعت عين الخوري نصر الله على الحرامي ، ارتجف واصفرّ : عرف به « الدايم » ، فأحسّ في الحال أن قوة خرجت منه ...

مُعَلّم

عرفتـــه في عنفوان[1] شبابه . صدرٌ كالصندوق على فخذين كعضادتين[2] ، وهامة[3] تثبت للعلماء أنه كان على وجه الأرض عمالقة . في مشيته شيء من الخيــلاء[4] يبرّىء تسميتها غطرسة[5] . كان خُطُـواتِه موقّـعة إيقاعاً أو مُقسّـمة بالبيكار . مشيَ السحابة لا ريثٌ ولا عجلٌ ولكن ليس إلى بيتِ جاراته .

يتزيّا بزيّ العلماء ويتوقّـر مثلـهم ، فأبداه غنبازه « الديما »[6]

---

(١) عنفوان الشباب : أوله ، وعنفوان الخمرة حدتها .

(٢) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه ، وتطلق على الركائز الحجرية التي يقوم عليها البناء المعقود .

(٣) هامة : رأس كل شيء . وتطلق على الجثة .

(٤) الخيلاء : العجب والكبر .

(٥) غطرسة : كبرياء ، وأيضاً العجب بالنفس .

(٦) الديما : نوع من القماش صنع الذوق وبيت شباب .

أطولَ مما هو . متانّقٌ في كل شيء حتى في الحديث . كان يرطُل[1] كلّ كلمة ويروزها قبل أن تنطلقَ في الهواء . رأسه ثقيل ، كما يعبّر العوامّ عن الرصانة . يدور على قدميه بكلّ مهابةٍ . إن التفت كأنه مصراعُ بوّابة الدير المصفّحة ، فلا تسمع منه جَلنْبَق كما أكّد لنا أبو عثمان المازني إذ حدثنا عما يقوله مِصراعا الباب عند الغلق والإصفاق .

فحصت ضميري فحص مؤمن مُوَسوس[2] قبلَ الاعتراف لأتذكر ابتسامته فأصفها ، فما تذكرت قط أني رأيته باسماً . أذكر أن لثّته[3] كانت محمرّة ، ولهذا حكاية : رأيتها وأنا ابن خمسٍ حين كان يعلّمنا الألفباء . قال لأحد رفقائنا النجباء : قاف ، فانتصب بوجهه كالمارد ، فغضب المعلم لهذه البلادة . هو يريد الحرف المعروف لا الوقوف ، فرفع شفته العليا وأرخى السفلى ورَبسه بيديه ساخطاً .

استيقظتْ في المعلم الجرثومة[4] اللبنانية فهاجر إلى فلسطين ، وعاد بعد سنوات ومعه عروس . كان عرسه أوّل الأعراس التي شهدتُها . جماهيرُ زاحفة بتلك الهدية العسلية ، غناء وحداء[5]

---

(١) يرطل : يروز ليعرف الوزن ، أي وزن ، ومنها كلمة رطل .

(٢) موسوس : من أصابه خلل بعقله .

(٣) لثة : ما حول الأسنان من اللحم وفيه مغارزها .

(٤) أي حب اللبناني للهجرة .

(٥) حداء : أهازيج الأفراح والمواسم .

وزغردة [1] . الملبّس والرزّ والقمح تتناثر من كل بيت تمرّ به العروس ، وأيدٍ لطيفة تلوّح بالقماقم راشّةً عليها وعلى موكبها ماء الزهر والورد . العريس على السطح منتصب فوق الباب الذي تدخل منه العروس . لصقت العروس [2] الخميرةَ على العتبة ، وانهالت عليها ضرباً بالرمّان ورشقت به الناس ، ثم نزلت عن الفرس ودخلت عشّها الجديد . كانت أمّ العريس تصطنع الابتسام وترحّب بكنتها العتيدة طائفةً حولها بصحن البخور . كانت تبخّرها وتدرسها درساً فيزيولوجياً [3] . الثياب جميلة والزي طريف . العروس بنت مدرسة ولكنّ وجهها الديناري [4] يدل على أنها قليلة الجاذب جداً . ذراعٌ كالمسلكة [5] ، وساق كالمغزل [6] ، ويد كاصّ الكبّا .

(١) زغردة : غناء النساء في الأفراح .

(٢) من تقاليد القرية اللبنانية ، أن تلصق العروس قبل دخولها بيت الاحماء خميرة فوق عتبة البيت تيمناً بالخير والخصب خاصة في حياتها الزوجية الجديدة ، ويكون التصاق الخميرة على العتبة فأل خير يبعث الغبطة في صدور المحبين من أهل العروسين .

(٣) علم وظائف الأعضاء الحية وهو علم يبحث في تركيب المخلوقات الحية ووظائف أعضائها .

(٤) أي أنها نحيلة الوجه ، صفراء اللون .

(٥) المسلكة : آلة رفيعة تلف عليها خيوط الغزل ، والمسلك النحيف .

(٦) المغزل : ما يغزل به الصوف وغيره .

كانت أم العريس في تلك الساعة نهباً مقسّماً [1] ، تجيب الجميع على عباراتهم التقليدية بالأجوبة المعدّة لها ، وتؤهل بحرارة بربّةِ البيت العتيدة [2] . وقد سمعتها فيما بعد تشكر ربها على خروجها من تلك المحكة [3] ظافرة ، يشهد لها الناس بالفصاحة وضبط النفس ...

وصُمدت العروس فوق صندوق والى جانبها شبينتها [4] ، ومن حولها بنات جنسها . وتصدّر العريس المجلس . وقعد الناس حوله وبين يديه في السماطين [5] . وافتتح شاعر العرس سوق عكاظ فقال « ردّة » [6] هي أول محفوظاتي ، مدح فيها العريس ، فسرّي عن والديه بعض الهم . نقر الدف [7] نقر مدلّ [8] ، فتطاولت اليه الأعناق ، وكان صمت . وما هتف « اوف » [9] حتى صاح الجمهور بصوت واحد كالرعد « اوف ، اوف » . ولم يقل :

---

(١) نهباً مقسماً : مشتتة غير مستقرة على حال .

(٢) العتيدة : المقبلة المنتظرة .

(٣) المحكة : الانشغال .

(٤) الشبين : هو الشاهد على الزواج (والكلمة سريانية) .

(٥) السماطين : الصفين .

(٦) ردة : اسم المرة من رد وهي لازمة في الزجل .

(٧) دف : آلة طرب .

(٨) واثق بنفسه وعدته .

(٩) اوف : صوت يطلقه الزجال ليسترعي انتباه السامعين عند الابتداء .

كلّن غابوا وما جابوا والسبع غاب وجاب

حتى تماوج الجمهور . أخذت الردّة بالعقول كأنها السيا المحكيّ عنهـا أنها تحوّل الأشياء عن حقيقتها ، فردّدها الجميـع متحمسين وصارت زيارة ـ اسم العروس ـ أخت الزهرة[1] وبلقيس[2] ، إلا ثرثارة سمعتها تقول : « لولا يرجع وحـده ، كان أحسن . الله يساعد أمه » .

وقالت امرأة اخرى : «هذي زيارة ؟ هذي زيار يا طنوس» .

وبعد أخـــذ وردّ بين القوّالة[3] ، لعبت الخمرة في رؤوس الشباب ، فكان الرقص على قرع الطبول وعزف القصب . وهمّوا بأن « يدبكوا »[4] فمنعوهم ، لأن البيت علّية[5] أرضها خشب . أما نحن الصغار فعمنا في النقولات : ملبس وقدامي وفستق العبيد شيخ النقل الدائم . وفزنا علاوةً بتحف مقدسية[6] ، مسابح وصلبان وصور وايقونات من أورشليم المقدسة ، فترنحت نفوسنا بنعمة الله ، وامتلأت بطون الكبار لحماً وخمراً .

---

(١) الزهرة : احدى الكواكب السيارة وهي عند الأقدمين آلهة الجمال .

(٢) بلقيس : ملكة سبأ ، وهي احدى اللاتي اشتهرن بالجمال الأخاذ .

(٣) القوالة : الزجالون ، شعراء الزجل .

(٤) يدبكون : يرقصون الدبكة ، وهي نوع من الرقص الفولكلوري .

(٥) علية : الطابق العلوي من المسكن .

(٦) نسبة الى القدس .

كان عرس المعلم أميرياً ، دام أسبوعين فاجهز على كيسه . أنفق في شهر ما جمعه في سنوات ولم يبالِ لأنه ما تعوّد أن يبالي . نشأ وحيداً مدلّلاً في بيت كان غنياً فافتقر . أمه أنوف[1] ولكنها لا تستحي بالعمل . تأكل طوراً من المغزل وطوراً من الرفش . مشهود لها بالترتيب والنظافة ، فبيتها دائماً مسنون الأرض لا يدخله الناس إلا حفاة لئلا تخدش نعالهم وجه الطين ، فهي تحمّره[2] كل سبت وتدلكه . كانت خبّازة عبقرية تسهر على الرغيف سهر أكثر نساء اليوم على وجوههن وأناملهن ... يهمها أن يخرج الخبز من عندها بدون لو . أما زوجها أبو طنوس فكان جمّالاً ولكنه جمّال أبيّ أمين . دستوره أعطنا خبزنا كفاف يومنا . جعل وكده تعليم ولده ليعتزّ ويستريح ، فشبع فخراً ولم يأكل خبزاً .

لم يكن المعلم غير برّ بوالديه ، ولكنه كان والرغيف فرسي رهان[3] ، لا يدركه حتى يقطع في الجري أنفاسه . حال علمه وتربيته الاولى دون رضاه بالخسيس[4] من العيش ، وأصيب بمرض الكرسي[5]

---

(١) أنوف : مترفعة .

(٢) تحمره : تصقله وتدمه وتطليه بترابة طينية حمراء ممزوجة ماء .

(٣) مثل يضرب لاثنين يستبقان الى غاية واحدة فيستويان في الجد أو الفضل وهي هنا كناية عن فشل المعلم في الوصول الى الغنى والثروة .

(٤) الخسيس : القليل ، الزهيد .

(٥) مرض الكرسي : هنا طلب الوظيفة .

فسعى وراء المثل الأعلى ، هاجر في طلبه الى البرازيل وكان آخر العهد به .

كان جميل الخط حلو الإنشاء ، إذا ظفر والده منه بمكتوب أقرأه معلم الأولاد فيُعجب بتعابيره وينسخها ليتعلمها ويعلّمها ، يتمنى المسكين لو يوفّق مرة في العمر الى واحدة مثلها . لم يكن يؤلم أبا طنوس هجران ابنه مثلما يؤلمه سؤال الناس عن أخباره ، وما يسالون إلا عن الفلوس . وشاع يوماً في الضيعة أنه تناول حوالة ، فسالوه على أي بنك ، فقال بكل برودة : على بنك من علّمني حرفاً كنت له عبداً .

تلك كلمة ابنه عند افتخاره بالكرسي ، فكانت رمية من غير رام .

وأخيراً ورد المكتوب المضمون فتجمهر الناس على تلك البشارة ، فإذا بتلك الرسالة الحبلى تلد قصاصات من صحف المهجر كالمناظر والمنارة وأبي الهول ، كلها تثني على المعلم ثناء عاطراً وتعظم إقدامه على إنشاء مدرسة لأبناء الجالية بعدما كادوا أن يتامركوا ، فعلمهم لغتهم التي تربطهم بوطنهم . وفيها أيضاً مختارات من شعره ونثره وصورته بين أكابر الجالية . فاستقامت قناة[1] أبيه بعدما حناها الهرم ، وكاد يسمن بعد أن اخترم[2] جسمه الهم ، فاقعنسس[3] بين

---

(١) قناة : قامة .

(٢) اخترم : أضنى .

(٣) اقعنسس : نفخ صدره متكبراً .

القوم متعزياً مغتذياً . « الصيت الجيّد خير من المال المجموع » . هكذا كان يقول إذا ذكر المال ، ثم يخرج من عبّه الكيس المخملي ليقدم الى كل قارىء أوراق اعتماده ، أي قصائد ولده ومقالاته وما قيل فيه . كان أحبّ شيء إلى قلبه أن يُتلى على مسامعه شيء منها فيترنح ترنح فاهم ، ثم يردها الى مستقرها .

وعند نشوب الحرب الكبرى ورد من المعلم كتاب على إثر نعي أمه يعد فيه أباه بمبلغ من المال متى غلا « الرايش »[1] ، ولكن الاحلام لم تصحّ ، فالرايش لم يرتفع ... وأطبقت الحرب كاشتها على الشرق والغرب فقصّر أبو طنوس معمن قصروا من القرية عن إدراك المعاش ، فباع أول المقتنى وآخر المبيع أي البيت . كان يجول في القرية صامتاً كأبي الهول لا يشكو ولا يتنمر . جلس قبالتي يوماً مطبقاً شفتيه إطباقة صارمة . تأملته ملياً فرأيت شفتيه تتحركان وصدره يخرّ كزمّارة . علمت أنه يحدّث نفسه . أما ماذا كان يفكّر ... طبعاً لم يكن يفكر باختراع البارود ! هو عيّ[2] يعمل بقول المثل : « خليها في القلب تجرح ولا تخرج من الفم تفضح » . وبعد فترة رأيته يتهيأ لحركة ثم يعدل عنها ويغرق في أحلامه . وأخيراً دنى مني وابتسم ابتسامةً مخيفةً وقال : « يا تُرى ، ابن

---

(١) عملة البلاد التي هاجر المعلم اليها .

(٢) عي : عاجز عن النطق .

خالتك نسينا بالمرّة ، أم بعث لنا شيئاً وضاع ؟ اقرأ تفرح جرّب تحزن . هذا الذي صار فينا » .

فقلت له : أنت محتاج اليوم ؟

قال : لا ، معي بَقْوي[1] من ثمن البيت ... ثم تنهد وقال : راحوا من خلف البقر واغتنوا ، قبروا الفقر ، ونحن نشتهي العضة بالرغيف . أنا صرت على حفة قبري ولكن البنت . رطل الطحين بنصف عسملّي . أكلنا خبز حاف . ويا ليته قمح !

وفي غد ذلك اليوم استيقظنا على عويل البنيّة . مضى جدها لسبيله ولم يترك لها إلا ذاك الكيس المخملي . وجاءنا الجدري ، فمن لم يمت بالجوع مات بغيره . فلحقت البنت بجدها ، وانقطعت عنا أخبار المعلم حتى نعته الينا صحف المهجر منذ أربعة أعوام .

مات كأبيه ميتة كريم مضطر ، فأجمعت صحف المهجر على تقديس جهاده القومي في تعليم مواطنيه لغتهم فما نسوا أمتهم . وشكرت جريدة أبي الهول رجلاً ــ لا أتذكر اسمه ــ واساه[2] في مرضه الأخير وجهّزه للرحلة الكبرى تجهيزاً لائقاً به .

لم يكن هذا الجندي المجهول كسلاناً ، ولكنه كان يعتقد أن الدينار شرّ جار، واعتقاله جريمة لا تغتفر . وبالاختصار لم يكن من أصحاب الجمع والمنع[3] ، فمات ميتة جاحظية، وهذا معنا قولنا: « أدركته حرفة الأدب» .

(١) بقية . (٢) عاونه . (٣) البخلاء الموسرون .

جبور بك

١

كان جبور بك ينتظر ويفتكر ، فتداعت أسراب الذكريات حتى أمست كما قال النابغة : « عصائب طير تهتدي بعصائب » .

أصغى إلى أحاديث حوائج بيته البليغة ، فذكّرته السجادة النادرة بتلك الحصيرة المقطعة الموروثة عن جده ... وذكّرته المرآة الكبرى يوم كان ينحني فوق أجران « الصفوة »[١] ليفتل شاربيه فتلاً مغاراً[٢] . ولمس طوق معطفه المجلّل بفرو السمور[٣] ، فتذكر العباءة البلدية القصيرة الكمّين ولقب « دحدوح » .

---

(١) وعاء من الحجر يوضع فيه الماء والرماد يستعمل لغسل الثياب يكون ماؤه صافياً جداً كالمرآة .

(٢) الشديد الفتل .

(٣) حيوان بري لونه أحمر مائل الى السواد يتخذ من جلده فراء ثمينة

وتحرّك جبور على الصفّة [1] ، فهاج كرشه وترجرج ، وأبرقت سلسلة ساعته الغليظة المدلدلة على صديريته ، فتذكر « الكمَر »[2] العتيق الذي أعطاه إياه أبو خليل حلوانا [3] فشد وسطه بـه سنين وألقاه عنه في فندق انطون فارس برسيليا حيث كان يُحتفل بإلبــاس أولاد العرب الثياب الفرنجية .

وحكّت جبور رجله فانطوى بعناء مزعج وكاد ينبجّ بطنه ولما تبلغ يده رجله ذكّره الجورب الحريري والحذاء اللماع بالمداس [4] الذي يرى اخوته في أرجل معّازة الضيعة وبقّارتها .

وسمع جبور حس رجل فقال : « هذا هو » وحبس أنفاسه يتنصّت فإذا بالحس يبتعد ثم يضمحلّ .

وعاد جبور إلى أحلام يقظته الرائعة ، فجرّه تفكيره بالقــادم إلى مئات الليرات التي أعدّها برطيلاً، فهزّ برأسه وقال: « هاي ! ما شاء الله، هاي ! حصّلت يا جبور . مدير ناحية جبيل فرخ قائمقام . غــداً تضع رجلاً على رجل في العربة ــ سق يا عربجي . وحدّ العربجي نفر عسكري يأخذ سلامك ، ويخدمك ويقول لك : هنيئاً يا سيدي . يقول لك الناس :

---

(١) مقعد .

(٢) قطعة من القماش تربط على الخصر فوق السروال .

(٣) العطاء لشخص استخدم لحاجة عرضت .

(٤) حذاء ضخم ينتعله الفلاح .

يا صاحب العزة ، إن لم يقولوا : سعادتك . وبعد أن كنت « دحدوح » تصير جبور بك ، وإذا أحلت جبور أفندي » .

تنحنح وأحكم قعدته ، ثم أخرج ساعته الذهبية الضخمة وقلب شفته وقال : « الغائب عذره معه » .

والتفت إلى كتفيه لفتة غريبة ، فبشّ ثم عبّس . عبّس إذ رأى كتفه اليسرى نازلة عن أختها ، فتذكر الكشة [1] الثقيلة التي رجّحتها . وحاول إصلاح ما أفسده الدهر فما قــدر ، فاعتصم بحمد الله ، وتناسى الماضي وقال : « كثّر الله خيرك يا ربي ، ربيت على معجن هذا وذاك ، واليوم صار بيتي مفتوحاً للرائح والجائي ... أهلاً وسهلاً . كلوا يا بشر . ربك طعمك ، كل واطعم » .

ودرى المسكين أنه تمادى في تحديث نفسه ، فضحك ثم قهقه . لوى رأسه صوب الشمال فبصّ القلم الذهبي فقال : « وهــذه نعمة نشكر الله عليها ، صرنا نُمضي ونكتب بالمندي . الذكي لا يخاف عليه ، يخلّص حاله، من رآني يخمّن أني تلميذ بولاق » [2] .

وجاءته الخادمة بالقهوة فأخذها بلا شعور . ولما اقتربت من الباب ناداها مشيراً بأصابعه الخمس فبدت يده كالمذرى [3] : «من عندنا يا ناهيل»؟

---

(١) طبق خشبي يشده البــائع المتجول بحزام الى كتفيه ، يعرض عليه أصناف المبيعات .

(٢) حي من أحياء القاهرة اشتهر بمدرسته ومطبعته .

(٣) آلة على شكل أصابع اليد تستعمل لفصل التبن عن القمح .

ـ جمهور يا معلمي ، الضيعة عندك .

قالت هـذا وأشارت بيسراها إشارة قلة اكتراث واستقبلت الباب .

قال : حم !

التفتت فأومأ اليها ، فعادت .

ـ قولي لهم : معلمي مشغول جداً ، عنده ناس غرباء ، وإذا اهتموا ، بالغي وزيدي . قولي لهم عنـــده ناس من قبل الحكومة ومعهم أوراق أوراق . إسقيهم قهوة ، اعتذري عني ، قدّمي لهم سواكير .

وأشعل هو سيكارة من نوع اكسترا اكسترا فاستطيبها على القهوة . تذكّر كيف كان يشحذها من النـاس . واحتار كيف يعلل جمعه الثروة الضخمة وهو ذاك الرجل ، بينا فلان الفلاني ، وهو معلم مشهور تركه في البرازيل وهو جوعان عريان . سرٌّ عظيم، سبحان الخالق، هكذا قال.

كان يسكن بيتاً دون بيوت الضيعة جميعاً فصار بيته قصراً . وهـذا من مَن ؟ طرح هـــذا السؤال ثم أجاب عنه بصوت مفخّـم : « من الله ، نشكرك يا رب ونحمدك » .

وتذكّـر أنـه ينتظر فانبرى يتمشى . وطال الانتظار فسئم وخرج يتنزه . مرّ أمام بيت الجيران فوقع اسمه في أذنيه . سمع امرأة وولدها يتعالجان[1] فتقول المرأة : « جبور رجل . ما كان عليه من الخام ريحه[2]

---

(١) يتحاوران .

(٢) كناية عن أنه كان فقيراً معدماً .

فصار أمير زمانه ، بيته قصر . الخيل مربّطة قدام بابه، والحكام تزوره. بنات الضيعة ماتت عليه ، ونقّى أحسنهن . كان يتنقل من بيت إلى بيت وقت الغدا والعشا حتى ياكل اللقمة وصار أغنى الضيعة والجوار. وأنت يا بغل ، قاعد على سكين ظهرك تقشّط أمك البشلك والمتليك [1] . باب البحر مفتوح ، تغرّب يا بهيم ، الله يقصف عمرك ما أبلدك، ليتني خلفت جرو كلب وما خلفتك ! » .

فضحك الشاب ضحكة سامة ثارت لها أمه وهاجت ، ولكن ضحكته وقعت على جبور كجلمود صخر حطه السيل من علٍ . وقال الفتى لأمه ساخراً : « ومن يعمل مثل جبور ؟ عاش بين عبيد أميركا عيشة نوَر ، وجاء يتبغدد ويتفرعن على الضيعة . هـــذا مال رائح ، مال مولّ ، لا تنغرّي بالظواهر . رغوة [2] ، رغوة يا أمي » .

صاحت الأم : ليتني أقبرك بجاه السيدة ، تفلسف يا جحش .

وأتم الشاب كلامه : بعد سنة أو سنتين يعود جبور كما كان .

فصرخت الأم: وإذا صار جبور مثلنا اغتنينا نحن؟ يا حسرتي عليك بعد يومين ثلاثة يصير جبور مدير جبيل وتقف له الناس على الصفين .

ـ لو صار متصرف جبل لبنان يظل عندي أقل من دحدوح . قصّريها ، لا تطوّليها .

---

(١) من العملة العثمانية القليلة القيمة .

(٢) ما علا الحليب وغيره من زبد .

فامتعض جبور تحت الشباك وكاد يزفز زفرة رنانة لو لم يتذكر الموقف . سمع لقبه القديم فكاد ينشق من الغيظ .

وضاق صدر الأم فاسرعت إلى الشباك ففتحته . فاضطرب جبور ، ومشى مفكراً بما سمع . تنبّه وحسب عن ظهر قلب ماذا صرف من مال أميركا . وبعد تعبيس دام هنيهة ضحك ضحكة استهزاء وقال : « لعن الله الحسد ، ما ترك بيتاً عامراً . غداً يعرف طنوس أين صار جبور . غداً نكتفه ونفرك رقبته ويزور بيت خالته » .

قال هذا وتمشى يتخطر كالأعيان.وأفاق من نجواه على صوت خادمته الراكضة وهي تصيح : « يا معلمي ، عندك ناس » . فانفتل راجعاً .

وبعد عبارات المجاملة والترحيب دخل جبور وزائره الموضوع فأجاب السمسار : « مديرية جبيل أمر بسيط ، تصير قائمقام كسروان إذا كنت تريد . الواسطة تعمل عجائب ، خمسمائة ليرة عثمانية تعمل أكثر من مدير » .

فالتفت اليه جبور التفاتة استغراب وقال : « السر بيننا . أنا لا أصدق ، هذا ضحك على دقني ، مدير بالكدّ يعلّق امضاه » .

فقال الوسيط محتداً : « بلى ، صدّق يا سيدي » . ثم ضحك وقال : « تريد رئاسة القلم التركي محل ناصيف بك الريس ؟ ادفع . يا خواجا جبور ، انت فيلسوف بالنسبة الى فلان وفلان » .

فقال جبور : قالوا ننتظر « حلة »

ـ لا تصدقهم يا سيدي ، الحلة عندك ، حلّ عقدة كيسك تنحلّ ظهورهم .

فاطرق جبور ثم قال : « الخمسمائة ليرة حاضرة » . ثم حكّ رأسه وقال : « نسيت أن أذكّرك بواحدة ، أخاف أن يحتجوا أن ابن عمي موظف »[٢] .

فضحك السمسار بملء فكيه وقال : « حيف عليك ، يا خواجا جبور ، ما متّ ، ما رأيت من مات ؟ تأمل بعينك عيال بأسرها موظفة . تغيرت الأيام ... الاستحقاق قبل كل شيء انت مستحق . انت رجل ربيت في بلاد العالم تعرف كيف تحكم . الغربة مدرسة عظيمة » .

فزهي[٣] جبور وتنفش كالديك على مزبلته ، وتذكر هجرته ، ورفع رأسه بأبهة الموظف الكبير وقال : « سي سي سنيور » .

فضحك الرجل غصباً عنه وقال : « هذا قليل عليك ، انت تستحق قائمقامية . نسيت انك تحكي باللسان الاسبنيولي ؟ الخير قدام إن شاء الله . هيّىء المبلغ ، بعد ثلاثة أيام يصدر البيلوردي ـ المرسوم » .

---

(١) و (٢) حل كل مشكلة ، والمقصود بها هنا حل مشكلة جبور في إمكانية حصوله على وظيفة ، وابن عمه موظف ، وكان في ذلك الزمان لا يجوز توظيف اثنين من عائلة واحدة .

(٣) تكبر وتاه .

والتفت اليه فرأى الشك في وجهه فقال : « أريد أن أفهّمك بالقلم العريض ، فلوسك تصيّرك رئيس مجلس الادارة . أفندينا مظفر باشا ينظر الى الاهلية ، انت مستاهل ، أفهمت ؟ إدفع ولا تخف . صدّقني إذا قلت لك ان الوظيفة في أيامنا خير من سفرتين الى أميركا . من انتخاب شيخين ثلاثة ، وتعيين أربعة خمسة مخاتير ورئيس بلدية تحصّل أكثر من المبلغ.وإذا كنت صاحب بخت وسياسة تحصّل المبلغ من جناية واحدة... الوظيفة بقرة درتها مثل الجرة ، والحلاّب القدير مثلك يسطها »[1] .

حسب جبور كلام السمسار تعريضاً بماضيه يوم كان يحلب قطيعه كاملاً لقـــاء رغيفين وصحن طبيخ ، فانقبض . وتابع الوسيط حديثه فقال : « إذاً الدفع غداً . أهنئك سلفاً يا جبور بك » .

فانبسط جبور وقال : « ولقب بك أيضاً » ؟

ـ نعم اذا زدت المبلغ مئتين .

فقال جبور : أظن ذلك أليق .

ـ بدون شك ، ومع نيشان أحسن وأحسن .

ففكر جبور قليلاً وقال : نؤجل النيشان لنعمل فرحة ثانية .

فقال الرجل : طيب ، اوريفوار . فارتبك جبور ولكنه تماسك

---

(١) يعني في إخراج ما في الضرع من حليب حتى آخر نقطة .

وتذكر ما يقال فصاح : آديوس ! وهزّ يد الوسيط هزّة كادت تخلعها من الكتف .

وكانت ناهيل بسمع من سيدها جبور فاغتبطت حتى كادت تطلع من ثيابها . وتخيلت النـــاس يسألونها قضاء حاجاتهم ويدسّون في يدها الريالات المجيدية ، وهي تابى أولاً ثم ترضى ، فصاحت : « آهيك ، يحرز دينك يا جبور بك ! » .

فزأرها البك الطازج قائلاً لها : « على مهل يا ناهيل، هس ، لا تفسدي الطبخة . لا تقولي فول حتى يدخل المكيول » .

فرقصت ناهيل ابتهاجاً وقالت : « صارت في العب » وزغردت : آووها ... فهفّ اليها جبور وسدّ بوزها بيده .

٢

كانت مديرية جبيل – على عهـــد لبنان الدولي – أغلى المديريات مهراً [1] ، لجودة مناخها وجود أهلها . يدرّ على مرعاها اللبن ، ويسمن من يُطوِّل له في ضواحيها ، فيستكل شحماً ولحماً ...

وكان المدير في ذلك العهد السعيد أطول باعاً من المحافظ اليوم، يشغل مناصب شتى : فهو مستنطق ، وقاض ، ومدّع عـــام . وهو قائد « الضابطية » – الدرك – يقول لضابط المركز اليوزباشي [2] رتبةً : رح فيروح ، وتعال فياتي . يأخذ الناس بالظنة، إذا شاء ، ويجتاحهم كالعاصفة إذا كان قوي الظهر ، لا كبير عنده إلا الجمل ... يبث الضابطية في القرى للجباية [3] ، فيذبحون عنزة هذا وخروف ذاك ودجاجات تلك ، وقـــد يذبحون البقر اذا كانت « الأوامر شديدة » ويمسّحون – كما يعبّرون – بفروة المدير .

---

(١) الصداق ، والمقصود بها ما كان يدفعه الموظف ثمناً لوظيفة يبتغيها .

(٢) من رتب الجيش العثماني .

(٣) جمع الضريبة .

يتولى « عزته » التحقيق في الجرائم حتى الجنايات ، واذا أذنب « شيخ صلح » فهو المحقق ، ثم يشرف على انتخاب الخلف . واذا كرجت الليرات في الساحة، ضرب « الصندوقة » بقضيبه السحري فيصير الأبيض أسود ، والأخضر أحمر . وخير تعبير عن تلك السلطة الهوجاء قول العامة : « كان يقضي ويمضي » .

فلا بدع إذاً إن تبرّجت اسكلة جبيل ـ اورشليم العـــالم القديم ـ وازينت كالعروس يوم الزفة . ففي الساحة العمومية ، وعنـــد سيدة البوابة [1] ، وأمام مدخل القلعة ، عقدت أقواس نصر احتفاء بقراءة البيلوردي ـ المرسوم لجبور بك الذي أصاب عصفورين بحجر واحـد : البكوية والمديرية ...

هبط المدينة شيوخ القرى ، والمختارون ومن يحلمون بشيخة الضيعة أو المختارية ... كانت توجه الدعوات الى الأعيان فيأتون من كل فجّ ، وأكثرهم يهنىء عزة المدير بالمبلغ المرقوم ... احتياطاً ... من يدري فربما احتاج الى معونته لينكي جاره ، أو ابن عمه، أو أخاه، فالمشيخة والمختارية والناطور والوقف والمشاع والمقابر والطرقات أجلّ وأعظم خطراً عندهم من الممر البولوني ...

ماجت جبيل بالخلائق فضاقت الخانات على الخيل والبغـال والحمير .

---

(١) اسم مكان .

لم يكن في ذلك العهد طرقات ولا سيارات ، فجاء أكثر المدعوين مساء السبت ، ولم يتأخر الى صباح الأحد غير وفود القرى القريبة .

كان قلب جبور يضرب مئة وما فوق. تعروه لذكرى الموعد اهتزازة العصفور بلّله القطر . ولا غرو فالوظيفة سيدة المعشوقات ... أخذت جبور رجفة سماها « تشة برد » ، وكان ينهض كل دقيقة ليعرض « بكويته » الطريئة على المرآة ، فيعادل في كل لحظة ميزان شاربيه جاعلاً القبّ على العاتق[1] ... وأتت الساعة فمشى يختال في ابراده[2] إلى القلعة، والأعيان حوله وحواليه . أخذت سلامه على الدرج شرذمة ضابطية المركز فارتعد ، فضحك البعض ضحكات مستورة إلا واحدة أفلتت من فم مدير قديم ، فاحمرَّ وجه جبور بك ... لم يردّ جبور التحية فأراح الجنود بندقياتهم ضاحكين ، وقـــال جندي عتيق اسمه رجب : « راح السلام طعام القرد ! » .

كانت بيارق القرى تتطاول في الهواء ، والقوّالة يتنافسون في الحداء والهزج[3] و « القول » . وكلمة « يا بيكنا يا عزنا » كانت أحلى « القول »

---

(١) كناية عن اعتدال كفتي الميزان عندما يوازي القب العاتق . والقب « لغة » ثقب من وسط البكرة يدور عليه أو يجري فيه المحور . والعاتق لغة الكتف .

(٢) مفردها برد ، وهو الثوب الواسع .

(٣) هزج المغني في غنائه : ترنم وطرّب في غنائه أو قراءته .

وقعاً في قلب جبور ، يتمنى لو ظلوا يردّدونها . وجاء وفد يمطمط[1] :

جبور متّى يا ملك   من سطوتك رجّ الفلك

فازبأر[2] جبور وقال : « هذا قول ؟ هذا طق حنك . سكّتوهم » .

وأطل المدير على الناس وعن يمينه ضابط المركز وعن شماله قارىء البيلوردي ، فقرأ ما كتب على الظرف بصوت بين بين :

«لحضرة صاحب الرفعة جبور بك متّى مدير ناحية جبيل المحترم».

فامتعض جبور وقال له بنبرة : راجع . قوّ صوتك .

وأخرج الكاتب البيلوردي من الظرف فاحتدم التصفيق حين لاحت الطغراء[3] الهمايونية ، وضجّ الناس فصاح القارىء: « اسمعوا يا بشر »! ومدّ صوته في كلمة « بشر » مداً طرب له جبور واهتزّ . وقال واحد : « اسكتو » . وقال ثان : « وحوش ! » فقام عراك بين وفدين من ذوي الحزازات[4] ، فأخمدته الضابطية إذ صرخ جبور : « كيت وكيت من ... خذوهم إلى الحبس » .

وساد الهدوء فقرأ الكاتب بصوت جهوري كما يشتهي جبور : « رفعتلو بك محترم دام بقاه » .

---

(١) المطمطة : اختلاط الصوت .

(٢) ازبأر الرجل : تهيأ للشر وازبأر الشعر انتفش .

(٣) الطغراء : علامة ترسم على الفرامانات والمسكوكات السلطانية .

(٤) الحزازات : التعسف في الكلام والخلافات في الرأي .

فتطاول لها واشرأب ، وغمزه ليميدها فأعادها ، وجرّ « محترم » جرّة تمنى جبور لو أنها « للبك » . وما تلي التوقيـع : « مظفر » ، حتى هتفت الضابطية : « بادشاهم جوق يلشا ! » [1] فتزعزعت أركان جبور ، ولا سيا حين ردّ الجميـع : « الله ينصره ! » .

وجاء دور الشعراء فقالوا أبياتاً لا بأس بهـا . فاغتبط جبور ، وبان الفرح في وجهه الأسمر ، وقال في قلبه : « تقبر الليرات ، ساعة مجد تسوى الدنيا وما فيها » . ثم انتخى ودعا النـاس إلى الأكل ، فاستأنفوا الشراب والمزج .

* * *

وظلت أعصاب جبور متوترة فما ذاق طعم النوم إلا قبل الصبح بقليل ، فرأى حلماً راعه ، وكان مسك ختامه خواراً مثل خوار الثور .

هرولت ناهيل مذعورة فعثرت بالسجادة وتدحرجت ثم نهضت وهي تقول : « مديرية منحوسة ، وبكوية أنحس ، ما ذقنا حلاوتها بعـد .. » وظلت تحبو [2] وتتلمّس [3] حتى وقفت عند رأس جبور ، فصلّبت على

---

(١) تحية بالتركية كان السامعون يرددونها كلما تلي عليهم اسم السلطان معناها أطال الله عمر السلطان .

(٢) حبا الولد زحف على يديه وبطنه .

(٣) تلمس الشيء طلبه مرة بعد أخرى .

وجهه وحوطته باسم الصليب المقدس فِعلَ الأم عنـــد سرير ابنها ساعة الكابوس[1]. وضوأت الغرفة فرأت العرق يتقطر من جلد جبور السمين. وانفتحت عينا البك على ناهيل ، فقال لها : « لا تخافي يا أختي ، حلم بشع . الله يستر ! » .

فصاحت ناهيل : « لا تفزع يا بك ، الله معنا » .

فطرب جبور لسماع كلمة بك منها . أما حرّصها جداً على أن تخاطبه دائماً بيا بك ، وعلّمها كيف تجيب الزوّار ؟ فإذا قالوا مثلاً : « الخواجا جبور في البيت » فعليها أن تجيب : « نعم ، البك في البيت »، أو : « لا، جناب البك في المدينة » .

وبعد تنهّد وشهيق ، قال جبور : « أبصرت في نومي اني على ظهر حصان مثل حصان مار جريس وأعظم » . فقالت ناهيل على الفور : « الخيل عز يا بك » .

ـ واني في سهل مد العين والنظر . الحصان يشخر وينخر ، وأنا ألهث وأطحر ، حتى وصلنا الى رأس جبل عالٍ ، فامتد قدامنا سهل جديد ما بلغت آخره حتى اتصل بسهل آخر أطول منه . سهول أعرفها من قبل ، ولكني كنت أتعجب من اتصال بعضها ببعض . وأخيراً انفتحت هوة قدامي وانشقت الأرض وبلعتني .

---

(١) الكابوس : ما يحصل للانسان في نومه فيزعجه وكأنه يكبسه .

فوجمت ناهيل ثم تذكرت أن الأحلام تعبر بالمقلوب فقالت : « عشت عمراً جديداً » ...

* * *

وطلعت الشمس وانصرف جبور الى سياسة الرعية ... ومرّت شهور وما خلف الله عليه بشيء ، فتذكر التجارة في البرازيل . رأى أن تحديد الأسعار مريح ، فجعل لكل قضية سعراً : ناطور لا خلاف عليه : هدية لا باس بهـــا . واذا كان خلاف فالسعر من خمس ليرات فصاعداً . والمختار من عشر الى عشرين ، والشيخ من خمسين الى مئة . والتوقيف في حبس القلعــــة من خمس وما فوق ، تبعاً للمدعي والمدعى عليه . وإحضار وجيه تحت الحفظ من عشرين الى ما يمكن تحصيله . أمـا « ملحوظات المدير » فيكون سعرها حسب أهميــة الدعوى . وحضور المآتم: المدير وحده خمس ذهبات، واذا كان معه ضابطية يواكبون النعش فلكل نفر ليرة ذهب .

وكانت آيته الذهبية : الفصاد[1] على قدر الدم . وكان يضحك من مكاتيب التوصية ويسميها : « عمـــلة ورق » ويقول : « جواب الورق ورق مثله :.. » .

وحدث حادث مستعجل والـكاتب غائب ، فأصدر أمره بخط يـده فكتب : « للفحص عن هـذه المسالة ... » فكتب « الفحص » بلا حاء ،

---

(١) الفصاد : البضع لاستخراج الدم وغيره .

والمسألة مسلّة ...

وجاء دور الاستثمار والحلب ، فبلّغوا جبور أنه « مهزوز »[1] . أوعزوا اليه بإعداد هدية الى رئيس أحــد الأقلام ليدعمه عند أفندينا . فاشترى خمسين رأساً من الغنم وساقها راعٍ الى بعبدا .. استغرب الرئيس تلك الهدية الثرثارة وردّها غاضباً ، فباعها جبور كما أشير عليه ، وحمل ثمنها الى الرئيس فرحّب به ، واستضحك عند القبض قائلاً : هذي هدية لا « تمعّق »[2] وطيّب خاطر البك الطازج .

وجاءت نوبة حرم أفندينا ، فعوّلت على زيارة جبيل للتفرّج على آثارها .

لم تكن الزيارة لأنتيكة جبيل ، بل لدار المدير ، فقد بلغت مسامع عصمتها أخبار ثروته وطرفه النفيسة ، فانصرفت من عنده ومعها خاتمه الألماسي ، و « المضاليون »[3] ـ بلغة جبور ـ ، والقرط النادر الذي أعدّه لعروسه . وشبعت الخانم من اللآلىء ، فحوّلت وجهها نحو السجاد العجمي ، فأخذت الكبرى ، وطولها سبعة وعرضها خمسة .

حلم جبور بالثروة مع الجاه فخاب خيبة مرّة . جمعها حبة حبة ،

---

(١) مهزوز : أي سيعزل من الوظيفة .

(٢) معاء : صوت العنزة .

(٣) « المضاليون » محرفة عن « ميداليا » وتعني الوسام .

فكانت للجمل غبة . ونفد ماله فابرق الى شريكه في «الريّو»[1] فاجابه: « الرايش » هابط . التجارة واقفة . ثورة .

وأطلّ السمسار بعد أيام يسال جبور أن « يغطّي » ، فضرب يده الى أزراره ... فضحك السمسار ، ثم أفهمه بعد هدأة الضحك ما معنى التغطية في لغة المضاربات ، فاعتذر وأراه التلغراف ، فانصرف عنه متهدداً .

ونام جبور على مضض فلم يصبح ... واستيقظت الاسكلة على صراخ ناهيل وتفجعها .

وقال طنوس حين أذاع الجرس نعي جبور الى الضيعة : أمّاه ! يسلم رأسك ، جاء خبر جبور . صدّقتِ انه مال رائح ؟

فدقّت أم طنوس يداً بيد ، وبُهتت هُنيهة ، ثم استأنفت شغلها ...

---

(١) الريو دي جنيرو .

معاز الضيعة

رأسه كالبطيخة ، وحول أنفه الأفطس بُثورٌ زرقاء كأنها طلائع الزنجار[1] في ذلك الوجه النُحاسيّ المفلطح[2] . عينان ثعلبيتان فوق شاربين كثيبين . مفركح[3] أفرم[4] يلبس عباءة برّاقة ذات كمّين دون الكوع . ليس يتخلى عن عصاه ، أحياناً يعرضها كالرمح ، وطوراً يمدّها فوق كتفيه تحنى عليها الأصابع . ما رأيته يتمركز[5] عليها إلا بعـــد وقعة الذئاب .

يصفّ قطيعه كالعسكر المدرّب ، إذا شرَدَت عنزة يناديها باسمها

(١) الزنجار : صدأ النحاس (فارسية) .
(٢) المفلطح : المنبسط ، العريض .
(٣) مفركح : غير متزن الخطوات .
(٤) أفرم : متحطم الأسنان .
(٥) تمركز على العصا : اعتمد عليها .

فتعود الى مستقرّها . رامٍ ماهر إن شاء أصاب القرن ، وإن أراد أصاب الفخذ ، ويُصيب المقتل إن كان قرماً الى اللحم ، فالويل للعاصية من حجر جُليات. وإذا عصى الكرّاز[1] فهناك المسؤولية العظمى والحساب العسير : عصا زعرور تهتز في الهواء ، وراعٍ كأنه متر مكعّب يهرول ليلقي على التيس دروساً مسلكية يستفيد منها كل فرد من أفراد الرعية ، والتيوس تقبل الآداب .

ما ألذّ وقع حوافر القطيع عائداً عند الغروب ، فهو كحفيف أوراق الخريف الصفراء وكتساقط المطر على السطوح الخرساء . موكب صامت ، القطيع بين مدبّرين : الكراز أمامه والراعي خلفه ، والكلب يروح ويجيء بينهما . في كتف الراعي سطله ، وهو مُزنّر بالجراب[2] ، يشكّ في وسطه الناي ، ورأس القصبتين[3] المضمومتين بادٍ من عُبّه . الموكب يمشي الهوينا ، والزعيان لا يتكلمان . لا صوت يُسمع إلا رنين الجرس المعلّق في عنق الكراز ، وعلى الكراز مهابة تفيض على جنبات الدرب ، فهو لا يلتفت البتة كأنه يحس طعم الزعامة تحت أضراسه . إذا حاول رُبع أو سَدَس[4] أن يماشيه، ينكزه بقرنه العظيم فيعرف مقامه. أما الأنثى فلا يخاشنها ، ولا بأس عليها إن اخترقت خط العظمة .

---

(١) الكراز : ما يتقدم قطيع الماعز وغالباً ما يكون أكبر تيس في القطيع .

(٢) الجراب : كيس من الجلد يضع فيه الراعي زاده ويتمنطق به أي يشده الى وسطه .

(٣) مزمار الراعي .

(٤) ربع : القطيم أو ما له من العمر أربعة أشهر والسدس ستة شهور .

من رأى الكراز يمشي بأبّهة وجلال خاله يفكر بمشاكل خطيرة . كان صوت جرسه يعلن قدومه فأسرعُ الى استقباله . ومتى غاب عني شغلني المعـــاز الظريف ، يداعب سائليه عن الحليب واللبن وعينه على رعيته . لسانه مرٌّ ، وحديثه حامض ، يعبث الأولاد بقطيعه ليغضب ويسبّ ، ولكنه لا ينثر درره الغوالي ما لم يتحقق أنْ ليس هناك من يحتشم . كثيراً ما كنت أدعوه الى السهرة فيجيء . وكنت أوسّع عليه في الحديث ليتبسط في مواضيعه . مارست ذلك معه مدة فصار يأتيني بلا دعوة ، وسقطت كل كلفة ما بيننا .

عجبت لمعرفته قطيعه واحداً واحداً فقال : « لا تتعجب . أعرفهم مثلما تعرف تلاميذك ، ولكل واحدة اسم ، وفي عنزاتي المطيعة والعاصية والهادئة والوَرِشة [1] . عندي عنزة شقراء تتلصص مثل البشر ، تغافلني وتغزو . السكاء آدمية جداً ، بنت حلال لا تتعبني أبداً » . وقال بصوت مسموع : « الله يرضى عليها ! ولكن الملحاء شيطانة ، بنت حرام ، لها حركات تشيب الرأس ، إذا غفَلت عيني عنهـــا تهجم وتنتش [2] ، الله يقصف عمرها ، هي وحدها سوّدت وجهي عند الضيعة » .

فقلت له : اذبحها .

فتهدّلت [3] شفته السفلى وقال كالمستهزىء : « اذبحها ؟ الحكي هيّن.

---

(١) الورشة : الكثيرة الحركة ، الرعناء .

(٢) نتش : أكل قرضاً ، ونتش الشعر نتفه .

(٣) هدل : أرسل الى أسفل وأرخاه .

كل سنة بطن . تخلف ثلاثة أربعة ، اثنين ثلاثة . خلفها اليوم جدي[1] ، إن الله أعطاه العمر الكافي ، كان أعظم فحل في المسكونة » .

وجئنا ليلةً على ذكر الجن فتبسّم وقال : « سمعت عنهم وما ظهر لي شيء منهم . قالوا انهم اختفوا لما كثرت الأجراس في البلاد . ومع هذا أنا أصلّب كثيراً ؟

ورأيته مرة يضرب الكراز ضرباً عنيفاً فقلت له : ما عرفت يا مخايل ؟

فأجاب بهزّة كتف عنيفة مستغرباً .

فقلت : الشريعة الحاضرة تغرّمك وتحبسك إذا ضربت الكراز كما ضربته اليوم .

فقهقه وجعل يضرب الأرض برجليه ويصفق على ركبتيه، وطفرت الدموع من عينيه . ولما هدأت ثورته قال :

ـ ومن يربّي الكراز كلما خرّب[2] ؟ نتشكى إلى المدير . بأية لغة نحاكيه حتى يفهم ؟

ثم أغرب في الضحك وقال : « كلّ خطرةٍ يعصي عليّ الكراز أقيم عليه دعوى » . ثم افتكر قليلاً وقال : « طيّب ، يا سيدي ، ومن يشتكي عليّ ؟ الكراز » ؟

---

(١) جدي : ولد المعزى في السنة الاولى .

(٢) خرّب : أصاب ضرراً بملك الغير .

قلت : الناطور .

فغضب وصاح :

ـ الناطور ؟ الناطور يضرب الأطفال ولا نشتكي عليه . شريعة عوجاء .

قال هذا وسكت ينتظر حديثاً جديداً . فقلت له : تسمّع ما يقول هذا الشاعر الفرنجي عن الراعي ؟

فقال وقد هدأت فورته[1] : هات خبرنا .

فقلت : يصف الهواء المعطر الذي تتنشقه ، وأشعة الشمس المطهرة التي تنسكب عليك حرارتها المحيية ...

فقاطعني قائلاً : حقاً نار الشمس غنيمة[2] ، ما كان عندنا خبرها .

قلت : والمناظر الجميلة التي تتمتع بها ، والأعشاب المفيدة التي تأكلها .

فقال : قل له يجيء يرعى مع العنزات ، عندنا ما يكفينا ويكفيه .

قلت : والقطيع المخلص الذي تسوسه والكلب الأمين الذي تعاشره .

فقال : يحسدنا على عشرة الكلاب ! الجنون فنون .

وترجمت له القصيدة كلها بلغة يفهمها ، وأسرعت كيلا يقاطعني ، فكان أحياناً يتعجّب ، وأحياناً يستهزىء ، وأحياناً يصدّق على قول

---

(١) فورة الغضب : حدته .

(٢) الغنيمة : ما يؤخذ من المحاربين عنوة وهنا مكسب .

الشاعر بإحناء الرأس . ولما انتهيت قال لي : « ولكن الشاعر نسي زبل المراح وصِنة المعزى »[1] .

فاجبته : لست أقول لك شيئاً من عندي ، هذا المكتوب أمامي .

فقال : أنت صادق ، ولكن هـذا مثلك لا يعرف من حياتنا إلا دقّ القصب[2] والغنا . لا يعرف أني أنام مرّات وما عندي عشا ليلة . أمس استمرنا عشرة أرغفة . لا يذكر كيف نهرب من وجه « العدّاد »[3] ولا ما يصيبنا أيام البرد والثلج . نسي المرض الذي يفني المعزى ونعلّق الجرس على الكلب . تعجبكم حياة المعازة في الربيع . ولما يمعكنا[4] المطر ولا نلاقي مغارة نلطي[5] بها ، يكون الشاعر قاعداً على النار يتدفأ .

وجاءني يوماً بسؤال غريب ، سالني إن كان سماع القداس في الراديو يغني عن حضوره في الكنيسة . فعجزت عن الجواب، فوجم ومغمغ[6] : « ما ترقّينا شيئاً »[7] .

وبعد هنيهة قال : ما يقول كتابك اليوم ؟

---

(١) الزبل : السماد . والمراح : زريبة المعز . والصنة : الرائحة الكريهة .
(٢) القصب : المزمار .
(٣) العدّاد : من يعدّ المعزى لأستيفاء الضريبة عنها في تلك الأيام–الجابي–.
(٤) معك الشيء : دلكه ومعك الرجل ذلله وأهانه، ومعك المطر مرّغه .
(٥) لطا : التجأ الى صخرة أو غار من مطر وغيره .
(٦) مغمغ اللحم : لم يحكم مضغه ومغمغ الكلام لم يبينه .
(٧) « ما ترقينا شيئاً » لم نستفد .

قلت : فيه حكاية حلوة ، حكاية مرأةٍ وأختها .

فتربّع[1] وأنصت[2] ، فقلت : كان لمرأة أخت عزيزة عليها فمرضت وماتت ، فركعت أختها قدّام فراشها على جلد أسد تسال ربنا بحرارة أن يحيي جميعَ من في تلك الغرفة، فسمع ربنا واستجاب . كان على برنيطتها عصفور محنّط ففرفر وغنّى . وكان على رقبتها فرو ثعلب فعاش وأخذ يدور في الغرفة ليهرب ، وفتّحتْ أختها الميتة عينيها وطلبت الأكل ، ولكن الأسد لم يمهلها فعاش وأكل الجميع .

فارخى فكّه الأسفل تعجباً وقال : « يا رب ! » ونهض .

فقلت : ما لك ؟ أقعد .

فقال : عندي في البيت جلد ذئب وقشرة حية كبيرة ، أخاف أن تصلي بنت عمي في ساعة رضا ، فيقوموا ويأكلوا العنزات .

وخرج من الباب وهو يضحك .

وجاء مرّة وكان يلبس فرواً ، فقلت : فروك يذكّرني بعاموس النبي[3] .

فقال : من يدري ، ربما أصير نبي آخر الزمان .

---

(١) تربع في جلوسه : ثنى قدميه تحت فخذيه مخالفاً لهما .

(٢) وأنصت : سكت مستمعاً لحديثه .

(٣) عاموس : أحد أنبياء التوراة . كان راعياً لنوع من الغنم يعطي أثمن أنواع الفرو وأحسنها .

فقلت له : أكثر الأنبياء قاموا من بين الرعيان .

فضحك وقـــال : الله يجبر خاطرك ، أمس كنت معازاً ، واليوم صرت راعياً . كلنا رعيان ، من كبيرنا الى صغيرنا . منّـا من يرعى في البيوت ، ومنّـا من يرعى في العبّ مثل البراغيث ، ومنا من يرعى في الجبل الأقرع(1) مثل المعزى .

فتفرست لأثبت إن كان يعني ما يقول ، فمـــا تبينت في وجهه دليلاً .

وقلت له ذات يوم : في هذا الكتاب، وأشرت الى مجلة أمامي ، بعض سؤالات ، فهل تجاوب عليها ؟ فقال : اسأل .

قلت : ما ألذّ ساعةٍ في حياتك ؟

فجاوب فوراً : ساعة ترجع المعزى الى البيت وبطونها مزكّـرة(2) مثل عرانيس(3) الذرة .

فقلت : وأبشع ساعة ؟

ففكر قليلاً وقـال : ساعة أرجع وتكون حرمتي غائبـة ، والمعزى عطشانة ، وبطني لازق بظهري من الجوع .

---

(1) اسم مكان .

(2) زكّر : امتلأ والزكرة وعاء من جلد للخمر وغيره .

(3) العرناس : ثمرة الذرة .

فقلت : وأصعب ساعة ؟

فضحك وقال : ساعة أنسى الضبوة [1] في البيت وتنسى أن تعطيني سيكارة .

وصعّد دخان سيكارته حلقاتٍ حلقاتٍ فانبسطت أسرته ، فقلت : مَن مع المعزى اليوم ؟

فاجاب : الصبي .

فقلت : تكثر الوحوش في الأيام الباردة .

فاجاب : معه غدّارة [2] تفلق الصخر ، وهو يصيب عين الدوري . شبٌّ يرضي خاطرك .

وفي يوم عمّ الثلج فيه كنت مستجيراً [3] بالنار ، فإذا بمنادٍ يصيح : يا مارون عبود . فردوا عليه ، فأجاب : قولوا له يطلّ . فاسرعت الى الباب ، فصاح بي من الجبل المقابل : ايش رأيك بحياة المعّاز اليوم ؟ قل لشاعرك الفرنجي يعمل نشيدة جديدة .

ودام الثلج في تلك السنة زهاء شهر ، فتضايق أصحاب المواشي وخصوصاً المعازة . عزّ المرعى وتكاثرت عليهم الوحوش ، فكان

---

(١) الضبوة : كيس من جلد يوضع فيه التبغ .

(٢) غدارة : مسدس بدائي كان يحشى بالبارود والبندق حشواً .

(٣) استجار : استغاث .

بينها وبين معازنا وابنه معركة حاميـــة . انقض ذئب ضارٍ على المعزى وكاد أن يفترس الراعي لو لم يغامر ابنه ويصرع الذئب برصاصة من غدّارته .

وجاء الناس لنجدتها ، فراح فريق يبحث عن القطيع المذعور المشتت ، وفريق حملوا المعاز الجريح . ولما استلقى على قفاه في زاوية بيته ، قال لي بصوت يرتجف : « أتحسد المعاز بعد ؟ »

فقلت : السلامة غنيمة .

فأجاب : « الله يسلمك » ، وتلحّف[1] .

(١) تلحف : تغطى باللحاف .

النابش

لقد أصبحت عبداً للنـاس منذ تصوَّرت في البطن . وتقيـّدت بسلاسل مشيئتهم حين رفعت يـديَّ أول مرة نحو السماء . ضايقني فضولهم[1] منذ تحركت في ذلك الزندان[2] ، فتهافتوا على والدتي ساعة عرفوا أن عددهم سيزداد واحداً . هـذا يُدلي برأي طبيٍّ ورِثه عن جد جدِّه ، وتلك تنثر نصائحها وإرشاداتهـا الصحية . وهكذا توطدت العلاقات بيني وبين أصحاب المروءة وصاحباتها . وأرسلوا إليَّ نجـدة ، تلو نجدة ، قبل تشريفي هذه الدنيا ، ليحفظوا حياتي الغالية ، فلا أذهب طرحاً[3] وتخسر الانسانية واحداً ، ليته لم يكن .

وبعد آلام استمرت ثلاثة أيام غير كاملة ولدت أخيراً ... ولو عرفت

---

(١) الفضولي : الذي يتعرض لما لا يعنيه .

(٢) الزندان : السجن الضيق .

(٣) الطرح : الجنين الذي طرحته أمه قبل التمام .

أن نساء القرية في انتظاري واني سأعرض عليهن واحدة واحدة لهربت . ولكن أين المفر ؟ ما أرسلت أول صرخة حتى وقعت عليّ عيونهن وامتدّت إليّ أيديهن : كل واحدة تحاول أن تستلم الحجر الأسود[1] ...

وكان معرض قصير الأمد عقبه[2] النقد المرّ . هذه تروزني[3] وتقلب شفتها السفلى . وتلك تنظر إلى التي حدّها رافعة حاجبيها وجفنيها الى العلا . وأخرى تغمز بعينيها . وواحدة تقرص جارتها قرصة خفية وتقول : يا حسره ! هاتيك تقول : دميم[4] ، وتلك تقول : مليح ـ وتجر الياء وتقطم[5] الحـــاء . وأخرى تقول بشع ولكن بشاعته حلوة ... وغيرها تقول ، جبراً لخاطر الوالدة المنكوبة : الولد يتغير ويتقلّب ، منتحلة لي العذر كأني أنا أفرغت نفسي في القالب الذي لم يعجبها .

لم تقل : اسم الله حوله وحواليه ، يخزي العين[6] عنه ، إلا واحدة فقط تعرفون من هي . هـذه امتلأ فمها ضحكاً وقلبها فرحاً ، وحُشي صدرها رجاء وأملاً . وكيف لا ، أما صارت أماً ؟..

---

(١) الحجر الأسود : الحجر المقدس في الكعبة يتلمسه الحجيج للتبرك .

(٢) عقب : أتى بشيء بعده .

(٣) رازه : وزنه ليعرف ثقله .

(٤) دميم : قبيح المظهر .

(٥) قطم : قطع .

(٦) يخزي العين : دعاء لدفع الإصابة بالعين عن كل موهوب .

وتعددت النذور[1] الى قديسين وقديسات وسيدات اختصاصيات ، فلم ينفعني إلا سيدة « المكبوسين[2] » فاستويت على قدمي . تحننت هذه « السيدة » على الوالدة فمشى ابنها « المكبوس » مشية الجواد المشكول[3] ، ولكنه رأى حوله سوراً من النـاس أطول من سور الصين[4] . سوراً لا يفر منه إلا ليصطدم بجدرانه . يظن أنـه أفلت من بين حيطانه فإذا هو فيه ، فكأنه عين ضمير قاين[5] .

الناس ، وما أشد فضول الناس ! هـذا يزجرني[6] ، وتلك توبخني ، وذاك يرشدني ، فكيفما اتجهت أضايقهم ويضايقونني ، كأنني ابنهم جميعاً وكأنهم كلهم أولياء علي .

وازداد تقيدي بالنـاس لما صرت أفهم عن أبي وأمي . إن تحرّكت قال الوالد للوالدة : يا مرأة ، ربي ابنك مثل الناس . وإذا توحشت قالت هي : ألبس ثيابك مثل الناس . اسمع فلا آخـــذ ولا أعطي . ويعلو

---

(١) النذر : ما يقدمه الانسان لله أو يوجبه على نفسه .

(٢) سيدة المكبوسين : شفيعة الأطفال الذين أصابهم ما يوقف نموهم .

(٣) المشكول : المقيد .

(٤) سور الصين : السور العظيم الذي بنـاه قدماء الصينين ليدفعوا به شر الغزاة عن وطنهم .

(٥) ضمير قايين : الضمير المؤنب الذي لم يسكت على أثر قتل هابيل من قبل أخيه قايين .

(٦) زجره : نهاه صائحاً به .

صياحي وضجيجي فتصرخ بي : استحِ من النـاس . وألتفت فلا أرى حولي أحداً غيرها . فارفع عقيرتي[1] هاتفاً : وأين الناس يا أمي ؟ فتقول لي : لا ترفع صوتك ، أنا طرشا ؟ إحكِ مثل النـاس . وإذا تراقصت في مشية مدفوعاً بنزق[2] الصبوة صاحت : إمشِ مثل النـــاس يا صبي . وأخيراً تنتهرني فاركض وتركض خلفي ، فتعجبها خفتي فتقف ضاحكة ، فتصيح بهـا جارتنا العنيفة : عافاك يا أم مارون ، اضحكي له اضحكي ، ربّيه مثل الناس .

أما الوالد، رحمة الله على ترابه، فكان له أداتان يسبكني[3] بواسطتها في قالب الناس: قضيب ولسان أمرّ من القضيب . إذا تحركت في مقعدي وقف حاجباه على سلاحهما استعداداً للطوارىء ، ثم يصيح بي : اقعد مثل الناس . وإن ترنمت صباحاً وصوتي رخيم كما تعرفون ، انتهرني قائلاً : سبّح ربك مثل النـاس ، بهيم أنت ؟ وإن مددت يديّ إلى الزاد قبلهم ، أو كبّـرت لقمتي انتهرني بقوله: كل مثل الناس . وإذا ضحكت ضحكة ليست على الوزن والقافية المفروضين قال لي : اضحك مثل النـــاس . وكثيراً ما كان ينهاني عن الضحك عملاً بالمـادة المشهورة من قانون آداب المجالس : ضحك بلا عجب من قلّـة الأدب .

---

(١) صوت المغني والباكي والقارىء ، ويقال رفع عقيرته أي صوته .

(٢) النزق : الخفة في كل أمر — العجلة في جهل وحمق .

(٣) سبك : أذاب وصبّ في قالب ، وهنا يهذبني وفق أعراف النـــاس وعاداتهم .

هكذا كانت كلمة « الناس » حملاً ثقيلاً على ظهري ، وشريطاً شائكاً في طريقي أصطدم به أينما اتجهت ، فنشأت عبداً للناس يسيطرون عليّ ويسيّرونني كما تشاء أهواؤهم وعُرفهم وتقاليدهم، كأني لا أعيش لنفسي بل لهم، كأني مرتبط بهم بناموس أشد من ناموس[1] الجاذبية، لا يحول ولا يزول ولو مات أحد الأجرام كالقمر مثلاً . كلما قلت أحطم هذه السلسلة التي يسمونها الناس أجدني مقيّداً بها من جديد ، انها لأغرب من أساطير ألف ليلة وليلة .

أجل ، ان كلمة الناس أثقل عبء يُلقى على ظهور الناس . فمن منا لا يستجدي إعجابهم ، وكم فينا من يحمّل نفسه فوق طاقتها ليظهر بمظهر يرضيهم ويلفت أنظارهم اليه ، فيقضي العمر وشبح الهم يماشيه كظله ، يأكل معه في صحنه ، وينام معه في فراشه . وكم من امرأة خربت بيتها لتكون على حد قولها : مثل الناس ولا بأس .

اسمعوها تخاطب زوجها : ماذا يقول عنا الناس إذا رأوا بنطلونك مرفوءاً[2] ؟ اشترِ غيره . وماذا يقول عنا البشر إذا جاء العيد وليس لابننا طقم جديد ولبنتنا فسطان من أحدث طراز ؟ وماذا يقول عنا الناس إذا لم نشترِ كذا وكذا ، ولم نأكل كذا وكذا ، ولم نعمل Soirée و Aprés - Midi ؟ وتظل تقول : الناس الناس حتى تدك البيت من الأساس .

---

(١) ناموس : شريعة .

(٢) رفأ الثوب : لأم خرقه وخاطه .

غريبة كلمة الناس ، ما أعظم سلطانها على العقول . لا أقول الناس بلاء الناس كما يقولون ، ولكني أقول : الناس تسيّر الناس وليس أحد منا حراً في ذاته ، فمن يزعم أنه لا يبالي بهم يخدع نفسه . انه أشدنا تهافتاً عليهم . ومن حسب أنه معلمهم فهو أحد تلاميذ مدرستهم ، ان شاؤوا منحوه الشهادة بامتياز ، وإلا عاد محترق الفؤاد يردد : ما أصعب مرضاة الناس !.

ان كلمة « الناس » نطّار[1] منصوب في مقثاة[2] الانسانية ليردّ عنها الثعالب ، وهي الخفير[3] الدائم على أبواب كهوف التقاليد، حالت وتحول دون رذائل كثيرة ما كنا نتأباها[4] لولا أعين الناس . وأقصرنا نظراً من ظن أنه يتغلب على الناس بغير الناس ، ففي كل عبقرية أثر من عبودية الناس . فأنا وأنت وهو جميعنا عبيد الناس ولا نحيا إلا بهم .

أما قال المسيح لتلاميذه : من يقول الناس إني أنا ابن الانسان ؟ فرددوا له أقوالهم فيه ، فسألهم : وأنتم من تقولون إني أنا هو ؟ فأجابه بطرس : أنت المسيح ابن الله الحي .

---

(١) النطار : الخيال المنصوب بين الزرع .

(٢) مقثأة : موضع زراعة القثاء وهو نوع من النبات ثمره يشبه الخيار .

(٣) الخفير : الحارس .

(٤) نتأباها : نمتنع عنها .

ان جواب التلميذ لمعلمه ، وهو واحد من الناس ، لفجر وردي أنبثق منه عهد وعالم جديدان .

فهل ألوم أبي وأمي إذا كانت كلمة النـــاس نجمةَ القطب عندهما ، يراعيانها في بحر الحياة خوفاً من التيه والسُقوط في اللجّـة ؟

ففي خلوتنا الخرساء نسمع ضجيج النـــاس الصاخب ، وفي عزلتنا نُحِسّ انهم حولنا يتجولون في مخيلتنا جولان أشباح الغوغاء على الشاشة البيضاء .

كانوا في انتظاري عند المهد،وسيجنفون[1] قاربي لتبلغ ميناء اللحد، وان حسبت يومذاك اني نجوت منهم لأني نمت عنهم ، فشباكهم ستلحقني الى بحر الظلمات .

كل امرىء رهن غربالهم. سوف ينصبون ميزانهم ساعة ينفضون يدهم من ترابي ، ويا ويلي ان شلت في ذلك الميزان .

فإن كنت تخشى ألسنة الخلق ، وتصدق انها أقلام الحق ، فاعمل بالمثل القائل : كلْ ما تشتهيه نفسك والبس ما يعجب الناس . ومعنى هـــذا وقوف الدولاب، وبقاء القديم على قدمه . ليس ذلك من نواميس الطبيعة. فالطبيعة تركض وتوصينا لنسرع معها ، وان وقفنا جرفنا تيارها ، فلنركض .

---

(١) يدفعون ويسوقون بالجاذيف .

ان الطبيعة تهدم اليوم ما بنته أمس فلا يفزعك هذا الخراب . واعلم أن الحياة ترقص بين النوائح حول التابوت . أما نحن فلسنا نراها لأننا نحب الركود . نؤثر أن نعيش أمواتاً على أن نحيد عن الدرب ليمشي أبناؤنا ولا يعثروا بنا .

أرأيت الولد في عبثه[1] كيف يعمّر ويخرّب ؟ انه يقلّد أمه الطبيعة . فهي لا ترفع عرشاً حتى تدكه وتجعله شعلة لإحدى ثورات اليوم الثامن .

قد تقول : وما هو هذا اليوم الثامن ؟

اسمع فأعرفك بهذا المخلوق الجديد العجيب .

في ستة أيام خلق ربك السموات والأرض . وفي اليوم السابع استراح الجبار وتنفس الصعداء ... أما اليوم الثامن فهو يومنا نحن ، أعني يوم الناس . يوم صباحه الأزل ومساؤه الأبد . فلا يكون صباح ولا يكون مساء حتى تحبل الإرادة الإنسانية وتلد العجائب .

اليوم الثامن جبهة سرمدية ، لا تهدأ جنودها ولا ينفد عتادها . تنقضّ صواعق الأيام السبعة فتقتل حماراً أو تشقّق جداراً ، وتهبط صواعق اليوم الثامن فيغمر الأرض طوفان الموت والخراب .

لم يسترح ربك إلا حين خلق ابناً على صورته ومثاله . أطلق يده فيما

---

(١) عبث : لعب وهزل واستخف .

أعد له ميراثاً ، وخبّأ له الكنوز في الماء والهواء ، وبين الجمادات والأحياء ليأكل خبزه بعرق جبينه كما وصّاه ... فانتزع هـذا الابن الذكي تلك الكنوز من مخابئها ، وسيظل يجد ما دام يجدّ .

قل سبحان ربك في ملكه ، فهو من جعل كلمة « الناس » قوّامة على الناس ... وذر المنطق ودع القيـاس . فالفرض ضروري لحل المعضلات واستخراج المجهولات ...

جبران أفندي

صاحبنا حنا شاب انسلخ من جميع معاني محيطه فأصبح كاللفظة الجوفاء . هو ابن بنّاء قضى عمره يشنّ على الصخور حرباً ضارية ، لا تشفياً وانتقاماً من تلك المخلوقات الخرساء ، بل طلباً للرزق عن طريق التعمير والتجديد . فكم من بيت بان العيب فيه فجاءه أبو حنا بملطاسه – الشاقوف[1] في لغة اليوم – وبيكه[2] ودردبيكه[3] فهدمه ، وهذّب حجارته ونظمها صفوفاً يتمنى الطغاة أن تكون جيوشهم مرصوصة مثلها . ان ازميل بو حنا ومطرقته ثقّفا الصخور المتمردة فلانت

---

(١) الشاقوف : أداة يستخدمها البناء في تهذيب الحجارة وإقامة زواياها .

(٢) البيك : أداة اخرى يستخدمها البناء للغرض عينه وهي ذات رأسين مدببين .

(٣) الدردبيك : أداة ثالثة ذات رأس مدبب وآخر مسطح كالمشط ولكنه دون أسنان .

ملامسها الخشنة وبادت[1] نخاريبها . فلذة بو حنا الكبرى أن ينصبّ على عمله نهـــاراً ويعود إلى بيته مساء فيصافح ولي عهده حنا بيده التي كنبت[2] . ثم يصغي إلى حديثه الغريب فيقول : لم تعص عليّ الصخور الصماء ولكني عجزت عن هذا الولد الخرّاط الفشّـاط[3] .

كان حنا منذ نطق لا يعثر بالصدق ، وقـــد يكون كذب في المهد صبيّـا ، فمن يعلم ؟

كان يخرج مع لدانه[4] على عادة الصغار في القرى ، إلى البرية ، ويعود إلى البيت وفي جعبته أخبار كلها خارجة عن نسق العادة . فكم حية قتلها بضربة قضيبه . ثم أخذها بذنبها ليقايسها على قامته فبقي منها على الأرض قدر شبرين ، مع أن حنا شال[5] يده اليمنى حتى كادت تنخلع . وكم من ثعلب ضربه بحجر فاصاب مقتله . وكم من عابر سبيل تعرّض لرفاقه وابتهر[6] عليهم حتى تصدى له هو فلفّ ذنبه ومشى . وخاطره[7]

---

(١) بادت (الشمس) : اختفت ، والنخروب : الثقب .

(٢) كنبت اليد : غلظت من العمل .

(٣) الفشاط : المغالي في حديثه .

(٤) لدانه : أترابه رفاقه .

(٥) شال : رفع .

(٦) باهر : فاخر .

(٧) خاطر : راهن .

رفاقه يوماً ـ كما زعم ـ على ربع مجيدي إن دخل مغارة الرصد[1] ، فما تلكأ[2] عن ذلك . وفي أعمق أعمــاق المغارة وجد شيخاً قاعداً يفتل شاربيه فطرده منها . ولكنه لم يقع على الكنز فصاحت أمه : هـذا الرصد يا مجنون ، إياك ثم إياك أن تعمل هكذا مرة ثانية .

وأرى والده الربع المجيدي الذي كسبه فكاد يصدقه لو لم تقل عمة حنا العانس[3] : هذا الربـع مسروق مني .

وأدخله والده المدرسة لعله يستقيم، فلقط الحرف يوم دخلها ، ولكنه خرج منها بعد سنين ، وقد ازدادت أخلاقه سوءاً .

كان حنا ملساناً[4] حتي الهذر . كان يتطاول على النـــاس ، وبقي كذلك من شبّ إلى دبّ .

شكّ الدواة في زناره على نسق القارىء الكاتب من أهل ذلك الزمان . ولم تعد تطيب له الحيـاة القروية الهادئة ، فغيّـر زيه واستبدل الشروال بالغنباز لباس علماء عصره . ثم ارتقى بعـــد حين فلبس الطقم الفرنجي حين هاجر إلى المدينة .

وظل يتتبّـع سير الأزياء فلبس صديرية حمراء ذات أزرار زجاجية

---

(١) اسم مكان لمغارة تسكنها الأرواح .

(٢) تلكأ : أبطأ وتوقف .

(٣) العانس : التي لم تتزوج .

(٤) الفصيح الذي يتكلم كثيراً ، والهذر سقط الكلام الذي لا يعبأ به .

مدوّرة برّاقة . شرع يكتب للنـاس « المعاريض[1] » قدام السراي لقـاء نصف بشلك[2] وما دون . ثم علت درجته فصار عنده كرسي وطاولة . وأخيراً اكترى[3] زاوية من دكان عطار ، تجاه السراي ، فكثرت زبائنه . وفاض عليه الخير ، ففتح مكتباً فرشه فرشاً حسناً : كراسي منجدة بعـد تلك الخشبات التي لمّعها الوسخ ، وسخ زبائنه من حمالين وفحامين ومكارين .

ووردت الأخبار على الوالد فكانت تأتيه مضخمة ، فصار حنا عنده رجلاً مقرباً من الباشا ، ورجـال الحكومة يرتعدون إذا غضب ، كلمته تفك المشانق كما يقولون ، فيحمد الله على تلك النعمة .

وبعـد حين ورد كتاب من حنا الى والده . المكتوب متوّج بسيدي الوالد العزيز ، والظرف مكتوب عليه : جناب الوجيـــه الأمثل الهمام الشيخ خليل عبدو . الانشاء جميل والخط أجمل وأجمل ، والعاطفة تحرق العشب . ولكن أمرين حيّرا العم بو حنا . أولاً الشيخ خليل عبدو ، فهو خليل عبدو « حاف[4] » ، فمن أين جاءت المشيخة ؟ وثانياً توقيـع المكتوب جان ، والعهد باسم ابنه حنا وهو بو حنا . ظن انهـا ضحكة ،

---

(١) المعاريض : يستعملونها الآن للكتاب يقدم الى الحكام ويعرض فيه أمر من الامور .

(٢) بشلك : من العملة التركية الزهيدة .

(٣) اكترى : استأجر .

(٤) حاف : بدون ألقاب .

وان في المكتوب سحراً لأن الامضاء جان ، فلا شك أن للجن يداً في الأمر . فهرع إلى الخوري الذي أقرأه المكتوب وعرض له ما تصوّر ، فضحك الخوري وقال: اسمع يا عمي، حنا وبو حنا ويحيى ويونّس وجان وأوهانس ، هذه الكلمات كلها معناها حنا .

فقال الرجل : ولماذا نقّى ابني جان وما نقّى يحيى مثلاً ؟

فاجابه الخوري « موضة » يحيى بطلت ، وجان اسم عصري جديد، فأنت صرت بحسب ناموس الإرتقاء بو جان .

فهمهم[1] الرجل : بو جان ، آخرة حلوة . ثم قـــال للخوري : لا يا معلمي ، خلوني بو حنا ، أنا راضٍ باسمي العتيق .

أما جان أفندي فكان يحيا حياة رخاء . أثث بيتاً صغيراً صار يدعو اليه صغار رجال الحكومة فيستفيد من تلك الدعوات . وأمسى يكتب العريضة ويقتفي آثارها . يدخل على أصحابه صغار الموظفين ساعة يريد. يتعهد بملاحقة القضايا المحبوسة في خزائن المامورين لأمرٍ ما ، فيطلق سراحه ، فورم[2] كيسه . ثم رأى انه لا بد له من المقامرة ليحتك بذوي الحل والربط فأخذ يقامر ويربح .

---

(١) همهمت المرأة في رأس الصبي : نومته بصوت ترققه له . وهنا تكلم بكلام غير مفهوم .

(٢) ورم كيسه : امتلأ مالاً .

وبالاختصار طابت له الريح فذرّى[1] وازداد غروراً .

وفي ذات يوم أخذ يحدث رفاقه في أحـــد الأندية عن مزارعيه في الضيعة ، عن أخبـــار المواسم الطيبة التي وردت اليه من جناب الوالد الشيخ خليل ، وعن الفيلاّ التي بناهـا له أبوه وفقاً للخريطة المرسومة ، وأراهم إياها ، فهي دائماً في جيبه : صورة بيت مسنّـم مقبّـب[2] كأنه قصر الحمراء ، وتمنى على أصحابه أن يزوروه فيها فوعدوه خيراً . وكان صاحبنا يفتخر بالمرحوم جده عبدو ويزعم انه من بقايا السلالة الغسانية ، أما والده فعالم علاّمة ، وأمه مثقفة ، وأبوه أيضاً رجل إداري مع ان هذا لا يتفق مع العلم العميق .

انه يرعى أملاكهم الواسعة بعين يقظى ، ويشفق كل الشفقة على « الشركاء[3] » كما يريد جان . وروى لهم عن والده الشيخ أخبـار رحمـة وشفقة وعدل تذكـر بعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فتاق أصحابه إلى رؤية ذلك الأب الطريف وصاحوا جميعاً : في الصيف ، في الصيف .

وفيما هو يتدفق « كالنياغرا[4] » إذا بالوالد العلاّمة الاداري الرحيم يقف بالباب . هو قادم من الضيعة .

اضطرب جان أيما اضطراب ، فممَّ يخاف يا ترى ؟

---

(١) ذرى : نثر هباء في الهواء ، وهنا ساعده الحظ فاغتنم الفرصة .

(٢) مسنم مقبب : ذو أبراج وقباب .

(٣) الشركاء : الشريك ،الفلاح الذي يعمل في حقول الغير لقاء جزء من الغلة .

(٤) النياغرا شلالات مشهورة .

ان والده غير بشع الصورة ، هيكله فخم ، وثيابه نظيفة جديدة ، يعلق ساعة « ليبية » ومفتاحها النحاسي مدلى على زناره الحريري المخطط، وسلسلتها فضة ، وصديريته من المخمل الأسود الناعم ، وكبرانه[1] مطرز مزركش بخيط من القصب الفضي ، وشرواله من الصوف المارينوس الممتاز وعلى جيبيه تطريز جميل معقوف من الجانبين ، ولستيكه[2] أيضاً جميل الشكل جديد . إذن ، ممَّ يستحي جان أفندي ؟

إنه كان يحدث الناس ان والده من رجال الوقت ، طقمه دائماً من بابة نسيج وحده ، أي كوبـّون .

وهجم الأب ليصافح ولده بعد هجران طويل ، فإذا بحاجبي الولد قد قعدا ونونته[3] انكشت .

أدرك الوالد ذلك فوقف مكانه وقال : يا ذوات ، منو[4] منكم جان أفندي ابن الشيخ خليل عبدو ؟

فأجابه ابنه : أنا هو ماذا تريد يا عم ؟

فأجابه : سيدنا الشيخ والدك كلفني بكلمة أقولها لك سراً .

وانزويا في الغرفة ...

* * *

---

(١) الكبران : ثوب الى الوسط يلبس فوق الصدرية .

(٢) لستيكه : حذاؤه .

(٣) نونة : عقدة ما بين الجفنين .

(٤) من هو .

وجاء تموز فغلى الماء في الكوز[١] ، وتلاه آب اللهّاب فعنّت على بال جان الضيعة بعد غيبة طويلة لمشاهدة أمه العاجز المشتاقة اليه .

كان له استقبال ، والكل يخاطبونه بيا أفندي ، والكرماء الأسخياء بيا بك . أبوه معجب يضحك له إذا مشى ، ويشعل له سيكارته كلما سحبها من جيبه ، أمسى يصدق كل ما يرويه له من أخبار ، كصداقته للمتصرف ، فيقول مثلاً : « قلت لأوهانس » ، إذا كان الحديث مع الخاصة ، وإذا ذكر دولته قدام العوامّ يقول : « دولة أفندينا » ، ويعض على كلمة الباشا عضة مشوشة فتخرج البـاء كضربة الطبل ، والشين كرشاش المضخة .

وخبر الضيعة عن ضيوف كرام سيزورونه فباتت القرية تنتظرهم كل ساعة . وأخيراً صار الهزل جداً وأذنت حقاً تلك الساعة الرهيبة .

أقبل الضيوف الكبار يسألون عن بيت جان أفندي، عن بيت الشيخ خليل عبدو ، فدلّوا على بيت حقير لا يصلح اصطبلاً لخيولهم . وطلبوا جان فما وجدوه . أما والده « الشيخ » فحاول أن يتنكر فما قدر ، لأن صورة ذلك الرسول اللبق لم تزل مرسومة في ذاكرتهم .

واستراح الزوار في ذلك البيت الحقير ممتعضين[٢] . أما جان أفندي فكان مستديراً منطوياً على نفسه في قبو البقر ، يضرب قلبه فوق المئة ،

---

(١) الكوز : إناء كالابريق ولكنه أصغر منه .

(٢) امتعض من الأمر : غضب منه وشق عليه وهنا غير منشرحين .

يخاف أن يسألوه عن الجنائن المعلقة التي خبرهم عنها ، وعن .. وعن .. فيعثروا عليه ، ولكنهم اشمأزوا مما حدث فانصرفوا ولم يسألوا عن شيء.

وخرج جان من مزربه ينفض القش اللاصق بطرفه المبلّل ... وفيما هو يصلح ما أفسدته من هندامه تلك المفاجأة ، جاءه خبيث يقول له : الحمد لله على السلامة !

فأجابه جان وقـــد أرشدته إلى المنفذ بديهته[1] المعهودة : كيت وكيت[2] من دينهم ، الشبعان يفتّ للجوعان ، نحن في انتظار الأوادم لا النصّابين مثلهم ...

---

(١) البديهة : المفاجأة . عـدم طول التفكير ويقال أجاب على البديهة أي من غير تفكر .

(٢) كيت وكيت : عبارة شعبية : وهنا بمثابة الشتم .

أمّ لطّوف

بلغت جميلة الأربعين وحرنت[1] هناك .

تكرّ الأعوام وهي واقفة لا تتزحزح ، فكلما سألتها عن عمرها انكسرت عينها وأجابت : حوالي الأربعين . من لا يعرفها يظنها أخت كنتها لا حماتها . لم تخطّ أقلام السنين في صفحة ذلك الوجه الوضّاح خطاً واحداً غليظاً ، فما هنالك غير خطوط دقيقة كأنها جوهر السيف . فأم لطّوف كانت نادرة زمانها : جمال جذّاب ، وقامة طويلة مستقيمة ، لا سمينة ولا رقيقة ، عينان لوزيّتان تصدقان أخبار هاروت وماروت ، ظلّت تترقرق فيهما ماويّة الفتوّة حتى انطفأتا . من يدقّق النظر يرَ أنها ذات أنف غير قليل ، ولكن عظمته ضائعة في ذلك السهل الواسع .

كانت المرحومة جبّارة عنيدة ، حاكمـــة بأمرها ، مسيطرة على

---

(١) حرنت : لزمت ولم تفارق .

زوجها وبني عمها ، لا يُعصى لها أمر ، وتستشار في المعضلات[1] ، كلمة من فمها الصغير تلهب القرية ، وهي ، إذا علق الشر ، تراشق بالحجارة وتضرب بالعصا ، فلولا تكون في غير محيط القرية الضيق لكان لها شان غير شانها .

كانت كبنات جيلها تعصب رأسها بعصابة مشكوكة بها الجهاديّات ـ دنانير ذهبية ـ فلا تكاد تفرّق بين الذهب الإبريز[2] وذاك الجبين العريض. تضفر[3] شعرها الطويل فيتدلّى حتى خصرها ضفائر، وفي رأس كل ضفيرة ثلاثة دنانير . وعلى رأسها كريشة حريرية تعقدها تحت ذقنها الحلوة . تمشي «الغندره» كأنها بنت خمسة عشر . فاتت الستين وظلّت نفسها خضراء . كانت تقول دائماً : « لا تأثير للعمر ، الدنيا أنفس » . كانت بسّامة مشهورة بالكرم والجود ، ما انشغل بالها قط إلا حين فكّرت بزواج ابنها .

حاولت أن تصاهر البيوت الكبيرة فلم تنجح . ابنها شاب جميل ، وعقله راجح ، ولكن بنات الناس يخفن غطرسة[4] أمه واستبدادها ، فأحجمن[5] عن اقتحام بيتها .

---

(١) المعضلات : الامور المشكلة ، الضيقة المخارج .

(٢) الذهب الابريز : الذهب الصافي .

(٣) تضفر : ضفر الشعر نسج بعضه على بعض عريضاً ، والضفائر حبال من الشعر .

(٤) غطرسة : كبرياء وأيضاً العجب بالنفس .

(٥) أحجم عن الشيء : كف أو نكص هيبته .

لم تكن أم لطوف تكفّ لسانها عن بنات النـــاس ، فكلما ذكر لها ابنها واحـــدة هزئت وزجرته[1] بقولها : « حسبتك تفهم . ولد قليل الذوق ، واطي . هذي أبوها كذا ، وتلك أمها كذا وكذا » . وهكذا تقضت الأيام فبلغ لطوف الخامسة والثلاثين ولم يتزوّج ، وما حظيت أمه ببنت أوادم كما كانت تزعم .

لم تكن أم لطوف راغبة في تزويج ولدها . تأبى أن تصير حماة ، ويقشعرّ بدنها حين تتصوّر أنها صارت جدّة تنادى : « يا ستي » . كانت تغضب إذا كنيناها[2] ولم نسمّها . من قال لها: «يا جميلة»، أرته سنّها[3] وأهّلت به ، فكأنها أحد الفائزين بلقب دكتور في الآداب والفلسفة ...

وأخيراً ضجر لطوف وملّ . راعه المشيب القادم بطبل وزمر . حمي صاحبنا في إحدى ليالي المرفع[4] فجاء أمه بالبنت التي اختارها ، فرحّبت به بالنعل سفقاً على وجهه وقفاه . ودخل الأب بينهما فزجرته بالعبارة المعدّة له : « سد بوزك ، أقعد بعيداً » . فيهز رأسه ويسكت .

---

(١) زجرته : نهته ومنعته .

(٢) كنيناها : ناديناها بكنيتها أي : يا أم لطوف .

(٣) أرته سنها : ابتسمت له .

(٤) المرفع : أيام معلومة تتقدم الصوم عند المسيحيين وهو الزمن الذي فيه ترفع بعض المأكولات أي ينقطعون عنها ولا يعودون اليها إلا بعد عيد الفصح ، وفيه كذلك تكثر الزيجات لأن أيام الصيام بعده لا يحل فيها الزواج .

انه رجل حقل تديره امرأته ، وهو أطوع من الخاتم بالخنصر . ولخوله هذا نسب الناس ابنه إلى أمه .

أصرّت أم لطوف على إرجـــاع العروس ، ولكن ابنها قال لها : « تزوجنا يا أمي ، لا تتعبي . ما ربطه الله لا يفكه الانسان » .

فصرخت به : « ليتك تتجنّز بجـــاه الرب ، صرت من الفلاسفة يا جحش ! » .

وأخذت تصفرّ وتخضرّ وتحمرّ وترجف كأنهـــا مصابة بالبرداء . وأخيراً أغمي عليها . وطالت الغيبوبة واختفى النبض فدُعي الخوري . واستيقظت بعد حين فرأت المحترم قابعاً عند رأسها ، فحاولت أن تأخذه بلحيته فانهزم، وهو يسمع : « ان وقعت عيني على عينه تتحاسب . يكلل ابني ولا يسأل عني . لا بد من حشّ لحيته » .

وصفا على مر الأيام خاطر أم لطوف ولكن عيشها تنغّص [1] . كانت كنتها تحاسنها فتزداد نفوراً واشمئزازاً ، ان مشت انتقدتها ، وان تكلمت تغامزت عليها ، وقلما كانت تذوق طعامها . كل هذا والكنة صابرة عليها تجاملها وتطايبها ، فتطغى وتتجبّر [2] ، وأخيراً اعتدل الميزان وحميت المعارك فكانت ضارية [3] .

---

(١) تنغص : تكدر .

(٢) طغا : جاوز القدر والحد ، وتجبر : تكبر وكان عاتياً شديداً .

(٣) ضارية : شديدة ، فتاكة .

وهجم الهرم على أم لطوف فاندحرت أمامه. فارقها مرحها إذ فارقها السلطان ، وقلّ الزحام على المورد الذي كان عذباً ، فكانت ترد على الجماعة بقولها : « كبرت جميلة ، وحنة صبية » .

واستعدت السيدة جميلة لهجوم معاكس علها تسترد شيئاً من حصون جمالها. فحنّت[1] شعرها، وتبودرت[2]، وتحمّرت[3]، وتخططت[4]. كانت ترتاع كلما رأت ذلك الحُسن يندحر ويجدّ في الهرب ، فعزمت بغتة على زيارة بيروت .

ما درى أحد بما تنويه حتى عادت بعد جمعة وقد بدلت بثيابها الهرقلية أزياء جديدة ، ولم تنس الجزدان والشمسية . باعت شكتها[5] وضفائرها واشترت أطرف الأنسجة وأغلاها ، وعادت إلى الضيعة كأنها عروس . رمت الزنار وعصبت رأسها المحنّى بمنديل وردي كأنها تنافس كنتها وتزهو عليها . ولكنها لم تلق التفاتاً من الناس فكانت تقتلها الضحكات الصفراء الممزوجة باستهزاء مرّ . فحارت بأمرها ولجّت[6] في الخصام .

---

(١) حنت : خضبت بالحناء ، صبغت .

(٢) تبودرت : رشت البودرة .

(٣) تحمرت : صبغت بالأحمر .

(٤) تخططت : نسقت حاجبيها .

(٥) شكة : قلادة ذهبية كانت المرأة تزين به خمارها والخمار غطاء الرأس من منديل أو قبعة .

(٦) لجت : أمضت به وزادت فيه .

نفرت من بيتها بل من كل بيت ، وخالت النـاس كلهم خصومها .
كانت تقعد تحت سنديانة تاريخية طالمـا قعدت تحتها حماتها من قبل ... فتحدث نفسها كأنها تحدث شخصاً آخر ، تتذكر أيام العز والمجد وتبكي. الناس عندها غدّارون يظاهرون كنتها عليها لأنها صبية ، وقـد جفاها الجميع حتى الأحباب .

ودخلت عليّ يوماً ومعها حفيدها. أجلسته حدّها وقعدت . لا حيَّا ولا سلّـم الله . كانت ساهية كأنها لا تريد أن تقول شيئاً أو أنها تجهل أين هي . فلم أتحرّش[1] بهـا لئلا تقلق الحارة . ولما طال الانتظار قلت لهـا باسماً : « يظهر انك بالعة لسانك . الله معك » .

فاجابت بفتور[2] يخالطه نفور : « لا الله معك ولا السلام عليك . كلكم عليّ . المولّـي ما له صاحب[3] » . قالت هـذا وأخرجت من عبها كعكة باقية مـمـا تحوجته من بيروت ، ناولتها الولد وقالت : « تعرف سبب محبتي لهذا الصبي ؟ »

فهززت كتفي اليسرى نافياً ، فقهقهت قهقهة بلهـاء وقالت : لأنه غداً ياخذ بثاري . ربّـيت وما لقيت .

فقلت لها : تريدين الصحيح يا جميلة ؟ الحق كله عليك ، اتركي ، راح دورك .

---

(١) تحرش : تعرض .
(٢) فتر : سكن بعد حدة ولان بعد شدة ، ونفر : أنف منه وكرهه .
(٣) المولي ماله صاحب : الذي خذلته الأيام فولى وارتحل .

فهزّت برأسها وقالت : أنا تعبانة ، كنتي حمارة وابني جحش . أنا عمّرت البيت وأنا صيّرته بيتاً . تجي شقفة دابـة ، بنت غريبة تتحكم فيه ، ولا تسأل عني ؟ هذا ما أنزله الله بكتاب .

فقلت لها : الدنيا أدوار ، راح دورك .

فقالت : لا تأكل إلا مثلما تريد، كلامها كله بلا طعمه ، حديثها طق حنك ، أثقل من المرسنك[1] . لا تشاورني بشيء كأني كلبة . ما افتكرت بنت الحرام اني أنا صاحبة البيت .

فقلت لها : الدنيا أدوار ، راح دورك يا جميلة .

فاحتدمت لسماعها : راح دورك . كانت قاعدة فوقفت واندفعت في حديثها ، تارة تهجم عليّ فتضع أصابعها في وجهي، وأحياناً تتأخر كالهر. وأخيراً قالت : ابني يحب امرأته أكثر من أمه ، ولد ناكر الجميل . قال المثل : الدنيا أم ، المثل كذّاب ، الدنيا مرأة .

فقلت لها : لا توروري[2] ، راح دورك يا جميلة .

فصرخت كالمجنونة : وعن قريب يروح دورك .

وانفتلت[3] غضبانة ، وسفقت[4] الباب خلفها ، وسمعتها تقول : «من يقصّ من جلد غيره يوسّع. كلهم في الهوى سوا. الناس مع الواقف».

---

(١) المرسنك : الرصاص .
(٢) ورور في النظر : أحده وفي الكلام أسرع وأكثر منه .
(٣) فتل وجهه عنهم : أي صرفهم .
(٤) سفق : لطم ، وسفق الباب : رده .

وصرخ الولد حين استحال عليه فتح الباب،فعادت وشفتاها ترقصان التشارلستون، ونتشته نتشا، وقالت وهي تعض شفتها السفلى : « القرود تسحب روح أمك » .

فاستوقفتها لأقول لها : ابنك يموت يا أم لطّوف، صار مثل المسلول

ولكنها لم تقف ، فرشقتها بما قلت رشقاً ، فهرولت وهي تقول : « البغل موته أستر له » .

وكان لطوف في جهد جهيد من حياته مع أمه وزوجته . كان دائم صامتاً كالسمكة لا يبدي ولا يعيد . يروز مشكلته ولا يهتدي إلى أهون الشرّين .

وكانت معركة فاصلة بين الحماة وكنتها فصوّب لطوف مسدسه الى رأسه متهدداً ، فصرخت به أمه وتعلقت بيده ، فانطلق المسدس وبقر البطن الذي حمله تسعة أشهر ، فانحلّت عقدة الرواية هكذا : الأم في القبر ، والابن مات في الحبس ، وصارت المرأة تحت رجل آخر .

وجه غريب

أين هو المولود ، فاننا رأينا وجه
في المشرق ؟

(متى ، فصل ٢)

في ميلاد الأربعين يبلغ عدد ميلادي أربعة وخمسين ، ما عدا الليل فإنه ليس بالحساب . كان ذاتي ظفر مرضوض ينسلخ ليخلفه غيره . ففي كل عام أجدني رجلاً آخر ، وأنّى التفتُ أرى أشلاء [1] ذاتي مكوّمة حولي كأنها أسلاخ [2] الحيّات . أراها مبعثرة في غابة العمر فأرثي لها . ثم أحسبني أفلتُّ من شراكها [3] فإذا أنا كالديك العاثر بكب [4] من الغزل . فيا من يخلصني من ذاتي !

---

(١) أشلاء الانسان : بقايا أعضاء الانسان .
(٢) أسلاخ الحيات : قشرها والسلخ أيضاً جلد الحيوان المسلوخ .
(٣) شراكها : فخاخها .
(٤) مكب : ما يلف عليه الغزل أو الخيوط .

أحبّ هذا الجليلي[1] لأنه أحب الحياة . وكم تشجيني ذكرى ميلاده العجيبة . من ميلاد بين البقر والتيوس ، إلى معلم يحل الناموس ، إلى ذروة العبادة والطقوس. أزعم ان ترياقي في خرجه[2] فأرى أعشاب الجدل مخلوطة بنبات سدوم ، فيا ويل العالم من خمير الكتبة[3] والفريسين[4] !

ختم المعلم قصة عمره ختاماً فنياً رائعاً . قصّر حباله فما اضطربت ولا تذبذبت . أحسنت يا سيدي .

للأستاذ « ألن »[5] مجموعة عنوانها « آراء في الدين » كتب فصولها في ربع قرن ، وختامها « ميلاد السلام » المكتوب سنة ١٩٣٥ . « ألن » زميلنا ولا فخر ، فالأساتذة جميعهم مريّخيّون ، تسيطر عاطفتهم على على إرادتهم . غرّهم الثناء فصدقوا انهم شركاء الله في تدبير الكون .

يدعو ألن إلى السلام العالمي ، ويحث على التملّص[6] من ضباب اللاهوت[7] . يريد أن تكون هدية المجوس للطفل كتباً لا مدافع، ومدارس

---

(١) نسبة الى الجليل في فلسطين وهو نسب ألحق بالمسيح .

(٢) خرج : ما كان يضع فيه الصيدلاني عقاقيره ، يضعه على ظهر دابته ، وهو كالكيس ولكنه ذو عينتين .

(٣) الكتبة : من الموسرين كانوا يعملون في الكتابة ويحصلون الضرائب .

(٤) الفريسين : جماعة من اليهود اشتهروا بالتظاهر بالعبادة وهم بعيدون عن حقيقة الايمان وقد هاجها السيد المسيح لمراوغتها .

(٥) ألن : من نقاد فرن الجماليين .

(٦) تملص : أفلت وتخلص .

(٧) اللاهوت : الانعتاق من غموض الإلهيات — علم موضوعه الله — .

لا قلاعاً وحصوناً .

الفكرة سامية والخيال ناعم كريش النعـام ، أما الواقـع فأخشن من المبرد والمنشار .

يقول ألن : أطفال اليوم كأولاد العصر الحجري ، فلا الراديو ولا السينما ولا الترانزيستور تغيّـر خليّـة من خلاياهم الزلالية ، ولا ذرة من احساسهم الرخص وفسفور تفكيرهم . والعيون التي تنفتح في الطابق الخامس كالتي انفتحت منذ ألوف السنين في أعماق الكهوف .

هذه حقيقة علمية لا غبـار عليهـا ، ولكنها حجة على « ألن » على أن الانسان لا يتغير ، فمن وحش خام يقتل الفرد بأنيابه وأظافره إلى رجل متمدن يقتل الألوف بعقله وعلمه .

يريد الأستاذ ألن أن ينصت الأولاد إلى أمثال النـــاس كهومير وشكسبير وغوته وموليير وهيغو وغيرهم ليتعلموا أن النـــاس اخوة ، والدنيا كلها وطنهم . فالسربون والهيكل والكنيسة والكنيس تعد أقيسة منطقية ليست أقـل قتلاً من المدافـع . والمرشالون يقدمون سيوفاً معللين الفتيان بالشرائط المقصّبة . فليس من يرجى منه الخير غير المربّـين ـ المعلمين ـ المهدّدين من بيلاطس وقيافا لأنهم لا يعدّون الحمل للمجزرة .

فيا أصدقاء الطفولة هلموا إلى شجرة الميلاد الخضراء. فلنغَـنّ حولها : وُلِدَ يسوع اليوم ، ووُلِدَ أمس ، وسيُـولَدُ غداً . انـــه ينقذ العالم ان

لم يقتله قيافا وبيلاطس[١] قبل الثلاثين من عمره . ولكن قيافا[٢] وبيلاطس يحفان بالمهد ، يتبجحان بأمجاد عزرائيل ، مالئين العلب الحاكية بأناشيد الحرب ليقتلوهم قبل هذا العمر .

إيه يا ألن ، أين عيناك ؟ لقد أمست شجرة الميلاد ملهاة تعلق في أغصانها المسدسات والطيارات والقذائف ، لا الشموع والخراف وملائكة الرحمة .

البشرية تعبد ذاتها في شخص يسوع . والذات شر من حوت يونان ، وأكثر رؤوسا من تنين يوحنا . قد سقط فندق السامري على رأس بانيه ، ومات السيد عطشاً على بئر يعقوب ... لا تدع الناس إلى المزل ، فلنجدّ يا صاحبي .

* * *

ورفعت نظري عن الورقة المبسوطة أمامي ، فوهلت[٣] إذ رأيت قبالتي رجلاً جالساً كأنه الطيف . لم أشعر بدخوله ، وعجبت من صبره عليّ ، فتنهدت مبتسماً كالمعتذر ولكنه ما بالى . هو مطرق[٤] دائماً ،

---

(١) بيلاطس : الحاكم الروماني الذي وافق على صلب المسيح .

(٢) قيافا : رئيس المحكمة التي حكمت على المسيح بالصلب .

(٣) وهلت : خفت .

(٤) أطرق : سكت ولم يتكلم ، أيضاً أرخى عينيه ينظر الى الأرض .

عربي الزيّ من قُمّة رأسه إلى نعله ذات الشراك[١] والسيور[٢]، ملتحٍ[٣]، عليه عباءة رفع ذيلها الأيسر إلى كتفه اليمنى، منكسر الطرف كمن أفاق من النوم. تذكرت اني رأيت وجهه ولكن اسمه لم يدر على لساني. فما تراه جاء يعمل في هذا الليل؟ ولماذا لا يتكلم؟

دقت أجراس عاليه كلها بعيد الميلاد. الأجراس تدق وتطنطن[٤]، والرجل جامد. سكوت بليغ.

ضغطت على الزرّ فما لبّاني البوّاب، فتحلحلت من مكاني، ولكن ضيفي لم ينزل من قمة رصانته.

أقول لك الصحيح؟ اقشعرّ[٥] بدني وغرقت في الكرسي. راعني سكوته، وهو لم يتكلم لعرفت ما عنده.

وأخيراً هتفت كمن ركبه كابوس[٦]: الله يمسّيك بالخير.

فتزحزح خياله قيد شعرة وكاني سمعته قال: مرحباً يا عم.

مرحباً يا عم! هذه غلاظة. أهكذا يقضي على أبّهة كافحت لأجلها كفاح عنترة؟..

---

(١) الشراك: الحبال.

(٢) السيور: الأحزمة الجلدية.

(٣) ملتح: صاحب لحية.

(٤) طنّ: صوّت، ردد صوت الجرس.

(٥) اقشعر: ارتعد خوفاً.

(٦) الكابوس: ما يحصل للانسان في نومه فيزعجه وكأنه يخنقه.

ولكني تصبّرت وقلت في نفسي : هو رجل لا شبح . إذن الأمر هيّن . ساعرّفه مَن أنا ، وأؤدّبه غير هذا الأدب .

ووزنته لأرى إذا كنت أقوى عليه فوجدتني كذلك ، ولكن العصا النائمة في حضنه رجّحت كفته . ووجدت في الكلام قوة وشجاعة ، فقلت : من أين شرّف جناب الشيخ ؟

فهزّ برأسه وقال : ابني عندكم يا أخي ؟

فامتعضت وتصبّرت وقلت : لهجة السيد فلسطينية ؟

فاجاب : نعم يا بي .

فظننته يقول : يا بك ، فانشرحت ، وانبسطت ، وأجبت بلهجة المرتاح : نعم ، يا سيدي ، المحروس عندنا . اليوم جئتم حضرتكم من الناصرة ؟ كيف حال تلاميذنا القدماء ؟

فقال: يا ليت! طفت الدنيا كلها من أقصاها إلى أقصاها وما وجدته.

فأكدت له أنه عندنا وصحته جيدة ، وهو من الأولين في صفه ...

فرفع بصره قليلاً وشال حاجبه الأيسر وتضاحك قائلاً : ابني يتعلم ! والأول في صفه !

فكانت خيبتي مُرّة ، وجرحني حديثه الناشف المتقطع : « ما عرفتني ولا عرفت ابني . حططتم من قدري جداً لتعظموا ابني وأمه . نسيتم فضل المربي » .

وصحّ عندي أن محدّثي آتٍ من العصفورية، فقلت له : ما اسم ابنك يا عم ؟ بحياتك حلّ هذه العقدة .

وكانه أدرك اني تضايقت فقال: لا تؤاخذني ، ثقّلت عليك . كنا نضيّع هذا الصبي ونجده يناظر العلماء ويجادلهم، أما هذه المرّة فما لقيناه، لا في الهيكل ، ولا في العرس ، ولا في أي مكان آخر .

فطفقت أردّد من غير قصد : يناظر العلماء ويجادلهم . أين سمعتها يا ربي ؟

وتطلعت صوبه كمن انفتحت له مغاليق[1] الأسرار ، فرأيت عصاه قد برعمت ، وفاحت رائحة الزنبق ... تنم عن طهارة الرجل مرة ثانية .

ودخل يعقوب يحمل القهوة فشربتها مردّداً: واصنعوا هذا لذكري.

(١) مغاليق : خبايا .

موعظة القيامة

خرج الخوري يوحنا عبود من الاحتفال بدفن المسيح يوم الجمعة، وصدره يكاد ينشقّ من الحزن، وفي غضون[1] وجهه بقية دمع لم تجفّ بعــد. مشى يتعكّز على عصا سنديانية معقوفة المقبض، يجرّ أذيال جبّته[2] الزرقاء، وعلى رأسه قاووق[3] الخوري الماروني العتيق الذي لم يرضَ به بديلاً طول العمر.

كاهن شيخ خدم المذبح ٦٥ عاماً، ما تمثّلت له مأساة سيده الشاب عند مغيب شمس العمر حتى خال أنه يراها بعينه في أورشليم سنة ٣٣ مسيحية.

انفطر قلبه التياعاً، فكان يحسب كل زهرة تلقى على الصليب الدفين من أيدي المؤمنين حربة مسمومة. وأمست كل كلمة يسمعها من

---

(١) غضون: تجاعيد.
(٢) جبة: ثوب واسع يلبس فوق الثياب.
(٣) قاووق: غطاء الرأس للكاهن الماروني.

ولما اجتمع الشعب قامت الصلاة ، فمنح رعيته البركة في آخرها وأوصاهم جميعاً أن ينقّوا ضمائرهم ويستعدوا لملاقاة الختن[1] السماوي ويا لفجيعته إذ رأى السيد ، وحده ، بين الكهنة ورؤساء الكهنة والكتبة وأذنابهم يبصقون بوجهه ويلطمونه ، وتلاميذه تركوه وخذلوه . تمنّى لو انه كان في ذلك الزمان فينصره ويموت معه شهيداً ، فيرث الملكوت باقرب وسيلة وأضمنها .

هكذا كان الخوري عندما برح[3] الهيكل . كان يسير في طريق بيته منكس الرأس ، مكسور الخاطر كانه قبر أحد بنيه ، وسارت رعيته خلفه صامتين كانهم عائدون من مأتم شاب في ميعة العمر ، ولا غرابة فكلهم مسيحيون تغلغل اليقين[4] في قلوبهم حتى الصميم .

بلغ الخوري بيته وليس وراءه غير بنيه ثلاثتهم،لأن الناس ارفضّوا عنه شيئاً فشيئاً ، فالوقت الظهر وكلهم صائمون ، وبيت الخوري في رأس الضيعة .

أفطر الخوري وأولاده ، وودع الطبق إلى صباح الأحد . تلك كانت عادته في مثل ذلك اليوم كل عـــام ، يطوي هذين اليومين زهداً وإماتة

---

(١) السنكسار : مجموعـــة تراجم القديسين يقرأ على الشعب في البيع النصرانية .

(٢) تذبذب : تردد وتحيّر .

(٣) برح : ترك .

(٤) اليقين : الإيمان .

نفس ابتغاء النعمة والأجر[1] .

تغدّى وعـاد إلى الكنيسة ليزور قبر الفادي[2] ويتّعظ بفاجعة ابن الانسان[3] ، ويتألم لآلامه ، ويشبـع مجاعته الروحية قبل الرحيل متزوداً لآخرته ما يشفع به عند الله .

كان يصلي لأجل رعيته ، ويحاسب نفسه قبل أن يأتي السارق[4] ، ويمحو بدموع التوبة كل لطخة في كتاب أعمـــاله قبل عرضه على ربه في الدينونة الخاصة حين يقف بين يديه عريان ، والموعد قريب ، فالخوري يوحنا ابن ثمان وثمانين وان يكن بعد ذا همة .

صرف عصارى الجمعة في الكنيسة ، طوراً يُصلّي جاثياً ، وتارة يقرأ متاملاً في كتاب « مرشد الخاطىء » ، وحيناً في كتـــاب « مرشد الكاهن » ، ويتبحّـر في شرح بلّـرمينوس للعقائد المسيحية . ثم ينتقل الى منبر التوبة يسمع اعترافات المؤمنين والمؤمنات .

ولمـا غابت الشمس قرع الجرس حزناً . ولِمَ لا ؟ فالمسيح مات . ثم أسرج قنديلاً وفتّش عن صلاة المساء في « الحاش » ، وقلّـب صفحات السنكسار و « الريش قريان » والأناجيل والافراميات حتى إذا عثر على الفصول الخاصة بتلك الليلة الرهيبة طوى الكتب ووضعها ناحية . وجاء دور السجدات فنيّـف عدد ركعاته على المئة .

---

(١) طلباً للثواب .

(٢) و (٣) المسيح .

(٤) كناية عن مجيء الأجل .

ولما اجتمع الشعب قامت الصلاة ، فمنح رعيته البركة في آخرها وأوصاهم جميعاً أن ينقّوا ضمائرهم ويستعدوا لملاقاة الختن[1] السماوي بمصابيح[2] العذارى الحكيمات المملوءة بزيت التقوى المنبثق منها نور الإيمان وحرارة الندامة والرجاء وأشعة المحبة المسيحية الصادقة .

عاد الناس إلى بيوتهم وظلّ الخوري يوحنا يصلي عند القبر . يطيب له الرنين ويلذّ له النواح الروحي المرسل من صدر عامر بالإيمان ، ومن نفس قانتة[3] ألبسها الله ثوب ندامة لم يلبس داود إبّان توبته أجمل منه وأبهى .

وكان يجثو بالقرب منه شقيقه الخوري موسى الضرير ، يصلي ويسمع ما يقرأ عليه أخوه . وكان الخوري موسى رقيق القلب تفيض دموعه بغزارة لأقل كلمة تلامس شعوره الديني .

وقبل منتصف الليل أثلث الكهنة: انضم اليهم أخوهم بالمسيح الخوري يوحنا الحداد الذي قام برتبة دفن المسيح في مزرعة مجاورة لا خوري لها . هـذا الكاهن طيّب القلب اشتهر بالصراحة البريئة من الغمز واللمز[4] ،

---

(١) الختن : العريس وهنا المسيح .

(٢) اشارة الى العذارى الحكيمات اللائي سهرن الليل ينظرن العريس دون أن يفرطن بزيت مصابيحهن ودخلن معه المنزل عند دخوله ، وهـذا مثل انجيلي .

(٣) قانتة : زاهدة ، طائعة .

(٤) لمز : عاب وأيضاً أشار اليه بعينه ونحوها مع كلام خفي .

تزينه السلامة المسيحية النقية . فاشترك الآباء الثلاثة في صلاة الليل ، وحضرها نفر من الشيوخ المتهجدين[1] . وبعد ختام الصلاة ولّى الكهنة الثلاثة وجوههم نحو القبر وأخذوا يقومون ويخرّون ساجدين الى الأذقان أمام الضريح حتى بان التعب فيهم .

مشهد رائع : بضعة شيوخ أصغرهم ابن خمس وسبعين يقومون بهذه النافلة[2] الدينية الشاقة ، والكهنة الشباب يغطّون في مضاجعهم الناعمة.

ثم ودّعوا القبر بلثم الغطاء بعد أن ملأوا السرج زيتاً .

كان نوم الخوري يوحنا عبود تلك الليلة متقطعاً ، ينتفض بين آونة وأخرى . واستيقظ فجر السبت على صياح الديك فتذكّر جحود[3] بطرس فتألم . وسار الى الكنيسة ماراً باخويه الكاهنين ، ومشوا معاً الى الهيكل بخطى الشيوخ ليقيموا صلاة الصبح والذبيحة الالهية[4] .

وبعد إتمام واجباتهم الدينية خرجوا ثلاثتهم وجلسوا ضحى ذلك اليوم الضاحك تحت سنديانة الكنيسة . قرأوا فصلاً من كتاب « الاقتداء بالمسيح » وتذاكروا بعد تلاوته شؤون القرية .

فتنهد[5] الخوري يوحنا عبود ، وتأفّف[6] الخوري موسى ،

---

(١) المتهجد : القائم من النوم الى الصلاة .

(٢) النافلة : ما تفعله مما لم يفرض ولم يجب عليك فعله .

(٣) إنكار بطرس الرسول للمسيح يوم اعتقلوه وقد كان مصحوباً بصياح الديك.

(٤) الذبيحة الإلهية : القداس .

(٥) تنهد الرجل : أخرج نَفَسَهُ بعد مده حزناً أو ألماً .

(٦) تأفف : تضجر .

وتنحنح[1] الخوري يوحنا صادق ، وكان حديث ...

قال الخوري يوحنا عبود : خطيئتنا ، نحن الكهنة ، كبيرة جـداً ولولا ذلك ما تخلّـى ربنا عنا وعجزنا عن التوفيق بين أقاربنا . الخلاف خرّب الضيعة ، والشر الكبير قدامنا .

فقال الخوري موسى بنبرة : أوف ، أوف ، ضيعة شيطانها كبير .

فأجاب الخوري يوحنا صادق : يا معلمي خوري يوحنا ، كل الحق علينا نحن الخوارنة . يا خوري موسى ، شيطاننا نحن أكبر من شيطان الضيعة لو كان فينا روح الله طردناه باسم الصليب ، وانطفأ خبره .

فاطرق الخوري يوحنا عبود قليلاً وأجاب : الحق معك يا أخي الخوري ، ينقصنا كثير من التقوى . لو كنا كما يجب ما عجز المرسل البطريركي عن مصالحة أولاد رعيتنا .

فاحتدّ الخوري يوحنا صادق وقـال : يا معلمي ، الحكيم الغريب لا يعرف المرض البلدي ، نحن وحدنا نعرف كيف نطبب مرضانا ، صدقني قلت لك . لا تهز برأسك .

فهزّ الخوري موسى رأسه كعادته أيضاً وقـال : مليح . هات يدك يا خوري حنا .

فلم تعجب الخوري يوحنا صادق لهجة الخوري موسى فردّد : هات يدك يا خوري حنا . يا خوري موسى ، يد واحـدة لا تصفّق ، المسألة بسيطة جداً ، اسمعوا : أنا أبو ثلاثة ، وأنت يا خوري موسى أبو ثلاثة ،

---

(١) تنحنح : ردد صوته في صدره .

ورأيت بيتها وأنا ابن سبع . كنت مع والدتي في طريقنا الى « البترون » ، فأومأت باصبعها الى بيت معلق على صدر جبل وقالت : هناك بيت ام نخول . فمشيت ، ولكن نظري ظل عالقاً بذاك البيت ، فقلت : وأين هي ام نخول ؟

فضحكت أمي وقالت : من يعلم ؟ أشغالها كثيرة .

فقلت : حجارة بيتها بيضاء .

فقالت : عجّل يا صبي ، إمش ، هذا كلس .

لم يخرج كرّ السنين ذاك الاسم من رأسي، بل قامت الى جانبه صورة بيتها . وسمعت عنها أحاديث أغرتني بزيارتها ، ولكني تهيبت العقاب[1] القائمة دونـــه . وأخيراً ، ولا أدري كيف ... رأيتني على مقربة من بيتها ، وكلبها « غبار » يستقبلني استقبالاً صارخاً كان له النهر والأودية والكهوف[2] كمضخمات الصوت .

لو كان غبار وحده لاتقيته ، ولكن أسرته الكريمة معه ، وكانت أشد احتفاء بي منه .

تسمّرتُ في مكاني أنتظر العون ، فإذا براعٍ صغير يصيح من ورائي ، في الجبل المناوح ، ويسألني أين أقصد . فأجبته : اني زائر . فصاح الولد على البيت، فردّت عليه أنثى بصوت يسمعه من هم على الشط.

---

(١) العقاب : جمع عقبة ، والعقبة المرقى الصعب من الجبال .
(٢) الكهوف : المغاور .

وما عتمت أن انتصبت بالباب ، فقال لهـــا : ردّي الكلاب . فأجابته : ما عليك ، انتبه لعنزاتك .

ثم نادت قائد الكلاب باسمه ، ففهم عنها ولفّ الذنب الذي كان لرأسه اكليلاً ، وعاد وجيشه .

وجدتني تلقاء امرأة لا هي طويلة ولا قصيرة، لا ضخمة ولا هزيلة، لا جميلة ولا قبيحة، لا صبية ولا عجوز . تعصب جبهتها بقدة[1] سوداء، وتلفّ رأسها بفوطة بيضاء نظيفة كأنهـــا من ممرضات اليوم . تلبس فسطاناً منتفخاً على كتفيها كأن هناك رمانتين . قماش كثير من الزنّار ونازلاً فكأنها خابية[2] من خوابي بيت شباب .

وقبل أن أبلغ البيت الأبيض مررت بين أشجار كلها حوامل ، بعضها مؤزّر[3] بشباك ترد عنها الطير فلا تفسد ثمارها ، وعلى رؤوس الغصون الشامخة جماجم غنم ومعزى ، وقشور بيض مرفوعة على قصب مغروز في الأرض ، وعلى شناخيب[4] مساميك العريش قدد من نسيج مختلفة ألوانه ، كأنها سمات أوسمة منحتها ام نخول أشجارها المتفوقة في

---

(١) تقدد الثوب : تقطع ، والقدة قطعة من ثوب .

(٢) خابية : وعاء كبير من الفخار – على شكل الجرة – اشتهرت صناعته في بيت شباب ، وبيت شباب اسم بلدة لبنانية .

(٣) مؤزر : مغطى .

(٤) شناخيب : أعلى الكاهل ، والكاهل أعلى الظهر مما يلي العنق .

الحمل ، تمائم وتعاويذ[1] تتقي بها عيون الحساد فلا تصيب مزروعاتها . أما الأوابد[2] فلها دواء آخر : هنا نطّار على هيئة رجل، وهناك لعين[3] بشكل امرأة. أشكال وألوان تقشعر لرؤيتها جلود البشر فكيف لا تفزع ابن آوى والعصافير .

خلتني وأنا مار بينها كأنني بين خفراء مختلفي السحن وكلهم فظ غليظ القلب[4] .

وحدجني[5] غبار بعينيه الحمرْة وكشّر عن أنيابه البيضاء ، وتحسس[6] كمن يريد الوثوب فقالت له : غبار ، سد بوزك ، هذا ضيف .

فتبدلت ملامحه في الحال ، واستخذى[7] وزحف صوبي حتى دنا مني يشمني .

---

(١) التميمة : خرزة أو ما يشبهها كان الأعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين ودفع الأرواح – جمع تمائم – ومثلها التعويذة : صلاة تستخدم لرفع الأرواح الشريرة .

(٢) الأوابد : الطير المقيمة بأرض شتاء وصيفاً .

(٣) لعين : ما ينصب وسط الزرع كهيئة امرأة أو رجل تستطرد به الوحوش .

(٤) السحنة : الهيئة واللون ، والفظ : السيء الخلق ، والغليظ : الخشن الكلام .

(٥) حدج ببصره : حدّق .

(٦) تحسس : تحرك .

(٧) استخذى : اتضع وانقاد .

فقالت لي : لا تخف ، أهلاً وسهلاً .

وغابت ثم آبت وفي يدها كاس فشربت شراباً استيبطته جداً حتى قلت : طيّب شرابكم .

فقالت : الليمون بلدي ، والسكر بلدي ، والماء من رأس العين ، وأنت عطشان .

فضحكت ضُحكة فيها تعجب وحيرة وقلت : وكيف يكون السكر البلدي ؟

فقالت : نحن نعقّده من قصب المصّ . السكر غال والعصير يمد أكثر وهو ألذّ .

فقلت في نفسي : هذه إحدى عجائبها ، انها هي . واستولت ام نخول على المبادرة فأجبتها : شاب من الجيرة ، سمعت باسمك ، جئت أتعرّف بك .

فقالت بتعجب صادق : باسمي أنا ؟

ـ نعم باسمك أنتِ .

فسكتت وشاع الابتسام في وجهها قبل أن تقول : طيّب يا حبيبي ، شباب كثير في الجيرة ، فمن أنت منهم ؟

فقلت لها : فلان ابن فلان .

فتنهدت ورحّبت .

ودخلت علينا صبية لا تعلم اني هناك فارتدّت مذعورة ، فقالت لها أمها : منّا وفينا .

فتقدمت وسلّمت عليّ تسليم من تستلم حيط الكنيسة[1] . وخرجت بعد أن تلقّت أمر أمها بإيماءة لم أفهم معناها إلا عند الظهر .

أما أم نخول فقالت : ترانا اليوم مهموكين[2] بتقميع[3] اللوز وتشميسه ، وغداً لمّ التين وقطاف العنب ، وبعده الزيتون وعصره . الحياة كلها شغل .

فقلت : بيتكم منفرد ، ألا تضجرون وحدكم ؟

فضحكت لأول مرة ضحكة عامرة وقالت : ما عندنا وقت حتى نضجر .

فقلت : أنتِ مستاهلة هذا الصيت يا ست ام نخول .

فجادت بربع ابتسامة وقالت : ستّك العضرا يا روحي ، كلمة ست صارت رخيصة في زمانكم .

وانقطع الحديث فخيلت أني أسأت اليها ولكنها قالت : فكري قال لي انك مامور حكومة ، فأخذت حذري منك .

فقلت لها : والحكومة تفزّع !

فأجابت : لا ، ولكن ضرائبها تخوّفنا . الحكومة ملح الأرض ولولاها ما كنا نعيش في لحف هذا الجبل . سمعنا عن الباشا الجديد انه حطّ ضرائب على البقر والحمير والدجاج . أخبار لا تصدّق .

---

(١) سلمت بخشوع : من يلمس جدار الكنيسة لنيل البركة .

(٢) همك : جد ولجّ .

(٣) قمع : أزال ، وقمع الثمرة . ما التصق بأسفل الثمرة .

ـ لا تخافي يا عمتي ، احكي لي عن أحوالكم ، عن المواسم عندكم .

فقالت : أية مواسم تريد؟ وأخذت تعدّ على أصابعها: الحرير وسط، والدخان مليح ، واللوز عال ، والتين ممتاز ، والعنب كسّر المساميك[1] ، والزيتون أكثر مما كنا ننتظر . سنة خير ، المرعى بحر والمواشي شبعانة، والأسعار لا هي شرف ولا هي طرف .

فقلت : وأنت كيف ؟

فأجابت : مثل الناس ، ولا بأس .

فقلت : قالوا لي عندك تسعة أولاد .

فاجابت : وأنت الصادق ، عندي عشرة ، أربع بنيّات وستة صبيان لأالله .

ـ إذن عيلتكم دزينة .

فأجابت : وعمي وحماتي .

قلت : إذن بيتكم دير[2] .

فهزت برأسها وقالت : وأي دير!

فقلت : وكيف تعيشون ؟

فقالت : من الأرض . في الأرض خير كثير يلاقيه من يشتغل .

---

(١) المسماك : عود يسمك أو يرفع به الخباء ، والخباء ما يعمل من وبر أو صوف أو شعر للسكن وهنا إشارة الى كثرة العنب المرفوع على المساميك.

(٢) بيتكم دير : لكثرة سكانه يشبه الدير . والدير بيت يسكنه الرهبان وقد كان يشتهر بكثرة سكانه .

انظر ، البيت خال . واحد مع المعزى ، والثاني مع البقر ، والثالث يكاري[1] ، والبقية مع والدهم ينقبون[2] الارض ، والبنات واحدة تطبخ وتنفخ ، والبقية لأشغال البيت ، وأنا للحياكة والخياطة والترقيع[3] .

قلت : ترتاحون في أيام الشتاء .

فابتسمت وقالت:ومن أين لنا الراحة؟ أنا والبنات نغزل ونسدّي[4] للحياكة في أيام الشتاء ، والرجال للزرع والقلع . من لا يزرع لا يشبع .

قلت : وكل هذا من أين ؟

فأجابت بنبرة : من أين ؟ من الارض يا حبيبي ، من الارض . الله يبارك فيها .

قلت : والخيطان من أين ؟

فأجابت : من صوف الغنم والشرانق[5] ، والقطن من البترون . لو كان البيت يلبس من السوق كان خرب ونزحنا من هذي البرية .

ثم أخذتني بيدي وأرتني ما في صناديقها من نسيج وقالت : هــذا

---

(١) يكاري : ينقل الأحمال بالاجرة على ظهر دابة .

(٢) تنقب في الشيء بالغ في الفحص عنه . وأنقب في الارض سار فيها وهنا قلب ترابها .

(٣) رقع الثوب : ألحم خرقه وأصلحه بالرقاع .

(٤) السدي : ما مد من خيوط الثوب عند الحياكة واللحمة ما مد عكس خيوط السدي .

(٥) الشرنقة : هي البيوت التي ينسجها دود القز لنفسه .

جهاز البنات . ثم أرتني نولها[1] باسمة . وكنت أرى في كل مكان قطارميز[2] الدهن ، وبراني[3] السمن والعسل ، وخوابي الزيت والنبيذ والدبس ، وبتيّات[4] العرق ، وأخيراً أرتني صيرة المعزى[5] ، وقبو[6] البقر ، ودلتني على قن[7] الدجاج والأرانب .

قلت : وهل أملاككم واسعة ؟

فقالت : بين بين . ولكن الشغل متواصل ، والزبل كثير ، وشريك الماء لا يُغلب . عندنا مئة رأس معزى وما فوق ، عدا الغنم . وراءها السنة أكثر من خمسين جدياً . وعندنا ستة رؤوس بقر . وعندنا ، يا سيدي الأكرم ، دابة مثل البغلة ، خلفها جحش يسوى نوم العينين ، حلو حلو أكثر مما تتصور . والتفتت نحو الأرض وقالت : هذي الارض نقبها أبو نخول العتيق ، عاش فوق المئة ، ما دخن ولا شرب أبداً . كان أغلب شغله في ضوء القمر .

---

(١) النول : خشبة الحائك أو آلته ينسج عليها ويلف عليها الثوب وقت النسج .

(٢) قطارميز : آنية من زجاج او خزف .

(٣) البرنية : آنية من خزف .

(٤) البتية : برميل عظيم من الخشب .

(٥) الصيرة : حظيرة الغنم او المعزى .

(٦) قبو : بناء معقود بعضه الى بعض .

(٧) قن الدجاج : بيت الدجاج .

كانوا يسمعون ضربة مهدته[1] ونحيطه[2] من المدفون. نحن اشتغلنا وزدنا عليه الفواكه. الفواكه لا تنقطع. عندنا من كل شيء، حتى الأدوية من أعشابنا، الكينا قنطاريون، والمساهل دبس خرنوب. قال الله لا تكذب، لا نشتري إلا حبة الرز. الأحد مخصص للملح[3] وصيد السمك.

فقلت: والسكافة[4] يا أم نخول؟

فهرولت أمامي وأرتني آلات السكافة والجلود.

فقلت: والعلم؟

فهزّت كتفيها وقالت باستهزاء: تقبر العلم، جارنا علّم ابنه وعرفنا النتيجة. تعلّم أولادي القراءة والكتابة والحساب، وهذا كاف. المدرسة مجاناً من كيس الوقف.

ونوديت من خلف الستار فلبّت. وفيما هي راجعة دقّ جرس الظهر فوقفت «تبشّر[5]» حيث كانت. ولما أنهت صلاتها أمسكت بيدي وقالت: تفضّل الغدا حاضر. فاعتذرت منها، فعزمت

---

(١) مهدة: مطرقة كبيرة.
(٢) النحيط: الزفير او من يسعل قوياً.
(٣) للعمل على استخراج الملح إما من صخور ملحية او من ماء البحر.
(٤) السكافة: صناعة الأحذية وترميمها.
(٥) التبشير: صلاة الظهر.

عليّ وقالت لي : بيننا وبينكم خبز وملح . لو كان لنا نصيب كنت أنت ابن اختي .

وتغدينا دجاجاً وأرانب وبيضاً ولبناً وأكثر خضرة الوقت . وكان الحلو عسلاً وقريشة[1] وفواكه متنوعة . أما شرابنا فنبيذ عتيق .

وانصرفتُ قرب العصر أردد قول المثل اللبناني : « فلاّح مكفي ملك مخفي » . ورأيت أبا نخول يستريح وأولاده تحت التينة ، فذكرتني صلعته النحاسية بصلعة أبي حفص الورّاق التي قال فيها ابن الرومي :

كأن ساحتها مرآة فولاذ
ترنّ ان قرعت أرجاء بغداد

(١) قريشة : مادة تستخرج من الحليب بعد أن يستخرج منه الجبن ، وهي تشبه اللبنة .

خوى[1] عرشُ الملكة المخفية فزرتُ القريةَ المعلقة مرة ثانية . بُهتُّ إذ وجدتُني قدّام باب هامد كان بالأمس نبّاضاً[2] كقلب العصفور المروّع[3] .

البيت بلا سكان كجسم بلا دم ، والوقوف عنده وعند المقبرة سواء بسواء .

كان الجاهليون على حق إذ بكوا على الطلول[4] ، فخراب البيوت كموت الأحياء . كان بيت أم نخول دنيا عامرة مؤنسة ، فإذا به اليوم كهيكل مهجور[5] . لا كلاب تعزف فتنفخ روحاً محيياً في ذاك المحيط الأعزل ، ولا حيوانات أليفة تناجينا عيونها البريئة الحلوة . لا ثور يخور

---

(١) خوى : سقط وتهدم فرغ وخلا .

(٢) نبّاضاً : خفـّاقاً بالحركة .

(٣) المروّع : الخائف .

(٤) الطل : الشاخص من الآثار .

(٥) مهجور : أي موحش .

ولا جديَ يمْو ، ولا حمـــار ينهق ولا هرة تموء . سكون راعب ناء بكلكله[1] على ذلك البيت كأنه ليل امرىء القيس .

الشجيرات الغضّـة[2] الشباب نحلت واصفرّت فهي قائمة حوالى البيت كالمسلولين يتفرّجون حول المصحّ . والعرائش سقطت عن أرائكها[3] فهي مبعثرة هنا وهناك كأشلاء المحاربين بعـــد المعركة . الأرض بور منذ سنوات فسيطر الشوك على مملكة أم نخول فبدت كالحسناء في الأطمار[4] .

دققت الباب دقة يائس فما ردّ عليّ أحد . ودفعته فانفتح فخلتني أمام باب قبر .

البيت الذي كان لمّاعاً مصقولاً كترائب أم الرباب[5] ، أمسى منكوتاً كأنه وكر قنفذ تنبعث منه روائح العفن ، وقد فارقه صفاء القرية النقي.

في أرضه الزبالة ، وعلى حيطانـه ستائر من نسيج العنكبوت ، والرتيلاء تروح في سقفه وتجيء كأنها ام نخول حين كانت تسدّي .

---

(١) الكلكل : الصدر في الفرس .

(٢) الغضة : النضرة .

(٣) الأريكة : سرير مزين فاخر وهنا ما ينصب من عُمُد ترتفع عليها العرائش .

(٤) الطمر : الثوب البالي .

(٥) الترائب : ما بدا من الوجه ، كالخدين . وأم الرباب : كنية كنيت بها أكثر من فتاة. ويقصد هنا أن بيتها كان ناعماً براقاً كخدي أم الرباب تلك التي اشتهرت بجمالها ونعومتها .

لم أسمع حِس أحـــد في ذلك البيت القاتم الأعماق ، الخالي إلا من الذكريات الصامتة ، فصحت محدثاً نفسي : وأين هي ام نخول ؟ فإذا بصوت يقول : من ؟

فالتفت حيث نجم[1] الصوت فرأيت في الزاوية الغربية الشمالية لحافاً يتحرك وامرأة تصلّب[2] على وجهها ثم تقول : تفضل . أهلاً وسهلاً .

وبعد تسليم شرحه طويل ، جلست قبالتها على كرسي يُصوصي[3] تحتي ويقوقي كلما تحركت ، فاحكمت جلستي معتمداً على ركبتي أكثر من اعتمادي على تلك الخشبات المفككة ، وقلت لها :

ـ عرفتِ من أنا يا أم نخول ؟

فتفرّست بي بحدقتين[4] منفتحتين وقالت : أمهلني .

وطالت المهلة ، فقلت ممهداً طريق المعرفة : وأين « غبار » يستقبلني ذاك الاستقبال الراعب ؟

فضحكت وأجابت بحسرة زادتها ابتسامتها الفاترة وضوحاً : مسكين غبار ! راح مع من راحوا .

وأطرقت تعصر صدغيها بيسراها .

أردت أن أكفيها مؤونة الجهد وأعرّفها بي ، فأومأت بجُمع يدها

---

(١) نجم الشيء : ظهر وطلع .

(٢) تصلب : ترسم الصليب .

(٣) يصوصي : يصدر صوتاً مزعجاً لعدم تماسك أجزائه .

(٤) حدقة : سواد العين .

أن امهل ، فقلت لها : لا تكلفي نفسك يا خالتي ، يستحيل أن تعرفيني ، الدنيا تغيرت ، ونحن تغيرنا معها ، فكيف تعرفينني ؟

فأجابت : عرفتك ، عرفتك . أنت جئتنا منذ عشرين سنة . نعم ، نعم . أنت كبرت ونحن شخنا . لا تحسب أنا نسيناك . زيارتك تاريخ للضيعة . كيف حال الوالد ؟

فقلت : وهبك الله عمره .

فأجابت : والقائل . من خلّف ما مات .

والتفتُّ فعلق نظري بالمذبح المنصوب فوق رأسها ، وهو رفّ عليه بضع صور وصليب كسوته من حياكة أم نخول ، وكشكشه شغل صنّارتها .

ودخلت بُنيّة في يمينها إبريق ، فراعني تطرّف[1] الدهر في جوره على هذه المرأة النفيسة .

وعقب الشرب سكوت كصمت المعزّين في الخطب المدلهم[2] .

قالت : هنيئاً . وتنهدت وأطرقت كأنها تتذكر الماضي .

وأجبت : هنّاك الله .

ورحت أفتش عن كلمة لا تثير ذكرى ، فما حضرتني واحدة .

ولكن أم نخول استولت على الكلام فقالت : تأمل ، أين كنا ، كيف صرنا .

---

(١) تطرف : جاوز حد الاعتدال .

(٢) الخطب : المصيبة ، والمدلهم : الأسود ، وهنا العظيم الشدة .

وكرجت[1] دمعات من عينيها ما لبثت أن تكسرت في ثلوم تجاعيد وجنتيها .

تمرمرت قليلاً ثم قالت : انفخت الدف وتفرّق العشاق[2] . راح جمهور البيت الذي سميته ديراً . ما بقي إلا قريد العش ـ تعني أصغر أولادها ـ دبّ الفنا فينا ، ما بقي عندنا شيء يدب على الأربع . بلى عندنا دابة يكاري عليها الصبي لأنه قليل الجلد كثير الحكي . إذا قلت له : حسّ الدابة[3] ضحك واستهزأ ، وتغغط ربع ساعة قبل الوقوف .

فقلت : وأين بقية العيلة يا أم نخول ؟

فأجابت : الكبار في ديار البلى[4] ، والصغار تاهوا[5] في البلاد .

وشرعت تتولّه[6] وتبكي. وبعد دقائق قالت : قصتنا قصة طويلة. راحوا كلهم وبقيت وحدي مثل البومة[7] العميا . آخر شنيعة[8] . لا تقل خرفت أم نخول . عشنا مدة الحرب بألف خير ، النـــاس باعوا ما

---

(١) كرجت : تحدرت .
(٢) كناية عن تبدد الشمل . كتفرق الشرب أو عشاق الغناء بعـــد أن يثقب الدف .
(٣) حسْ : نظف .
(٤) أي ماتوا .
(٥) تاهوا : ضلّوا .
(٦) تتوله : تتحسر .
(٧) البومة : طائر شؤم .
(٨) شنيعة : مستقبحة .

فوقهم وما تحتهم ونحن اشترينا . وبعد الحرب داز الدولاب بالمقلوب . بعض الناس قال : حسد ، وبعضهم قال : إصابة عين .

وسكتت . فاغتنمت الفرصة وقلت : وانت ايش قلت ؟

فقالت : أمهل يجئك الخبر .

وأخذت منديلا كان عند مخدتها ومسحت به دموعها ، ثم أحكمت جلستها وقالت : انتهت الحرب وتغير كل شيء ، أولادنا كانوا طوع والدهم فصاروا يردون الكلمة كلمتين . أعجبتهم عيشة المدن . كان ابن جارنا يقف على بابنا حتى نطعمه لقمة ، فترك الضيعة بعد الحرب ورجع اليها كأنه خواجا، لا يحكي إلا عن المغنيات والرقاصات ، حاشا قدرك [1] فأفسد واحداً من أولادنا وأخذه معه . أما البقية فقضوا الأيام متكرهين ومتنمرين. ذاقوا طعم ركوب السيارات فاستخفوا بالدواب. استنكفوا [2] من رعاية المعزى وكرهوا البقر . صاروا مترنترين [3] ، فبعنا الطروش ـ الحيوانات الداجنة ـ أنفقوا كل ما جمعته أم نخول والقلة تورّث النقار [4] . فصار بيتنا مثل جهنم الحمرا . حديثهم الدائم : فلان ما عنده رزق وعيشته أحسن من عيشتنا ، وفلان أفقر أهل الضيعة وثيابه جوخ وحرير شغل البلاد ـ تعني أوروبا ـ ونحن نلبس من حياكتك. الله الله

---

(١) كلمة يستخدمها المتحدث اللبق بعدما يهين رفعاً لقدر السامع عما ذكر.

(٢) استنكفوا . أنفوا ورفضوا استعلاء .

(٣) مترنترين . متكبرين .

(٤) النقار . الشجار .

من الأيام ، فضلوا الشيت والمقصور على الحرير لأنه حياكتي . ابن فلان مستريح أكثر منا لا يمشي ربع ساعة ونحن نقتل من المشي قبل الوصول إلى طريق البحر . قنطار الحطب عندنا بربع ليرة، وعند غيرنا بليرتين. إجاصنا وتفاحنا وسفرجلنا يسقط تحت أمه . الزبل[1] ينفق عند غيرنا ونحن نحتار كيف نصرّف حاصلاتنا . راحت الأيام التي عرفوا فيها قيمة الزبل . كان عندنا ولد يحب الأرض ، أخذه عزرايل[2] . مات موتة بشعة ، أبعدها الله عن كل محب . كان يحطب[3] لوليمة أحد التهنئة فهيّأ حمل حطب وحزمه بالحبل ، وبدلاً من أن يحمله خطر له فكر كان سبب موته : دفر الحمل[4] برجله من فوق صخر علوه عشر قامات[5] ، فعلق الحبل برجله وسقط مع الحمل الى الوادي . وصار أحد التهنئة مناحة . البنت التي سقتك هي بنته .

وطفقت تنوح وتبكي زهاء ربع ساعة ، فحاولت أن أحوّل مجرى الحديث فصاحت : لا تقاطعني ، أنا ألتذ بالبكاء كما يلتذ غيري بالغناء والرقص . وأبو نخول ، يا حزني عليه ، عضته حية فحملناه الى جسر

---

(١) الزبل : روث البهائم « السماد » .

(٢) عزرايل : ملك الموت .

(٣) يحطب : يجمع الحطب .

(٤) دفر : رفس .

(٥) القامة من الانسان . قده طوله .

المدفون[1] لنعالجه في بيروت ، فمات في بعشتا[2] . مات بعد ابنه بتسعة أشهر ، ليته مات قبله ! كان استراح من مصيبته فيه . آخر ولد ترك الضيعة منذ شهرين . قدمنا وأخرنا فما نفع الحكي . خبروني انه يخدم في لوكندة . تأمل ضعف العقل : كان يحكم ويامر في بيته فصار أجيراً للناس . وهكذا تم فينا قول المثل . راح الرزق مع أصحابه .

ــ ومن أين تاكلون اليوم يا ام نخول ؟

ــ من ظهر الدابة[3] ، أجلك الله . كنا نشبّع جبيل والبترون من خيرات أرضنا فصرنا نشتهي عنقود العنب في أيدي البشر . ما بقي من العمر أكثر مما مضى ، ولكن يقول المثل : تموت الدجاجة وعينها بفراخها . عزّ عليّ خراب بيتي قدّام عيني[4] .

وأخذت تتفجع[5] ولا تدري من تلوم . ثم هدأت ثورتها بغتةً وشرعت تبدي نظراتٍ عمرانية اقتصادية لو عمل الناس بها لصارت كل قرية جنة . ثم عاودتها ذكرى أيامها السالفة[6] ، أيام كان بيتها يضيق من غلّة أرضها فعَلِقت تعدد عقاراتها قطعة قطعة ، وتتفجع على مواسمها واحداً واحداً ، وتصفّق على ركبتيها توجعاً والتياعاً ، فنهضت إذ ذاك ،

---

(١) و (٢) أسماء لأمكنة بين جبيل والبترون .
(٣) أي من تأجير الدابة ، ومما يعود به تأجيرها من مال زهيد .
(٤) صعب عليّ أن أرى الخراب يلم بأسرتي وأنا لا أستطيع دفعه .
(٥) تتفجع . تبكي متوجعة .
(٦) السالفة . الماضية .

فقالت بانكسار : اقعد . فاعتذرت ، فقبضت على يدي بيديها الثنتين وقالت ، كل مصائبي هيّنة عند خروجك من عندنا بلا أكل . آخ من الأيام ! ثم تنهدت وقالت : ما لك جود إلا من الموجود . لا تؤاخذنا .

وما بلغتُ الباب حتى سمعتها تقول لي بصوت يخالطه البكاء : ردّ الباب خلفك[1] .

وبلغتُ التينة التي رأيت تحتها أبا نخول بين أولاده فاذا هي معصفَرة[2] الإزار ، بعد أن كانت كعذارى دوار[3] . فخطرت في بالي كلمة قالها جبران : مصيبة الأمم في من لا يستنبتُ بذرةً ، ولا يرفع حجراً ، ولا يحوك ثوباً .

وانتصبت قُبالتها كلمة قالتها ام نخول في بحثها العمراني : ماذا يصير بالبلاد لو هجر الضياع[4] أهلها ، ومن أين ياكل الحكّام والتجار إذا خربت بيوت القرى مثلما خَرِب بيتُنا ؟

وفي صباح اليوم التالي دقّ جرس القرية المعلقة حزناً على ربة الحقل. ماتت سيدة الضيعة ولحقت بمن سبقوها الى ظل السنديانة العظمى[5] .

---

(١) اغلق الباب بعد خروجك .

(٢) مغطاة بإزار أصفر ، أي أن ورقها قد اصفرّ وبدأ يتساقط لقلة الاعتناء بها .

(٣) العذارى اللاتي ذكرهن امرؤ القيس في معلقته يلبسن الثياب المذيلة .

(٤) الضياع : جمع ضيعة ، القرية .

(٥) الى المقبرة الراقدة تحت تلك السنديانة .

صلاة نائب

استيقظ النائب ضحى الاثنين ، فانتصب كالنبي بعد هبوط الوحي، والبستاني على أثر ركود العاصفة . أحب أن يذكر الله في تلك الساعة ، وكيف لا يذكر ربه وقد صار نائب أمة يكتب كتابها لمن شاء وان لم يستطع ما فعل الفرزدق[1] ... أجل أراد النائب ان يصلي ـ والنواب كالنــــاس يصلون في الازم[2] ـ فلم يقل : اللهم ... حتى قرع ناقوس التلفون فتناول اللاقطة وأجاب :

ـ نعم ، نعم ، أنا .

ـ صبحك بالخير .

ـ أبو نجيب ، الله يسعد صباحك .

---

(١) إشارة الى ما اشتهر به الفرزدق الشاعر من كثرة تطليقه زوجاته . ومعنى العبارة أن نائب الأمة يستطيع أن يزوجها لمن شاء وان كان لا يستطيع تطليقها .

(٢) الأزم : الشدائد .

ـ كيف الحال ؟

ـ هاه ، عال !

ـ يا سيدي القضية التي عرضناها لك ...

ـ أية قضية ؟

ـ نسيتها ؟

ـ لا لا لا ، تذكرت ، بهذين اليومين ان شاء الله ...

ـ بحياة جنابك ، نحن متكلون عليك .

ـ على الله يا شيخ ... وغير هذا ؟

ـ رضاك وتوفيقك .

ـ الله يحفظك . مع السلامة .

وعاد النائب ليصلي ، فلم يقل اللهم أعطنا خبزنا ... حتى دخلت خادمته ملهوفة تعلن مقدم أحد الأعيان ، فتململ وخفّ لاستقباله ، فإذا به يجر وراءه وفداً ، فحيّوا النائب الجديد ، وحيّاهم وهنّاوه ، فشكر لهم . وأديرت عليهم كؤوس الشراب فانتدبوا لها بعضهم ، لأن الخادمة لا تعرف التقاليد،فأخذت الكأس تروح وتجيء بضع دقائق بين : أستغفر الله ، وتفضل أنت ، وهذا لا يصير .

أما النقل فتناولوه محافظين على الكياسة جهدهم . والتفت قيدومهم ليغمز الخطيب فيتكلم ، فإذا به لا يراه ، فتغمغم[1] وخرج في طلبه ، وما عتم أن استرضاه وعـــاد به وأوقفه في وسط القاعة خطيباً . فأدى

(١) غمغم الكلام : هم به ولم يبين .

خطابه أداءً صالحاً ، وتبرنس[1] النائب بأطول منه ... كما قـال بديع الزمان. فصفق الوفد وأجاب النائب واعداً بتحقيق الأماني والوعود...

وقدمت القهوة فترشفوها[2] . وبعد أن قال كل واحد منهم ما جاء على لسانه لئلا يرمى بالعي[3] ، انصرفوا ، وشيّعهم النائب الى البوّابة ، وعلى ثغره ابتسامة مسخّرة .

وعاد النائب يصلي فلم يقل : ساعدني يا رب على خدمة البلاد ولو عشت بالتقتير[4] ... حتى انتفض لأن التلفون يدعوه ، فانفتل[5] عن صلاته متأففاً . ظنّ ان احد انصاره يدعوه ليذاكره بحاجة ـ وصاحب الحاجة أرعن[6] ـ فإذا بـه غير من ظنّ ، فاستوى مهابة كأنه في حضرة المتكلم ناسياً انه يخاطبه تلفونياً وقال :

ـ نعم ولدكُم ... يا سيدنا ... مستعد يا سيدنا ... نعم سيدنا ... تأمر ... الآن . أمر غبطتكم ... نعم . وختم الحديث بالتماس البركة الرسولية فمنحها من صميم الفؤاد .

واستعجل النائب خادمته بوقف سيارة مقفلة نظيفة ، وأصلح ثيابه وخرج ، فما بلغ البوابة حتى أرجعته ابنته الى التلفون .

---

(١) رد على الخطاب .

(٢) ترشفوها : احتسوها .

(٣) العي : العجز عن الإبانة .

(٤) التقتير : بالتقليل والتضييق في النفقة .

(٥) انفتل : ارتد .

(٦) أرعن : أحمق .

ـ نعم . من ، من ؟

ـ أنا .

فزرّر رداءه احتراماً وقال : عفواً ، فخامة الرئيس ... محسوب فخامتكم . نعم ، أمر فخامتكم . وظلّ يهزّ رأسه ويهمر[1] بنعم ، نعم ، نعم ... الى أن ختم كلامه بقوله : حاضر يا مولانا .

وما ألقى اللاقطة حتى كان في الشارع . فاطلّ وفد أطول وأعرض من الوفد الذي شيّعه منذ هنيهة . وبعد السلام والمصافحة لبعضهم اعتذر لزعيمهم أن فخامة الرئيس وغبطة البطريرك يستعجلان حضوره الى ناديها ، وأنه سيعود بعد قليل ، ودعاهم جميعاً ليتغدّوا عنده ، ثم ودّعهم قائلاً : البيت بيتكم ... ومضى .

واستحال البيت الى حانة شرب وقصف[2] . والنائب يطوي الطريق الى القصرين .

وعاد الى البيت وقد أدركه الليل فسأل عن الجماعة فقيل له : تغدّوا وراحوا .

فاوى الى غرفته تعباً منهوكاً . ولم يخلع معطفه حتى قُرع الباب وانشقّ عن زميل كريم قال :

ـ يا هو ، كيف حال الوفود عندكم ؟

ـ العاطفة طيبة ، والثقة كبيرة .

---

(١) همر في الكلام : أكثر منه .

(٢) شرب ولهو .

ـ والخطب ؟.. والمطالب ؟

ـ هي هي ، كل الدنيا مثل بيتك .

ـ انت عندك من هذه البضاعة ، أما أنا ... الله وكيلك مونشير ، لا أعرف الألف من المادنة .

ـ تمرّن ، انت قادم على جلسات حامية الوطيس .

ـ وطيس ... ايش الوطيس ؟

ـ يعني جلسات حامية .

ـ اوه ، الآن فهمت ، بحياتك قل لي ... والنتيجة ؟

ـ لا تحمل السلم بالعرض .

ـ ماذا قال لك فخامة الرئيس ؟

ـ كما قال لك .

ـ والبطرك ؟

ـ كما قال لك .

ـ وسيادته ؟

ـ أيضاً .

ـ والرئيس وال ... ، وال ...

ـ كذلك .

ـ وما العمل ؟

ـ . . . . . .

ـ إذن قم .

ـ إلى أين ؟

ـ ألست مدعواً ؟

ـ بلى ، بلى كنت نسيت .

وشبكا أيديهما وخرجا .

ورجع النائب الى بيته مجهوداً بعدما هدأت العين والرجل ، فإذا باحد « المحترمين » في الانتظار . فحيّا بالاحترام وتجلد وجلس . وأخذ المحترم[1] يدل عليه في حديثه ، ويريه كيف جاهد وجمهوره ورعيته يومي الانتخاب . وكان النائب يسمع بخشوع. وبعد القهوة تحلحل المحترم للانصراف فقال له النائب : ابقَ الليلة عندنا . فاعتذر له . وفي طريقهما الى الباب ساق المحترم الحديث فقال :

ـ لا تنسَ شعبة طريق ... فهذه حياة الدير .

ـ نعم ، ولكن ما رأي قدسكم لو شقّت من الجهة الجنوبية فتمر بقرى ومزارع فينتفع أهلها المساكين ... والطريق ، كما فهمت ، صارت على باب الدير تقريباً ، وهؤلاء محرومون .

نريدها على باب الدير تماماً ، فالزوّار ، نشكر الله على هذه النعمة ، مثل الجراد . كلهم يتنمرون من مشي خمس دقائق . قال هذا ماشطاً لحيته المقنفشة[2] باصابعه وضحكت سنه .

---

(١) المحترم : لقب للكاهن .

(٢) لحيته المقنفشة : المتداخلة الشعر غير المنسّقة .

فهزّ النائب رأسه مذعناً [1] ، وجرّ المحترم حديثه الى ثلاث أربع قضايا فقال : لا تنسَ المختار فهذا من غير حزبنا . والناطور كفّوا يده لأنه حشد لكم في الانتخابات ، فاسعَ جهدك لتبرئته . أما مسألة البلدية فإلى وقتها و ... و ... وكان النائب الصادق يحرّك رأسه كالحرذون ، وظلّ يفعل كذلك حتى توارى المحترم .

وخلا النائب في مخدعه وتجرد وقعد في فراشه ، فذكر الصلاة التي لم يتمها فقال مع بشّار : « الذي يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة » . وأخذ رأسه بيديه وصلى :

« الشكوى لغيرك مذلّة يا الله ، فلتبقَ في القلب تجرح ولا تخرج من الفم فتفضح ، انظر الينا يا كريم .

« استكثروا راتبنا فاقتضبوه [2] حتى مسخوه . فلا ينطوي الشهر وينشر كشف النفقة حتى ترانا مكثوراً [3] علينا .

« الشعب يصرخ : اصلبوه ، ونحن نردّد : اقتسموا سلطتنا بينهم ، وعلى راتبنا اقترعوا .

« أيكون راتب النائب أقلّ من راتب كاتب البلدية يا الله ؟ وعلى هذه الغضاضة [4] أغضينا وقلنا خير من اللاش [5] ، في هذه السنين الضيقة ،

---

(١) مذعناً : منقاداً ، خاضعاً .

(٢) قضب : قطع .

(٣) مكثوراً علينا : مرهقين من كثرة المصروف .

(٤) الغضاضة : الذلة والمهانة .

(٥) اللاش : اللاشيء .

واذا لم نكن نحن للوطن فمن له ؟

« فنظرة يا رب من أعالي سمواتك تنبت الحنان في قلب العميد ، والتفاتة من عليائك تمدد سلطتنا المقرفصة [1] ، فنبيّض وجهنا ونحقق ولو شيئاً من آمال منتخبينا .

« ردّ عنا يا الله الوجوه المقرفة [2] الملحاحة [3] التي تتبعنا كظلنا ، وتزعج مجالسنا أين كنا . يقولون أننا لا شيء ، ويطلبون منا كل شيء .

« ارحمنا اللهم ، ووقّنا عثرات السياسة يوم انتخاب الرئاسة .

« اللهم لا تدخل عبيدك النواب في التجارب ... ونجّهم من حلّ المجلس ، وخلّصهم من ألسنة الجرائد . آمين ! »

وما انتهى حتى أغفى ، وظل يغط في نومه حتى الصباح .

واستيقظ ضحى الأربعاء فإذا بالقصاب [4] بالباب فقال : العمى ، أقبل الضوء يا خليل ، يا فتّاح ، يا عليم ...

فاجاب خليل بسذاجة : حمي النهار يا بك .

فتأفف النائب بين الجد والهزل وقال : آخر الشهر يا خليل ، آخر الشهر .

---

(١) المقرفصة : المتكمشة على ذاتها .

(٢) المقرفة : التي تبعث القرف والاشمئزاز .

(٣) الملحاحة : الكثيرة الالحاح .

(٤) القصاب : بائع اللحم .

ثم ضحك ضحكة مكروب[1] ـ وشر البلايا ما يضحك ـ وقال : شباط ٢٨ يوماً يا خليل . فقال القصّاب : وما عليه لو كان أربعين ؟ أنت في العبّ يا سيدنا . وضحك ضحكة بلهاء وانصرف .

وزال الكابوس عن النائب ، فاغتسل وامتشط وهندم قوامه وخرج يتوكأ على عصاه ، فهو على موعد مع مدير إحدى الشركات ...

(١) من اشتد عليه الكرب ، أو الضيق .

وعظة وديك

كانت الحرب التي مضت حرباً مفترسة ، غرزت أنيابها في القرية اللبنانية فأثخنتها الجراح . فهاتيك البيوت المتهدمة أفواه من جماد تشهد أن البشر أشد فتكاً من اخوانهم في اللحم والعظم .

كنت عام المجاعة ـ ١٩١٧ ـ في قرية من جرود كسروان أقوم بعمل حكومي، فدهمنا الميلاد فيها . وكان لي في تلك القرية صديق جمعتني وإياه مدرسة الحكمة سنتين . ثم تفارقنا وانقطع الحبل . صار صديقي حارثاً[١] في كرم الرب ، وتهت أنا كما أراني حتى الساعة .

كان صاحبي متمسكاً بدينه لا يقبل فيه الجدل ، شعاره : « من تمنطق فقد تزندق[٢] ، الإيمان وكفى » . وان أحرجته تجمعت أصابعه وصارت يده دبوساً[٣] أقطع من برهان ذي حدين ...

---

(١) حارثاً في كرم الرب : من رجال الدين .

(٢) من تمنطق فقد تزندق : تمنطق تعاطى علم المنطق والزندقة الكفر .

(٣) صارت يده دبوساً : أي جمع أصابع يده للقتال .

بلغ صديقي نبأ قدومي « السعيد » فأرقل[1] أرقال الجمال المصاعب، وأقبل عليّ بلحيته الوارفة، فقال رفيق آخر: أحزر من هو؟

فأنكرت منه كل ما كنت أعرف، ولم تنحل المعضلة[2] الكبرى إلا حين تكلم وابتسم.

حبسنا الثلج في تلك الضيعة أياماً، فكان صاحبي في أثنائها يتصرف بي كما يتصرف في عقار ورثه عن جد جده: ارحم فلاناً فأرحمه، وفلانة أرملة مقطوعة لا تجعل عليها ضريبة وارمة[3] فنأخذ من الجمل أذنه.

ـ مارون، غداً عيد الميلاد أتسمع وعظتي؟

ـ وعظتك أنت؟ أنت تعظ؟

ـ نعم، ووعظاً يرضيك.

ـ حسبتني نسيتك يا زيدان.

ـ أنت مغشوش[4]، تندم اذا لم تحضر.

ـ غيابي وأندم خير من هلاكي بالبردين[5] ...

والتفتّ فإذا بأصابعه تتجمع فأخذت حذري، فضحك وقــال:

---

(١) أرقل: أسرع.

(٢) المعضلة: المسألة المستغلقة المشكلة والخطة الضيقة المخارج.

(٣) ورم الجرح: اذا انتفخ وتضخم.

(٤) مغشوش: مخدوع.

(٥) أن أندم بعد غيابي خير من أن أحضر وأهلك من برد الطقس وبرد العظة.

« يا سبحان الله ما زلت كما كنت. تسمع ما يرضيك ان حضرت. كنيستي ليست كاتدرائية [1] ولكنها خشوعية [2] قديمة من عهد الفينيقيين، فيها رهبة ونور ضئيل، تلهم أشياء أشياء ».

قلت : اذاً يتضاعف هم القديس هيرونيموس في كنيستك.

ورأيته لم يدرك ما عنيت فضحكت وقلت : الكنيسة معتمة.

فأجاب وهو يزعزعني [3] بيديه كأنه يقلع توتة : والقسيس أعمى. احضر يا مارون، واحكِ ما تريد.

ودقت أجراس القرى تسبّح الله نصف الليل. وقرع جرس كنيسة صاحبي، فتغلغلتُ [4] في فراشي وقلت في نفسي : أعتذر له بغرقي في النوم. ولكن صاحبي لم يحل عن عهدي [5] به فجاء بنفسه، وفتح الباب وهو يقول : المجد لله.

فقلت : وعلى الأرض السلام.

فقال : قم، بلا طقّ حنك، ولا سلام ولا رجا صالح. أنا عاجنك وخابزك [6].

---

(١) الكاتدرائية : الكنيسة الكبيرة في الأبرشية.

(٢) خشوعية : توحي بالخشوع والتقوى.

(٣) زعزع : حرك شديداً.

(٤) تغلغل : دخل فيه على تعب.

(٥) لم تتغير عما عرفته.

(٦) أعرفك على حقيقتك.

وساقني أمامه .

حقاً ان كنيسته ، كما قال ، تلقي الرعب في القلوب نهاراً فكيف بها في تلك الليلة القاتمة الأعماق ، والثلج على سروات الأشجار كما قال الفرزدق[1] . لم يضيء بها غير فانوس ، ويا ليته جاحظ الفتيلة كمصباح راهب امرىء القيس ! ولكنه كقناديل بخلاء الجاحظ[2] ...

حاول أحد الشمامسة أن يوقد بضع شمعات فزجره الخوري ابراهيم مكتفياً بشمعتين عسليتين . ورفل[3] في ثياب التقديسْ المزركشة ، وأسرع في تلاوة قدّاسه فبلغ الانجيل برفّة عين[4] . فقلت في نفسي : عافاك يا خوري ابراهيم ، هذا قدّاس ! والتفت صاحبي صوب الشعب منكسر[5] الطرف ، وبعدما فرك يديه قال :

يا اخوتي المباركين !

عيد الميلاد هو عيد ولادة البشر كل عام ، كما قال الرب يسوع لنيقوديمس : الحق الحق أقول لك ، ان لم يُولد الانسان ثانية فلا يقدر أن يُعاين ملكوت الله .

---

(١) يكسو رؤوس الأشجار وسيقانها .

(٢) لم تكن فتيلته بارزة فنوره ضئيل كقناديل البخلاء الذين صورهم الجاحظ يقتصدون ويقترون ، يشخصون الفتيلة لئلا تستهلك الكثير من الزيت .

(٣) رفل : جر ذيله ، تبختر .

(٤) رفة عين : أي سريعاً .

(٥) منكسر الطرف : خاشع البصر .

فأجاب نيقوديمس : وكيف يمكن هذا ؟ فأجابه الرب يسوع : أنت معلم اسرائيل وتجهل هذه ؟ أتعلمون ماذا أراد المعلم ؟ ان المعلم يريد أن نولد بالروح ، أن نولد بالرجاء ، أن نولد بالمحبة ، أي أن نولد كل عام بتعاليمه . ولو تحققت هذه الولادة لما كانت هذه الحرب العالمية .

ان هيرودس وبيلاطس وقيافا يبرزون كل عام الى الميدان ليحولوا دون هـذا الميلاد كما أرادوا قتله في ذلك الزمان . يريدون اطفاء سراج الانجيل الذي خلق عالماً جديداً . لا أدري ما أقول عن الهيرودسيين والبيلاطسيين أعداء السلام المسيحي الذي ولد في مثل هـذا اليوم ، الذي لا حياة للدنيا بدونه .

لا أحدثكم عن يسوع الإله ، بل عن يسوع ابن الانسان ، فأقول لكم ان عيد ميلاده هو عيد ميلاد حقاً . ولحكمة فائقة جعلته أمنا الكنيسة المقدسة في هذا اليوم . ان الطبيعة التي قال لها كوني فكانت تولد اليوم . أليس الشتاء كالميلاد ، والربيع مثل الشباب ، والصيف كالكهولة ، والخريف مثل الشيخوخة ؟ أليست الشمس تولد اليوم من جديد فتصعد الى أعالي القبة ؟ وكذلك النهار فهو ينمو مع السيد ، ومعنى هـذا ميلاد النور والحق والحياة .

ثم التفت نحوي وقال كالمتوجع : آه من البشر ! كل شيء يتجدّد مع الميلاد إلا الانسان . الانسان لا يريد أن يولد مع المعلم ، لا يريد أن يفهم معنى الميلاد الحقيقي . ان الحيوانات كانت أرأف بالطفل من البشر . الحيوانات أعطته كل ما تملك ، ومن كل قلبها ، أعطته جزءاً من نفسها ،

أي حرارة تدفئه ، بينا ملوك العالم ، أي المجوس أعطوه من فضلاتهم ، مراً [١] وذهباً ولباناً [٢] . نعم ، ان سجود هؤلاء الملوك السحرة له هو اعتراف بعهد جديد ، عهـد حرية بني الانسان ، عهد تغلُّب الحق على الشعوذة [٣] ، ولكن ما حاجة يسوع الى ذهبهم وهو القائل : يا بني أعطني قلبك ؟ ان زعماء البشر أعطوه المال الذي أبغضه وداسه ، ولم يعطه من قلبه ونفسه إلا البهائم فكانوا خيراً منا . الحيوان يكتفي بقتل حيوان . أما الانسان فيقتل اخوانه جملة ولا يكتفي . ألا ترون هذا باعينكم ؟ أما ندفن كل جمعة أربعة خمسة ؟

يا اخوتي ، تعلمون لماذا سمى يوحنا الحبيب الطفل يسوع كلمة الله . ان في ذلك سراً عظيماً ، فالكلمة هي سر السلام، سر المسرّة، سر الرجاء الصالح . ألا يقول المثل : من وطّا كلمة وطّا جبلاً؟ ولو نبتت كلمة الله في قلب هيرودس وبيلاطس لما كان الشر الذي نلقى غبه [٤] اليوم .

ان الطفل الذي نحتفل بعيد ميلاده اليوم هو الدائرة التي تضم في قلبها الانسانية كلهـا ، وان خرجت الانسانية منها أكل بعضها بعضاً كالوحوش الضارية . والبرهان ما ترون وتسمعون . فكما يخلق

---

(١) المر : مائع يسيل من شجرة فيجمد وهو طيب الرائحة مر الطعم .

(٢) اللبان : صمغ طيب الرائحة والمذاق .

(٣) الشعوذة : التدجيل .

(٤) غبه : عاقبته .

البرق والرعد الكمأة[1] في الصحراء كذلك تخلق فينا كلمة الله المحبة ، وحيث تكون المحبة يكون الإيمان ، وحيث يكون الإيمان كان الرجاء والسلام .

ان النجم[2] الذي هدى المجوس الى المغارة هو رمز الانجيل الذي قاد العالم الى ميناء السلام والاطمئنان . ويا ليت هذا النجم يطلع كل عام في سماء الانسانية ليهديها الى القناعة فمغارة الميلاد استحالت قلعة محصّنة بالرشاشات والمدافع والقنابل ، وشجرته أمست كتلك الشجرة الهندية التي يقولون انها تأكل البشر . وكل هذا من ظلم هيرودس ، وطمع بيلاطس ، وجشع يوحانان ، وأنانية قيافا ، وفتور إيماننا نحن .

فيا ليت الملوك يولدون مع المسيح لتستريح الانسانية المعذبة ، الجائعة ، العارية ! ان النفوس التي اشتراها المسيح صارت عندهم أرخص من الزبل .

أيها الأحباء !

ان الميلاد يجب أن يتجدد في كل مكان ، في البيوت وفي المدارس وفي الحكومات ، وبدون ذلك لا تتقدم البشرية .

سمعنا أن المتحاربين يقفون القتال في مثل هذا اليوم إكراماً للميلاد ، ولو كانوا يولدون معه لألقوا سلاحهم تحت قدميه .

---

(١) الكمأة : نبات يوجد في الربيع تحت الأرض كالقلقاس .

(٢) النجم الذي سطع ليلة ميلاد المسيح يهدي المجوس الى المغارة التي ولد فيها السيد .

فاجعل، يا ربنا وإلهنا ، ميلادك ميلاداً حقيقياً ، وانهض الانسانية من سقطتها ، انك أرحم الراحمين ، آمين .

وانتقلنا بعد القداس الى بيت أبينا الخوري . وفيما نحن نأكل ديك الميلاد ونشرب عليه خمرة لم يذق مثلها الأخطل[1] ، قال الخوري ابراهيم: كيف وجدتني ؟

فاجبته : المحبة تخلق كل شيء حتى البلاغة. عيد مبارك .

---

(١) غياث بن غوث التغلبي من شعراء العصر الأموي ، اشتهر بشربه الخمرة وإجادته في وصفها .

وجبة تقيلة

ما رأت عيني مثله رجلاً . لو تراه يمشي على الرصيف وفي يده عصا يتوكأ عليها بعظمة وجبروت[1] لحسبته حاوياً[2] أو ساحراً من بقايا زمن عبادة العجل والأفعى . شعر مثنّى[3] ومرسل[4] كما قال امرؤ القيس[5] . وعينان ساهيتان تحلمان باللاشيء. وجد على الأرض منذ ثلاثين عاماً فخالها أوسع مدى من دهر أبي العلاء . أسمر مربوع ، على كرسي خدّه خال[6] أشعر تحسبه شارباً مغتر بجماله يظن أنه فلقة[7] قمر ، لو بدا

---

(١) جبروت : سلطة ، قدرة ، عظمة .

(٢) حاوي : الذي يرقي الحية .

(٣) مثنى : معقوص الى أعلى .

(٤) مرسل : متروك يتدلى على الكتفين .

(٥) إشارة الى بيت امرىء القيس في وصف شعر فتاته الذي منه : تضيع العقاص بين مثنى ومرسل .

(٦) خالة : شامة ذات شعر .

(٧) فلقة قمر : قرين القمر في الجمال .

لحامل في طور الوحام[1] لجاءت ببدر لم يحلم بمثله الشعراء . يؤمن بملكوت الأدب ويرجو الخلود فيه ، فهو في عين نفسه احدى فلتات الزمان ، بل شاعر العرب المسكوني .

عرفته مساء يوم معرفة وجه فما أصبح حتى شنّ عليّ غارة عتادها حقيبة في شهرها التاسع فيها شعر وفيها نثر ، مقالات وقصص ، قصائد طوال وقصار . وبالجملة فيها ما في قبوي[2] المعدّ لسقط المتاع[3] .

صاحبنا مبتلي بملاريا الأدب ، ومتى نفضته البرداء[4] يشتد هذيانه[5] فيه . يانس باشياء من العلم الحديث فيخيّل اليه أنه وجـد حجر[6] الفلسفة . إن رأى معازاً أو بقّاراً أو فلاحاً ابتسم له وحيّاه تحية صبّ[7] مشتاق ، حتى اذا استأنس به انهال عليه بأسواط منظومة ومنثورة . يطمع في أن تعمّ شهرته جميع الطبقات، فأعار الأرض اهتماماً اقتداء بفرجيل ، ثم وصف المعارك كهومير ليسدّ برأس قلمه ثغرة في جدار الأدب العربي .

---

(١) طور الوحام : الأشهر الاولى من الحمل .

(٢) الطابق السفلي من المنزل يستخدم كمستودع للأشياء الغير مستعملة والبالية .

(٣) سقط المتاع : الأشياء القليلة القيمة والبالية .

(٤) البرداء : الحمى مع البرد .

(٥) هذى : تكلم بغير معقول لمرض أو لغيره .

(٦) حجر الفلسفة : الحجر الذي بحث عنه العلماء ليحولوا به المعادن الى ذهب .

(٧) العاشق الولهان .

تقرأ على مسامعه قصيدة لأعظم شاعر.فيفترّ [١] عن أسنان مصفرّة ولثّة [٢] مزرقّة ويقول بكل وقاحة : منو المتنبي ؟ ومنو شكسبير ؟ أليسا بشراً مثلنا ؟

يفتح كشكوله [٣] ويخرج منه أفاعي رقطاء ورقشاء دونها حيّات أدهى الحواة ، فتسمع وأنفك راغم . وان تثاءبت يحدجك بعين زرقاء لو رآها ابن الرومي للزم بيته شهراً كاملاً .

عليك عند سماع درره اليتيمة أن تهز برأسك كالضبّ [٤] ، وترجّع [٥] كالحمام ، وتنثر زهور الاستحسان عند كل نظرة يلقيها عليك وعند كل شدّة يعض عليها ... ولا تحسب أنك اتقيت شرّه ان فعلت ، فصاحبنا مغفّل [٦] يخالك طربت حقاً فيتمادى حتى يؤنسك ساعات ... لا يدرك أن أحداً مشغول لأنه بطّال، أدركته حرفة الأدب فلا عمل له غير النظم والنثر وكبّ هـذا الزفت على رأس من يتشبث [٧] به . مؤمن بأنه من عباقرة الشرق العربي ، ويرجو أن تنصفه الذرية التي تربّى تربية حديثة . أما معاصروه فجلّهم حسّاد ، ومعظمهم غلاظ الأكباد .

---

(١) يفتر : يبتسم .
(٢) لثة : منغرس الأسنان .
(٣) كشكول : دفتر كبير .
(٤) الضب : حيوان من الزحافات شبيه بالحرذون وذنبه كثير العقد .
(٥) ترجع : تكرر الصوت .
(٦) المغفل : من لا فطنة له .
(٧) تشبث : تعلق .

لا يستقر إنْ جلس ، فكأنه قاعد على خازوق[1] ، فهو يتفنن في جلسته كانه أمام مصوِّر ، وكثيراً ما يدعم ذقنه بإبهامه ويثني السبّابة على شفتيه فيغطي بها السفلى ويسند العليا .

دعاني يوماً الى زيارته وألحّ عليّ وأغراني بقوله : « تعلم ان كل بلد معروف بلون من الطعـــام والحلويات ، وأنا عندي لون ما ذقت مثله أبداً ، ولا أبصرته في نومك . إن زرتني أذقتك إياه وعلّمتك صنعه ، فتأكله وتبيّـض به وجهك أحياناً » .

فقلت في نفسي هـــذا صيّاد ماهر يضع في صنّارته ذبانة ليصطاد دلفيناً[2] ... وارتحت نفسي إذ سمعت بأكلة جديدة . ثم حسبت أنـــه سيحبسني عنده حتى الغداء،وأنه سيعدّ لي من مطهّماته[3] خيولاً تجول في كل ميدان ، فجئته بعد الميعاد بساعتين . تذكرت الأكلة الجديدة التي لم أحلم بها،وحياتي كلها أحلام من هذا الضرب،فهان عليّ سماع سفاسفه[4] ثلاث ساعات .

كان جالساً الى طاولته جلسة فنية ، وقد نشر عليها أوراقاً تخـــال سطورها دروب النمل على الرمل أو أعشاش البق في زوايا بيت لم تعرف حيطانه المكانس . انقبض صدري وأحسست بمـا تحس به النفوس قبل

---

(١) الخازوق : عمود طويل محدد الرأس .

(٢) دلفيناً : دابة بحرية كبيرة .

(٣) المطهم : السمين ، والجواد المطهم التام الحسن .

(٤) السفاسف : السخافات والرديء من كل شيء .

الخطر والنكبات ، ولكنني تجلدت وقلت: « هما ساعتان ويليهما الغداء. فهب اني في حبس الدم[1] فما يكون مقدار ويل ساعتين ثلاث في سبيل أكلة تتلذذ بها ونضيفها الى معجم المطبخ ؟ » .

وكان ردّ التحية توبيخاً لطيفاً على تضييعي ساعتين أخسر بهما مشاهدة أسراب من عذارى الخلود[2] . عنّفني كاني غريمه ، فاعتذرت بما أَلِفناه من أكاذيب المعاذير. زعمت له اني التقيت أديباً آخر استوقفني ليسمعني آية فنية جديدة . فتأفف وتمتم : « ما أشد غرور الأدباء ! ما أسمجهم[3] ! يفلقون[4] الناس بترّهاتهم[5] » . ثم استعجل حرصاً على الوقت وفتح دفتراً من قطع شحيم[6] كنيستنا . فرمقت ذلك الدفتر بمؤخرة عيني، فادركت انه لا يزيد عن كف، فقلت في نفسي : « اللطمة بكف هينة ، وقانا الله شر الكفين » .

شرع يقرأ ويشرح ، فقلت له : « لا تضيّعني . اقرأ وعجّل والمناقشة بعدئذ ». ومضى هو في نثر درره، وسحت أنا في دنيا اللاوعي. فكنت كالأطرش في الزفّة .

---

(١) حبس الدم : سجن المحكوم بالاعدام وهو أيضاً بمعنى حبس ضيق لا يخرج منه كحبس الدم في الشرايين والأوردة .

(٢) عذارى الخلود : القصائد والأبيات الخالدة .

(٣) أسمجهم : أقبحهم .

(٤) فلق : شق .

(٥) ترهاتهم : أباطيلهم .

(٦) شحيم : كتاب صلوات كبير الحجم .

ودقّت الساعة الثانية وصاحبي لم ينته من قراءة تحليل نفسيّ من قصة فتاة هجرها صاحبها وأحبّ غيرها .

قال صاحبي : انهـــا كانت تفكر في مصيرها وخيبة آمالها . أما أنا فكنت أفكر بالأكلة العبقرية التي وعدني بهـا . لم أسمع قعقعة صحون ولا وسوسة[1] ملاعق، ولم أشم غير رائحة أدبه ... فادركت اني وقعت في الشرك ، وتذكرت المثل القائل : « ان الشقي وافد البراجم » .

وانتهت القراءة وجاء دور التعليق فاخذ يدلني على مواضع الحسن . فيئست من حديث كليل[2] ابن الفارض ، وأخذت أتحيّن الفرصة للفرار وهو يسدّ عليّ الدروب ، ولا يدع لي مجالاً .

وشاء القدر فسعل وانقطع سيل كلامه الجارف فوقفت ، فأخـــذ يسعل ويومىء اليّ : أن اقعد ، فحييت وانصرفت لا أسمع نداء ولا ألتفت ورائي .

وبعد عامين قرع صاحبنا باب غرفتي ، وكان بطني ماشياً في ذلك النهار ، فدخل عليّ الساعة الثامنة وأخذ ينزع من كنانته[3] الحجّاجية سهماً اثر سهم ويصوبها إليّ ، زاعماً انهـــا فتح جديد في الأدب العربي ،

---

(١) وسوس : صوّت .

(٢) كناية عن الطول الممل .

(٣) الكنانة : جعبة يضع فيها الصائد سهامه . والكنانة الحجاجية نسبة الى الحجاج بن يوسف الثقفي وقد قال في خطبته من أهل الكوفة : ان أمير المؤمنين قد نثر كنانته بين يديه .

وانه قرأها على أية العواصم فقرّظوها وأثنوا عليها . وأراني خط كل واحد منهم، وفي نيته أن يظفر بشيء مني ، فقلت له وقد شقني: « الأدب ذوق يا صاحبي ، فلو كنت شيخ أدباء العالم ، وهذا ذوقك ، فإنك أفتك من طير أبابيل[1] الرامية بحجارة من سجيل . قم عني يا أخي ، فجسمي مهدود لا يحتمل مسهلين ... كيت وكيت من الأدب والأدباء ، متى كان الأدب حقنة؟... ليتك تحلل نفسيتي بدلاً من تحليل نفسية تلك المستورة، بطلة روايتك . ليتك تدرك هذا فتكتب أروع فصل تحليلي . غفر الله لبورجه وستندال ودوستويفسكي . للطاعون مصل واقٍ ، أما أنت فهيهات أن يقيني منك واق ، ولو هاجرت الى مدينة النحاس والواق واق . ارحمني يا صاحبي ، وخَفْ ربّك، فعندي أولاد عيال[2] عليّ » .

فاخضوضر واحومر ، كما عبّر أصحابنا الرمزيون . ولكنه كان أدهى مني فشنّ عليّ هجوماً معاكساً وسألني كانه لم يسمع ما قلت : « ما قولك في الكلمة ؟ » فاجبته جبراً لخاطره المكسور ، وإصلاحاً لما أفسده الغيظ وارتفاع الضغط من أدبي معه فقلت : « الكلمة ، الكلمة بنت سفر التكوين العجيبة ، وهي أعظم أسرار الله . ان صدرت عن نفس خيّرة كانت نعمة وبركة ، وان قذفها قلب أسود كانت لهباً أزرق يلتهم الناس كالهشيم » .

---

(١) طير جاء ذكرها في القرآن الكريم رمت الجيوش المغيرة على الكعبة بحجارة من نار .

(٢) عيال : عليّ أن أعمل لأعيلهم .

« الكلمة ، يا صاحبي ، أبدعت كل شيء كان . صارت الكلمة فعلا فكان الكون. أما قال الله للكائنات كوني فكانت ؟ ألم يقل يسوع للرياح: اهدئي اسكتي ، فهدأت وسكتت ومشى على الماء ؟ الكلمة وشاح الرسالة والنبوة ودرع القوّاد وعدة الساسة وضالّة[1] الأديب مثلك . بها اقتاد النوابغ البشرية وبها خلدوا ، فاسأل الله أن يقول كلمته ، ويكتب اسمك في سفر الخلود » .

واستأذنتُ بالخروج لاستنشاق الهواء وإفراغ ما في صدري وبطني . كنت لا أدري في تلك الساعة أهو عندي أم أنا عنده . وعدت فإذا بـه يخرج قصيدة من عبّه وأنشدنيها فور دخولي فقلت : لا حول ولا . آخر الدواء الكيّ » . وإذا بصاحبي يستطرد من واحدة الى اخرى ، فعلمت أنه لا يحس إلا بالمسّاس[2] فقلت له : « وماذا تبتغي مني بعد هـذا الاضطهاد والتنكيل ؟ »

قال : أريد رأيك .

فقلت : لا رأي لمن لا يطاع . اقسم لي بشرفك انك تطيعني . ان هذه الرزم التي شنّفت بسوادها آذان أيمة[3] العواصم، كما يعبر الكذّابون، لا تصلح إلا لذلك الموضع وذاك الغرض ... فتش ، يا عزيزي ، عن

---

(١) ضالة : مطلب .

(٢) المساس : قضيب طويل يستخدمه الفلاح في حث ثوريه على العمل أثناء الفلاحة .

(٣) أيمة : جمع إمام .

رزقك ، فالله يرزق من يشاء ـ الضمير يعود الى المسترزق ـ ولئن قطع غيري لسانك بثنائه عليك فأنا أصدقك الخبر وسبني ما شئت . أنت تعتمد على عبارات معلوكة معروكة ، وعلى صور أبدعها الانسان الأولي، وتراها كما يراها غيرك ملاك البلاغة العربيـة . أما انا فأحاربهـا ، وأحفر الخنادق كل يوم لأقبرها فيها أفواجاً . ليس لي رأي في المومياءات ، بل اتقزز ممن ينبشون قبورها ، وأكاد أتقيأ اذا نظرت اليها » .

وبعد شهور حمل إليّ البريد كتاباً ضخماً التام بين دفتيه شمل تلك الوريقات المشؤومة ، وفي طليعتها مقدمة فضفاضة كفساتين راقصات النَـوَر ، كتبها أديب موقّـر فحشاها ألفاظاً ورواسم مالوفة جعل بهـا المؤلّـف من قادة الفكر وأصحاب الفتح المبين ، فأوهمنا أنّـا ما سرينا في ظهور جدودنا إلا لنرى هذا الأديب الكبير ، كما زعم المتنبي لكافور .

فقلت للذين حولي في تلك الساعة : « ما أكثر الدجّـالين ! ان زجاجة عرق من عيار ثلاثين أقل إسكاراً من لقب الأديب الكبير ، ويا ويل الأدب والأدباء من أشباه ابن القارح ! »

مهاجرة

١

فرنسيس ابن بيت توارث مشيخة الصلح[١] منذ نشأة المتصرفية. أحبّ هدلا فزاحمه عليها الكثيرون من شباب القرية، فغلبهم ولم يثبت له في الميدان غير شبان غرباء من أبناء وجوه البلاد، فوجدوا لهم أنصاراً من المقهورين الحانقين، فانشقت الضيعة حزبين. اخذ ابو هدلا حذره فكان يزرب خيول «الساهرين» عند بنته، في القبو ويشك المفتاح في زناره مظهراً نصفه، كأن لسان حاله يقول لأنصار فرنسيس: «المفتاح تحت زناري، فلا تحلموا بجز أذناب الخيل ونواصيها[٢] ...» يفرغ بيته صباحاً ويمتلىء مساء، فللسهرة عند البنات شروط، منها المجيء بعد

(١) مشيخة الصلح: منصب إداري يشغله شيخ صلح.

(٢) جز: قص الصوف او الشعر، والنواصي الشعر المتدلي على غرة الجواد وناصية الشيء مقدمته.

المغرب ، والرواح قبل الفجر ، وعدم النوم في الضيعة لأنه جبن وفزع .

إذا جاء فرنسيس ملأ أنصار مزاحيه البيت ، وكبسوا عليه حتى الفجر . وان جاء راغب آخر اقبل رجال فرنسيس بالعصي والتبابيت[1] ، وخناجر بعضهم الجزينية[2] مشكوكة في الزنانير من وراء ، وفي الناحية المقابلة من الخصر تعلق أكياس التتن[3] المخملية المطرّزة : هدايا الحبيبات الى الأحباب .

كهرب جمال هدلا جو القرية وصارت حديث الناس في بيوتهم ، وفي حقولهم ، وعلى العين ، وقدّام باب الكنيسة صباح الآحاد والأعياد . فهذه واحدة صادرة عن النبع ، وجرّتها على كتفها ، تستوقفها جارتها الواردة لتقول لها : « أمس كان عندها شبّ مثل القمر ، سبحان الخالق يا مرأة ، صورة بورق » .

فتضاحكت أم فنيانس وقالت : « بسّ ، يا أم ضومط ، نسيت قول المثل : زوان بلدك ولا القمح الصليبي . صحيح ان فرنسيس أسمر ، ولكن له هيبة السباع ... »

فقاطعتها قائلة : « قولي أسود ولا تخافي . »

فلم تعر مقاطعتها اهتماماً وقالت : نعم هو ضخم الجثة ولكنه أنعم من الحرير .

---

(١) النبوت : العصي الطويلة ذات الرأس المكوّر .

(٢) الخناجر الجزينية : التي كانت تصنع في جزين .

(٣) التتن : التبغ ، ما كان يوضع به التبغ وكانت تصنع من المخمل المطرز.

فصرخت بها ام ضومط : بسّ ، بسّ ، عين الحب عمياء .

فتحركت ام فنيانس مظهرة الغضب ، فتمسكت ام ضومط بفستانها وقالت لهـا : ما سمعت قول المثل : الذي لا يتغرّب لا ينال غنائم . فرنسيس ابن أكبر بيت ولكنه مكثور عليهم .

فضحكت ام فنيانس قائلة : ومن يدريكِ ، ربما كان الذي حكيت عنه مثل قول المثل : الذي في الصندوق على القفا ملزوق[1] ... لا تهوروا البنت ، حرام عليكم يا بشر . ما لكم دين ؟

فاحتدّت ام ضومط وقالت : شبّ في السوق ولا مال في الصندوق .

وامتدّ الحديث وطال ، والجرّة ترشح[2] ، ففار الماء ، ومشى الى حيث لا تحتمل ام فنيانس فوحوحت[3] وقالت : الطبخة استوت ، الميعاد بعد يومين ، خميس السكارى[4] .

وما مشت خطوات حتى صاحت بأم ضومط : قولي الله يستر .

فأجابتها ام ضومط : السالم لأهله .

وأخيراً أخذ فرنسيس هدلا بعد معركة حمراء أصبحوا يؤرخون بها في الضيعة فيقولون : خلق فلان سنة شر هدلا ، وجاء سيدنا المطران الى الضيعة بعد شر هدلا بسنة ، مثلاً . أما العريس الأسمر فتنعم بزواجه

---

(١) معنى المثل أن الظواهر تنم عن السرائر .

(٢) رشح : ندي بالعرق .

(٣) وحوح : صات بصوت فيه بحح .

(٤) الخميس الذي يسبق الصوم .

وأمسى يزيد عدد أبناء آدم واحـــداً كل عام . ومات أبوه فاستدان الف ذهب ، وصار شيخاً ، فاجتمع له أمران عظيمان في القرية : زوجة « عيـوقة [1] » والمشيخة .

وخرّق في بيته يسهر على كنزه الذي لا يفنى . كان يخبّـر في النهـار مرّات كيف كمم [2] الضيعة وأخذ هدلا ، فصار يقص عليهم أيضاً كيف دعس الرقاب وصار شيخاً. وظلّ ينفق المال ولا يبالي حتى ركبه الدين. وبانت القِلّـة في البيت ، فعبس في وجه أهله وزوّاره .

وكان فرنسيس يتشبث بأطواق عابري السبيل ليعشّيهم ويغدّيهم فسموه مخزّق الثياب ، فصار يحسب ألف حساب لرغيف يكسره في وجه ضيف ما منه مهرب . وعلا عياطه [3] في البيت فردد خصومه قول المثل: القلة تورّث النقار .

ورأت هدلا برودة من زوجها فتساءلت إن كان هناك حب جديد فكان الجواب : لا . فرجلها لا يتردد على بيت أحـــد . من البيت الى الكنيسة ، ومن الكنيسة الى البيت. حقوق المشيخة محفوظة... والتفتت حواليها فما رأت غير نسوان آدميات . وسمعت ما قـال الرب يسوع يوم الأحد : الويل للعـــالم من الشكوك ، والويل لمن تأتي على يده . فصلّت بحرارة طول القداس ، وردّدت بصوت عال سمعته حماتهـا : « يا ربي ،

---

(١) عيوقة : لطيفة الشكل ، لبقة في تصرفها .
(٢) كمم الضيعة : أرغم الضيعة وأتعب أهلها .
(٣) عياطه : صياحه .

لا تجربني . » فقلبت شفتها وهزّت كتفها .

وسرى ميكروب القلة الى الأولاد فهدأوا وصمتوا . وصارت هدلا تكاد تشمئز حين تُنادى : يا شيخة !

ودخل البيت يوماً دائن ملحاح فتجهم وجه فرنسيس . كان يغضب لأقل حركة يأتيها بنوه حتى صفع أصغرهم على هفوة فانطبعت أصابعه الخمس في خده الطري. فاحتجت هدلا على فظاظة ابن عمها بدمعتين قفزتا من وكرهما الفتّان وكرجتا على صحن المرمر . أما فرنسيس فما درى بما فعل لأن وجه غريمه سد عليه الأفق ، كعرّاض السماء في الليلة السوداء .

أمسك فرنسيس قلبه بيده ، يخاف أن يشق غريمه حديث الدين أمام زوجته والأولاد ، فكان يسد الأبواب بلباقة . ولكن الدائن جبار عنيد إن بان له خور[1] في مديونه . وكان واثقاً من مناعة الموقف . وحوّم[2] الزائر الكريم في آفاق المطالبة ، وقبل أن يقع نهض فرنسيس وقال له بنفور : « تفضل الى الأوضة[3] . هناك نحكي بحرية أكثر » .

فأجابه هذا بفتور : هذا سر عن الشيخة والمحروسين ؟

فأهوت يد فرنسيس الى زند غريمه، فاحسّ هذا كأن كمّاشة أطبقت على ذراعه . واقشعرّ فرنسيس وقال : « هــــذا أمر لا يعني غيري . » وأشار صوب الغرفة قائلاً : « قم ، تفضّل . »

---

(١) الخور : الضعف ، الانشقاق والتفسخ في الأرض .

(٢) حوّم : دار .

(٣) الأوضة : الغرفة .

فنهض الدائن متثاقلاً وانشقّ شدقه عن ربع ابتسامة نفذت الى صدر فرنسيس كرصاصة مسدسه المشهور في البلاد.. وكان بين الرجلين حديث طويل التقطت منه هدلا بضع عبارات منها إن القصة قصة دين استدانه زوجها بعد معركة الزواج، واستنتجت أيضاً أن أكثر زوارهم الذين كان يذبح لهم فرنسيس مواشيه هم دائنوه. وأن فتور الحب ناتج عن ضيق اليد. وأمعنت في الملاوصة[1] فسمعت كلمة أميركا تتردد، ولكنها لم تفهم ما يعنيان، فتركتهما وذهبت تعد الغداء. لم يبق في البيت معزى، ولا غنم، ولا ديوك، ولا أرانب، فذبحت الدجاجة البيّاضة العزيزة... يقول المثل: اطعم الفم تستحِ العين، فما يسد بوز الدائن، موقتاً، غير هذا.

وكان الحديث على المائدة طرياً ناعماً، وكانت الوجوه طلقة، وكان الدائن ينظر إلى هدلا كمن عنده سرّ يتردد في إذاعته. رأى أدلّة النجاح الباهر في المهجر متجمعة في ذلك الوجه الحلو، فحلم بالاستيفاء نقداً وعداً، ليرات انكليزية تكرج على حروفها... وكان زوجها جالساً قبالته يبتسم ابتسامة أخرق[2] حتى إذا عاودته الفكرة قطّب وعبس. ثم يذكر انه في موقف لا يجوز فيه التعبيس، فينطلق وجهه كجواد يقف لحظة ثم يجري. فقالت هدلا لزوجها: «في وجهكم حكي». فمغمغ الدائن كلامه وقال: «لا، الأمر بسيط».

---

(١) الملاوصة: استراق السمع والنظر.

(٢) أخرق: لم يحسن عمله، أحمق.

فاجابت هدلا : بلى ، قولوا ما عندكم بسيطاً كان أو مركّباً .

فأجاب الدائن كالمتلعثم : أنت ... عارفة أنتِ ... زوجك ... وسكت .

فاتّسعت حدقتا هدلا منتظرة الحكم ، فقال الرجل : مغلوب . ومغّطها[1] .

فاطرقت هدلا . فقال : أبديتُ له رأياً لا أعرف اذا كنتِ توافقينا عليه .

انتفضت هدلا انتفاضة مستغرب ، وكيف لا تستغرب كلمة « مغلوب » ؟ فهي معتقدة أنها تزوجت ابن روكفلر . وازدحمت في رأسها خواطر أعجز عن تحليلها، ودق قلبها دقات أخافتها. فالتفت الى الرجل تساله بسكوتها الإفصاح عما يريد ، فقال لها : لا يخلّصكم غير أميركا .

فاطرقت المرأة وقالت بصوت ضعيف : أميركا ! إذن صرنا مثل غيرنا .

فقال الدائن : نعم اميركا ، فلان كان مثلكم وخلّصته اميركا ، وفلان عمّر القصور من مال اميركا ، وفلان اشترى الضياع ، وفلان لولا مال اميركا ما صار مدير ناحية وتغدى عنده الباشا ...

فقاطعته المرأة قائلة : وفلانة راح زوجها الى اميركا وانقطع خبره ، وفلان باع بيته المرهون لأن زوجته ما ردّت له « الناولون » ، وأمس جاء خبر فلان وفلان من اميركا .

---

(١) مغطها : مطها وأطالها .

وطال الحديث بين هدلا والرجل ، وزوجها مطرق كانه أخرس أطرش ، فهزته كالمداعبة : ما قولتك انت؟

فتنهّد وقـــال : حيران والله . الفرقة صعبة . لا الصبر هيّـن ولا كيد[1] العدا هيّـن .

فصاحت هدلا : قوّ قلبك ، نشحذ ونعيش ، رجلي ورجلك . أنتم الرجال لا يركن لكم ...

فضحك فرنسيس وقال : روحي انت .

فاصفرّ وجه هدلا كالزعفران[2] .

وبعد أسابيع كتب صك الرهن ، وقبض فرنسيس مبلغاً كبيراً جهّز « الشيخة » الراحلة، وبقي له قسم ينفق منه إلى أن يفرجها المولى، ويرد المال من خلف البحر .

الباخرة تتهيأ وقـــد لمّت مراسيها ، وهدلا تقبض بيسراها على درابزين[3] الباخرة ، وتلوّح بيمناها تلويحات تزداد شدة وعنفاً كلما ازدادت السفينة صفيراً ، وزوجها وأولادها على المرفأ يلوّحون بالمناديل مثلها . وتحركت الباخرة فصرخت هدلا وهوت ، فتلقاها ابن الجيران المسافر أيضاً ، فارتمت فوق صدره وهوى رأسها على كتفه مستنداً الى

---

(١) كيد : قهر ، وأيضاً المكر والخبث .

(٢) الزعفران : نبات أصفر الزهر له أصل كالبصل .

(٣) الدرابزين : قوائم منظمة يعلوها متكأ .

خده ، وثني الشاب يده على خصرها فكانت لها كنطاق[1] .

شاهد ذلك الشيخ فرنسيس فكادت الغيرة تأكل قلبه . انتظر ختام المشهد العنيف فإذا به يمتد ويتطور ويلحّ في استفزازه ...

تمنّى لو تحول السفينة عنه وجهها فيستريح . ولكن السفينة ليست من أبناء ضيعته لتغضي[2] من مهابته،فهي تجري على عينيه وتريه بوضوح كل الحركات الهستيرية المثيرة للشعور .

ولما طال تقلّص هدلا وتمددها بين ذراعي ذلك العتل[3]، زفر الشيخ فرنسيس زفرة تحرق العشب وقال : « اقبض يا فرنسيس ، هذي أول دفعة من مال اميركا ... »

---

(١) نطاق : حزام يوضع على الخصر .

(٢) تغضي : تنظر الى أسفل رهبة أو خشوعاً .

(٣) العتل : الأكول ، الجافي الغليظ .

٢

الفراق مرّ ، وأمرّ منه شماتة الأعداء .

رأى فرنسيس الشماتة على جميع وجوه القرية حتى كاد يراها ممزوجة بشيء من الازدراء في عيون أخلص أصحابه ، فامسى يحسب كل ابتسامة هزءاً بــه . رأى في بنيه ، وخصوصاً بنته ، ذلاً وانكساراً ، فتعاظم اضطرابه ، فطفق يفوه في مجلسه بكلمات متقطعة تُفلِتُ من محابسها عفواً . وشاء أخلص خلصائه أن يهوّن عليه فراق زوجته ، وحاول فرنسيس أن يتجمّل فخانته دموعه .

وتحلحل النـــاس عن مقاعدهم إيذاناً بالانصراف فما استمهلهم ولا استبقاهم . ولما خلا ببيته شرع يطوف فيه كالمجنون ، ينادي بنته فيهتف باسم أمها . ويدرك خطأه فيعبر عن غيظه بصريف أسنانه . كانت مصيبته أشد لو لم تكن بنته تستطيع قضاء حاجات البيت البسيطة .

وهال فرنسيس موقفه الصعب فنام على غيظ عازماً على أن يرق الى هدلا لترجع . وفي الصباح رأى جارته سلطانة منهمكة في تهيئة القهوة والفطور بعدما نظمت ما تشوّش من أثاث البيت ، فاعجبته منها هـذه

المروءة، فشجّعها بالشكر الجزيل، فنظرت اليه بعينين فاترتين[1] مهّدتا الطريق لهدلا ، فزّق فرنسيس البرقية ...

أما هدلا فكانت مضطربة ساهمة ، روّعها البحر وآلمها فراق زوجها وأولادها فما جفّت دموعها . لم يرق لها شيء ممـــا حولها من شخوص وأشياء . «هل يا ترى نرجع الى الأوطان ، ونرى سنديانة الكنيسة وندبك حولها ليلة العيد ؟ »

قالت هذا عفواً وبصوت مسموع . فوضع الجار المتهيىء للملمات[2] ذراعه الجبارة على كتفيها وكادت تطوق عنقها ، فاحست برعشة غير مالوفة ، وأبدت حركة تملّص ، ولكنها لم تتملّص بل أجهشت اليه . وظلّ الجار يحاسنها ويطايبها حتى لانت وأفرخ روعها[3] .

كانت هدلا تحسب بيروت سيدة مدن العالم ، فإذا بهـــا تتضاءل في نظرها أمام مدينة مرسيليا . ولفتت نظرها طيور غريبة متجهة نحو الشط فقالت بسذاجة : « ترى هذه الطيور مهاجرة مثلنا ، وهل الصغيرة منها أولاد لها ؟ »

وكادت تبكي ، فامتدّت ذراع الجار ولكنها ارتدّت هذه المرة. وبعد أيام قضتها هدلا في مرسيليا انفكّت بضع عُقَدٍ من جبينها المقطّب فاصبح منظرها طرياً ليناً مالوفاً ، فحامت حولها العيون .

---

(١) فاترتين : ساكنتين مكسرتي الأجفان .
(٢) الملمات : النوازل الشديدة من نوازل الدنيا .
(٣) أفرخ روعها : اطمأن قلبها .

أرسلت كتاباً حاد العواطف ، ولكن خط الجار العكش وبيانه المبتذل قلّل من روعتها . ولولا بيتُ « عتابا » أرادت هدلا أن يختم بـه الكتاب لكانت الرسالة جوفاء .

ما أن أخذ فرنسيس المكتوب حتى صرخ : « هذا خطه » .

دبّت الغيرة الى قلبه فاحمرّ وجهه وازرقّ ، وأخـذ يتخيل الغرفة التي اختلت بها زوجته بالجار حتى كتبا هذا الكتاب . كان يقف عند كل عبارة ويقول : « كيف تناظرا عندما كتبا إليّ هذه الجملة ؟ » وظلّ يردد مثل هذه العبارات حتى نهاية الكتاب . وأخيراً ألقاه على الطرّاحة[1] الى جانبه وقال : « من يسكر لا يعد الأقداح[2] » . ثم صرخ بجارته : « هاتي قهوة مرة ، مرة حادقة يا سلطانة . » وبينا هو يحسو القهوة كالمفكر ، ويدخن النارجيلة مع المصطبحين عنده ، سمع هتاف صبيان فأصغى ، وتعالى الهتاف : « يا يسوع شدّ طلوع ، شيخ الضيعة مات من الجوع ! »

فزفر زفرة ، وأظهر أنه لا يسمع شيئاً . وأخذ يرفع صوته ليخفي الأغنية عنهم . وأخيراً سكت الصبيان فهدأت أعصاب الشيخ بعد قليل وتنفس كمصاب بضيق الصدر وقد زالت عنه الأزمة .

يقول المثل اللبناني من تزوج بالدّين باع أولاده بالفائدة . الفائدة تُرهب الفلاّح ، والرهن أعظم نكبة تحل به ، فصاحبنا فرنسيس ينظر إلى جارته بعين حامية ولكن تذكُّر البيت المرهون يبردها . يخاف أن

---

(١) الطراحة : الوسادة الصغيرة .

(٢) مثل عامي معناه من رام هدفاً فلن يتشاغل بتعداد عقبات الطريق .

يكتب أولاد الحلال الى زوجته ، كما هي العادة في القرى، فتبرد حرارته، ولا يتمنى على الله إلا توفيق هدلا إلى مبلغ يفك الرهن . فالبيت كما يقول الفلاح اللبناني : أول المقتنى وآخر المبيع . كان على فرنسيس أن يرهن كل ما يملك ما عدا البيت ، ولكن ما بات فات وعلى هدلا المعوّل .

إنها في ميناء نيويورك .

شدهت[1] لرؤية التمثال العظيم ، وراعتها ناطحات السحاب، وظلت تضرب في الولايات المتحدة حتى استقرت في مدينة سنسناتي ، وبعد لبث[2] أشهر فيها ذهبت عنها سيماء[3] القرية : جمال عربي، شعر كالفحم، وعين سوداء مكحلة تذبح ذبحاً ، وابتسامة فيها كل ما خلق ربنا من جاذبية ، تهبط آيات جمالها على القاسية قلوبهم فتلين وتنفتح لها أبواب الخزائن .

عشقها لأول نظرة فتى من أغنى أغنياء بلاد الدولار،فنصب شراكه في دربها ، فوقعت الحمامة في الشبكة ، وتركت « الجار » في بلواه ...

كانت الشبكة مرصّعة بالذهب والألماس فرفلت هدلا بالحرير والديباج، وسكنت بيتاً مفعماً[4] بالرياش الثمينة والرسوم الفنية المغرية المثيرة .

---

(١) شدهت : فتحت فاها دهشة واستغراباً .

(٢) لبث : إقامة .

(٣) سيماء : ملامح .

(٤) مفعماً : ملآن .

صار ذلك العش الادونيسي[1] هيكل عشتروت[2] لبنان يتركه الشاب صباحاً ليأوي اليه مساء ، حيث يتهجّد[3] ويسجد لدميته[4] . فانتقلت هدلا من دار زعامة الضيعة الى دار زعامة شامخة تشد بنيانها ملايين الدولارات .

وفكّرت ليلة بزوجها وبنيها فبكّرت الى البنك فكانت حوالتها عشرين ألف ريال : عشرة آلاف لفك الرهن ، وخمسة آلاف دوطة[5] لبنتها ، وخمسة آلاف لمصروف الشيخ فرنسيس وتعليم الأولاد .

وقبض فرنسيس المبلغ وهو لا يشك بطهارة ذيل بنت عمه ، وكان دائماً يقول للناس : «ما نظرت عيني مرأة أحرص من بنت عمي هدلا».

والتفّ الناس حوله بعدما جفوه ، وعاد الشيخ شيخاً ، ولم يسمع في القرية بعد ذلك : يا يسوع شد طلوع ...

وطال الأمد فأنفق الشيخ المال حتى ما اختصت به بنته على التي حلّت محل زوجته بعد هجرتها . وانتظر الحوالة الثانية فإذا بحرب سنة ١٩١٤ تعلن ، وانسدّت أبواب البحر على لبنان . واشتدّ الضيق، ثم كانت

---

(١) العش الأدونيسي : نسبة الى أدونيس أحد آلهة الأساطير .

(٢) عشتروت : إلهة الجمال عند الفينيقيين وهي تقابل فينوس عند اليونان.

(٣) تهجد : صلى في الليل .

(٤) دميته : التمثال الجميل ، وهنا فتاته الجميلة .

(٥) دوطة : مال او متاع تأخذها العروس معها لعريسها .

المجاعة التي ذهبت بثلث السكان ، فبيع باب البيت برغيف خبز شعير ، ودونم[1] الأرض بإقة طحين . وأكل الناس الفئران، والجرذان، والحمير الميتة . وكُنت ترى البائسين على طرق العربات صفوفاً كالتي تخيّلها الفرزدق حول سماط جدوده ، صفوفاً حول روث الخيل ينقبون منه الحَب الذي لم يهضم .

أما الشيخ فرنسيس فانصرف الى عقاراته الواسعة يستغلها ويفي من ريعها ما بقي من ديون : كل ليرة ذهبية بليرة ورق أو أقل .

وانفتح باب جديد فتسرب مال المهجر عن طريق المطبعة الاميركية، فاصبح اسم المستر دانا والمعلم أسعد خيرالله على كل لسان . ثم انفتح باب آخر عن يد القومندان ترابو . كان يرسل الذهبات عيناً فيستبدلها عمّاله بالورق هرباً ... من المسؤولية . فمات أصحاب المـــال جوعاً ، واغتنى السماسرة الى ولد الولد .

وأخيراً ورد الى فرنسيس مبلغ ألف ريال عن يد المطبعة الأميركية فما فرح به كثيراً . أغنته غلة عقاراته عن هدلا وحوالاتها فكان يقول : « نشكر الله كل ساعة ، زيادة الخير خير » .

وانقطع الحبل بين الزوجين ، كل يعمل في حقله ... ثم سكنت الحرب فورد كتاب من احد أبناء القرية في المهجر يروي خبر اقتران

---

(١) دونم : ما مساحته ألف متر مربع .

هدلا رسمياً برجل أميركي ، فألحّت سلطانة بدورها على الشيخ فرنسيس أن يتزوجها أيضاً رسمياً .

أفهمها أن ذلك مستحيل ، وان وضح زواج هدلا كمين الشمس ، فجفته [1] ولم يطق صبراً ، فنزل أخيراً على إرادتها . وكانت المؤامرة التي ورد على أثرها كتاب الى فرنسيس من المهجر ينبئه بموت زوجته ويعزيه أحرّ تعزية . فتسلح فرنسيس بالرسالة وأقام جنازاً [2] حافلاً جـــداً . وبعد أشهر التمس إجازة زواج من اسقفه [3] فتمّ إكليله باحتفال لم يقلّ أبّهة عن العرس الأول ، مع أنه أرمل . أما بنوه فبكوا امهم ثم نسوها ، ولكنهم لم ينسوا بؤسهم : البنت عنست [4] لأن سمعة أمها ساءت ، ولأن أباها أكل دوطتها فامست كالخادمة لخالتها سلطانة ، وأما إخوتها فهجروا الضيعة بعد اعتداء البكر على أبيه . ورزق فرنسيس غلاماً من سلطانة أحبه جداً .

وبعد سنتين شاع، على اثر وصول البريد، خبر مآله : ان هدلا ستعود من « البلاد » في أول أيلول . فاضطرب فرنسيس ، وارتاعت سلطانة .

---

(١) جفته : أعرضت عنه .

(٢) الجناز : الصلاة على الميت حاضراً وغائباً .

(٣) الأسقف : لقب ديني لرئيس الكهنة .

(٤) العانس : من طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج .

استشارت معلم ذمتها [1] فوجم أيضاً ، ولكنه صدقها الفتوى [2] فقالت : بأي حق ؟

فأجابها الخوري : هذا هو اللاهوت يا بنتي ، ما في اليد حيلة ، السماء والأرض تزولان وحرف من الناموس لا يزول : الزوجة الاولى أحق برجلها .

فقالت المرأة : والأولاد ؟

فتنهد الكاهن وقال : على الله يا بنتي .

فنبشت المرأة شعرها وتفجعت ما شاءت ، ولكن اللاهوت ظلّ لاهوتاً ، ورجعت الى بيتها كالمجنونة .

ورفعت هدلا الدعوى على زوجها فاستغرب ذلك راعي الأبرشية وقال لها : يا بنتي ، أنتِ متّ . لا تموتوا وترجعوا إليّ .

وأثبتت انها لم تمت فسمع الديوان دعواها وحكم ببطلان زواج فرنسيس الثاني ، وقضى بعودة زوجته الاولى اليه .

ولكن القدر فكّاك المشاكل [3] ، فقضت المسكينة نحبها تحت سقف بيت آخر غير بيتها . فأسرع فرنسيس الى حيث ماتت ، واعترف أنـه

---

(١) معلم ذمتها : الخوري الذي يقوم بحلها من خطاياها ويسمع اعترافها .

(٢) صدقها الفتوى : صدق في إسداء النصح والمشورة ، واستخراج الحل لمشكلة عرضتها عليه .

(٣) القدر فكاك المشاكل : الموت يحل الكثير من المعضلات .

خاضع لأحكام الديوان الأسقفي[1] ، بعدما تمرّد ورشق بالحرم الكبير .

قعد للعزاء بلا حياء ، فعظّم الناس أجره وشكر هو سعيهم . ولما دنت ساعة الميراث عثروا على حوالة قيمتها عشرة آلاف ليرة انكليزية أبرق لها وجه فرنسيس. إلا أنه ما عتم أن اسودّ عندما قرأوا على قفاها : وعنّا دفع المبلغ الى ولدينا جميل وأنيس وبنتنا ليلى ، والقيمة وصلتنا نقداً .

(١) الديوان الأسقفي : ديوان المطرانية ، وهو محكمة الأحوال الشخصية ، تقضي في الطلاق والزواج وشؤونها .

نفخ نفخ

منذ ألف وتسعمائة وأربع وأربعين سنة وقعت حوادث قصة الليلة. أما مكانها فبيتُ لحم وضواحيها . كان رعيانٌ يحرسون مواشيهم ، ويتحدثون عن شؤون وطنهم المقهور. مسّهمُ القُرّ[1] فخصرت أيديهم وأرجلهم ، فأوقدوا ناراً قدّام خيمتهم المنصوبة بين بيتِ جالا وبيت لحم . ثم عادوا الى حديث ملكهم المندثر لمـا استدفأوا فعللوا النفس « بانتصار الأسد من سبط يهوذا » .

العهدُ عهدُ هيرودس ، فتذكروا سُخرةَ[2] فرعون ورِقّ سبي[3]

---

(١) مس : أصاب ، والقر : البرد .

(٢) سخرة فرعون : الفترة التي انتقم فيها الفراعنة من العبرانيين بتشغيلهم مجاناً في مصر .

(٣) سبي بابل : مدة ٧٠ سنة من السبي قضاها العبرانيون في بابل على أثر انكسارهم على يد الملك البابلي نبوخذ نصر من سنة ٦٠٧ — ٥٣٧ ق.م.

بابل ، فطفقوا يتمطقون [١] بما في النبوءات من آمال وأمانٍ معسولةٍ عن عودة ملك إسرائيل . فقال أحدهم، واسمه ناثان، مترنماً : « وأنتِ يا بيت لحم ، أرضَ يهوذا ، لستِ الصغيرةَ في الأُمم لأن منك يخرجَ مُدبِّرٌ يرعى شعبي إسرائيل » .

فقال منسّى ضاحكاً : أنبياء بسطاء يرجمون في الغيب ، ويرشُقون في الهواء حجارة طائشة تحارُ فيها النرية .

أحْ ، أحْ ، دبّ للنار بالحطب يا يمّين ؛ الليلةُ باردة جداً . مكتوب علينا الرق لأننا عصينا يهوه [٢] ، ويهوه رب ثاراتٍ وثارات لا يغفر ولا يرحم .

قال هذا وأخذ يوحوح [٣] ويقضقض . ثم أخفى رأسه في لبّادة [٤] كما تختفي البزّاقة في حلزونها [٥] ، فاستدفأ وأخذ ينعس ويهوّم [٦] ، فصاح به ناثان : أوع يا منسّى ، يا تعس شعب يُغفي رجاله حين يتحدثون عن حريتهم ، وعن مصيرهم .

---

(١) يتمطقون : يرددون الكلام كمن يستعذب طعم طعام فيطيل مكثه في فمه قبل بلعه ثم يحاول استعادة الطعم ثانية فيلوك لعابه .
(٢) يهوه : الاسم العلم للاله كما جاء في الكتاب المقدس سفر الخروج ٣:١٥.
(٣) يوحوح : ينفخ بيده من شدة البرد . ويقضقض : يصرف أسنانه .
(٤) لبادة : هنة من صوف تلبس على الرأس .
(٥) البزاقة : احدى الزواحف . والحلزون الصدفة التي تحتمي بها البزاقة .
(٦) يهوم : يستسلم للنوم جالساً فيميل رأسه ذات اليمين وذات الشمال .

أما يمّينُ فاستضحك وانطوى ينفخ النـارَ من صدر كأنه الكور ، والنار تدخن ولا تشتعل . فاصفرّت لحيته المبيضة وكساها الرماد طبقةً رقيقةً فاضحك منظره رفيقيه .

وبينما هم في حال كالتي يكون فيها المرء بين الغافي والواعي إذا برجل طلع عليهم بغتة ، فانشقت أعينهم ، ثم انفتحت عليه متفرّسة ، فإذا بنور عجيب ملأ الوادي وفاضَ على رؤوس القُـلل(١) . وارتخى الفك الأسفل فانشقّ الفم نصف شقة،وأصبحت وجوه الرعيان كالزعفران(٢) . فقال لهم ملاك الرب : « لا تخافوا . ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب : وُلد لكم اليومَ في مدينة داود مخلّص هو المسيح الرب . وهذه لكم العلامة : تجدون طفلاً مقمّطاً مُضطجعاً في منودٍ » .

كان الرعيان الثلاثة يسمعوون مشدوهين ، لا يفهمون ما يُقال لهم لأن عقلهم كان موزّعاً ، كانوا يفكرون بالنور الذي لم يبصروا مثله من قبل ، وبالرجل المنتصب أمامهم . وما اطمأنوا الى المشهد العجيب حتى تلاه أعجب : دهمتهم(٣) طغمات(٤) منظورةٌ وغير منظورةٍ من الجند السماوي ، ظهروا مع الملاك وأنشدوا جميعاً النشيد الوطني الدولي :

---

(١) القلل : أعلى الرأس والجبل .
(٢) الزعفران : نبات أصفر الزهر له أصل كالبصل .
(٣) دهم : اجتاح فجأة .
(٤) طغمات : جماعة أمرهم واحد .

« المجدُ لله في العلا ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرّة » .

وأُسدل الستار وانتهى الترتيل[1] والتهليل[2] ، ورجع سفراء السماء ورسلها أدراجهم ، وظلّ الرعاة مبهوتين مما رأوا وسمعوا . وبعد دقائق معدودات انحلّت عقدة لسان ناتان فقال لرفاقه : يا هو ، بيت لحم على رمية حجر منا فهيّوا بنا اليها لننظر ما خبّرنا به هؤلاء .

فضحك منسّى ولكنه مشى ، وسار يمّين وراءهما متهدّجاً[3] . وما كان أشد تعجّب منسى حين أبصر ثوره وحماره قد سبقاه الى الخان المعلوم . فالتفت ناتان الى منسى التفاتةً كاد يأكله بها وكأنه يقول له : تأمل يا قليل الإيمان ، حمارك سبقك . لقد صحّت بنا كلمة أشعيا القائل: « عرفَ الثور قانيه والحمار معلف صاحبه ، لكن اسرائيل لم يعرف ، وشعبي لم يفهم ... »

وقصّ ناتان حكاية ما رأوا وسمعوا على يوسف النجّار ، وكان يعرفه من الناصرة وقد عمل له نيراً ممتازاً ، فتعجب كل الذين سمعوا مما قاله الرعاة . أما أم يسوع فكانت صامتة تسمع الكلام متفكرة في قلبها . وكان نظر منسى لا يتحول عن ثوره وحماره ، وقد لحظ أنهما يأتيان عملاً كأنهما مندوبان له أو موحى به اليهما .

---

(١) الترتيل : الصلاة الموقعة على الإيقاعات الموسيقية .
(٢) التهليل : صلاة الابتهاج .
(٣) متهدجاً : متلجلجاً في مشيته كالشيخ .

الثور عن يمين ، والحمار عن شمال ، وفواهما في المعلف ينفُخان دائماً ليدفئا الصبي المقرور [1] . كان على وجه الحيوانين سيماء تفكير عميق . فقال الحمار للثور : ما تقول يا سيِّد ، أصحيح أن عهد هـــذا الطفل على الأرض عهــدُ سلام ورجاء ومحبة كما سمعنا من الطيور البشرية الخضراء ؟ من عادة الطيور أن تُنبئنا باشياء وأشياء ، ولكن هـذه الطيور غريبة ، ما رأينا مثلها ولا اختبرناها بعد ، فما قولتك ؟ في النـاس المسرّة ، هـذا أمر مفهوم ، ولكن أنا وأنت لا يهمنا أمر النـاس . يهمنا أمرنا قبل أمر الآخرين ... أن يكون على الأرض سلام صحيح ، فأستريح أنا من الأحمال الثقيلة ، ولذعِ المسلاّت في كتفي ورقبتي ، ومن ضرب العصي على كِفْلي [2] ، وتستريح أنت من أثقال النير الذي يحُزُّ رقبتك ، ومن لذعاتِ المسَّاس الذي صيّـر جلدك كالغربال .

وكان الثور دائباً على التنفيخ والحمار يتدفق في خطابه الاجتماعي ... يتساءل عن خيرات العهد الجديد المرجوّة ، عهد المولود الذي بشّـرت به جنود السماء والملائكة ...

وتعيـب الحمار من خطابه الطويل كأذنيه ، فقال للثور : لماذا لا تقول كلمة ؟

---

(١) المقرور : البارد الذي أصابه البرد .

(٢) الكفل : الردف .

فصاح به الثور : نفّخ نفّخ ، الصبي بردان . انت لا يهمّك إلا بطنك وجلدك . سيعود بمجـــد اسرائيل ، أما سمعت باذنيك الصغيرتين : وبالناس المسرّة ؟

فأقبل الحمـــار ينفخ بحماسة فملأ التبن منخريه فعطس عطسةً مشؤومة ، وعوعَ[1] منها الصبي .

فاخـــذ الثور ينفخ تنفيخاً ناعماً ، فاغفى الطفل الإلهي . ولم يطقِ الحمار سكوتاً فقال للثور : أنت يا أخي في العبودية ، أخذت حِصّتك في زمن مضى ... عبدوك وقدّسوك وطلبوا شفاعتك فنالوا بإيمانهم خيراً جزيلاً على يدك . ولكن أنا المسكين للشطّ واللطّ[2] في كل عهد ...

فضحك الثور وقال للحمار : وكيف كان عهدي عليك ؟

فقال الحمار : أقول لك الصحيح ؟

فأجاب الثور : نعم .

ـ وبكل حرية ؟

ـ نعم .

ـ أمّنّي ، احلف انك لا تنطحني .

---

(١) وعوع : صوّت .

(٢) للشط واللط : للحقير من الأعمال .

ـ حلفت .

فقال الحمار : كان عهدُك أشنع العهود وأبشعها : ضربٌ وقتلٌ وقلّة أكل .

فسدّد الثور نحوه قرنه اليمين ، ثم ذكر الوعد فارعوى وقال : نفّخ نفّخ ، الصبي بردان .

فقال الحمار : وأنا بطني فرغان ... ثم يا صديقي الحميم ، ما عرفتَ ان تنفيخك لهذا الملك الصغير تنازلٌ عن حقوقك الشرعية الإلهية ؟ انتبه ، حافظ على خط الرجعة ... لا تكن مندفعاً ، فقد يكون عهده أسوأ العهود عليّ وعليك .

فسدّد العجل قرنه وتهيأ للنطاح ، فتراجع الحمار قليلاً ، ولما رأى الثور قد عدل رجع ينفخ .

وظلّ في نفسه شيء يدفعه الى الكلام فعاد يقول : أتظن أن شيئاً يتغير في البشر ونرتاح من عبوديتهم ؟ أخاف ان ننتقل من سيّىء الى أسوأ . انت ذقت طعم السيادة طويلاً ، ولكن أنا المسكين ، أنا في كل عهد عبدُ العصا والمسلّة ... جعلني شعراء الناس الذين عبدوك مثلاً للذلة والهوان ...

فصاح به العجل : اسكت يا بهلول ، اشكر ربك . أنت تموتُ حتفَ انفك على الأقل . لا لحمك يؤكل ولا جلدك يسكف . أما أنا فانتظر الساطور كل ساعة ، ولا أدري متى تاتي ساعتي . لا تحلم بالأماني الكبار ، بعدك عنها أوفق .

والتهى الفيلسوفان بالحوار والجدل ، فرجف الصبي في المهد فعجّ العجل قائلا : نفّخ نفّخ ، الصبي بردان . فلندفئه لعلّه يغيّر ما بنا . قد كرهنا قيصر المسوّس الهرم . ولكن الناس ناس في كل الدهور . أنا للحراثـــة والأكل ، وأنت للركوب والنقل ، نفّخ نفخ ، الصبي بردان .

القسم الثالث

أقزام جبابرة

أقاصيص

أبو نعوم فات التسعين بضع خطوات وظل يروح ويجيء. لم تهرهر[1] التسعون جدران بنيته الشامخة. هيكلٌ ضخم، أحكم بنيانه مناخُ قريته الجبلية، فكأنما استعيرت مواده من صخور ضيعته السمراء. حاجبان ثقيلان، ورأس مدوّر أسمر، نحاسي، خربش[2] الزمن حول أنفه الأفطس خطوطاً مزرقّة كأنها الزنجار[3].

ما شانَ[4] ذلك الوجه الصلب في شيخوخة أبي نعوم المباركة إلا

---

(١) هرهر : نثر .

(٢) خربش : خربش الكتاب أو العمل : أفسده وخرابيش الخط مــا فسد منه . وهنا وضع خطوط ملتوية .

(٣) الزنجار : صدأ النحاس .

(٤) شان : عاب .

رمدٌ ربيعي اجتمع أشدّه في السبعين ، فصارت حدقتاه كعيني الوروار. وفي الثانين ارتخى جفناه فانقلبا ظهراً لبطن . أما عقله وجميع حواسه فما أخذت منها الأيام شيئاً : عقل ابن ثلاثين لولا أنـــه يحدث نفسه بصوت عالٍ .

يقعد على صُفّةٍ [1] قرب حائط الكنيسة يتشمس . ان شرّقت الشمس شرّق معها ، وان غرّبت غرّب ، ومتى غابت يغيب في فراشه . وفي هـــذه الجلسات قلما يسكت . يهرف [2] مراجعاً ذكرياته . لم يتعلم ليكتبها ويحصى بين المؤلفين. لذلك كان يحدّث بها نفسه إلقاءً وإيماءً كأنه يكرر دوراً تمثيلياً ليجيد إخراجه على المسرح . وان الليلة ليلة تمثيل الرواية .

تجري على لسانه أقوال حكيمة لو قالها في الأربعين والخمسين لأحصي مع الحكماء الكبار . ولكن الشيخوخة متّهمة [3] ، وان قالت من الأقوال اثقبها . لو نطق في الأمس بما يقوله اليوم لأحصي مع أبي فلان وفلان وفلان ، حكماء الضيعة السعيدي الذكر ...

يقع رفّ [4] دوري على سنديانة الكنيسة فيتهلل أبو نعوم للغط [5]

---

(١) صفة المسجد : مقعد حجري بالقرب منه مظلل .

(٢) هرف : اطرأ في المدح اعجاباً .

(٣) الشيخوخة متهمة : بفساد العقل .

(٤) الرف : الجماعة من الطير أو الماشية .

(٥) لغط : أصوات مبهمة لا تفهم .

تلك العصافير وثرثرتها . قـد تزرق أحياناً عليه فيمسح صدريته باسماً ، ولا يتقزز منها فكأنها من حفدته . واذا غرّد الحسون رجّح رأسه لتلك الموسيقى التي ألفهـا . واذا رأى السنونو تباشر ولوى كتفه كأنه يرمي عنها شباط الثقيل ، وعلّـل نفسه بالعيش الى العـــام المقبل . ثم يلجُ في تحديث نفسه بنبرات عنيفة تارة ، وخفوتٍ طوراً .

وفي يوم من أيام نيسان البسّـامة قعد أبو نعوم على حائط قبالة الكنيسة. لم يستطع استقبال الشمس بعينيه المتهدّلتين [١] فولاّها ظهره . ثم أوغل في ذكرياته وعلا صوته بسردها : حجارة مخرشبة [٢] ، ولكني أراها مثل البدور . كل ثقب من ثقوبها بوز [٣] يحكي وعين تنظر . ما أجمل حديثها وأحلاه ، كأنها تقول لي :

« أبو نعوم . أهلاً وسهلاً . مرحباً يا عشير الصبا ، مرحباً يا ابني الصغير ، أنا ربّـيت جد جد جدك . تحت جناحي تخبّـا في الضيقات والشدائد ، وفي حضني كان يحدّث ربه بكل هدوء وخشوع ، وتحت أرجل منبر اعترافي طرح خطاياه فخرج من بركة التوبة أبيض مثل الثلج. ضمن هذه الحيطان تبارك اكليل جدك الاعلى منذ أجيال ، وأنت واحدة من ثمرات بركتي. وها هم ناموا حولي جميعاً. وها أنا أرعى قبورهم كحارس لا ينام ، وناطور لا يغفل .

---

(١) متهدل : مسترخي وما تهدل من الاغصان تراخى .

(٢) مخرشبة : كثيرة الثقوب .

(٣) بوز : فم .

قم يا ابني، قم قبّـل خدّ بابي الأملس، قبّـله لتحس شفتاك طعم شفاه أجدادك الأقدمين. ان شفاههم الصلبة قـد نعّـمت هـذا الخد فصار مثل الحرير».

وتحلحل أبو نعوم رويداً رويداً. ثم نهض ومشى مشية المقيّـد، وقال بصوت عال: أمرُك يا عيوني!

وتقدم من خدّ الباب فقبّـله وقال: هه! هذي بوسة ثانية، وهذي ثالثة. والتفت بجدار الكنيسة كأنه يسأله: أبوس بعد؟... ثم ترامى على خد الباب وقبّـله قبلات لا تحصى، وقفل راجعاً. رأى جرناً في ساحة الكنيسة فوقف عليه وقال: هـذا جرن الشباب، هـذا أيضاً يقول لي: تذكر، يا بو نعوم، يوم كنت شيخ الشباب، يوم كنت تلعب بهـــذا الجرن [1] لعباً، كنت تقيمه فوق رأسك خمس مرات حتى إذا انتهيت رفعوك على الأيدي.

واقترب من الجرن، وبعـد ألف جهد استطاع تحريكه، فهزّ رأسه وقال: هاتيك أيام وهذي قبالها.

وما استقر حيث كان حتى رأى دودة سارحة على طرف عباءته، فقال لها: هه! من قبر مَنْ طلعتِ؟ ومن جثة مَنْ تغذيت؟ على مهلك. لا تخافي. على كل حال أنت منا وفينا، أنت بنت ضيعتنا.

وفي الغد دقّ قداس الأحد فكان ابو نعوم اول الملبين. قعد يتشمس في مكانه منتظراً ابتداء القداس. جلس وحده. ولكن واحـداً، تعوّد

---

(١) جرن: حجر مقعّر للماء وغيره.

أن يدوّن أخباره في دفتر لتظل تاريخاً للضيعة ، قعد حده فطفق يروي له ما شاهد وما سمع من أخبار امراء لبنان من فخر الدين وآل سيفا الى المير يوسف والمير بشير الجالس سعيداً على كرسي إمارة الجبل .

وأقبل شاب غريب في يده طبر [1] ، وتحت زناره من وراء خنجر جزّيني، ملثّم بكوفية شامية مفتلة الهداب [2] .شاب معتدٌ بنفسه يعرف شاباً وأكثر من الضيعة . فسلموا عليه واحتفوا به .

سال ابو نعوم الشاب القاعد حده : من أين هذا الشب ؟ فأجابه الفتى: غريب .

فقال : أهلاً وسهلاً ، من رأس شفتيه .

وابتدأ القداس فدخلوا الكنيسة جميعاً ، وكان آخرهم ابو نعوم ، فقبع في مكانه المحفوظ حد العِضادة [3] بجنب الباب. رأى، وهو داخل، الطبر معلقاً بمفتاح الباب فهزّ رأسه وعبّس .

وانتهى القداس فكان ابو نعوم أول الخارجين . وأخذ الطبر وقعد على الصُفّة . فاقبل الشاب مسلّماً على الشيخ ، وقال له : أعجبك الطبر يا جدي ؟

فامسكه أبو نعوم بيده المرتجفة وقال له : عندنا مثله كثير يا ابني . تعلّم في المستقبل ان لا تعلق طبرك بمفتاح باب الكنيسة . هــذا خرق

---

(١) الطبر : الفأس من السلاح .

(٢) الهداب : القسم المتدلي من الشيء .

(٣) العضادة : عامود من الحجر يقوم عليه البناء الحجري المعقود .

لحرمة الضيعة . أخذتُه فكّة مشكل ، وإلا كان وقـع الشر . يا أولاد ، هذا من جيراننا وضيفنا . قوموا بواجبه . هذا طبرك يا شب . ثاني مرة خذ حذرك .

وذهب الناس الى بيوتهم ، وراح الشاب مع أصحابه .

وأحبَّ ابو نعوم أن يتمشى في ذلك اليوم المشمس . كان يجدُ لذة في النظر الى حجارة الضيعة ويطلق عليها لقب الأصحاب . كان ينفر من الحيطان المرمّمة ، ويأسف لأنها تغيرت عن عهده .

وبلغ في نزهته برج الضيعة القديم ، فرأى أن حجارة منه قد أُخذتْ فثار وهاج . خبروه أن بطرس ، وجيه الضيعة ، احتـــاج اليها ليكمل مدماكاً في بيته الجديد ، فأخذ يرغي ويزبد كأنما قتل أحد أولاده :

ـ لا كبير ولا صغير . هذه حجارة عاشرت جدودنا وأفضلت عليهم وحمتهم ، لولاها ما بقّى منها المماليك من يخبر . فبدلاً من أن نبني البرج نهدمه ؟ يا خيبتنا تجاه الأجداد !

ومضى يعدد مآثر تلك الحجارة التي اقتُلعت من مكانها كأنه يرثي ولداً له مات في عزّ شبابه :

ـ حجارة دهرية تخبر عن تاريخ جدودنا وأعمالهم . هي وحدها تربطنا بضيعتنا وبلادنا . أنطمع بها ، وتنقلها من وطنها ؟ اؤكد لكم أنها توجعت . والله العظيم انها حزنت لما فارقت أخواتها بعد ما عاشت معهم مئات السنين . قولوا للشيخ يردها مثلما كانت ، وإلا فإنها تنتقم منه ومن الضيعة ...

وقعد على حائط البرج يبكي . ثم تناسى المصيبة فطفق يحدّث نفسه بصوت عال :

« هذا البرج حمى الضيعة مرات . هــــذا أخو الكنيسة في الساعات السود . كيف يأخذ منه واحـد حجراً ، وفي الضيعة حجارة مرمية على الطرقات ، والمقلع على رمية حجر من بيته ؟ أي معنى يبقى للضيعة إذا راح البرج ؟ في كل حجر من حجاره وجه جد من جدودي . آه ، كلما تغير حيط من حيطان الضيعة أحسّ كأني فارقت واحداً من عشرائي !

« يا مرين ، يا مرين ، هاتي لي اتغدا يا جدي » .

ولما تيقن أنها سمعت قال لنفسه: أريد أن آكل بين أصحابي وأحبائي.

ثم أخذ يمر يده بحنو على وجه حجر أمثلَ في البرج كأنه يداعب جداً محبوباً . وألقى نظرة على الجبال القائمة حوله ، فخال أنـه أحاط نظراً بالمسكونة كلها ، فقال : ما أجملك يا بلادنا وما أحلاك !

وسأل نفسه كعادته : قولتكم هاتيك الدني حلوه مثل هذي الدني . من يدريك ؟ سلمها ربانية يا بو نعوم .

وفيما هو في هـــذه النجوى ، جاء بضعة كهول ليقفوا على رأيه . الطاعون تفشى في البلاد وظهر في القرى المجاورة فماذا يعملون ؟

فصلّب أبو نعوم يده على وجهه وقال : الله يرد البلية عن الضيعة . زنّروا الكنيسة .

فاستغربوا كلمته ، فافهمهم كيف. فطافوا على بيوت الضيعة واحداً واحداً. وعاد ابو نعوم بعد ما تغدى الى مجلسه على الصُفة عند الكنيسة.

وجاؤوا بالحوائج التي يعملون منها زناراً: من هنا ملاءة، ومن هناك كوفية ، ومن عند هــذا ملحفة . وجمعوا كثيراً من الحرير غير المفصل والمخيط ، من حياكة نساء الضيعة وبناتها .

وحلّ أبو نعوم كمره عن وسطه ودفعه اليهم ، فقالوا له : تعطينا زنارك ! اتركه . أخذنا من بيتك .

فصاح بهم : خذوا بدني أيضاً . بدني من ضيعتي ولها .

وبعد تزنير الكنيسة أمر ابو نعوم ان يحرسوا مدخل القرية،ويمنعوا الغرباء من دخولها .

ولما أمنوا شر الطاعون فكوا الزنار . فكان على من يريد استرجاع حاجته أن يدفع فكاكاً ، وإذا تركت تباع بالمزاد وثمنها للكنيسة .

وردوا على الشيخ كمره ، فقــال لهم : فكاكه فيه . نذرته دفع بلاء عن الضيعة .

كان في كمره خمس ذهبات ادخرها ليومه الأسود، ولكن الضيعة وفته حقه حين مات ، فجهزوه من مال الوقف ، ودفنوه في الكنيسة تقديراً لإخلاصه .

السنبلة تعطيك صورة ست الاخوة ، فهي مثلها استواء قامة وانحناء رأس، تزدحم في وجهها المعاني الطريفة: فالعينان كالماويتين[1] تجول فيهما عذوبة مرحة ، وتستقر في أعماقها أحلام قصية ، والأنف كأنه اصبع الارادة العنيفة يملي ولا محيص[2] ، ولولا ما في فمها وعينيها من وداعة ، لكانت أصدق تمثال للعناد، في خديها نونتان[3] تتحدثان عن أنوثتها المثالية كلما ابتسمت ، ذات منطق فعّال ، يوقظ ما في صوتها من غنة[4] كوامن النفس، وإذا صمتت انبرى جمالها يصدق قول الحكماء: السكوت من ذهب.

سمّوها ست الاخوة لأنها أخت سبعة . كان لها عمة تدللها وترعاها

---

(١) الماوية : المرآة .
(٢) محيص : محيد ، مهرب .
(٣) نونة : نقرة .
(٤) غنة : صوت من الأنف .

بمقامهم جميعاً ، وكلما خطرت أمامها رافقتها بنظرة كلها محبة وقالت : سبحان الخالق ، كأنها أنا !

وبلغت ست الاخوة أجلها فتهافت الشباب عليها ، وقعد لهم ذوو قرابتها بالمرصاد : فقد جرت العادة على أن يكون أمر البنت شورى بينهم ... تالب عليها بنو عمها ، واخوتها ، وأعمامها ، وأخوالها ، وأمها العنيدة ، حتى والدها المفلوج ، ليزوجوها شاباً دميماً [1] ، ولكنه منسوب العم والخال ، كثير المال ... كان لكل منهم مارب إلا أمها التي ذاقت طعم القلة فتمنت البحبوحة لبنتها ، بعد ما علّمها الدهر أن الحب ماض والثروة باقية .

وبعد طوفان من النصائح الثمينة ، قالت الأم لبنتها تسهيلاً لأمر هذا الزواج ، وفكاً لهذه المشكلة : عوّدي نفسك عليه .

فضحكت ست الاخوة وقالت : أهو أكلة يا أمي ؟

فأجابتها : أي نعم ، كل شيء عادة .

وجرّبت ذلك ست الاخوة فوجدت مرشح أهلها قريباً أكره منه بعيداً .

أما عمتها التي تحبها فكانت تنفض طوقها كلما استشارتها وتجيبها : انت حرة . من يغصبك عليه ؟

ولما أطبقت الكاشة فكيها على ست الاخوة كانت تقف عمتها ست البيت حيالها ، وتهم بالكلام ثم تنثني . وكثيراً ما كانت تدنو منها فتضع

---

(١) دميم : حقير ، قبيح المظهر .

يدها على كتفها ، وترفع حاجبيها وتكاد تنطق ، ثم تعدل ولا تقول شيئاً. وإذا كانت ست الاخوة قاعدة وضعت عمتها يديها على خصرها وانحنت نحوها ، ثم تستوي ولا تقول شيئاً .

فقالت لها ست الاخوة يوماً : احكي يا عمتي،لا تبلعي كلامك . ولكن العمة انقلبت وهي تقول : ماش [1] ، ماش .

فقالت البنت لنفسها : حيرتني عمتي يا بشر !

وتذكرت يوماً كلمة كان يرددها أبوها كلما اغتاظ من عمتها : قصتها لا تنتهي إلا في القبر . فراحت تبحث عن تلك القصة .

ان المعضلات [2] كالانشوطة [3] ، فبينا تراها معقدة إذا بها تنحل بغتة . فقالت ست الاخوة : عمتي ! عملتِ أحسن عمل واسترحتِ من هموم الدني .

فتجهم وجه العمة وقالت : هذي إرادة الله فيّـهْ ، تعب ساعة ولا كل ساعة . الله ساعد .

فاستنجدت ست الاخوة بما عندها من دلال وغنج وقالت لعمتها : الله ، الله قال لك ابقي عزبة يا عمتي !

فضحكت ست البيت وقالت : ليتك تقبريني ما أحلاك ! ذكرتيني

---

(١) ماش : لا شيء .
(٢) المعضلات : الامور المشكلة ، الضيقة المخارج .
(٣) الانشوطة : العقدة التي يسهل حلها .

أيام عزّي . لا ، يا حبيبتي ، الله ما قال لي لا تتزوجي ، ولكن النـاس . كل البلاء من الناس .

ـ لا تضحكي عليّ ... كيف؟ بحياتك فهميني. الفخ منصوب قدامي.

فسكتت العمة وحدقت الى بنت أخيها ، فكادت أسرارها تنهض من أثلام وجهها . وفتحت فمها لتقول شيئاً ، ولكنها أطبقته . فغمرتهـا البنت بالقبل . فأبعدتها عنها بلطف ، وقالت لهـا ، وعيناها تتغرغران بالدموع : قومي ، روحي نزور القربان [1] ونرجع .

وهناك في ظل الكنيسة العتيقة التي كانت هيكلاً لأدونيس،منذ ألفي سنة ، وقفت ست البيت واتسعت حدقتاها فبدت كنبيّ يُوحى اليه ، فضربت كفها على خد باب الهيكل وقالت بلهجة جندي يتحدث عن معركة ربحهـا هو : « لو كان لهذا الحيط لسان حكي وشهد . قصتي قصة عظيمة يا بنتي ، كل من عرفوها صاروا في ديار البلى [2] . ما بقي منهم إلا واحد لا غير ، هو أبوك . قصتي مثل قصتك تماماً يا حبيبتي .

« سمعتِ قول المثل : عروس في الاكليل لا تعرف لمن تصير ؟ أنا صدقته بالفعل . اسمعي الخبر : كنت أحبه من كل قلبي : صدقيني اذا قلت لك : حبه معشش في عظامي . شبّ مثل السبع، طلعة أسد، ولفتة نمر . ما خلّوني آخذه. قطعوا «التحليلة» [3] ليزوجوني غيره . وعيّنوا

---

(١) القربان : مكان صغير في الكنيسة يحفظ فيه الخبز المكرس .

(٢) ديار البلى : الفناء ، الموت .

(٣) التحليلة : الاذن بالزواج من مرجع ديني .

الوقت يوم الخميس في جمعة المرفع[1] . تواجهنا قبل الاكليل بيوم ، فضربت صدري وقلت له : أنا لك .

« فتعجب المسكين وقال : والتحليلة ؟

« فقلت : لها حلة .

« وقعدنا نتفق على خطة... فجنّ المسكين ، وسقط على يدي، فقلت له : اقعد بعيداً . ما لك حق. وحق القربان الطاهر، ما سمحت له ببوس ذيل فسطان عمتك » .

فقالت ست الاخوة : بحياتك يا عمتي ، سمي لي اياه .

فضحكت وقالت : اسمه مثل اسم صاحبك : مخايل .

فشهقت ست الاخوة وضربت كفيها على ركبتيها . فقالت العمة : اسمعي : اتفقنا على خطة ما عملتها مرأة قبل عمتك الحقيرة بعيونكم .

ـ لا يا عمتي ، حاشا قدرك[2] .

ـ بلى ، يا عيون عمتك ، كل ابن عصر يستصغر من كان قبله .

وسكتت ست البيت هنيهة حسبتها بنت أخيها ساعة ، وتعلقت عيناها بوجه عمتها فتصورتها بنت ثلاثين . انبثق في وجهها نور جديد كان أشد وضوحاً في عينيها . لم تشأ البنت أن تقطع صمت عمتها .

---

(١) المرفع : أيام معلومة تتقدم الصوم عند المسيحيين وهو الزمن الذي ترفع فيه بعض المأكولات أي ينقطع عنها المسيحيون ولا يعودون اليها إلا بعد عيد الفصح .

(٢) حاشا قدرك : كلمة يستعملها المتحدث اللبق بعدما يهين رفعاً لقدر السامع عما ذكر .

كانت ست البيت مكركمة [١] في ثيابها ككل عجوز في شباط، ولكن ست الاخوة خالتها غصنَ بانٍ . ولما لم تستطع صبراً قالت لها : وماذا صار يا عمتي ؟

فهمهمت [٢] العجوز : ثم تنهدت وقالت : « برزوا [٣] عمتك برزة ما لها مثيل . وعمتك كانت ست زمانها . وطلعنا من البيت بين حداء [٤] الشباب ، وزغاريد [٥] النساء . ووقفنا في صحن الكنيسة . جماهير . كانت الكنيسة محشوة مثل الرمانة . وبدأ الخوري يكلل . وتعجب الناس من وجود مخايل فشكروه .

وقرأ الشماس « الرسائل » [٦] : يا أيتها النساء ! اخضعن لأزواجكن كما لربنا لأن الرجل رأس المرأة . فاصفرّ وجه مخايل ، فغمزته فاشتد حيله [٧] .

« وتابع الشماس : لأن الرجل رأس المرأة ، كما أن المسيح رأس الكنيسة. وكما أن الكنيسة تخضع للمسيح،هكذا فلتخضع النساء لأزواجهن في كل شي .

---

(١) مكركمة : مكومة .

(٢) همهمت : تكلمت بكلام غير مفهوم .

(٣) برزوا : ألبسوا لباس الاكليل .

(٤) حداء : أهازيج الأفراح والمواسم .

(٥) زغاريد : غناء النساء في الأفراح .

(٦) الرسائل : اسم لكتاب جمعت فيه أقوال رسل المسيح .

(٧) حيله : قوته .

« وبعد « البولص »[1] قرأ الخوري الانجيل : ذكراً وأنثى خلقهما ، لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ، ويكونان كلاهما جسداً واحداً . فما جمعه الله لا يفرّقه الانسان .

« وأخذ الخوري يوجه إليّ النصائح ، فقال كما سمعت عدة مرات في الاكليل : وأنتِ أيتها العروس المباركة قد سمعت ما قلته لزوجك .

« فصار مخايل يخضرّ ويصفرّ ويزرقّ مثل جمل اليهود[2] ، فغمزته فتنشط . وأتمّ الخوري : فالوصية لكما معاً ، فعليك أن تكوني خاضعة لزوجك كما للرب ، ومطيعة له في كل شيء ما عدا الخطية . قدمي له كل كرامة ومحبــة ، واخدميه في جميع لوازمه . كوني وديعة ، فاضلة ، عفيفة، حسنة الأخلاق كالنساء التقيّـات، فالمرأة العاقلة خير من الجوهرة الثمينة » .

فضحكت البنت حين سمعت عمتها تروي كل ما جاء في رتبة[3] تكليل العرسان عن ظهر قلب ، وقالت لعمتها : حفظتِ كل هـذا ! الخوري العتيق بالكد يعرفه .

فأعجب العمة هـذا الثناء وقالت لبنت أخيها : عمتك بنت أخوية .

---

(١) البولص : فصل من كتاب كنسي .

(٢) جمل اليهود : حيوان يشبه الحرضون يتلون بلون الموضع الذي يعيش فيه .

(٣) : رتبة : مجموعة صلوات وقراءات وأناشيد دينية مرتبة لإقامة احتفال ديني معين .

كانت ريسة . لا أحد غيرها من بنات الضيعة كان يقرأ ويكتب . صوت حلو ، وتلحين ملائكي يسكت الخوري والشامسة .

ثم استأنفت الحديث بقولها : لا تضيعيني ، خليني اكمل لك قصتي :

« وجدّ الجد فقال الخوري للعريس : أيها الابن الحبيب لاوندس ، أتريد أمة [1] الله ، ست البيت هذه ، الواقفة هنا ، زوجة لك ؟ فكان لاوندس أرشق من النسيم وجاوب : نعم ، نعم ، يا معلمي .

« والتفت إليّ الخوري وقـــال : وأنت أيتها الابنة المؤمنة ، ست البيت ، أتريدين عبدالله لاوندس هذا ، الواقف هنا ، زوجاً لك ؟

« فما جاوبت .

« قال البعض : مستحية ، مستحية .

« وقال غيرهم : قالت نعم . كلل يا محترم .

« فقال الخوري : ما سمعت . وأعاد السؤال .

« فاجبته : لا ، يا بونا .

« فطلع صوت من خلفي يقول : البنت صندوق مقفول [2] . هذي ما صارت ،

« وماجت الخليقة . وكل من معه كلمة قالها . هذا يقول لي : عيب . وهذا يقول : لا تخيبينا ، يا ست البيت . وأنا مصرة لا أقبل .

---

(١) أمة : خادمة .

(٢) البنت صندوق مقفول : شبهت بصندوق مقفول لا يدرى ما يحويه (مثل لبناني) .

« فقال الخوري : وأخيراً يا بنتي ؟

« فجاوبته : الأخير مثل الأول .

« وهمّ الخوري بقلع البطرشيل [1] ، فقال عمي : امهل يا بونا [2] ، أنا أقنعها .

« فطار صوابي إذ ذاك وقلت للخوري : اشهد يا محترم ، أخذت مخايل بطرس زوجاً لي .

« وصرخ مخايل من بين النـــاس : اشهد يا بونا ، أخذت ست البيت زوجة لي .

« وحمي الشر يا بنتي ، وجرى الدم ...

« انقسمت العرب عربين [3] . ما بقي على المذبح شموع وشماعدين . كسروا العكاكيز . ضرب بالكتب ، بالمباخر ، بحُقّ البخور [4] . ما سلم إلا « الكاس » .

« مسكين هناك الخوري ، كان روح قدس ! فشل ، ورقصت لحيته على الحبل .

ـ وأنت ايش عملت ؟

---

(١) البطرشيل : وشاح كنسي يلبسه الكاهن في عنقـــه لدى قيامه بالاحتفالات الطقسية .

(٢) بونا : لقب الكاهن .

(٣) انقسمت العرب عربين : أي انقسم أهل البيت فريقين .

(٤) حق البخور : وعاء نحاسي يوضع فيه البخور .

ـ أنا ايش عملت ؟ كنت حاطة روحي على كفي .

ـ والزواج ؟

ـ ثبت يا بنتي ، ولكنهم « حرمونا »[1] مدة ، فخرّقت في البيت .

ـ وأخيراً .

ـ وأخيراً ، الكنيسة حليمة ، حلّوا الحرم ، وسبقني مخايل الى أميركا كما اتفقنا . وهناك مرض المسكين بالحمى ومات ، ورجعت عمتك من مرسيليا .

« سمعتِ قصة عمتك يا بنتي ؟ هذي هي » .

فقالت ست الاخوة: اذن « اشهد يا بونا » تغني عن صلاة الاكليل[2] .

ـ معلوم . معلوم . كان « الصلاة الفرنجية » معمولة لحفظ حرية البنت الضعيفة .

ـ وإذا كان العمل جائزاً وصحيحاً ، فلماذا حرموكم؟

ـ الزواج صحيح ولكنه غير جائز ، وقلما يحدث ، ويعدّ تمرداً على ما رسمته أمنا الكنيسة المقدسة . ولهذا ما استصوب الناس عملي . ولكن أنا رأيته أحسن من تركيب القرون ... مسالة الحب طبيعة لا تتطلب فلسفة ، والضعيفة فيها بطل ، فكيف إذا كانت جبّارة مثل عمتك ؟

---

(١) الحرم : قرار يصدره مرجع ديني كبير يمنع من يرمي بـه من الاشتراك في الصلوات والمراسم والحقوق الدينية أي الفصل عن الكنيسة .

(٢) صلاة الاكليل : مراسم الزواج .

« المسيح أقام العازار من الموت لأنه كان يحبه ، فكيف أقبر قلبي الى الأبد ؟ لي فرد قلب .

« سمعتِ قول المثل : ظلمك خوريك ، لا تصدقي . لا الدين ولا الخوري ولا الشرائع تظلم . الحق كله على الأهل ، وعلى البنت الجبانة .

« قولي : لا ، واستريحي طول العمر . الناموس ضروري ، وإلا صارت الناس مثل البهائم ، ولكن الناموس لا يجبر النـاس . ايش معنى قولهم : بسمت الله ورسوله ؟ أي بناموس الله . وإذا تعدى النـــاس على الناموس فالحق عليهم .

« صدقيني ، إذا قلت لك : لا تمر جمعة حتى أبصره في نومي . وهذي أكبر تعزية » .

فتبسمت ست الاخوة . فقالت لهـا عمتها : اضحكي . صدقيني اذا قلت لك : كلما قلت فعل الإعتراف ووصلت الى قولي « مار مخايل وجبرايل » ، يقشعر شعر بدني ، وأهتز من كعب رجلي الى قرص مخي [١] .

« مسكين مخايل ! لا تضحكي يا بنتي ، الحب المتين لا يموت ، وكل فرس لها خيّـال .

« قومي نرجع . اكتمي السر ودبّـري أموركِ . البنت من طبعها الحياء . قوّي قلبك وكبّـري راسك . لا تنساقي مثل النعجة ... خلاصك في يدك يا اسرائيل » .

---

(١) مخي : رأسي .

ولما اشتد الضغط على ست الاخوة دخلت على أبيها الذي ما عاق دفنه إلا بقية نفس تتردد بين الجلد والعظم . وهناك صرّحت لوالدها بما في نفسها .

فالقى عليها والدها نظرة يأس ، ثم اصطكت أسنانه ، وقال بصوت كأنه آتٍ من بعيد :

ـ البنات من صدور العمات . روحي يا بنتي ، الله يستر عليك . نحن في غنى عن « صلاة فرنجية » ثانية ... بيتنا معوّد ...

ميلاد !

ــ الضغط يولد الانفجار . انفجرت يا جماعة .

ثم أخــذ يحدث نفسه عاداً أصابع يده اليسرى : يا ميلاد ، عَشّ البقرة والعجل . ميلاد سرّح [١] العنزات .

ثم قال يقلد صوت امه : ميلاد ، بحياتك ، تملي الجرة . وبعد سكتة كأنها تفكير انتفض وصاح : ما بقي إلا يا ميلاد كنّس البيت ، يا ميلاد

(١) سرح العنزات : أرسلها ترعى .

غسّل الصحون ، يا ميلاد غسل الثياب ، يا ميلاد اعجن ، ويا ميلاد اخبز ... وأين الموت يا هو ؟ ما عندي دقيقة احكّ راسي .

فتضاحكت اخته فروسينا ، فانفجر غضبه وكشر عن نابه متهدداً فتضاحكت وقالت له : الذي يسمعك تحكي يقول انك خوري مرقص غرقان بين كتب اللاهوت والسرياني حتى ينسى غداه وعشاه . هـــذا شغل الفلاحين مثلنا يا عيوني . أنا قاعدة . وأين أمك ؟ وأين أبوك واخوتك ؟ كلهم في الشغل .

وقع هذا الحديث في اذني الوالدة ، فالقت عن كتفها حملة الحطب ، ووقفت تتنصت . ثم دخلت وهي تتكلف الابتسام استرضاء لابنها ميلاد الساخط، فقال حين رآها : جاءت الجنيّة، حرمة ما لها دين، لا تستريح، ولا تخلي أحداً يستريح .

فقالت له بعطف وحنان : ايش قلت يا روحي؟

فاجابها ميلاد بهزء وسخرية : ماشْ يا روح حالك . ما أحلى لسانك وأكثر مطالبك !

ـ بلى ، سمعتك تحكي .

ـ لا بلى ولا ملا . بيت مثل جهنم ، عيشة مقرفة مثل وجوهكم .

قال هذا ومشى ، وهو يطبطب [1] . ومشت امه من على يمينه تداعبه وتراضيه . وظلت تطايبه حتى انفجرت ضحكته المعهودة ، فهدأت قدره الفائرة .

---

(١) يطبطب : يتكلم بكلام غير مفهوم .

ورجعت الام ، وهي تقول في نفسها : الحق معه ، حيـاة كلهـا تعب وشقاء . مسكين ميلاد ، ما رأى يوماً أبيض !

ومرّ في خاطرها فكر عنيف اسودّ له وجهها. وسرعان ما تكشفت تلك الغيمة السوداء حين لاحت جارتها على الطريق ، فرشقتها بالحديث من بعيد : كل الأولاد صاروا مثل ابنك ، يا ام سعيد . البلية كلها من ابن اغناطيوس . قعد يومين في بيروت ورجع أمس ، ومعه أخبــــار يا أم سعيد ! أخباره أشكال وألوان . الاولاد عقلهم قليل . داري ابنك وإلا فالخسارة عليك يا اختي .

فأقبلت أم سعيد على جارتها تستفهم ، فوقفتا على قارعة الطريق . في يد أم سعيد سلّ (١) فيه أشياء، وتلك جرّتها ملآنة على كتفها. دار الحديث نصف ساعة وأكثر . ولو لم يمر « نقّادة الضيعة » الناعي على نسائها هـذه الخصلة، ما انزوت أم سعيد في بيتها، ولا ذهبت حاملة الجرة في طريقها.

أزعجت أخبار حاملة الجرة أم سعيد ، فرقصت شفتاها الضخمتان رقصة هينة . وغلّ (٢) الخبر يديهـا ، فأمست لا تدري ماذا تعمل . تبدأ بعمل ثم تتركه . وظلت كذلك أكثر من ساعة . وأخيراً تذكرت أن الظهر قـد قرب وأن زوجها سيعود ليتغدى . هو لجوج لا يرضى بغير الطبيخ أكلاً ، وخصوصاً الضخم منه . شعاره : لا يحمل الركب غير البطن . فوضعت القدر على النار وشرعت تنقي العدس ، ولكن أخبـار

(١) سل : وعاء من قصب .

(٢) الغل : طوق من حديد أو جلد يحمل في اليد .

جارتها ظلت تشغل عقلها . وبينا هي شاردة الذهن إذا بجارة أخرى تمر ، فصاحت بها ام سعيد ، بعد رد الصباح : تفضلي !

فتفضلت ، ونشر بساط البحث . كان الموضوع ابن الجيران العائد من بيروت، فأقلق القرية الهادئة. وطال الحديث،فنصب ميزان الدينونة. استعرضت المرأتان بيوت الضيعة واحداً واحداً ، ثم قرّ رأيهما على أنها حالة لا تطاق . الكبار راحوا الى أميركا ، والصغار سينزحون الى بيروت ، ولمن تبقى الأرزاق والبيوت ؟

وتنحنح أبو سعيد وسعل ، ففرّت الجارة من الباب الغربي ، ودخل هو من الباب الآخر يشخر وينخر . وقبل أن يصبّح ابتدرته أم سعيد بيعطيك العافية .

فردّ من رأس شفتيه ، وتنهد ، وقعد فملأ الحصيرة . قال : الحمد لله ! فردّت أم سعيد كالعادة : كل ساعة . وبعد أن شرب دورق (١) ماء مسح شاربيه بيده ، وأومأ مستفهماً من زوجته عن تعبيسها ، فقالت : اسكت يا رجل ، أخبار بشعة جداً .

فقهقه أبو سعيد وقال : بحياتك ، قولي لي ، متى كانت أخبارك مليحة ؟ قلت لك ألف مرة لا تحملي السلم بالعرض . وصّي على غير هذا الوجه يا أم سعيد .

فامتعضت ، ولكنها لم تجبه على تهكمه لئلا يقوم القرد (٢) .

---

(١) دورق : ابريق كبير له عروتان ولا بلبلة له (فارسية) .
(٢) كناية : عن الغضب والغيظ والشر .

وبعد محاولات واستعدادات انفتح فمهـــا وقالت : الكلام بيننا .
فقاطعها : لا تقولي الكلام بيننا ، ويكون الكلام بين سيقان الدجاج .

فبهتت وسكتت . فقال : طيّـب ، احكي .

فقالت : ابن جارنا البيروتي لعب بعقل الصبي . حلّى في عينه عيشة بيروت . ربما راح معه .

فقهقه ابو سعيد وصاح : صدّقت يا مجنونة ؟ واذا راح يرجع مثل الكلب . اتركيه يكشف بخته . متى تغرّب يعرف انه عائش بنعمة .

فتطلعت اليه ام سعيد بعينين واسعتين ، فقال لها : كليني بعينيكِ. بومة [1] ! ما عندك إلا بشائر النحس .

فنابت دموع الام عن الكلام . وتأثر ابو سعيد اول مرة في حياته ، فذهب في الكلام مذهباً آخر، وقال لزوجته بوداعة : خلينا نعيش يومين مثل النـاس . نسيتِ قول المثل : قلبي على ابني وقلب ابني على الحجر ؟ الله معك ، قومي غدينا .

فرضيت المسكينة وقامت ، ولكنها تذكرت أن ولدها ميلاد لم يعـد بعد ، فاستمهلت زوجها ريثما يرجع ، فأبى .

وتغدى وعاد إلى عمله ، فالطقس ملائم، وعنده أشياء يجب أن يتمها قبل أن يخرّ المزراب [2] . الجو معكر ، والبرق مشتعل منذ ليال .

---

(١) بومة : طائر ليلي ، شؤم .
(٢) يخر المزراب : كناية عن ابتداء فصل الشتاء .

وفي المساء شاعت الام أن تفاتح ولدها بحديث بيروت ، فقطب ابو سعيد جفنيه الرهيبين ، فارتعدت .

وغدا ميلاد الى بيروت غدوة امرىء القيس . غاب الولد فانتظروا يومين ثلاثة . وأخيرا عرفوا انـه في المدينة . وانقضت جمعة وجمعتان ، وميلاد لم يرجع .

وسرت الوشوشة في الضيعة : ابن ابو سعيد دائر على أبواب الناس ، جوعان عريان ... ولكن الخبر لم يبلغ اذني أبي سعيد الكبيرتين لأنه لا يخالط البشر . لا يؤمن بغير الحقل . وليمت جوعاً مَنْ لا يعبد الأرض . مذهبه : من لا يزرع لا يشبع .

أما ام سعيد فعرفت أخبـار ولدها من حاملة الجرة ، الملقبة بالضيعة « بالبوسطة » لثرثرتها ، فقعدت تبكي . وقبل عيد الميلاد بيومين قالت لزوجها : اسمح لي فتش عن ميلاد . وقبل أن يقول: لا، اندفعت تقول، وعيناها عالقتان بوجهه : بحياتك اسمح لي. كيف يمرُّ عيد الميلاد والصبي غائب عن البيت ؟

فعبس ابو سعيد . فقالت بانكسار : بحياتك ، قل لي : روحي .

ـ روحي ، مع السلامة يا ام سعيد . ولكن خيّـطي فسطانك . له نصف سنة في الصندوق . وكندرتك ؟

فأجابت : الفسطان نخيطه الليلة ، وأستعير كندرة ام حبيب .

فاستضحك وقال : خيطي على مهلك . الفرس ما قلعت التوتة [1] .

(١) الفرس ما قلعت التوتة : (مثل) أي لا استعجال .

بيتربّى أحسن اذا خليناه يعيّد في بيروت .

ـ لا لا لا لا لا .

ـ طيّب ، الحق معك . اركضي ، الحقيه .

وخافت أن يسترد أبو سعيد الاذن فلم تخيط شيئاً. استعارت كل شيء حتى النعال والجوارب وغيرها ... وكانت ليلة عيد الميلاد في بيروت .

لم ينفتح لميلاد باب رزق في بيروت فأمثاله في المدينة مثل الجراد الزحّاف : هذا يُعتّل ، وهذه تشحذ ، وذاك ينشل . أما ميلاد فحاول ذلك كله فاخفق . لم تسد العتالة والشحاذة جوعه ، فذبل حتى كاد ييبس ، وتوسخت ثيابه وتمزقت ، فاصبحت الناس تتقزز منه فيُزجر ليبتعد .

وسمع المسكين أن الناس يحسنون ليلة الميلاد ونهاره فاستعد للمعركة. ولكن ضفادع بطنه كانت تنق ، وسيقانه لا تحمله . تذكر قول والده : التين مسامير الركاب[1] . فتحسر على لعقة[2] تين ، ومشى في السوق كأنه البؤس متجسداً .

رأى شجيرات عيد الميلاد منصوبة عند أبواب المخازن فضحك منها، ولكنها ذكرته تينتهم الشتوية فتأوه . ثم مشى بعين مكسورة يفتش عن الرغيف ، والرغيف دولاب هيهات أن يدركه بائس مهدود مثل ميلاد !

---

(١) التين مسامير الركاب : أي أنه غذاء مقوّ يشد الأرجل .

(٢) لعقة : لحسة .

والتفت فرأى ديوك الحبش مسموطة ومعلقة بمناقيرها فظنها دجاجاً فهتف ، وهو ماش يا بارك الله ! هذا دجاج .

وهاجته وسوسة [1] الملاعق ورنات الكؤوس هنا وهناك ، فتذكر فطور أمه ، يوم عيد الميلاد ، عام أول ، وتنهد وزحف بعزم قاداً ساحة البرج . وأزجت [2] عليه الشمال جامد البرد فوحوح [3] . وتذكر الغارة التي كان يشنها على خابية [4] النبيذ فتحسر على مصة .

ولما أعياه الطواف لطي قرب كاتدرائية مار جرجس، ومدّ يده أول مرة وصرخ : حسنة عنكم يا أجاويد ، دخيلكم . جوعان .

ومرّت النـــاس وما وقف عليه أحد . طرحت له بضعة أنصاف قروش ، ولكنها لا تشتري رغيفاً . وحمي صراخه فازداد عددها قليلاً ، فوضعها في لبادته المزفتة .

كان يصرخ ويحسب ، فإذا معه ثمن رغيفين، فحمد الله . وتذكر الآية الانجيلية القائلة : اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم . فراجعه توجعه وأنينه، وطفق يتحمس ويجدّ في التمسكن حتى استولى على أمد بلاغة هذا الفن، ولكنه لم ينتفع لأن الازدحام على مورد «مغارة الميلاد» كان قد خف.

فحبس ميلاد لسانه ، وشرع يحسب ما في اللبادة [5] حساباً نهائياً ،

---

(١) وسوسة : أصوات . (٢) أزجت : سقطت سقوط الرماح .

(٣) وحوح : نفخ في يده من شدة البرد .

(٤) خابية : وعاء من الفخار يجمع فيه النبيذ .

(٥) اللبادة : هنة (قبعة) من صوف .

فضمن العشاء،وبقي له ما يفك به ريقه ان أصبح. فتوكل على الله ونهض. فما كاد يستوي حتى بطحه أزعر[1] من لداته[2] واختطف القبعة وطار.

فزعق[3] ميلاد زعقة منكرة وهمّ باللحاق به، فدوخه الجوع وسقط كومة في مكانه .

وكانت امرأة تشاهد عن الرصيف الآخر صراع بائسين من صبية الأزقة حول الرغيف ، فرقّ قلبها وحرّكتها الشفقة حتى اندفعت الى حيث الصريخ . مشت وهي تتعثر بأذيال فسطان أطول منها . تكوكي[4] وتخمع[5] كأن حذاءها ضيق ، وقـــد كادت تسقط في حومة الطريق لو لم تتشدد .

وبعد ألف جهد وصلت الى حيث يتكوّم الولد المغلوب ، فوقفت عليه وعيناها تتغرغران بالدموع ، ثم كرجت على خديها حارّة تكاد تحرقها . وبعد هنيهة تأمل، لا يعلم أحد ما وفد فيها من ذكريات على مخيلة تلك المرأة ، رأت نفسها تهتز للاحسان، مندفعة اليه ، على قلة ما في جيبها من مال .

وأخيراً امتدت يدها الى الولد فهزته وقالت له ، وهي بين الوعي واللاوعي : قم يا ابني ، تعال معي ، أنا أعشيك .

فشقّ ميلاد عينيه وصاح : أمي .

---

(١) أزعر : شرس الخلق .　　(٢) لداته : رفاقه .

(٣) زعق : صاح .　　(٤) كوكى : اهتز في مشيته وأسرع .

(٥) خمعت : مشت كأن بها عرجاً .

عرك سياسة القرية وعركته فتوهّم انه بسمرك زمانه او عبدالحميد. ومتى تمطّى بصلبه[1] وقعد يخبرك عن بلائه الحسن في المعارك الانتخابية، تخال انه يضع من يشاء، ويرفع من يشاء. يظن انه يقص عليك أحسن

(١) الصلب: عظم يمتد من الكاهل إلى أسفل الظهر، والكاهل أعلى الظهر.

القصص . فيستمكن من الكرسي ويرفع طربوشه الدهري عن جمجمة كأنما خطت بالبيكار . قلت جمجمة لأن الجزر بلغ أقصاه في ذلك الرأس .

ألقيتُ عليه نظرة بلهاء ، وكدت أتوه في عــالم التأمل لو لم يهزّني بعنف ويهتف بي : أعجبك رأسي ؟ يا ما مرّ على هـذا الرأس من مصائب وبلايا ! ضربات لا تهرّ الشعر فقط ، ولكنها تهدّ الجبال الشامخة . تحب تسمع ؟ سماع اخباراً تشيّب رؤوس الاطفال .

ثم تطاول ونظر بعيداً ، فالتفتُّ لأرى مـا يرى ، فاذا به يقول لي : ما لك ؟ فقلت : لا شيء .

ودعمت رأسي بيديَّ التنتين لأمكن عينيَّ من وجهه الطريف علامة الإصغاء . أمـا هو فاخذ يحكم قعدته ويرتب فناجين القهوة على الطاولة . كان يعبث بها ويلتفت نحوي ، وأنا أنتظر وهو يتهيأ .

وبعـــد دقائق أظنها لا تقلّ عن العشر ، قال : نعم . قلت : نعم . قال : ماذا تريد ؟

قلت ، وقـد كدت أنشقّ من الغيظ : قلتَ لي سماع حتى اخبرك ، وأنا أنتظر منذ ربع ساعة .

قال : اسألني يا صاحبي ، عندي مليون قصة . عمن تريد ان اخبرك؟ تريد أخباراً قديمة أم جديدة ؟ أنا تاريخ من لحم ودم .

قلت : عرفت .

قال : عرفت ... ثم كركر[1] في ضحكته الصاهلة وقـــال : قلت

---

(١) كركر : أعاد مرة بعد اخرى ، وفي الضحك : اغرب .

عرفت ، هذا غلط . حقاً انني لا أعرف ماذا أعرف .

قلت : حديثك غريب اليوم يا خواجا مخّول ، لا أفهم قصدك .

فقال : أشرح لك ، معناتها لا تسأل . يعني بحر له أول ما له آخر .

ولما يئست منه قلت : والآن ماذا تعمل في المدينة ؟ طلقت الضيعة ؟ كلما جئت بيروت أراك في هذي الساحة .

فمدّ نحوي رقبة زهاء فتر[1] ، وقال كأنه يفضي إليّ بسرّ دولي : موعود .

لفظ هذه الكلمة مقطّعة ، مفخّمة . ثم أعاد تلك الرقبة الى نصابها وتثاءب ، فوجدتني تجاه فم كأنه مغارة قاديشا ، تتدلى في سقفه وترتفع من أرضه بقايا أنياب وأضراس ... وكأنه أحسّ كراهية ذلك المنظر فاتقاني بيد أصابعها كالموز ، ثم استرسل في الحديث وقال :

ـ كل هؤلاء الجالسين على الكراسي أعرفهم كما تعرفني وأعرفك . أمس تعشيت عنـــد فلان ، وأكد لي أن غرضي مقضي ، ولولا بعض مشاكل داخلية وخارجية مستعجلة كنت على الكرسي من زمان . كل هؤلاء لولانا ما وصلوا .

فاجبته : ما فهمت .

فتضاحك وقال : بلى فهمت، لا تتجاهل . وصلك مثلما وصل غيرك ما عمله مخول لإنجاح الجمـــاعة . يقولون لي من بعيـد : كيف حالك على الفضل .

---

(١) الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتها .

قلت : طيب ، سلمنا بهذا ، ولكن أية وظيفة تقدر عليها انت ؟

فطفق يفحّ كالصل[1] ، ويتلوى على كرسيه . وبعد همهمة وتمتمة ، قال بغضب : أنا ؟ أنا أي عمل أعمل ؟ كل هؤلاء أولادي ، ما عرفوا من السياسة والادارة ربع ما عرفت . أعرف الاقلام الاربعة[2] بلا غلط . هذي أساس علم الحساب . الوظيفة لا تحتاج الى أكثر . خطي جميل جميل أكثر مما تتصور . كتبت لمعالي الوزير مكتوب تهنئة، ولما التقينا البارحة قال لي : سمعت عن خطك وما صدقت حتى وصلني مكتوبك . هذا خط يـــدك يا مخول بك ؟ فقلت له : وخط من يا سيدي ؟ فقلب شفته وقال : الرجال مخبأة في ثيابها . قليل في الدولة من يخط مثلك .

فعندما سمعت هذه الكلمة ضمنت المركز وتاكدت انني ساعيٌّن في هذين اليومين.

وشرع ينبش محفظة كجراب الكردي وهو يقول لي : هذا مكتوب الوزير ، وهذا كرت المدير . كان يلقي كل ذلك على الطاولة ليريني ما كتب على الظرف . وأخيراً صاح : لقيته ... تفضل ، هذا خطي ...

وبعد استراحة قليلة صاح بي : آه ! لولا تعرف كم تعبت قدامهم وكم ركضت ؟ يشهد عليٌّ ربي ، ما كنت أنام الليل ، اترجّى هذا واراضي هذاك ... الغاية وصّلناهم . وصلوا وما زالوا حافظين الجميل. ما التقيت بواحد منهم إلا بشٌ لي وقال : ننسى حليب أمنا ولا ننسى أفضالك .

---

(١) الصل : الحية الخبيثة جداً .

(٢) الأقلام الأربعة : الجمع والطرح والضرب والقسمة .

قلت : ولكن كل اعتادك على الجداول الأربعة والخط ، وهــذا لا يكفي . أخاف ان تعلق وتخيب . الخيبة مرّة .

فضحك وقال : انت خائف على مخول . انت لا تعرف داعيك . والله ثم والله ، أنا انزع الدبس[1] عن الطحينة . خوفك في غير محله .

ثم أخذ يهز برأسه ويقول : هــذا مخول . انت خائف على مخول . خوفك في غير محله .

قال هذا وهو يحدق الى وجهي كانه يريد أن يا كلني بعينيه. وأخيراً صاح بعد ما لطم الطاولة بجمع يــده : الدنيا وهم يا صاحبي ، لا بدّ من الجرأة . اذا لم تخف من المقام ركبته، وإلا ركبك . والحمد لله تعالى قلبي أشد من الحديد . كثرة الدعاوى صيرتني اعرف « الشريعة » مثل محام كبير ، وتقلب الدول علمني السياسة . لا يهمني شيء بإذن الله ودعاك .

ـ ألا تظن ، يا مخول بك ، أن المركز يضرك مادياً ولا ينفعك ؟ فجنابك ، كما سمعت ، صاحب عقارات واسعة تدرّ عليك أكثر من دخل وظيفة صغيرة تجدُّ وراءها منذ زمان .

فتطاول للفظة بيك،وصفق تصفيقاً حاداً التفت له كل من في القهوة: هات قهوة يا صبي . عجّل علينا .

ثم فتل شاربين معقوفين وقال باستهزاء : من خبرك انها صغيرة ؟ لا، لا يا خواجه بطرس ، أنا موعود بوظيفة أكبر مما تفتكر . غداً تعرف .

---

(١) ينزع الدبس عن الطحينة : مثل يضرب للماهر بكل شيء .

قلت : هبها كبيرة فأنت في بيتك أكبر منها ، والتوتة والزيتونة والعريشة والتينة أكرم من صندوق الحكومة . النـاس يدارونك اليوم وأنت لا تداري أحداً. وغداً متى توظفت تضطر ان تداري من يداريك وتستعطف من يلتمس رضاك لتثبّت مركزك . واذا جرت الرياح بالعكس فهناك المصيبة يا مخول ... يا مخول بيك . الصواب أن لا تقبـل وظيفة .

فامتعض وبان الكدر والغم في وجهه وقـال لي : السر بيننا ، الحق معك،ولكن ينكيني ناس كانوا خدّاماً عند المرحوم جدي واليوم صاروا يأمرون وينهون ، تستقبلهم الناس كأنهم شيء عظيم . بحياتك قل لي ، كيف ابقى في ضيعتي بين فلاحين يصبّحوني ويمسّوني ، وإذا حوّلت ظهري قالوا في قفاي : تأملوا ابن فلان أين صار ، وهـذا غارز كالوتد . هذاك صار شيئاً من لا شيء ، وهـــذا يدلل كل يوم على قطعة أرض ، ويكون سعيداً اذا لقي من يشتري .

ــ ولكن أنت واثق من هذه الوعود ؟

ــ مؤكّـد . وشدّ على الكاف شداً عنيفاً . بهـــذين اليومين ينتهي كل شيء .

قلت : وفقك الله ، هذا ما نتمناه .

وتهيأتُ للنهوض فقال : اقعـــد ، ما انتهينا بعد . إذا احتجت الى شيء في المستقبل فأنا مستعد . تعال صوبي . ما غايتي من الوظيفة ان اعمر بيتي ، غايتي خدمة إخوان وأصحاب مثل فضلك ... ونـكاية بجيراني .

ظنوا اني عاجز عن وظيفـة ، ولذلك حلفت للاولاد يميناً انني لا أرجع الى البيت إلا والمرسوم في عبي .

قلت : ولكن أراك في هذه الساحة منذ سنة وأكثر .

قال : ما سمعت ، قلت لك حلفت ألاّ أعود إلا ظافراً .

وهممت بالنهوض فصرخ : اقعد ، دائماً مستعجل .

فقلت : عليّ قضاء أشغال كثيرة والشمس كادت تغيب . أستأذن .

ـ اذنك معك .

وما خطوت بضع خطوات حتى ناداني وهرول[1] نحوي ، ولفّني بذراع كأنها يد القدر ، وانحنى على اذني يوشوشني ، فابديت أسفي . فقـــال : بسّ بسّ ، خمّنت[2] انك ميسور ، فقلت تقرضني مئة ليرة أردها لك بعد يومين ثلاثة ، بعد التعيين القريب جداً .

ورحت أسعى في قضاء حوائجي ، ثم عدت عند الدغيشة[3] فرأيته قابعاً في مكانه ، ينتظر أوب[4] النـاس الى بيوتهم ليستنجزهم ما وعدوه به ، ولكنه قلما يحظى بالمواجهة ... لا يظفر إلا بهـذا الجواب التقليدي لقارعي الأبواب من أصحاب الحاجات : البيك مـــا رجع ، غائب ، في الجبل ، الافندي مدعو الى حفلة شاي . وهكذا دواليك ...

ومرّت شهور انقطعتُ خلالها عن زيارة بيروت . ولما هبطت اليها

---

(١) هرول : مشى مسرعاً .　　(٢) خمنت : ظننت .

(٣) الدغيشة : الظلام . وهنا انتهاء النهار بعد الغروب بقليل .

(٤) آبَ : رجعَ .

وجدته حيث كان في تلك الزاوية من القهوة ، فضحكت وقلت : كيف الحال يا أخا ساحة البرج ؟

فأجاب فوراً : قال لي اغدُ عليَّ ، انتهى كل شيء .

قلت : ما أطول بالك !

فقال : الصبر مفتاح الفرج . صبرنا ولقينا .

قال هـذا وهو ماشٍ ، ثم التفت إليَّ وقال : لا تؤاخذني ، الآن أجدهم في البيت . هذه الساعة المناسبة ، وإلا أفلتوا من اليد .

وجعلت أتأمله فخلتني رأيته منذ عشر سنوات : أصفر هزيل . ثياب رثة وسخة . اطار طربوشه مسودّ كأنه مصبوغ بفحم القِدر . عيناه غائرتان حتى تخالهما قابعتين في كهف . خفّت خطواته وذهب نشاطه .

ولاح له البيك على الرصيف المناوح فملق يناديه ، والبيك يتغافل ولا يريد أن يسمع . فشمّر[1] مخول للحاق بـه ، فكانت مباراة مضحكة أحرز البيك فيها قصب السبق وصعد الى حافلة الترامـوي.

وأبى مخول الهزيمة وقد كره المواعيد والتهرب ، فصاح : يا سيدنا ، يا بيك ! والبيك يشق طريقه في الحافلة غير حافل .

وتعلق مخول بمتكأ الترامـوي تعلقاً غير محكم ، وكانت محاولة فاشلة . دار دولاب القدر دورته فإذا بمخول يترك احدى رجليه تحت الدواليب.

---

(١) شمر : مرّ مسرعاً أو مختالاً .

عاد بو خطار الى بيته أشعث[1] أغبر، فعلّق بندقيته «بالسكيكة»[2]، ووضع الطبنجة[3] في «الطاقة» الى جانبها، وجعل ما في عبّه، وجيوبه،

---

(١) أشعث: شعر أشعث: مغبرّ متلبّد.

(٢) السكيكة: وتد في الحائط عند الباب يعلق به حوائج القادم إلى البيت.

(٣) الطبنجة: نوع من السلاح على شكل البارودة ولكنه دونها.

وطيات زناره ، على رفّ مصنوع من الحوّارى ، ثم تربع في مقعده عن يمين الموقدة . وجاءت امرأته برسيطا بالابريق والطست فشرع يغسل رأسه ويحكي .

كان يتوقف عن العمل ليطرح عليها الأسئلة . وكثيراً ما يفعل ذلك والصابون يرغي على وجهه . فإذا لذع عينيه أطبقهما وفتحهما وحكى . وطال حديثه فصبت برسيطا المـــاء بلا وعي ، فانتفض وسبّ الدين . وسرعان ما أدرك أنه ارتكب خطيئة مميتة،فطفق يستغفر ربه، وينشف وجهه ويحكي . كان يتمشط ويسأل . يسأل ولا ينتظر جواباً ، حتى اذا جاء دور فتل الشاربين وإقعادهما على طراز دياب ابن غانم كان صمت عميق .

وبعـــد دقائق معدودة التفّت الاسرة حول طاولتها المستديرة (الطبلية) حيث يأتمرون بقتل الطعام. على فخذ كل منهم رغيف كالملاءة المدنّرة . شوكاتهم أيديهم ، وملاعقهم من خبزهم . كان بو خطار لا يأذن بالكلام على الطعام ، فمن يسأل يجب ، وإلا فلينشغل بصحنه لتلتقي الأيدي في وقت واحد حول قصعة التين أو الدبس ، مشاع الاسرة ..

وبعد حمده تعالى على ما أعطى من الخبز ، ينثر بو خطار عليهم نصحه وإرشاده . يصلح أخطاء النهار للزوجة أولاً ، وللعجايا [1] ثانياً . وأخيراً يعود الى أركان حربه ، الى ولديه خطار وشلهوب ، فيرسم لهما

---

(١) العجي : الولد الذي فقد أمه وتربى بلبن غيرها .

خطط المهنة ، منددا بما ارتكبا من من هفوات في بحر النهار ، فيقول لخطار :

« جئته من خلف وكان يجب أن تجيء من قـــدام . قلت له اشلح وانتظرت ، وكان الأوفق أن تبغته ، تضربه ، او تصيح بـه على الأقل صيحة تهتز لها مفاصله » .

« وأنت يا شلهوب ، لو وقفت على المفرق ، كما فهّمتك ، مـا هرب ذاك اللعين . مؤكد ان المال كان معه . لا باس . راحت . خيرها بغيرها. انتبه ثاني مرة » .

« اليوم ما توفقنا يا ام خطار ، السيدة غضبانة علينا ... »

فابتسمت ام خطـــار ابتسامة مقهورة . ثم مرّ بو خطار بشؤون اخرى مرّ الكرام ، وتأوّه وقال : اركعوا حتى نصلي .

وانتصب كانه عمود ذهَبَ ثلثه . ورأى ان ركوع أحـد بنيه غير وافٍ بالمطلوب ، فزجره[1] ، وقامت الصلاة . الأب وولي عهده جوقة ، والأم ولفيف الاسرة جوقة ثانية . وبعـد طلبة السيدة[2] زاد بو خطار على « الفرض »[3] بضع مرات الأبانا والسلام ، صلاّها بحرارة ، راجياً من العذراء التوفيق في الغد .

---

(١) زجره : منعه ونهاه .

(٢) طلبة السيدة : صلاة خاصة تقدم للعذراء مريم .

(٣) الفرض : الفرض من الصلاة ما يقدم يومياً من صلاة .

وزحف توّاً الى فراشه فاستلقى على قفاه ، ثم قال وهو يلتحف : حضّري الزوّادة يا برسيطا . لا تنسي انها لنهار الجمعة ، اسلقي بطاطا . وبعد هنيهة رفع رأسه عن المخدة وقال لها : الشروال مخزوق ، دبريه . والكبران [1] مفتوق . ثم همهم : ان وقعت عليه عيني لأخطفن روحه .

وبعد أن قبع تحت لحافه عاد فكشف عن صلعته الجعدة وقال لابنه: سنّ السكاكين ونظّف القرابينة ، حمّص البارود لئـــلا يصيبنا ما أصابنا اليوم .

فاشارت ام خطار بيدها تستفهم ، فاستمهلها ابنها حتى غفي أبوه ، فقال لها : وقعنا اليوم على اثنين، واحد قشّطناه ، والثاني هرب . الثاني شبّ أخو اخته [2] .

ثم أخرج خاتماً فضياً مكتوباً عليه « يزول » ، فامتعضت برسيطا إذ رأته وقالت : هذا هدية لمحبوبته ، حرام عليكم .

فاوما خطار نحو أبيه وقال : قولي له ، لا تقولي لي أنا . إن قلت له مرة : حرام ، يجن جنونه ويقول : ولد نذل، دائماً تقول : هذا كذا ، وهذاك كذا ، قشطهم والعن جد جدهم .

وبعد قليل هدأ البيت إلا من شخرات بو خطار الطالعة النازلة . وكان يتكلم بلا وعي، فيتهدد هذا ، ويأمر ذاك بالتسليم، ثم يصيح بولده : نبّشه يا خطار .

---

(١) الكبران : ثوب إلى الوسط يلبس فوق الصدرية .

(٢) أخو اخته : كناية عن أنه شديد البأس والقوة .

وأفاق كعادته عند الفجر الكاذب[1] فصلّب[2] مرات، ثم قعد يصلي للعذراء في فراشه . وتطول النجوى أحياناً ، فيعتذر بو خطار اليها عن تقصيره نحوها ، ثم ينذر لها ربع ما توفقه الى سلبه، كان يقدّم لكنيستها زيتًا او شمعداناً او بخوراً او شمعاً ، وإن كان التوفيق عظيماً يعدها بجرس شغل بيت نفاع[3] .

وبعد صلاة ساعة تقريباً يكونون في طريقهم الى مربضهم ، ووراءهم ابنه الصغير حاملاً جراب[4] الزاد .

أما بو خطار فلا يترك مسبحته ، يظل يصلي ، وان حسب انه سها أو غلط بحبة أعادها . يريد حساب الصلاة مقوماً ، خالياً من السهو والغلط ، وإلا فكيف يوفقه مقسّم الأرزاق ؟...

كان يصلي ويفكر بمن يسوقهم اليه القدر ، فدقّ جرس القدّاس ، فصلّب يده على وجهه ، واعتذر الى ربه عن تركه القداس ووعده أن يشترك فيه بالعقل والروح .

وبلغ مكمنه مع الشمس ، فدق جرس « التبشير »[5] ، فحسر[6]

---

(١) الفجر الكاذب : بعد نصف الليل يظهر كوكب مضيء لوقت قصير فيظن البعض انه الفجر ، ثم لا يلبث أن يختفي فيعود الظلام .

(٢) صلّب : أشّر إشارة الصليب على وجهه .

(٣) نفاع : عائلة لبنانية من بلدة بيت شباب اشتهرت بصنع الأجراس .

(٤) الجراب : كيس من الجلد يضع فيه زاده ويتمنطق به ــ أي يشده الى خصره .

(٥) التبشير : صلاة الظهر وهي كناية عن بشارة جبريل للعذراء مريم .

(٦) حسر : كشف .

طربوشه المغربي عن جبهته بعض الشيء ، وركع على البلاطة « يبشّر » هو وولداه . ثم ربضوا كلٌ في مكانه ينتظرون الرزق الحلال الزلال ... وقلب بو خطار يدله على أن العذراء راضية عنه ، وستوفقه ...

وسمع قادماً يغني فاشار الى ولديه فاستعدا . ظل القادم مطمئناً حتى رأى رجلاً في يده مسبحة يصلي فارتاع وفشل . تعجب من نفسه كيف يخاف من رجل يصلي . ولكنه أظهر الجلد وحيّا باحترام عظيم . فقطب بو خطار حاجبيه كالرفراف وحدجه [1] بعين حمراء ناتئة الجنور .

مشى الرجل وعينه على أنف مثل مطفاة الشمع. فأوما اليه بو خطار بالمسبحة أن قف . ولكنه تغافل ومشى . فصاح بــه بو خطار : قف ، لا تجربني . اتركني اكمل صلاتي .

فادرك الرجل أنـه وقع بين يدي بو خطار ، فقال في قلبه : مؤكد هـذا هو .

واستمر بو خطار يصلي والرجل منتظر ، وأخيراً دنا منه مشيراً بأصابعه : هات ما معك .

ــ ما معي شيء ، يا بو خطار .

ــ ما معك شيء يا بو خطار ، هذا حكي . ثم من قــال لك اني بو خطار ؟

ــ شكلك يا عمي .

ــ الله يعمي قلبك . طيّـب ، هات ما معك .

---

(١) حدج : حدّق .

ـ معي عشر مجيديات تدينتها حتى اشتري طحيناً للأولاد .

ـ الله يجبرك ، هاتها .

ـ بحياة العضرا [1] عفّ عني .

فهزّ بو خطار رأسه وأشار بيده ان هات .

وبعد أخذ ورد وتوسل وبكاء ، قاسمه بو خطار المال إكراماً للعذراء مريم . وانصرف الرجل يدمدم [2] راضياً بنصف المصيبة .

أما بو خطار فصلّب بالمجيديات [3] ، ثم زجها في عبه وهو يقول مسترزقاً : استفتاح مبارك من ابن حلال !

وحدّق الى السماء يناجي حبيبته العذراء مريم وقال : لعيون عيونك ما ظلمناه ، عوضي علينا .

وسمع حس ناس يسوقون دواب ، وهم في حديث صاخب عن الأسعار ، عن إقبـــال المواسم ، وعن ... وعن ... فهمس : جاءت الرزقة ، جمهور .

فهيأ خطار بارودته ، وأخذ شلهوب يعرض الطبر [4] ويسدده كأن الضحية أمامه .

---

(١) العضرا : العذراء مريم .

(٢) دمدم : تكلم بكلام غير مفهوم .

(٣) المجيديات : نوع من العملة التركية .

(٤) الطبر : الفأس من السلاح .

كانوا ثلاثة يسوقون دوابهم ، فصرخ بو خطار صرخة كبّرها النهر وضخمها : شباب ، اشلحوا تربحوا .

وكان بين الثلاثة شاب معتد بنفسه، فأجاب بفظاظة وسبّ أمهم... فاطلق عليه خطار بندقيته تهويلاً ، فأجاب هو بالمثل . أما القول الفصل فكان لطبنجة بو خطار ، فخرّ الفتى صريعاً لليدين والجران [1] ، وسلّم رفيقاه ، فسلبوهم كل ما معهم حتى الثياب والزاد .

وقعد بو خطار يحسب ما أصاب في ذلك النهار السعيد ، فكان ثلاثاً وخمسين ذهباً ، وبضعة عشر ريالاً ، وكيساً (ضبوة كبيرة) من البشالك والزهراويات والمتاليك والنحاسات [2] ، فتأفف بو خطار شاكياً ثقلها .

ونظر الى الأسلاب فإذا هي طبر نحاسي منقش، وخنجر،وساطور، وبارودة « مجهرية » ، فقبّل الأرض شاكراً ربه على النعمة وصاح بولديه: بوسوا الأرض يا ناكرين الجميل. ثم قال ضاحكاً: مال وعدة. هذا توفيق.

وأخذ يداعب العذراء ، وعينه على الغنيمة : كثر الله خيرك يا ستي ، الله يطول عمرك . اليوم فرجتِ بو خطار ، لك مني جرس يرنّ له الحادي في الوادي . يا ولاد ، هاتوا الزوّادة . افتحوا جراب الجماعة .

---

(١) الجران : من البعير مقدم العنق وقد جاء في شعر تأبط شراً :
فخرّ صريعاً لليدين وللجران .

(٢) البشالك والزهراويات والمتاليك والنحاسات : نوع من العملة التركية الزهيدة الثمن .

وتربعوا ثلاثتهم على بلاطة في نصف النهر ، وأكلوا بقابلية غريبة بعد تلك المعركة الموفقة. فأخذ الصغير شقفة من قالب جبن كان في جراب المسلوبين ، فضربه بو خطار كفاً على وجهه وقال :

ـ اعتبر يا وحش ، تتزفّـر[1] يوم الجمعـة ! لولا قلة دينهم ما وقعوا بين أيدينا .

(١) الزفر : الانقطاع عن المأكولات اللاحمة يومي الاربعاء والجمعـة من كل اسبوع .

إذا كنت سمعت بالجنائن المعلّقة وتريد أن تراها فهلمّ الى لبنان .
ففي نحور شماريخ الجبال قرى معلقة حقاً ، تبصّ حين تضربها الشمس كأنها عقود المرجان ، ويتلألأ زجاجها في الفضاء كأنه بحيرة الفضة البيضاء سائلة ...

أنوار تموج وتمور[1] فتخالها في صراع ونطاح . بيوت منثورة هنـا ' وهناك تحفُّ بها جنائن غنّـاء تحدث الزنديق بنعمة ربه ، وكرمِ الأرض وسخائها . وحسبه شهادة الطيور الآمنـة ، المسبّحة في كل آنَ من منحها تلك الوكنات المطمئنة .

وإذا عرفتَ طبيعة الأرض أكبرت عزم الفلاح اللبناني ، فقد فتّـت معوله تلك الصخور فاستحالت ترابا .

وإذا رأيت القيـامة تقوم بين أبطال قصتنا اليوم على شبر أرض فلا تتعجب ، فالأرض في لبنان عزيزة وخصوصاً في الجبال . ليس في لبنـان قرى يملكها واحد من الناس ، فالأرض تـكاد تكون موزعة بين اللبنانيين بالقسطاس والميزان ، إذا استثنينا بعض الديورة .

التراب عزيز في هـذا الجبل ، فهو قشرة يكاد يبلغ قعرها المحراث . فإذا رأيت أبا فارس ، الذي نروي لك حكايته يبذل هذه الجهود الجبارة ، فلا تقل ما أتعس القروي اللبناني ! انه يفتش عن حفنـة تراب . لا ، يا سيدي ، انه وإياك بألف خير ، فجنينة ابو فـارس تدرّ له آلاف الليرات من نقد اليوم . وإليك حكاية هذا الاقتصادي العنيف :

السماء تطش[2] والفعلة يزمجرون ويتبختررون في الخنـدق . لا تسمع إلا بب بب بب ، معـــاول تشرئب لتنقض ، سواعد مفتولة فتل شزر[3] ، وأعضد منتفخة تكاد تخرج من الجـلد ، والحاظ تنظر بغيظ

---

(١) تمور : تتحرك كثيراً وبسرعة . (٢) الطش : المطر الخفيف .

(٣) الشزر : الشدة والصعوبة . وغزل شزر أي على غير استواء .

مخلوط بتهديد الى عين الشمس الملتفة بغلالة من الغيم .

كانوا يعملون صاخبين تحت نقط المطر ، وكان لسان حالهم يقول للشمس : تخبي ، وللغيوم : امطري ما شئت ، فلا بد من إتمام نهارنا وقبض الاجرة كاملة . لو جرى هذا الخندق كالنهر ما خرجنا منه قبل الغياب . علينا ان ننقب من الفجر الى النجر[1] ، فلننقب . ليس الانسان طيناً فيذوب.

وهكذا ظلوا يعملون تحت رذاذ المطر. ولو تركوا معاولهم وكفّوا عن عملهم ربع ساعة للحقهم الحسم والحطّ من اجرة يومهم . كلها ربع مجيدي ، فما يبقى إذا امتدّ اليها قلم ابو فارس البارع في الجمع والطرح ؟ له عليهم عادة يعرفونها : اذا كفوا عن العمل قبل المغرب بنصف ساعة شطب قلمه ربع النهار ليكون الحساب مقوّماً لا عوج فيه .

رأى ابو فارس شجرات جاره غضّة ترشح المائيّة من فروعها وجذوعها ، فأدرك انها تسابق شجراته العزيزة على السماد الذي يكدسه في أرضه كل سنة ، فهو لا يستحي أن يلمّه عن الطريق، وإذا عابه أحد هزّ رأسه وقال مبرراً عمله : لو كان الحرامي يفهم ما سرق غير الزبل .

رأى ابو فارس ان يحفر خندقاً على الحدّ ينتفع به من جهات : أولها تقطيع جذور أشجار جاره واستئصالها. وثانيها بناء حائط يصوّن

---

(١) النجر : التسكير ، ومن الفجر الى النجر : (مثل) كانوا فيما مضى يقفلون الباب عند المساء بوضع وتد من الوراء كي لا يفتح من الخارج ، والمثل يعني التأخير بالعمل .

به أرضه لأن جاره لا يراعي شجرات ابي فارس عند الفلاحة ، فكثيراً ما يكسر غصونها حين يحرث أرضه ، ناهيك بانه لا يكمّ [1] فدانه ، فينتش رأس غصن من هنا وورقة من هنالك ... وثالثها حفظ التراب فلا تذهب حبة من عنده الى أرض جاره ، فقد كادت أرضه أن تحفى لأنها منحدرة غير مستوية .

قطع الفعلة جذوراً واهية فور الشروع في العمل ، فتهلل ابو فارس كانه ملك البصرة ... ولما تعمقوا في النقب رأوا مشهداً لم يكن في الحساب : كانوا يحسبون ان الاشجار تعرف التخوم والحدود ، فإذا بظاهر الأرض مقسوم ، أما قلبها فشاع ، تسرح فيه الجذور وليس من يقول لها قفي عندك، هذا حدّك. انها لا تخضع لنواميس الناس وعرفهم.

رأوا الجذور رانحة جائية ، متشابكة متعانقة في قلب الأرض كأنها تقول في نفسها : إن سطح الأرض للناس فليقتتلوا عليه ، أما قلبها فلنا ، نحن الجذور ، نعيش فيه بسلام واطمئنان حتى يفرّقنا هادم اللذات ...

قال كبير الفعلة : اندهوا [2] ابو فارس .

فطار اليهم إذ سمع اسمه . خاف أن تذهب دقيقة ضياعاً . ولعجلته عثر ، ولكنه ما بالى بسقطته ، فهرول وهو يمسح ما علق بذيل شرواله من تراب وزبل ... ثم أدرك أنه رمى الزبل في أرض جاره فانحنى يلمه ورماه في أرضه . كان أمرَهم بقطع الجذور المنسابة من عند جاره ، فلما

---

(١) كمّ : وضع ما يشبه الكمامة لمنع ثيرانه قضم أغصان الشجر .

(٢) اندهوا : نادوا .

رأى جذور أشجاره تسعى في أرض جاره وراء رزقها بهت واحتار . ولكنه اختـــار أهون الشرين فصاح بالفعلة : سلمت أيديكم يا شباب ، استريحوا ، الله يعطيكم الف عافية ، لفّوا سيكارة .

هذي أول مرة يسمعون فيها كلمة سلمت أيديكم، فهو لا يرضيه فاعل مهما جدَّ واجتهد ، وشعاره مع الفعلة : من ياخذ مالي آخذ روحه .

قعد الفعلة باسمين . وفتح ابو فارس كيسه ولفَّ سيكارة . انهـــا لا تُلفّ ، وقت الشغل ، إلا بفرمان يصدره صاحب الورشة ، وكثيراً ما يتقاعس ابو فارس عن اصداره متناسياً ساعة الراحة ... فشكروا للجذور التي اعترضت عملهم فاستصدرت الفرمان [1] ...

تمددوا على التراب كانهم على فراش ناعم،فالمطر العابر لم يبلل الأرض، وأخذوا يتنادون . أما أبو فارس فكان يفكر بماذا يعمل . لقــــد نبش الأساس فهل يطمّه ؟ وأي فائدة جنى ؟ ثم ما نفع حبـــة تراب يحرص عليها ويتكلف ما يتكلف ما دامت الجذور لا تقتسم الأرض كالنـاس ؟ وجرَّته فكرته الى ناحية مجهولة فاضطرب ، ولكنه أخفى اضطرابه . مرّت في خاطره نزوات فلسفية لم يستطع التعبير عنهـا ... وتذكر إذ ذاك جاريه بو طنوس وبو خليل اللذين اختلفا على شبر ارض فاستخفَّ عقلهما .

وفي تلك الدقيقة الخطيرة من تاريخ حياته التفت الى فوق فرأى على عرض الطريق شيخين قاحلين يابسين . كانـــ هذان الشيخان واقفين

---

(١) الفرمان : عهد السلطان للولاة .

ينظران هازئين بعمل أبو فارس الشحيح . ساءهما أن يعييهما الفصل في قضية « الحــد » المستعصية بين بو طنوس وبو خليل ، فشقت الضيعة حزبين .

قال أحد الشيخين : الشر شرارة . كان الخلاف على شبر أرض فصار غرضية وحزبية . انشقوا وشقوا الجوار معهم .

فقال الشيخ الآخر : لا تشغل بالك . تجيء ساعة تنحل القضية فيها من تلقاء نفسها .

وسكتا ليهيئا ما يقولان ، فصاح ابو فارس : بو يوسف ، أهلاً وسهلاً، جئت بوقتك. عمي بطرس تفضل معه . انزلوا . منظر غريب. وتأملوا ما أقل عقلنا نحن البشر .

فاجاب بو يوسف : خير ان شاء الله .

ومشى مشية المقيّد يتبعه بطرس. يهدجان وتغرق أرجلهما بالتراب المبثوث . وما أشرفا على الخندق حتى قال ابو فارس : بحياتكم ، تأملوا ، هذا « شلش » عريشة جاري، تأملوا ما أبعده يا بشر ! وهذا شلش لوزتي رائح صوبه بالسلامة . فماذا نفعني عملي ؟

فتناظر الشيخان وارتجفت ذقناهما ، ومرّ في رأسيهما فكر واحد ، فاطرقا ، والفعلة يمزحون حولهم ويضحكون كأنهم لم يعملوا نهارهم كله أشق الأعمال ، ولا يعنيهم ما يعمل الشيخان وبو فارس. كل ما يعنيهم أن يطول الحديث لتطول الاستراحة . ففتحوا أكياسهم ولفوا سيكارة ثانية.

فرمر بو فارس وقال:والله العظيم احترت فيأمري.مدّوني برأيكم .

فقال بو يوسف : رأيي ان الانسان قليل العقل . الشجر أدرك من البشر . بو طنوس وبو خليل ركبهم الدين وباعوا ما فوقهم وما تحتهم من أجـــل اختلافهم على الحد ، على شبر أرض . انشقوا وشقوا الضيعة والجيرة والبلاد . حرّوا الدنيا كلها ، أشعرت ألسنتنا من الترجي ، وكل واحد منهم يريد أن يأكل خصمه. ومحاكم هذا الزمان، والحمد لله ، تطوّل الحبل . باب الشريعة واسع ، كلما انسد باب يفتح « الابوكاتية »[1] عدة أبواب . بو طنوس ، امشِ معي . وانت يا فارس رافقنا .

فتردد أبو فارس لأن الفعلة قاعدون . خاف أن يخسر شيئاً من عرق جبينهم ، فأبدى حركات لولبية أسفرت عن تحويل الفعلة الى عمل آخر ، ولحق بالشيخين .

وبعد هنيهة رجعوا ثلاثتهم ومعهم بو طنوس وبو خليل . وقفوا جميعاً خاشعين ينظرون الى الجذور وقفـــة موسى بجانب الطور . صمتوا كأنهم يتلقون درساً في علم الاجتماع من تلك الجذور الخرساء ...

وطال السكوت فقال بو يوسف : الشجر أكمل عقلاً منا نحن البشر، فمن يعتبر ؟

فصاح بو طنوس : فهمنا ، فهمنا يا عمي ، تصافينا .

وقال بو خليل : نعم ، نعم ، وان لم يبق على خيرنا طحين .

---

(١) الابوكاتية : المحامون .

« اسبوع الآلام »[1] مأتم حقاً، تحدُّ فيه الكنيسة ولا تتبرَّج إلا مساء « سبت النور »[2] ابتهاجاً بقيامة « العريس » منتصراً . فإذا سماه القروي « الجمعة الحزينة » فقد صدق .

الضيعة خاشعة صامتة ، والحزن يملأ كل بيت ، لا يحيّون بنهارك سعيد ، ولا يصبّحون ولا يمسّون بالخير . سلامهم : يتمجّد اسم الرب

---

(١) اسبوع الآلام : الاسبوع الذي يسبق عيد الفصح .

(٢) سبت النور : السبت السابق لعيد الفصح .

يسوع . وردّه : السلام لستنا مريم العضرا . والكنيسة كخلية النحل ، ناس تجيء وناس تروح . الجدران تتنهد ، والحنّية [1] تتاوه ، والقبة تولول مهدودة الحيل . الصلوات خمس كل يوم . وعن الصوم لا تسال : لا يفطر إلا الزنديق ، ولا ياكل اللحم والبيض واللبن إلا القليل الدين...

في ذلك الزمان ... جاء الخوري تيموتاوس الهيكل قبل الغروب ، ودقّ الجرس حزناً. ثم أخرج من عبّه مسبحة الوردية [2] ليصلي للراكب على المشارق والمغارب . أخذ يذرع ساحة الكنيسة بجلال ووقار كأنما يمشي على البيض . يتنهد أحياناً ، وينظر الى مسبحته ليرى أيّ مسافة قطع . ان صلاة مساء الخميس طويلة والناس أبطأوا . غريب شكل هذا الخوري ! لو عرفه داروين لّما احتاج الى برهان آخر : حاجباه قاعدان تحت جبين نافر كانه رفراف مطفّف فوق نقرتين في صخر منقوش ، يمتد بينهما أنف أفطس مشلوق ، وتحت هذا الينبوع شاربان كقرني الكبش ، تتدلى تحتهما لحية طويلة لو لم تكن سوداء كجناح الغراب لحسبتها مكنسة .

سبحان الخالق ما أكرمه ! أعطاه بشاعة بغير حساب . وكأنه شاء أن يجعله آية فابتلاه بالجدري الذي قلّل هيبته كثيراً . وبلوته الكبيرة انه أخيف ، فإحدى عينيه خروبية ، والثانية زرقاء يحسبها الرائي خرزة

---

(١) الحنية : القسم الواقع وراء المذبح نحو الشرق ، يوضع فيه كرسي الاسقف .

(٢) مسبحة الوردية : سبحة طويلة للصلاة مؤلفة من خمسة عشر بيتاً .

عين . لهذا غلب لقب « بليق » على اسمه بطرس ، قبل ان مسح بالزيت المقدّس كاهناً لله . ثم زاد سمنه في بشاعته، فهو بعد كهنوت الخبز مربوع ثخين أسود لمّاع .

كان الخوري مرحاً في شبابه ، يفرفر فلا يستقر بمكان ، لا شغل له إلا النطّ بالضيعة ، فما تسمع إلا راح بليق جا بليق . الولد عجزة أبيه[1] ، ولد صيفي . مات أبوه والأم لا تربي ، فركب رأسه . ما نجت بنت في الضيعة من مداعبة او سهرة عندها . وكثيراً ما كان يدق عدة أبواب في الليلة الواحدة . وحيث يحل يمتلىء البيت هرجاً وضحكاً . وإذا خرج نبح او نهق ، فترد عليه كلاب الضيعة وجحاشها .

كاد يتزوج طابيتا بنت ضاهر حنا ، ولكنه أطاع أمه وخصى نفسه بعد موت خوري الضيعة ، فدرس اللاهوت[2] والسريانية ، وبعد سنتين صار كاهناً جليلاً .

الميت وحيد أبيه ، والليلة قمراء تغري الناس بالخروج ، فاقبلوا على الكنيسة جيعاً حتى العُجّز ليحضروا تمثيل ماساة الفادي. لباس الجميع السواد كأنما الضيعة استحالت ديراً. والكثيرون لا يصلحون من هندامهم إماتة[3] لنفوسهم . وبعض الشيوخ الأتقياء يلبسون الجبب مقلوبة كأن الفقيد ابن عمهم لحّاً . الجميع يصلّبون حين يواجهون الكنيسة . بعضهم يقبّل خدّ الباب ، وآخرون زاوية الهيكل ، ومن يختصر يستلم الحائط

(١) عجزة أبيه : آخر ولد أبيه .
(٢) اللاهوت : علم موضوعه الله . (٣) إماتة : قهراً .

ويصلّب . التحية للخوري أولاً ، ثم للجماعة . فيجيب حضرته بتحريك لحيته . يلتفون حلقات وحديثهم كحفيف الحصاد . طنافسهم العشب ، وكراسيهم الحجارة .

وجاءت الآنسة طابيتا ، وقد زرفنت[1] شعرها كعادتها ، فأكبر بعضهم وقاحتها وخصوصاً زكريا ، وعذرها غيره لأن البنت بارت[2] بعد « بليق » ، فهي الآن تتصيد عريساً ولا يهمها أمات المسيح أم عاش . كانت طابيتا غير فصيحة ، ولكنها ذات حركات أبلغ من الكلام في التحريك والاستمالة . سمراء مقبولة الصورة .

باست خد الباب بشفتيها المثلثتين بوسعة بليغة ، ومسّت الأب الجليل فأجاب بحنوة رأس خفيفة ، وبلا شعور ارتفع صوته في صلاته فقال : اعطنا خبزنا كفاف يومنا . فضحك الشدياق[3] زكريا وزمرته الملتفة حوله عند جذع السنديانة ، فتنبّه أبونا تيموتاوس وتنهّد يسأل الله الستر ...

لم يكن غير الصبيان يقبلون يديه الطاهرتين فيمنحهم البركة الإلهية ، فيستقبلونها مكشوفي الرؤوس . ويزودهم بابتسامة لا تتضح إلا على جبينه لأن فمه النقي مخبأ وراء غابة كثيفة ... وما عليه إن ابتسم لهؤلاء وهو يصلي ، فالسيد المسيح قال : دعوا الصبيان يأتون إليّ .

---

(١) زرفنت الشعر : جعلته حلقاً صغيرة .
(٢) بارت : كسدت ، أي لم تتزوج بل بقيت في بيت أبيها .
(٣) الشدياق : أدنى من الكاهن درجة واحدة (يونانية) .

اما مشايخ الضيعة فكانوا يهزون رؤوسهم متعجبين كيف راح بليق وجاء غيره .

وقالت عجوز للقاعدة حدها : الله ، الله ، كيف كنتِ يا أم قبلان وكيف صرتِ ! سمع ابنها منها فصار خوري الرعية . فأتمت تلك : وعمر بيتها ، واستراحت من هِبّ [١] الفرن والتنور . كانت تأكل من مغزلها وكارتها [٢] فصارت أميرة .

أما الخوري جرجس الذي أمسى عاجزاً مخرشماً [٣] فكان جالساً بين أولاده يسمع حديث المرأتين . يحرّك شفتيه ولحيته الحالثة [٤] ولا يقول شيئاً . يتذكر عزه القديم يوم كانت الرعية لراعٍ واحد فيتمتم . وأخيراً زمّ [٥] بأنفه فجأة وقال بحدة وهزء : تفٍّ للأيام التي وصلنا اليها ، متى كانوا يكرّسون الرب نفاية النـاس مثل أخينا بالله !... هـذا خوري ؟ هذا تنبل .

وحاول أولاده أن يسكتوه ، فرفع صوته نكاية بهم وصرخ مرتين : هذا تنبل ، هذا تنبل .

---

(١) هِبّ : الحرارة الشديدة .

(٢) الكارة : حشية مستديرة تحشى بالقماش تستخدم في عملية إنضاج الخبز على الصاج .

(٣) مخرشماً : لا يستطيع الجلوس مستقيماً .

(٤) الحالثة : تساقط معظم الشعر منها فبان الجلد .

(٥) زمّ : رفع .

أما الشباب عشراء تيموتاوس فتنحوا والتفوا حلقة على الرجمة [1] تحت البانة [2] يتحدثون ويتغامزون ، تارة يقضمون الضحكة قضماً ، وأحياناً يقطّونها قطاً . وبدا الاضطراب على وجه الخوري تيموتاوس فكان يتئد في مشيته صوبهم لعله يسترق شيئاً من حديثهم . الخوري يخاف لسان أحدهم زكريا . وزكريا هـذا شاب فات الثلاثين ، طويل القامة نحيلها ، مبيض البشرة مصفرّها ، تبتّل [3] في الخامسة والعشرين ، ولبس الغنباز الأسود المخطّط ، وشك الدواة في زناره كشدايقة ذلك العصر ، وأطلق للحيته الشقراء سبيلها، ولكنه كان يأخذ منها فلا تطول. عبث رفقاؤه بقصيرته أولاً ، ولكنه صبر عليهم فغلبهم .

الشدياق محمود الصفات ، يغض طرفه ان بدت له جارته ، يحافظ على وصايا الله والكنيسة ، لا يتخلّف عن قداس ، ولا يفوته زيّاح . هو وافه الكنيسة (القندلفت) [4] وشماس الخوري ليربح الأجر . لم يفطر يوم سبت منذ بلغ ورشد ، ولم يأكل لحماً ولا بيضاً ولا لبناً يومي الاربعاء والجمعة ، وفي الصوم يعاف الزيت أيضاً . سيّان عنده أجاز البطريرك ذلك أم لم يجزه فهو بطريرك نفسه. متعبد لمريم العذراء، ان سقط « ثوب السيدة » من رقبته لا ينام تلك الليلة نوماً هادئاً. ولولا تهكه وعبثه بالناس

---

(١) الرجمة : ركمة من الحجارة .

(٢) البانة : نوع من الشجر .

(٣) تبتل : انقطع عن الدنيا الى الله ، ترك الزواج .

(٤) وافه (القندلفت) : خادم الكنيسة .

ما شكّ أحد في قداسته . فهذا العبث بذوي العاهات خطيئة كبيرة تُنزل الى جهنم . والانسان يلقى غيّها فيعاقب نقـــداً لا صبراً . يخلق الله في ذريته عيوب من يستهزىء بهم .

كان زكريا يعبثدائماً بصاحبهالخوري تيموتاوس فهو بطل مهازله. يناديه ببليق حتى بعـد الكهنوت فيجنّ الخوري ، ولكنه يخاف الوقوع في لسانه فيسكت على مضض . وزكريا لا يرحمه أبداً . يعرف انه خرّاط يدّعي البطولة ويموت فزعاً إن وزوزت الدبانة ، فيفتري عليه الأخبـار والمغامرات العنيفة .

تجمّـع النـــاس وقامت صلاة الخوري . وقصّ السنكسار[1] حكاية الحاكمة والجلد والصلب، فتعالت تأوهات العجائز وتنهدات الشيوخ كأن الضرب يقع على جلودهم . تُلي الريش قريان (فصول من ارميا واشعيا ، الخ ...) . وأخيراً خصّ الخوري تيموتاوس الشدياق زكريا بتـــلاوة « البركسيس » (فصل من أعمال الرسل) ، فقرأ ببراعة فصلاً أعدّه منذ العصر وهو خبر تلك « التلميذة » التي ماتت في يافـا ، ودعي مار بطرس من لدّة (اللد) خصيصاً ليقيمها من الموت ، فما بلغ زكريا هذه العبارة : « وصلى بطرس وصرخ : يا طابيتا قومي ، ففتحت عينيهـــا » ، حتى صاحت طابيتا من بين النساء : ليتك ما تفتح عينيك . يقصف عمره مـا أثقل دمّـه . هذا شدياق ؟ هذا قندلفت ؟ هذا شيطان !

فضحك الجميع حتى الخوري العتيق . أمـا زكريا ، وتلك عادته ،

---

(١) السنكسار : كتاب سيرة القديسين .

فما خفّ وقاره ولا نقص ، بل مضى في فصله حتى النهـاية كأنما لم يكن شيء مما كان .

وتلا الخوري تيموتاوس بضعة أناجيل بصوت مرتجف لأن الصدمه لم تكن هيّنة . وختمت الصلاة وارفضّ النـاس حزنانين . وصباح يوم الجمعة تنافسوا في جمع الأزهـار أشكالاً وألواناً ، وجاؤوا يطرحونها على قدمي الصليب المنصوب في « البـــاب الملوكي » . وقرب الظهر جنّـزوا وطافوا بالميت ثلاث مرات في صحن الهيكل ، ثم قبّـلوه واحداً واحداً مودعين . ودفنه الخوري والشمامسة خلف المذبح ليقوم في اليوم الثـالث كما هو مكتوب .

وعادوا عشاء وتألّبوا حول خوريهم ، فقعد المحترم على حجر عالٍ ، يحيط به زكريا ورهطه . ومشى الحديث ، فصلاة الجمعـة خفيفة . شرع الشدياق زكريا يهزّ من عطف المحترم ، ويحكّ له على الوجع ، فاستعرض ذكريات شباب بليق قبل ان قمطته امه بثياب الدرجة المقـدسة . فذكر أحدهم دقّ الجرس ، فقال زكريا : أبونا تيموتاوس دق جرس مار نهرا خمسين نزلة [1] .

فقال الخوري : وانت الصادق ، يا شدياق ، مئـــة وعشرين نزلة بيديّ التنتين ، وفوق العشرين بخنصري .

فاستكبرها أحدهم، وقال : افّ ! فصاح به زكريا : اسكت يا هوه، أنا أخبر منك، قدامي أنا قطع جنزير جرس دير قصحيا بكبسة واحدة.

---

(١) نزلة : مرة .

ولو خبّرتك عن جرس مار ساسين حاقل كنت تجنّ . لعب بالسبعين اقة لعباً . وخرزة بير كنيستنا هذه لو كان لها فم تشهد .

ثم التفت الى الخوري وقال له : بحياة قدسك ، يا معلمي ، تخبرهم .

فتنفس الخوري وقال : نسيت ، ذكرني يا شدياق .

فقال زكريا : قصة المارد .

ــ قصة المارد ؟ مارد حبّ ان يتعدى علينا ، مزعت رقبته .

ــ كمّل ، لا تستحِ .

ــ راح راسه عشرين شقفة .

فقال زكريا : أجرك كبير . استراح الناس من شره .

فتهامس الناس قائلين : إذاً أخبار المارد صحيحة .

فسمع زكريا فاخذ يتهزأ بهم : الخوري يخبرنا ونقول : صحيح ، صحيح !

ثم التفت زكريا الى جماعته بهيئته الجدية المضحكة ولم تتكلم إلا عيناه، فأطرقوا جميعاً عاضين على شفاههم ، ثم حوّل وجهه صوب الخوري وقال : ما لك ! أخبارك الليلة قطف [1] . لا تغير عادتك .

فتاق الناس الى سماع أخبار خوريهم ، وظنوا أنه يأكل بشراً . أما الخوري جرجس فأخذ ينفخ ويتافف ويحاول أن يقول كلمته ، فيمنعه ابنه ، فيدمدم [2] ، ويسكت .

---

(١) قطف : قصيرة جداً .

(٢) دمدم : تكلم بكلام غير مفهوم .

وانتظر زكريا شيئاً من الخوري فلم يكن ، فقـــال : اسمعوا آخر خبر ، هذا أعظم بكثير من الأخبار التي سمعناها. فقال الخوري: اي هو.

فاجاب زكريا : المعتّـر[1] الذي لاقاك لما كنت راجعاً من عند... من عيد مار نهرا .

فضحك الخوري وقال : الشدياق لا ينسى . بطحْته في النهر. وبعد ما شبعته قتلاً ، كبست على صدره كبسة واحدة فبقّ الدم .

فقال أحدهم : قالوا شلّحك .

ـ شلحني ؟ مسكين ! طرمحتني[2] نفسي ونويت على قتله ، ولكن قلت : اتركه يا صبي ، لا ترمِ ضيعتك ببلبلة ، كانت الحادثة في خراج[3] الضيعة .

فبدرت من الخوري الشيخ كلمة ثخينة تداركها ابنه برفع صوته فطمرها ... ولم ينقطع سياق الحديث .

وانجرّ السمر البريء الى تلاميذ المسيح، فتعجب الناس كيف جبنوا وتركوا المخلّص بين أيدي اليهود . لم يذكروا خبز العشاء السري[4] وخمره ، فما سهروا معه ساعة واحدة . تركوه يبكي وحده في البستان[5] .

---

(١) المعتّر : الغليظ الكثير اللحم ، وعند العامة : الشرير ، أيضاً الفقير .

(٢) طرمح : طمح في الأمر .

(٣) خراج : الحد الفاصل بين قريتين .

(٤) العشاء السري : آخر عشاء للسيد المسيح مع تلاميذه قبيل صلبه .

(٥) بكى السيد المسيح في بستان الزيتون حيث صلى وعرق دماً عشية صلبه .

وبطرس الذي ابتهر وادعى الرجولية أنكره ثلاث مرات قبل صياح الديك .

واحتدم جدالهم،فامست لهم ضوضاء كأنهم على الجلجلة ساعة الصلب. فقال زكريا بسذاجة ماكرة : يا حسرتي على الرز ، ضاعت ملاعقه [1] . لو كان ربنا في أيام معلمنا الخوري تيموتاوس كان عرّف اليهود قيمتهم .

فأحسّ بهـــا الخوري قليلاً ، ولكنه بلعها ، وقال بحدّة : سماع يا شدياق ، هذي إرادة ربنا يسوع المسيح له المجد . وهو لو حب كان أمحى أثر اليهود. سمعت قول الإنجيل أمس، كلمته: انا هو، قلبتهم على ظهورهم.

وأعجب الخوري ببلاغته هو ، فتحرّك أيما تحرُّك ، فبصّت لحيته المرعزية [2] تحت ضوء القمر ، فضحكت زمرة زكريا ، فحار الخوري في ضحك بلا سبب ، ولكنه لم يقف، بل التفت الى القوم التفاتة منطيقي أدلى ببرهـــان ذي حدين ، فرجحت الرؤوس إعجاباً ، وانقلبت شفاه عديدة استكباراً . ورأى الخوري طابيتا شاخصة تأكله بعينيها ، فتذكر أياماً لم يكن جسده فيها هيكل الروح القدس ، ولاذ « بالنعمة » فأخزى الشيطان . واشرأبّ وتفرعن .

أما زكريا فاختبى بيديه وقال : الحق مع بليه ... هئ ، مع الخوري تيموتاوس . والله العظيم لو كان حضر المعركة كان نتف لحية قيافا [3] ،

---

(١) يا حسرتي على الرز ضاعت ملاعقه : مثل يضرب للتنكر .
(٢) المرعزي : اللين من الصوف .
(٣) قيافا : رئيس المحكمة التي حكمت على المسيح بالصلب .

ودعس رقبة يوحانان .

فهزهز الخوري رأسه وقال : هذا نصيبنا ، ما أحلى ما يقدّر الله .

وطاب الحديث للخوري فانبسط زكريا وقال : لكن خوف الرسل بيّن يا معلمي . هـذا ماريحنا حبيب المسيح كان أول الهاربين . ثم لاحظ كم مرة فزعوا بعـــد القيامة . اؤكد لك انهم كانوا يفزعون من خيالهم . مساكين !

فمطمط [1] الخوري وقال : لا يخلو الأمر ، عندهم شيء من هـذا . ولو كانوا كما يجب ما قال عنهم مار بولس: واختار ضعفاء العالم ليخزي [2] الأقوياء .

فصاح زكريا بلهفة : هذا الصحيح يا معلمي .

وسمع الخوري جرجس هذا الكلام فتهيأ واستعد ، فهدّأه ابنه . أما الناس فكانوا يصغون الى الاثنين معجبين بفصاحة خوريهم وبراعة شدياقهم .

وسأل أحـــدهم عن سبب ظهور المسيح للنساء أولاً ، ثم للتلاميذ . فأجاب الخبيث زكريا: حتى يشيع الخبر حالاً ... النسوان لسانهم طويل.

فتمتمت طابيتا كلمة فهمتها جاراتها وضحكن ، ولم ينتبه لها زكريا لأنه كان يعدّ رمية جديدة ، فقـال : معلمي ، يا ترى لو ظهر لك المسيح تفزع منه مثل التلاميذ ؟

---

(١) مطمط : توانى في كلامه .

(٢) خزيَ : ذلّ وهان .

فابتسم الخوري كالهازىء وقال : ما قولتك انت ؟

فقال زكريا : قولتي انا ؟ يا جبل ما يهزك ريح .

فأجاب الخوري : هذه نعمة بعيدة عني ، أنا عبد خاطي .

ثم تنهد تنهيدة عظيمة وقـــام الى الصلاة وهو يقول : يا ليت ، يا ليت !

ودخل الكنيسة يواكبه زكريا ويقول على مسمع من النـــاس : من يعلم ؟ من يدري ؟ عجائب الله كثيرة .

أما الخوري العتيق فتحلحل ونهض وهو يقول : ايه ! صرنا ملعبة .

فغمز ابنه طرف جبته فصرخ : اتركني ، ملعبة وأكثر . لولا العيب والحيا كنت احشّ لحيته . خوري بهلول .

وبعد ظهر السبت قلعت الكنيسة ثيابها السود ، وتزينت ابتهاجاً بقيامة الذي وهب الحياة لمن في القبور ، فصلّوا صلاة خفيفة زحزحت الكابوس عن صدرهم ، وعادوا الى بيوتهم فرحين بعد ترتيلهم : المسيح حقاً قام .

أما الخوري جرجس فظل في الكنيسة يصلي منتظراً قداس نصف الليل . وكان بعض شيوخ وعجائز يأتون لزيارة القبر . وما انتصف الليل حتى أقبل الخوري تيموتلوس وقرع الجرس قرعاً ذكرهم بشباب « بليق » الأغر . فخفّ الشعب الى الكنيسة ، وانقسم الشمامسة جوقتين يخدمون القداس .

وفي مثل هذه الساعة التي تدحرج فيها الحجر عن القبر ليقوم السيد،

أقبل الخوري تيموتاوس على باب الحنية الأيسر يبخر ويرتل بالسريانية، معظماً من غلب الموت بالموت، ويسأله الرحمة لجميع المؤمنين. فطلع اليه من خلف المذبح ـ حيث القبر ـ شبحٌ عليه ملحفة بيضاء. فتراجع الخوري مذعوراً. وتقدم الشبح ووقف بالباب، فصرخ الأولاد والنساء، ووهل الرجال، واستبق الجميع البـــاب. وأفاق الخوري جرجس من سهوته على الضوضاء ونهض يستخبر، فرأى أمامه الشدياق زكريا، فقال له: ايش صار يا شدياق؟ أين راحوا؟

فأجابه زكريا: هربوا، ظهر لهم المسيح.

فتعجب الخوري وقال: وأين الخوري تيموتاوس؟

فقال زكريا: راح معهم.

فضرب الخوري بيديه على فخذيه وقال: يه، يه، يه، يه، يه، يا هتيكتنا [1]، فزعوا من حمل الله!

ثم تفكر قليلاً وقال لزكريا باشمئزاز: عيب يا شدياق، عيب. انت رجل طيب. الله غضب على الضيعة ورسموه خوري. غلطة وقعت، العصمة لله وحده.

فمغمغ [2] زكريا كلمات. وهدج [3] الخوري جرجس ليعيد الناس، فسمع زوجته ـ الخورية ـ تقول: لو كان لنا حظ ما كان ظهر المسيح

---

(١) هتيكتنا: فضيحتنا.

(٢) مغمغ: تكلم بكلمات غير مفهومة.

(٣) هدج: مشى مشية الشيخ.

لخورينا . فصاح بهـــا الخوري: صدّقت يا معتوهة [1] ؟ روحي صلي ، روحي . هذا وجه يظهر له المسيح ؟

وما خطا خطوات حتى عاد الخوري تيموتاوس والرعية مستحيين. فقال له الخوري جرجس بكل هدوء : كمّل قداسك ، خلصنا .

أما زكريا فظل واقفاً عن يمين مذبح البخور كالملاك ، تقول عيناه لصاحبه الخوري تيموتاوس أشياء كثيرة ...

---

(١) المعتوه : المدهوش من غير مس جنون .

بينا كان طنوس يقص على واحد من «الزمرة»[1] أخبار عبثه بجريس في سهرة أمس الأول ، اذا بزوجته لوديّا تتمرمر ، وتقول : حرام عليكم ، اتركوا هـذا المسكين ، كفاه عذاب . خف على « عواقبك »[2] ياطنوس. ربنا قادر ان يبتلينا بولد أقرع وقواق (لجلاج) مثله وأكثر منه.

---

(١) الزمرة : الجماعة ، الفوج .

(٢) العقب : الخلف ومن يجيء بعده .

فصاح طنوس : اضحكي في عبك يا حرمه ، اذا حصلنا على هـــده النعمة . الضيعة محتاجة ، دائماً ، الى واحد على شكله .

ـ يه ، يه ، يه ، ما اقل دينك ، انت هرطوقي [1] .

فاستلّ طنوس يده التي استحالت دبوساً [2] ، وكشّر وهجم. فردته ضحكة زوجته لوديًا من نصف الطريق . وهكذا كان يسلم جلدها من الرصّ واللبد .

ليس لطنوس سمات تميزه من أهل قريته ، فاكثر القرويين من غط واحد ، إلا أنه كان مهذاراً يتحدث كأنه يمثل ، يحشو كلامه بـ « فهمت » و « سمعت » و « لحظت » مشفوعة بنكعة أو لكمة لتفهم غصباً عن رقبتك ... أحصوا عليه هذه الكلمات الثلاث في سهرة واحدة ، فوردت في كلامه أكثر من مئتي مرة .

ولعل سيرة طنوس مع عجله « عيّـوق » عوّدته مثلها مع الناس . فعصاه كانت تنهض أبداً وترتمي على ظهر ذاك الثور لسبب ولغير سبب . فصار عيّـوق مثلاً يُضرب في القرية . إنْ ضرب أب ولده ضرباً موجعاً صاحت أمه : ليتها تنكسر من الكوع ، أهو عيّـوق ؟ وإذا اشتد الضرب بين اثنين قالوا : ضربُ عيّـوقي .

وأدركت عيّـوق السن فجاء قصّاب ليشتريه ، فخمن مـا عليه من لحم تخميناً لم يعجب طنوس ، فلكمه قائلاً : قوّ قلبك ، فهمت ؟ ثم نكعه ليقول له : لحظت ؟ لا يغرّك صغره ، هذا ملبود .

---

(١) هرطوقي : كافر .   (٢) جمع أصابع يده على شكل مكوّر .

وغـابت الشمس فتعشّـى طنوس وتمشّـى . حان وقت السهرة وهو لا يهنـأ له عيش إن لم يسهر حيث يكون جريس الأقرع . فطاف حول بيوت القرية ، حتى إذا حزر أين هو ، دخل ، ومسّـى ، وقعد . نظر الى جريس فرآه مغتماً . ظن انه يتصنع في الجـــد ليتأبى عليه ويكف عنه شره ، فسّاه خصيصاً . فردّ جريس المساء من رأس شفتيه . فغمز طنوس الحاضرين صار"ا أصابعه إشارة الاستعداد للمعركة .

كان جريس يوشوش صديقه سركيس بلجلجته المعهودة : عا عا عا عصيت ، عا عا عا على الأطباء . ما قدر واحد منهم عا عا على إنبات شعرة في مخي[1] .

وكان جريس متهالكاً على الحديث ، يعـاني ما تعانيه الحبلى ليخرج كل كلمة من كلماته ، بينـا كان طنوس يتهزأ به ، يفتح فمه ويغلقه مثله ، مضحّـكاً الناس .

ــ ايش العمل يا بشر ؟ عجزت والله . كلما جاء « مغربي » ياخذ مني المبلغ المرقوم .

فأجابه سركيس : سلّـم أمرك لربك .

فقال جريس متوجعاً : لربي سلمته من زمان . لم تبق كنيسة من كنائس الله إلا نذرت لهـــا . أمس زرت « الحرضيني »[2] وأخذت عن قبره سل تراب .

فالتفت إليّ سركيس التفاتة استغراب ولم يفه بكلمة. فقال جريس:

---

(١) مخ : رأس . (٢) الحرضيني : اسم لقديس .

والله العظيم، قلت لك سألني عن الحالة. هيه ، هيه ، كان في قربوس رأسي شعرة طارت .

فقال سركيس : لا تقطع الأمل يا صاحبي .

فضحك جريس ضحكة هي بالبكاء أشبه ، وقال :

ـ عشرين سنة قضيناها طالبين رحمة الله، احزر ماذا كانت النتيجة؟

ـ انت أخبر ، قل .

ـ مصيبة أكبر .

وانحنى على أذنه يصب فيها سر الفاجعة .

فالتفت سركيس كالمتعجب ، فقال جريس : والله ، لعنـــة الله على الكذّاب ، كنت بفرد همّ فصرت بهمّين .

قال جريس هذا وطفق يتأمل وجه صاحبه سركيس ليرى أثر كلامه فيه ، فرآه يمطّ شفتيه ، يصرّهما كانه يتاهب لضحكة . فقـال جريس : كل هذا هيّـن يا شيخ ، ولكن من يخلصنا من طنوس إذا درى .

ثم أطرقا صامتين حتى انتهيا الى قول أحدهم : هاتوا الورق .

فصاح صاحب البيت : مساند وطراريح ، ضوئي القنديل الكبير يا مرين . وأشار باصبعين ، ففهمت مريم وأشعلت القنديل نمرو ٢ .

كان من عادة طنوس أن يلعب ضد جريس . أما تلك الليلة فقـال : رفيقي جريس . فنسي جريس مصيبته : العليـــا والسفلى ، المكشوفة والمستورة ، فانبسط وجهه وقعد . ودار الورق دوراته ، فاحتدم اللعب والجدال حتي كاد يعلق الشر . تكافأ الخصمان فمكنا قعدتهما لربح الدقّ

(الشوط) الأخير . وأشار كل فريق الى ورقه . وانتظر جريس إشارة رفيقه طنوس ،ولكن طنوس لا يشير.تساقط الورق من الأيدي وجريس حيران لا يدري ما يلقي ولا ما يبقي . فصاح بطنوس : أششش أشر . ولكن طنوس لم يخرج عن صمته،ففأفأ جريس وتمتم،فقال طنوس متبارداً: لا بد من التاشير يا شريك .

ــ معععلوم .

فابدى جريس علامة أصّ الديناري وقال : أقرَعْ . (أي وحيد من نوعه) .

فانتفض جريس كمن لدغته عقرب وقال : كا كا كا كيت وكيت من ... ولما رأى طنوس متاهباً للصرع أتم قائلاً : من دين لعب الورق . وانصرف غضبان .

وأصبح المسكين فإذا رِحله الجديد قد ثقل عليه . كان يشكو خفة فوق ، فصار يشكو ثقلاً تحت . فتقٌ ولد كبيراً ... ثم أخذ ذلك الهمّ يتضاعف يوماً فيوماً حتى كاد يبوح الشروال بالسر ، ففصّل غنبازاً ستره به ، فخلق موضوعاً جديداً لعبقرية طنوس . أطلق طنوس على جريس لقب الشدياق، وصار غنبازه حديث الضيعة، وخصوصاً على التنور حيث تمتزج القهقهة بالرَقّ [١] .

تقوّلوا عليه ما شاؤوا،إلا صاحبه سركيس فكان يهز رأسه ويتمثل:

---

(١) الرق : رققه : قلّل من غلاظته، وهنا عملية تحويل العجين الى رغيف.

الذي دري دري ، والذي ما دري قال كفّ عدس [١] . أما طنوس ذاك المخرج الرائع فكلف مَن نظم له هذه « الردة » [٢] :

يا مشرشح يا بو الغنباز   الملو ديالو وقصّو
اخبز خبزك عند الخبّاز   لو خبزو وأكل نصو

رددها الصبيان ترديداً ضيّق الضيعة على جريس، فمشى الى بيروت مشية توجع القلب ، مشية البغلة المشدود خناقها لئلا تتمس [٣] . وبلغ اسكلة [٤] جبيل بعد ألف جهد ، فإذا بعربة تقف وصوت يصيح : اطلع يا جريس .

عرف جريس صوت صاحبه طنوس فاستعاذ بالله، ولكنه طلع وقعد حده ، وهو يقول في قلبه : سفرة مشؤومة .

وقبل أن يبلغوا مخفر جسر بيروت حذّرهم السائق من التبغ والسلاح. كانوا في ذلك الزمان يصادرون التبغ الكوراني . وتسهيلاً للتفتيش كان « الورديان » [٥] يزج « شيشاً » في الحمولة حتى إذا شكّ في عدلٍ [٦] ما أمر بتفتيقه . وهكذا فعل حين أوقف عربة طنوس وجريس . أمر

---

(١) كف عدس : مثل يضرب للدلالة على الكثرة المبهمة .
(٢) الردة : بيت في الشعر العامي .
(٣) تتمس : تتمغز .
(٤) اسكلة : منطقة في التقسيم الاداري .
(٥) الورديان : الرجل الذي يبحث عن التبغ المهرب من قبل شركة التبغ.
(٦) العِدل : كيس كبير من الجنفيص .

الركاب بالنزول منها و « شَيْش » كيس خيش فيها ، ثم فضّ البقج[1] كلها . وأخيراً تحوّل الى المسافرين الستة فمدّ يده إلى أعماق جيوبهم .

وجاء دور جريس فظنّ ان تحت غنبازه كيساً، فاقبل عليه ليجسه، فامتنع عليه جريس وصرخ : فت فت فت ...

ثم هرب من وجهه يقهقر في مشيته ، والخفير لاحق به يسدد نحوه الشيش وهو يقول : معك تتن ، نحن نعرف كل هذه الحيل .

فصرخ جريس : لا لا لا لا ... فت فت فت .

فصاح الورديان : ضربة تفت رقبتك ... وهجم عليه يريد أن يزج الشيش في موضع الظن ، فانطوى جريس أمـامه ، وباح أخيراً بالحرف الثالث ، فاحمرّ وجه « الورديان » وأعاد شيشه الى مخلاته .

أما طنوس فنكع[2] جريس عنـــد أذنه قائلاً له : ها ها ، فهمت ؟ عرفنا سبب لبسك الغنبـــاز يا مضروب . لحظت ؟ استعد لردة تسرّ خاطرك .

---

(١) البقجة : مجموعة أمتعة ضمن قطعة من القماش .

(٢) نكع : لكز بمرفقه أو بكوعه .

أحست ام جبرايل ببهر[1] لما فرغت من تنقية الطحنة ، فقعدت كالخفاش[2] تدلك عينيها . وبعد سكوت قصير جداً رفعت خصلة شعر شقراء هاجة على خدها الأيمن وقالت : كذّاب الذي قال القمح البلدي لي

(١) البهر : انحراف واضطراب بالبصر بعد جهد .

(٢) الخفاش : الوطواط .

ولولدي . القمح البلدي ثلثه زوان وشيلم [١] ، مها غربلنا ومهما غسلنا لا ينظف .

وشعرت بدوار [٢] لما استوت ، شعرت كأن رجلها يابسة فجلست قائلة : تقبر الأرامل ! حياتنا كلها طحن وخبز ، وطبخ ونفخ ، وغسيل وترقيع . ما لنا ساعة نشاهد فيها وجه ربنا . عيشة من قلة الموت . اسمي ام جبرايل ، وجبرايل ابن غيري . وانطوت تمتحن خدر [٣] رجلها ، تقرصها فلا تحس انها منها ، وتمدها فلا تشعر انها لها . ولما عادت الدماء الى مجاريها قامت لحاجاتها. جلت زجاجة قنديل الكاز، وزيّتت الفانوس الخاص بعلف الفدان ، وأقبلت على العشاء تعدُّه ، فالطبخة ناضجة لا ينقصها غير القلية والتوابل .

ان أبا جبرايل يخوّر [٤] . وإذا أبطأ عليه الأكل ملأ البيت مسبات [٥] . والبيت حد الطريق . وأم جبرايل فتية ، كبيرة النفس ، يعزُّ عليها أن يتحكم بها أرمل . وعندها للسر بئر عميقة تقبر فيها ما يحدث من مشاكل بين المرأة وزوجها . وكثيراً ما تحتمل الضرب وتسكت طلباً للسترة ، وكسراً للشرّ .

---

(١) الزوان والشيلم : نوعان من الحبوب بين القمح (شبيهان به) .

(٢) دوار : دوران يأخذ بالرأس وهو المعروف بالدوخة .

(٣) خدر : تشنج يصيب العضو فلا يستطيع الحركة .

(٤) يخوّر : يرهقه الجوع .

(٥) مسبات : شتائم .

أما لحود ، أبو جبرايل ، فبارود مزيبق [1] يلتمس سبباً لينفجر . ويعلم النـاس أنه ناري الطبع فيستهابوه . لا يجد أمامه من يبرز عند هـذه المكرهة [2] ويسكت إلا زوجته ، فجعلها هدفَ « مراجله » [3] . يدخل البيت لابساً وجه النمر ، فتحاول أن تكسر شراسته بابتسامة ناعمة ، فيزداد عتوّاً [4] ولا يرد المساء ، وإذا استوضحته عن أمر فجوابه نبرات عنيفة ، أو سكوت مؤلم .

وضع النير والجراب في مكانها وأخـذ الفـانوس فرأى فتيلته ، التي سبّ لأجلها أمس ، ممروتة ناعمة نظيفة كأنها خصلة حرير تلفح النـــار لفحاً . لم يجد مجال القول ذا سعة ليقول . فأخذ الفانوس بيد، والسل بيد، ومضى الى القبو يفتش عن سبب آخر. رأى الدجاجات دخلت التبّـان [5] وذرّت التبن ، فطفق يعر ويهر [6] . لا يستطيع أن يلوم زوجته لأنه هو الذي ترك باب القبو مفتوحاً ، ففكر فاهتدى ... أليس على المرأة أن تكون متنبهة دائماً ؟ فاشغال الرجل كثيرة . وعلى هذا البناء هاج بحره . ورأى جبرايل أن « خالته » لا تستحق هذا الشتم والسب فتنطح ، ولكن والده ألقمه ممـا تعوّد أن يطعمه إياه عند دخوله شخصاً ثالثاً ، فسكت .

وبعد دقائق معدودات ذهبت غيمة شباط فعـــاد لحود كأحسن ما

---

(١) بارود مزيبق : نوع من البارود السريع الانفجار .

(٢) المكرهة : الشيء الغير مستحب .

(٣) المراجل : الطلب بعنف وتجبر . (٤) عتواً : تجبراً .

(٥) التبان : مستودع علف البقر . (٦) عر وهر : صاح بصوت عال.

يكون الرجال ، رقيق الجانب ، دمث الأخلاق ، يخاطب فروسينا بيا ام جبرايل ، ويا بنت عمي . ثم انتهى العشاء على خير .

وامتلأ البيت ناساً ، فأبو جبرايل ذاهب الى البندر[1] ليتقمش لابنه العريس ، فأسعار دكان الصليّب غالية ، والمثل يقول : رح الى البندر وتغندر . عرس جبرايل بعد يومين ، والطحنة الكبيرة التي نقّتها ام جبرايل بمعونة جاراتها هي لتلك المعركة الطاحنة التي سيكون لها ما بعدها.

وشرع الساهرون يكلفون أبا جبرايل قضاء حوائجهم من المدينة وهو يتقبل طلباتهم ببشاشة ولطف . يقول لهذا : « تكرم » ، ولذاك : « بيسمله » ، ولتلك : « من عيني » . وكلف بشراء بابوج للشبينة[2] ، فأجاب بقوة العادة : « على راسي » . فابتسم الكهول ، وقهقه الشباب ، فانتفض ، ولكنه لم يقل كلمة احتراماً لبيته .

وجرى حديث التموين ، فعيد السيدة (١٥ آب) ميزان الأسعار عندهم ، والمثل يقول : لا يرخص في الشتاء غير الماء . التموين واجب ، وهم قادرون ، فموسم الحرير كان مقبلاً ، والعنب طيّب ، والتبغ جيّد ، والزيتون ممتاز. لا يبقى غير الحبة ، ولا يسد هذا العجز بارخص الأسعار غير البترون . فكلفوا أم جبرايل درس حالة السوق . وتذمّروا من كثرةِ الزنابير ، فقال أحدهم : سنةُ حشراتٍ ، الحيّات بحر . وانساق الحديث فطال . حديث حيّات ... ثم انتقلوا الى حديث الجن فقال

---

(١) البندر : مقر التجار من المدن ، تعرض فيه السلع للبيع والشراء .

(٢) الاشبينة : من تقوم بخدمة العروس وقت الاكليل .

واحد : يا بو جبرايل ، إياك ان تنسى ، توقَ جن شير بنُور ، فوْعة[1] جن في هذه الأيام ما لها دين .

فهزّ لحود برأسه وقال : عمك عم يا ملحم ، أنا أبو جبرايل .

فضحك فتى وقال سراً : تشرفنا . ثم غمز رفيقه كأنه يقول: سنرى.

فأسفرت تلك الغمزة عن مؤامرة مرتجلة ، كان لهـــا شأن جليل في تاريخ القرية .

لم يسمع أبو جبرايل وأتمّ حديثه قائلاً: لا تخافوا عليّ ،معي الخوري، بركة صليبه تحرسني .

فقال آخر : انتبه لئلا ينشلوا الطحنة . مرة قعدت الجنيّـة لرجل في عرض الدرب ، وأخذت تنوح وتبكي طالبة منه أن يُركبها على دابته من النهر الى الضهر . فاعجبه جمالهـا ، فحطّ طحنته وأركبها . أعطته ليرة فرح بها.ولكنه لم يجد الطحنة لما رجع،وافتقد الليرة فإذا هي شقفة فخار.

وقال ثانٍ : وظهرت الجنّ لبو انطون بشكل حطب ، فحطّـب وعاد . وكان يتعجب من خفة حملته ، فلما حطها قدام الباب دقّ جرس الظهر فصلّـب ، فاختفى الحطب كله إلا عودين من الزيتون .

فقال شيخ : الزيتون مبارك .

فصرخت ام جبرايل : اسم الصليب وذكر الصلبان .

وقال واحد : ملاعين الجنّ ، سبحان خالقهم ، أعطاهم خاصة ما أعطانا إياها. قال عمي بو جبرايل معه الخوري ،كأنه نسي قصة الخوري

---

(١) فوعة الشباب : أوله ، وهنا الظهور بكثرة .

متّى لما دعوه ليكلل لهم العريس . صلّب الخوري فانطفأت الأنوار واختفت الجماهير ، فمات من الفزع ، وبقي لسانه مربوطاً شهرين .

كان أبو جبرايل يسمع ويعتبر وينظر الى عضلاته الغليظة... نوى في تلك الساعة أن يرجع قبـل المغيب . وتسلح قبل الرحلة بكتاب مار قبريانوس ، وبصليب ورثه عن جـده . ولكن الدواب قصَّرت في العقبات الكثيرة فوصلت آخر السهرة وتبعها أصحاب الحوائج فكّوا الحمولة ونزلوها ، وانتظروا أبا جبرايل فما جاء .

رابهم أمره، فقالت إحدى النساء : سمعت حس مشي خلف الدواب، فأين اختفى ، وكيف وصلت وحدها ؟

فأجاب مستشار الضيعة : جنّ . قلت له لا تتاخر فما سمع كلمتي .

فولولت ام جبرايل . فقال فتى : نخوة يا شباب ، يا الله ، امشوا الى مغارة شير بنّور . وبعـد دقائق بلغوها فوجدوا أبا جبرايل منبطحاً ببابها، يرن ويئن. وأفاق بعد اسعاف عنيف فخبر أن شابين لون وجهها أحمر ، وشعرهمـا أصفر ، وعيونها مشقوقة بالطول ، عزموا عليه ، وحوّلوه بالقوة الى المغـارة ليحضر وليمة العرس ، وصلّـب قبل أن يمد يده الى الطعام فاختفى كل شيء .

فابتسم الشابان وقالا : صحيح، ونحن سمعنا أغنيات ما سمعنا مثلها.

واجتمع مجلس القرية صباح الأحد بعـد القداس فقرروا جميعاً أن استفحال أمر الجن ناتج عن أن القرية عندما انكسر جرسها بدلته باكبر منه ، فلم يدخل القبة حتى هدموا الأقواس التي يقوم عليها الصليب ،

فظلت القبة بلا صليب ... وقرّ الرأي على أن يرفعوا صليباً عالياً يشرف على قرارات أوديتهم .

ومضت سنوات لم يحسوا فيها أثر الجن ، حتى كان أبو جبرايل يوماً في قطعة أرض له عند النهر فيها مغارة تأخذ منها النساء حجر «الملحقاق» ليعملن المعاجن والقدور . رأى امرأة منبوشة الشعر فتاكد أنها جنيّة ، فترصدها حتى دخلت المغارة ، ثم أقبل يرشق وجهه بإشارات الصليب ويدهدي [1] الصخور برشاقة على بابها .

وصاحت المرأة صيحات رجّ لها النهر : دخيلك . أنا مرتا يا لحود . أنا مرتا يابو جبرايل .

ولكن أبا جبرايل ظل يردم بخفة ويقول : لا مرتا ولا لحود . غِشي غيري . ما انقطع جنسكم بعد يا محروقة الدين ؟

وابتعد الصوت لكثرة ما أهال لحود على باب المغارة من حجارة وتراب ، فاستهوى وتنهد ... وإذا بجرس الضيعة يدق ، فتسمّع وقال ، بعدما أبدى إشارات الرضى بهزّ جمع يده اليسرى : هذا جرس يقطع أثر الجنّ كلهم .

---

(١) يدهدي : يدحرج .

ابن عزرائيل

جاءت ام ابراهيم بعين مكسورة تستكتب معلم ذمّتها [1] (الخوري) رسالة الى ولدها المهاجر ، فاستأجلها . ولما أشعرته أن البريد على سفر امتشق قلمه من انبوبة دواته ، ثم لاقها [2] وطفق يكتب .

وتلا على ام ابراهيم ديباجة الكتاب الناعمة فترطبت أهدابها . وراح الخوري يتعصر كحبلى تتمخض . وبعد ألف جهد نزلت على سنّ قلمه الكلمة المأثورة : من أخذ من ملة غير ملته مات بعلة غير علته . وأحسّ

(١) معلم ذمتها : الخوري الذي يقوم بحلها من خطاياها ويسمع اعترافها .

(٢) لاقها : أصلح مدادها .

طعم هذا الالهام الرفيع فاهتزت لحيته، وانفتح فمه الأدرد[1] عن ثنيّة[2] ما زالت غارزة باللثّة[3] كأنها سنّ ثوم .

قعدت منه ام ابراهيم مقعد الكلب تتحرك جوارحه كلما تحركت يد صاحبه . تحاول بزفراتها المديدة حثّ الخوري ، وأخيراً هتفت به بلا شعور : ايش كتبت يا معلمي ؟ البوسطجي معجل .

فاستمهلها بالخمس اللطاف، وعينه على القرطاس ، حتى إذا انهال عليه الوحي تلقاه بلهفة وكتب : سمنجون بنت خالك مثل قلب الصباح ، قامتها رمح رديني[4] ، وعيونها لوزية ، وخدودها مثل التفاح الشامي . صورة بورق يا ولدنا ، والمثل يقول : أهلك ولا تهلك .

وزفر الخوري زفرة استهولتها ام ابراهيم،وقرأ ما خربش . فقرعت صدرها داعية بطول عمره ، وانكبّت على يده الطاهرة تقبّلها بحرارة . سحرتها فصاحة الرسالة فضمنت عَوْد ولدها غبّ اطلاعه عليها . ولكنها استقصرتها ، فاستزادته ، فكتب : طلاّب سمنجون مثل النمل ، الناس تقصدها من بني وبني... وأنا أصبحها وأمسيها. احضر حالاً حالاً حالاً، المرأة حاجة الدهر ، والانسان لا يجدها كل ساعة ، يكفيك ما جمعت ، ولمن تجمع إذا مت بلا عقب ؟

ـ يا ام براهين ، عجلي ، البسطجي رائح .

---

(١) الأدرد : الفاقد أسنانه . (٢) الثنيّة : أسنان مقدم الفم .

(٣) اللثة : ما حول الأسنان من لحم وفيه مغارزها .

(٤) رديني : نسبة الى ردينة وهي امرأة كانت تقوم الرماح .

وغلّف الخوري الرسالة ، فصرخت ام ابراهيم : لا ، يا معلمي ، لا . ونتشتها من يده وأخذت تحرق أطرافها بسيكارة الخوري .

وبعد ما ابتعدت بها خطوات تذكرت انهـــا لم تقبّـل يده شاكرة ، فانفتلت صوبه . ثم أدركت حرج الموقف،فاعتذرت من بعيد وهرولت.

وبعد أشهر خفّ أخوه ابراهيم وبنو عمه الى ميناء بيروت ليستقبلوه. وزحف من بقي في الضيعة من أحياء الى دكان على مفرق الطرق ، يحسبه الرائي منطرة [1] ، لا حانوتاً يتبضع منه القرويون ويتقمشون . أما الدفع فموعده كتلك الساعة التي لا يعلمها أحد إلا الآب ... وبعد انتظار ساعات في تلك البرية أطل الموكب تتقدمه الحمولة:اعدال نقل [2] وحوائج، وصناديق أميركية تتلألأ تحت أشعة عين الشمس . فارتفعت الأصوات بالتأهيل والترحيب . ثم تناوبوا التقبيل حتى شكا ابراهيم خدراً في رقبته وطلب الهدنة ... ثم استؤنفت المعركة ، وأخذوا يعرّفونه بمن درجوا وشبّـوا في غيابـــه ، فيقبلهم ويربّتهم [3] تربيتاً أميركياً ، يضحك له البعض ، وينشده الآخرون . وساروا به أخيراً ، فريق يهزج ، وفريق يغربل وينخل . وكلهم يقولون : يا بارك الله ، هامة جمل ! وكانت امه تنتظره في ساحة الكنيسة حيث يمر ، فازارته القديس ، ووفت نذرها . وفي البيت كثرت السؤالات عن الغائبين فكان الجواب : الجميع بخير .

---

(١) منطرة : غرفة لجلوس حارس الكروم .

(٢) النقل : ما يتنقل به على الشراب من فستق ولوز وبذر .

(٣) ربّت : ضرب برفق على الكتف .

وفتحت ام ابراهيم كفها فأطممت وسقت بسخاء . وسهر ابراهيم الى ما بعد نصف الليل ، فاصبح شاكياً قلق فراشه ويبوسته ، مع أن الوالدة نفشته أيّ نفش، ولكن التخت خشبي وبلا رفّاس، فبيت ابراهيم من المحافظين ما زال كما فارقه .

وجاء الجيران مع الصبح ، فقعد يحدثهم بابتسامة اكتسابية . رأوه شاباً كبير الظل ، أخذ التعب شيئاً من نضرته أمس ، أما اليوم فهو عظيم جداً : شاربان قاعدان كانه الزناتي خليفة . سألوه عن « توفيقه » فشكر ربه برطانة [1] المهاجر الحديث العود . وبعـــد أيام قاطع على ألوف من الحجارة ، كما يفعل المهاجر « الموفق » ، فتحدثت الضيعة بذلك أياماً ، ودبت الحياة في مقالعها المهجورة .

أما سمنجون ، وهي بيت القصيد ، فشعرت بهبوط درجة الحرارة مذ رأته وحدثته . كانت تتوقع تجاوزها الحد فإذا الأمر بالضد . فقالت في نفسها : لم يتغير فيه شيء . هو هو . ولكن هناك شيئاً صعباً فهمه . هذا الابراهيم غير هذاك ، وإن كان إياه . أما كيف فما أعرف ... منذ خمسة عشر عاماً و« برهون » ملء قلبي واذني،فما لي اذ جاء لا أرى تلك اللهفة؟ ما لذكريات الصبا غافية لا تفيق ، وقربي منـه لا يرغبني فيه ؟ عجيب ! لما كنا وليدات كنت أحبه أكثر .

ووزع ابراهيم هداياه على الاخصّاء من مواس ، وساعات ، وأقـلام حبر ، وخواتم ذهب اميركي ، وغير ذلك . وحمل الى سمنجون الساعة

---

(١) رطانة : كلام نطقه غير مفهوم .

الثمينة مع سلسلتها الطويلة من الذهب الخالص ، والخواتم ، والأساور ، فترطب قلبها وتندى . ولكنها تذكرت دملجاً [1] زجاجياً أهداه اليها في الصغر ، قبل المجرة ، فرأت أن تلك الزجاجة الزرقاء كانت أحب الى قلبها من هذا الذهب والالماس ، فما سرّ ذلك ؟

وأدرك إبراهيم أنه لم يظفر منها بتهافت العشاق رغم الهدايا النفيسة، والبيت العظيم الذي بلغ الأعتاب ، فاخذ يتفاصح ويتظرف ، وإذا بالأمر بالعكس ، فهو غائباً عن العين أقرب إلى القلب . تتأمله سمنجون فتقول في نفسها : « رجولة تامة . غنى وافر . جاه [2] يمتد بسرعة الغيم . هذا مطران الأبرشية شرّف للسلام عليه ، وتهنئته بالرجوع . ومدير الناحية يجيء بعد يومين . و « البروش » [3] الذي أهداني إياه في السهرة الأخيرة يسوى مائة ذهب، فما أريد بعد ؟ ليس هناك رجل آخر أحبه لأقول قلبي مشغول ، فما هو السبب يا ترى ؟

« يتحدث إبراهيم عن شأنه في المهجر أحاديث تحبب وترغب. وكلما أمعن في أحاديثه جدّ قلبي في الهرب ، فما العلة يا ترى ؟ قصتي عجيبة ، والله ! »

وأتى المدير ليهنىء بالعود الأحمد ، فبالغ السنيور إبراهيم في إجلاله وتكرمته . أعدّ له غذاء ملوكياً قلما أعدّ مثله في البلاد . ودارت الأنخاب

---

(١) الدملج : حلي يلبس في المعصم .

(٢) الجاه : القدر والشرف وعلو المنزلة .

(٣) البروش : حلي يلبس على الصدر .

على المـــائدة ، فأثنى صاحب العزة على كدّ إبراهيم وجدّه ، ورفع اسم الجالية عالياً بما أنشأ من روابط متينة مع رجال الدولة في « الريّـو » . وأخيراً رفع المدير كأسه شارباً نخب المهاجرين جميعاً بشخص زعيمهم برهون ، وتمنى عودتهم جميعاً غانمين مثل ابراهيم أفندى » .

فهزّ شيوخ القرية رؤوسهم إعجاباً عند كل جملة ، خصوصاً حين قال عزّته : « ابراهيم أفندي » .

أما سمنجون فكانت حاضرة كالغائبة . واستؤنف الأكل والشرب . ونثرت النكات والأحماض[1] التي هي مسرح القرية وحياتها . فانتشى ابراهيم وأفاض في سرد ما عنده من نوادر وفكاهات محفوظة ، وأكثرها تدور حول المرأة ، وختمها بهذه الحكاية فقال :

« تزوج عزرائيل إمرأة مترجلة كانت تتحكم فيه فرزقه الله ولداً اختارت له أمه الطب مهنة وأجبرت زوجها عزرائيل على أن لا يقبض روح مريض يعالجه ابنهما ، فأطاع حتى يستريح من شرها . وبعد حين كره عزرائيل الحيـــاة مع زوجته المتأمرة ، فهجر البيت ، ولكنه ظل يلتقي بابنه عند المرضى .

« ومرضت الملكة مرضاً عضالاً عجزت عن مداواته حكماء الدولة ، فدعوا لها ابن عزرائيل ، فتركها له أبوه حسب الاتفاق .

« وعاشت الملكة طويلاً ، فوبخ الرب عزرائيل ، فصمم على قبض

---

(١) الأحماض : كلام التسلية المرحة .

روحها . ودعوا ابنه فجاء ، ولكن عزرائيل ما تزحزح هذه المرة . ولما عجز الابن عن إخراجه أخذ يفكر ، فما وجد حيلة أنفع من أن يتهدده ويخوّفه بأمه ، فصاح به : أبي ، أمي ورائي . اهرب .

« ولما سمع عزرائيل ذكرها طاح كالمجنون . وصحت الملكة » .

أضحكت الحكاية النـــاس إلا سمنجون ، وفي الغد ردّت عليها ردّاً قاسياً ، فاعادت الى ابراهيم هداياه .

قصَّر هيكل عن العلم صبياً فشبَّ هبَّالاً [١] واكتهل دجَّالاً [٢]. عصاه بنت عم المخل، وحبَّات سبحته كمح [٣] البيض كثافةً ولوناً. يلوّح بإحداهما لمن يناوحه على الرصيف الآخر. في عروته نسيلة [٤] صفراء يزعم انهـا شارة وسام رفيـع استحقه في الجبهة الغربيـة التي شهد معاركها

(١) هبّالاً : كذاباً محتالاً . (٢) دجالاً : يظهر خلاف ما يبطن .

(٣) مح : صفار البيض .

(٤) النسيل : ما يسقط من الصوف عند النسل وهنا قطعة من القماش صغيرة جداً .

متطوعاً ، وكان يدهده[1] الجماجم في الخنادق كرؤوس البطيخ .

هيكل مفري[2] الشفة العليا خلقةً ، ويزعم لك انـه جرح بطولةً جرحاً كان قتله لولا لطف الله ، وصلاة أمه ، ودعاك .

رأسه برّاق مدوّر كقالب جبن فلمنكي ، يجتمع فيه النقيضان : في القمة بقية وبر كصوف السنانير ، وفي المنحنى شعر مثل شوك القندول . يصح في تلك الكرة ما قاله برنارد شو في لحيته الكثة وصلعته الجرداء : كثرة انتاج ، وسوء توزيع ...

يلاقيك هيكل مبتسماً ، ويسالك على الفور : كيف حال من فارقت؟ وإذا قلت له : تعرفني ؟ من أنا؟ حكّ صدغه ، وعضّ جحفلته[3] بأسنان كحب الفول المسوّس . ثم أطرق إطراقة الافعوان ومغمغ : اسمك ، اسمك ... على رأس لساني ، حتى إذا ذكرته خاصرك وتمشى وهو يقول : اوفّ .

ثم يقف محاولاً تقديم سيكارة لعلك تسبقه الى تلك المكرمة ... وان غفلت أو تغافلت تقصّى جيوبه ، ثم قال : هات سيكارة ، نسيت علبتي عند فلان . ويسمي لك إما وزيراً وإما مديراً .

ومن مواهبه النادرة أنه يرود الأرض في دقائق معدودات، فإن رأى قلة خيرك انصرف الى غيرك .

مسرح هذا البطل ساحات دور الحكومة، وأروقتها. فهو «أبو فتح»

---

(١) يدهده : يدحرج . (٢) مفري : مشقوق .

(٣) جحفلته : شفته .

جديد،يتصيّد في الحرام وعلى عيني وعينك يا تاجر.هناك ـ في السراي ـ يعرض خدماته على الوارد والصادر، وخصوصاً على من لا ظهر له . ولولا همته القعساء ـ كما يقول ـ مات حق الفقير .

صنّارته ، في تصيد العوام ، تحيةُ المامورين القادمين الى الدواوين ، فإن ظفر بكلمة من أحدهم فاز بطعم كثير الخير والبركة .

إذا وفد قوم على السراي زجّ بنفسه بينهم ليقول بعـــد الخروج للمغفلين : هـــذا وفد من القرية الفلانية . كان ميعادهم أمس ، وجاؤوا اليوم . عرّفناهم بمعالي الوزير . مساكين ، راحوا شاكرين حامدين .

ويغادر هيكل السراي مع المامورين كانه واحد منهم.يكمن لطرائده عند باب أحـــد مقاهي ساحة البرج كمون العنكبوت للذباب ، حتى إذا استحوذ على جليس هاها بصبيان القهوة وصفّق لهم، ثم يتلطف ويقول: اطلب ، فنجان قهوة ، قدح بيرة ، كاس عرق ، قنينة كازوز ، تحب وسكي ؟ أبداً غير ممكن ، لا بد من شيء .

وإذا امتنعت أنت طلب هو ، فتشرب على صحته ، وله الغنم وعليك الغرم ، فأساليبه في التغافل عنْ الدفـع غريبة عجيبة . ان خاف ان تنزل به الكارثة ابتدر وابتكر . فكل مارّ على الرصيف ، شرط أن يكون من ذوي الجثث الضخام، هو عنده إما موظف كبير، أو زعيم خطير. ينهض له هيكل إجلالاً واحتراماً . فإن ردّ التحية قـال لك : هـذا فلان بيك ، صديقي جداً . وإذا أوما ذاك المار برأسه او يده أوهمك هيكل انه دعاه وله معه كلام .

ـ انتظرني ، أنا راجع حالاً .

وهكذا يرهنك عند صبيان المقهى كما رهن الغراب الديك في الاسطورة المشهورة .

وتلتقيان بعـــد حين فيعتذر ويدعوك الى فندق شهير فيطعمك ويسقيك . فإذا رأى منك الجد، حرن[1] في منتصف الطريق، وصكّ[2] وجهه صكة مشؤومة ، وصرخ صرخة ترتعد لها : عليَّ موعد، الله يخزي الشيطان ، كيف نسيت ! فلان ـ ويختار من الأسماء الرائجة أوقعها في نفسك ـ يكون قاعداً على نار .

ثم ينفخ كالثور ويقول : اوفّ ، ما أثقل البشر ، خنقوني يا عمي . صدقني إذا قلت لك : لا أرتاح دقيقة . من بيت وزير الى بيت مدير ، ومن عند رئيس الى محافظ . من دائرة الى دائرة ، ومن محكمة الى محكمة . وفوق التعب تدفع من كيسك . كلّت[3] عيني يا انسان .

ثم يتنهد ويجاوب عنك : المسالة بسيطة ، من لا يحس مع النـــاس لا يكون من الناس ، انما مصيبتك فيهم انك اذا قصَّرت عن مسألة قامت قيامتهم . أأنا رب العز حتى اعمل كل شي؟

وتغترّ بهـذا الكلام فتكشف له عن وجهك وتفضح نفسك عنده ، فيقبل عليك ببطنه المندلق[4] ، وقوائمه القصار ويقول : يا مرحبا بك.

---

(١) حرن : لزم ولم يفارق ، توقف .

(٢) صك : ضرب ضرباً شديداً ، لطم . (٣) كلّ : تعب وأعيا .

(٤) اندلق : خرج من مكانه وهنا اشارة الى كبر بطنه المتدلي الى أسفل.

قضيتك عند سعادته ، أي عند القاعد على نار . الآن هو في بيته . رخّص لي . أين ألاقيك الصبح ؟ في القهوة ؟ انتظرني هناك .

وهكذا يدلك السفرة على الطريق ، فيربح المعركة الثانية ، وفي الغد يربح الثالثة .

يصبّحك بقصة ملفقة : سعادة البيك ــ القاعد على نار ــ طلع إلى صوفر . ولكن التعب ما ضاع : سهر هيكل في بيت رفيع العماد ، كثير الرماد ، وصاحبه طويل النجاد ... هناك ، لحسن حظك ، التقى سيدة تقدّم وتؤخر ، ينام البيك على يدها ، تزوّد منهـــا بطاقة توصية تحرق العشب . ثم يريك ظرفاً مخربش العنوان باسم جناب البيك ، ويسألك كراء سيارة . وبعد أن تتدهور فلوسك في هوّته يودعك : فلا تؤاخذنا يا شيخ . ويلتفت بعد ابتعاد خطوات ملوّحاً بسبحته قائلاً بابتسامٍ : ادعُ لنا بالتوفيق .

وإذا اعرض عن هيكل ذو حاجة أو استخف به، بثّ حوله وسطاءه وسماسرته فقالوا له : هيكل رجل داهية ، عفريت . الدنيا وسائط ، لا توكّل أحداً. ثم يعددون له ما حلّ من مشاكل كبار عدا الصغار ،أصحابها إما موتى ، واما غائبون ، أو مجهولون .

اما هيكل ، وهو من المغامرين في الثرثرة ، فعنده لكل مقال مقام . يلجأ هنا إلى ما قلّ ودل ، فيتطلع تطلع النسر، ثم ينحني صوبك ليهمس في أذنك : الكبير منهم بيدي مثل الخاتم في الخنصر . وإذا بانت في وجهك دهشة قال لك باستهتار : نعم ، نعم . كبّر وصغّر يا سيدي .

ويتعرم عليك هيكل مشيحاً بوجهه عنك . فيقرصك الوسيط قرصة لاذعـــة ليقول لك : صدّق يا سيدي . ويروي لك واحدة من خوارق الأستاذ هيكل ويختمها بقوله : الشكران في الوجه مذمـة . ثم يغمزك صاراً أصابعه ، مرجئاً الحديث لئلا يجرح تواضع الأستاذ بلا علم ...

الناس مغارس ، وكذلك هم هؤلاء الدجالون المبالون ، إذا مات منهم سيد قام سيد . قلما يخلو منهم بلد . أما هيكل فهو رجل الساعة . له في كل عرس قرص . ينشر في الصحف كلاماً يتملق بـه اولي الأمر كما تتملق هرّتك بحك جلدها ، فيمسي مقرّباً منهم ولا حاجب عليه ولا بوّاب .

قد ينقع الحرّ الكريم عند أبوابهم ساعات ويأتي هيكل فيجره بطوقه، وان احتشم فبطرف ردائه كأنه يدعوه إلى مأواه . حتى اذا توسط بـه الديوان قدمه الى صاحب الكرسي على انـه بيضة البلد وزعيم المنطقة ... وبهذا ينفتح فم محفظتك ، ولو كان مصاباً بالكزاز [1] ، لمن وقاك مهانة الابتذال وذل الوقوف على الأبواب .

وصدّق هيكل نفسه فغرّته عينه بجميع البشر . واتجه حديثه اتجاهاً جديداً لما كبر ، فصار يقول : أمس كنا مع فلان في « البار الفلاني » ، وأول من أمس كنا في « السرك » الفلاني . خسر أكثر من ألف ليرة ، شرب حتى تلف . ثم يدق على صدره مؤكداً : أنا وصلته الى بيته . منذ عشرين سنة لا نتفارق ، مثل اللحم على الظفر .

---

(١) الكزاز : مرض تقبض ويباس ، وأيضاً البخل .

وذكروا له، في إحدى السهرات، شاباً ولي الرئاسة قبل إبان الرئاسة، وسالوه : منو [1] مفتاحه ؟

فضرب هيكل صدره البهم وقال على الفور : اعرفه مثلما أعرفكم. كان المرحوم أبوه يعزني ـ الله يعزكم ! كان ـ الله يرحمه ، ويرحم اموتاكم جميعاً ! ـ يقول لي: دبّر الصبي يا هيكل ، أنا متكل عليك. أمس رافقته الى الجبل لزيارة شخص عظيم ورجعنا موفقين . مستقبله عظيم . هكذا تنبأت لوالده . يا ليت والده عاش ليراه على الكرسي ، ولكنه ، في كل حال ، مات مجبور الخاطر .

فقال صاحب الدار : لهذا الشاب ـ ودلّ على أحد الساهرين ـ دعوى في محكته . يدفع ثلاثمئة ليرة ان ربحها .

فانبسط هيكل وكاد يخرج من ثيابه وقال : خذوها من لحية عمكم هيكل .

وضربوا له موعداً فأتاهم ، وقال وهو يقعد : على العشا قلت له : يا صبي ، دعوى فلان تهمني . احزروا ماذا قال ؟ وحياة عيونكم قال : خذها من عينيّ التنتين يا عمي هيكل . ما ذكرت له المبلغ حتى اعرف ان كان يذكر الفضل . مسكين ، والله ما نسي . ولكني أخيراً أخبرته .

وبعد أخذ وردّ قبض هيكل المبلغ وودّع . فما بلغ الباب حتى استوقفه الشاب ، صاحب الدعوى وقال له : تؤكد ، يا خواجه هيكل ، انك تعرف القاضي ؟

---

(١) منو : من هو .

فهزّ هيكل برأسه وقال : يا سبحان ربك ، نحن نغني في الطاحون ؟ قلت لك تعشيت أمس عنده .

وكان صمت غير طويل تحدثت في أثنائــــه عيون القوم ، فادرك هيكل أن الفخ انطبق ، ولكنه تماسك وقال : ان كنتم لا تصدقوني فهذا مالكم .

وبينما كان القاضي يسترد المـــال أراق على جوانب شرف هيكل الرفيـع شيئاً غـــير الدم ... فاستخذى هيكل وخرج وهو يمسح وجهه بكمه .

بعد معارك طاحنة وطويلة الأمد ، قطع ابراهيم الشوط الأول من البكالوريا ، ثم قصّر في عقبة [1] الفلسفة فقعد حسيراً ملوماً . وصبا الى الجامعات فما فتح له الجزء الأول من البكالوريا أبواب معاهد الحقوق . فقلع ثوب « جنسيته » وجاءها متنكراً بهوية غريبة ، فقبل على الرحب والسعة .

(١) عقبة : منتصف الطريق الصاعد .

ورسب عدة سنوات فيئس وطلّق الحقوق ثلاثاً. التفت يمنا وشمالاً فلم يجد خيراً من « الباب الواسع » فولجه ، وأخذ يعدُّ الصحف بالأخبار المحلية ، فاحسّ النـــاس بوجوده . ثم تخطى الى معالجة سياسة البلد ، وشؤونه الداخلية ، فانفتحت له أبواب ضواطير السياسة ، فأمسى وإياهم يمرحون في صعيد واحد ...

وتذكر ، بعد حين ، انـــه عرض على معلمه ، حين كانوا يتعلمون العروض ، ما قرزم من شعر ، فقال له : انك ستكون قوّالاً [1] . فهاجم أحد الرؤساء بقصيدة وقعت منه موقع استحسان لأنه طعن بها على السلف وقدّس الخلف . وأعـــاد الكرة في مناسبة اخرى فحك للممدوح حكاً أرضاه فقرّبه وأدناه . فهـام صاحبنا في أودية الشعر ، ثم طمح الى القمم مستعيناً بالصحف فجعلته الشاعر الكبير ، فمات من الفرح .

ورأى أنه يحسن « الريبورتاج » فأخذ يمتحن ما يجريه قلمه من الأنهار في صحارى الصحف ، فرأى فيه عناصر القص ، فشاء أن يكون قصصياً كبيراً ، كما صار شاعراً كبيراً بباعه وذراعه ومعونة صحف كان يغمرها باخباره الملفقة .

انكبّ على قراءة بلزاك واستندال ودوستويفسكي ، فما رأى عندهم معجزاً . رأى انه مثلهم ، وأنه يستطيـع ما استطاعوا ، فتمخض ووضع قصة عجيبة . لفّ المولود الجديد بأقمطة برّاقة ، وطاف بتحفته على دور النشر ، فوعدتـه بمطالعتها ورد الجواب . وبعـد اسبوع أعيدت اليه مع

---

(١) القوال : منشد الشعر العامي .

الشكر ، فغضب وسبّ دين بلاد ليس فيها من يتذوق الأدب السامي ، وأخذ يعلن في الصحف التي يراسلها عن قصته العجيبة، ويعد العالم العربي بظهورها قريباً . ومما كتبه في أحد الاعلانات :

« فريدة ـ قصة جديدة ... مؤلفهـا الشاعر الأكبر ... فتح جديد في لغة الضاد .

« فيها اشتباكات دياس ، ووصف زولا : وتحليل دوستويفسكي ، وعوالم بلزاك ، وشخوص شكسبير ، وخيال شاتوبريان . هي القصة التي يحل بها الأدب العربي محله العالمي ، فليبشر أبناء الضاد فقد صار لهم أديب مسكوني »[1] .

وبعد هـذا الانذار كرّ على دور النشر ، فظلت هادئة الأعصاب ولم تندحر أمامه ، فرأى أن يعمل بقول المثل : ما حكّ جلدك مثل ظفرك. فعزم ، بعناد ، على أن يكون مؤلفاً وناشراً ، فدفع قصته الى كاتب شهير ، فقدمه الى القراء ، وتعاونا تعاوناً وثيقاً على غزو العقول ، فصدرت المقدمة مرقومة بالحروف الأبجدية ، عشرون صفحة علّـم فيها الكاتب الشهير الناس كتابة القصة واتخذ لها نموذجاً قصة « فريدة » ذات الحوادث العجيبة ، والتصوير الغريب ، والتحليل النفساني الذي لم يدرك استندال بعضه ، ولا دوستويفكي أقله .

وظهرت القصة الفريدة فاستقبلتها الصحف المعلومة بالتهليـــل والتكبير ، وعظّـمت صاحبها أيما تعظيم. أما الأدباء الحق فصمتوا . ونعم

---

(١) مسكوني : عالمي .

إبراهيم بشهرة صحفية واسعة ، ولم يكتف بما استجداه من ثناء الأقلام الجوفاء ، وبما كتبه هو عن نفسه بلسان الآخرين ، فطمع باستدراج النقاد الكبار ...

وبلغ به حب الشهرة حد الوسواس[1] ، فإذا جالسته أخذ يستدرجك الى التنويه به والثناء عليه . وكلما فتحت فاك لتقول كلمة تبتدىء بالفاء والراء ينتفض ظاناً أنك ستقول شيئاً عن فريدة ... حتى إذا أيأسته من هذا جال في ميدان البحث الأدبي ، وتفوّق على ابن الأثير في مدح نفسه ، ورأى انه أغزر ألواناً من جبران .

ونام ذات ليلة حزيناً . ضامه ركود الثنـــاء وهو ممن يحبون أن يُذكروا كل يوم ، فقال في قلبه : الشهرة أقصى أماني الرجال وخصوصاً الأدباء .

وبعد أن استرخى في فراشه رفس اللحاف وقعد يحسب ما ربحه من سوق الدعاية ، فعزم على انفاق ما جمع في أشرف السبل . وبعد محاولات هدأت أعصابه ، فنام ، وملء قلبه أمل لا حد له ولا طرف .

وبكّر في الغد للاصطباح عند أحد أصدقائه ، وسأله أن يؤدي له خدمة لا تكلفه شيئاً . وعرض عليه الفكرة . وبعد أسابيع كان احتفال في أكبر فنادق الثغر . « علفة »[2] لها ما بعدها أقيمت على شرف القصصي العظيم .

---

(١) الوسواس : مرض يحدث من كثرة الكدر فيضعف الذهن .

(٢) علفة : وجبة طعام .

قام الشعراء والخطباء بما وجب . وتقدم أناس معدودون لهذه المهمة وسالوا المؤلف أن يوقع على نسخ من قصة « فريدة »، ففعل ذلك بتواضع. وفي الغد ظهرت كلمة في جريدة رصينة هذا نصها :

« حقاً إن الأدب مهزلة في هـــذا البلد . اذا أقيمت حفلة على شرف مؤلف « فريدة » فماذا نترك لمؤلف تغريبة بني هلال ؟ يا ضيعة الحبر تسوّد به صفحات لا تبيض وجه البلاد ! كان قد هان علينا الأمر لو لم يمثلوا هذا الدور المضحك المبكي . ولو درى المؤلف المغفل أنهـــا مهزلة لاختار طريقاً أمثل من الطريق الذي سلك . ان سكون ريح النقد عندنا جرّأ زعانف [1] الأدباء على التاليف . ولولا التدجيل الذي يؤدي الى التضليل لظلّ صاحب « فريدة » في حقله ، ولم يقتحم الغابات العذراء التي لا يرتادها غير النوابغ ... فما دامت الأقلام تحابي وتكتب ما يوحى به اليها فلا ينتظر أن يكون لنا أدب صحيح . »

وفي غرفته التي رتبها ونظمها على طراز فني ، قعـد صاحبنا تحت المصباح الكهربائي المحجّب بمظلة بنفسجية يطالع « رسالة الغفران » . وجاءه أحد أعوانه بالصحيفة فقرأ ما كتبه بحيرة ودهشة وقال في نفسه : يا للعجب ، ان قصتي لمامة ، الفصل الأول من عند موباسان ، والثاني أخذ عن فلوبير ، والتحليل لدوستويفسكي ، والغرائب عن ادغار بوودياس ، والتعابير أكثرها عن فصحاء العرب ، فكيف لا تكون قصة « فريدة »

(١) زعانف : جماعة وأيضاً القصر .

فريدة ؟ الحق مع المتنبي والشعراء الذين قلدوه فيا بعد: انه الحسد، فاكثر النقاد حساد ... فليفطسوا .

ثم بدا في وجهه غضب حليم ، فضرب مكتبه بجمع يده وقال : أنا خالد ، وكتابي خالد . غداً تقدرني الحكومة فتزين عنقي بقلادة المجد ، او تبصم صدري فيشع عليه نجم الافتخار . وقد ألفت منذ اليوم لجنة تعنى بتكريمي وتلتمس ذلك .

وجرّه الحزن العميق الى وادي الكرى ، فرأى انه في العالم الثاني ، العالم الذي لم يره ، ولكنه قرأ وصفاً له . رأى نفسه في كوخ حقير ، ليس فيه غير حصير مقطع ، وقربه كوز معشوشب، وليس حول ذلك الكوخ غير قندول ، وعجرم ، وعليق [1] ، فلم يعجبه ذاك المصير .

والتفت فرأى من بعيد رجلاً ينظر اليه ويبتسم، فقال له : من أنت؟ فاجابه :

ـ ما عرفتني ؟ أنا الصاحب بن عباد . لقد متُّ بموت دعاتي ، ومات معي من دعوت له كذباً وزوراً ، وعاش بعدي وبعده الشاعر العظيم . كان يجب أن تعتبر بي ، فكل ظل يزول إلا الأدب الصحيح . فسبحانه، انه الحيّ الباقي .

---

(١) قندول ، عجرم ، عليق : نباتات شائكة .

ما لمت عاصفة الانتخاب أذيالها حتى انقضّ القرويون من جبالهم الصلعاء على العاصمة ، يلوّحون بعصيهم ونبابيتهم[1] ، وعلى رؤوسهم لبّادات[2] كقوالب السكر ، معصبين عليها بكوفيات مختلفة الألوان . السكاكين المزرعانية والخناجر الجزينية مشكوكة في زنانيرهم العريضة .

---

(١) النبوت : العصي الطويلة ذات الرأس المكور .

(٢) لبادة : لباس الرأس وهي من الصوف عادة .

وفي يد كل فتى معتدّ بنفسه طبر[١] ودبوس[٢] . وفي كل هنيهة تنطلق غدارة[٣] فتوقظ القمم الغافية حول الطريق .

لم يبق في القرى إلا الحزب المقهور ، تأكل قلبه الخيبة ، وينتفض كلما قرع الجرس ، أو غنّـي بيت « عتابا » أو « ميجانا » يحسب كل بادرة في القرية نكاية وتحرشاً به .

مرّت الوفود عجالى على ساحة البرج يعرب هزجهـــا عن الفرحة الكبيرة بفوز « النائب » الكريم ، وان كان أكثرهم لم يروا خلقته ... يتقدم كل ضيعة زعيمها الذي زرع الدنيا آمالاً وأماني ، حين دعا للنائب مأجوراً أو موعوداً ... فريق أكبر همه عزل المختـار المستبدّ ، وفريق يرى كل النصر في فضّ البلدية وتعيين الرئيس والأعضاء من أفراده . وجماعة يحلمون بشق الطريق ، فضيعتهم من لبنان عند الجابي ، وليست منه ساعة اقتسام الميزانية ... هي حبيبة قلب النائب حتى مساء يوم الاقتراع ، ويغيب عنها وجهه الكريم ووجه سماسرته مع غياب شمس ذلك النهار . وجماعة ينتظرون الميـــاه ، فقد أسقمتهم مياه الآبار الموبوءة . وجميعهم موعودون « بمدارس » يتعلم بها أولادهم الهمل[٤] .

أما قيدومهم[٥] فتوظيف « ابنه » يشغل باله ... «فالمحروس» حامل

---

(١) الطبر : الفأس من السلاح .

(٢) الدبوس : قضيب من الحديد له رأس مكور .

(٣) غدارة : مسدس بدائي كان يحشى بالبارود والبندق حشواً .

(٤) الهمل : المتروكون بلا رعاية .

(٥) القيدوم : السائر في طليعة القوم .

السرتفيكا ، والسرتفيكا اللبنانية تخوّل حاملها حق فتح مدرسة ... ووجيه القرية تعب وضحّى ، ولولا مساعيه المشكورة لم تقم للحزب قائمة . أما كان الفرق سبعين صوتاً بين الجلي والمصلي ؟ إذاً فاصوات ضيعتنا هي التي أمالت الكفة. ومن قال غير هذا نفقاً في عينه حصرمة... لو ضوأوا أصابعهم العشر قدامنا ظلوا مقصرين . هكذا كان يقول في قلبه

كل هذه المآرب تكوّمت حول بيت «النائب» الذي ملأ الدنيا وعوداً لو تحقق واحد منها لباهى لبنان سويسرة.ضاقت ساحة البيت على الوفود التي تنصبُّ فيها ، فتصادموا بالرؤوس والمناكب ليفوزوا بطلعته البهية. وحميت الجاحشة بين الوجهاء على الدنو من جنابه ، وهزّ يده بحرارة على عيون الناس ، فالعظيم من وقف حده .

كان استقباله لهم مرضياً ، وان قلّ عرضُ ابتسامته بعض الشيء ، وهزلت هشاشته وبشاشته عن ذي قبل . لقد غاض كثير من ذلك اللطف العرمرم الذي بدا منه حين زار الضيعة . كان ينحني فيها احتراماً للمكاري[1] والمعّاز[2] ، وقد خلع كتف الخوري حين انكبّ على يده يقبّلها إظهاراً لتقواه.واليوم يستقبل برخاوة يد حتى أبو طنوس الذي فتح بيته ، وسيّب[3] معجنه للمصوّتين مدة « المعركة » .

لم يدرك العوام ذلك فظلوا يحدون ويتهددون خصمهم. كانت أغاني

---

(١) المكاري : الذي ينقل الأمتعة على ظهر الحيوانات لقاء أجر .

(٢) المعاز : الذي يسوس الماعز .　　(٣) سيّب : ترك بدون حراسة .

القوّالة [1] تملأ آذان النائب فيفرح بالثقة الكبرى ، والشعبية القوية التي لم ترَ بيروت مثلها. ويلتفت الى زميله قائلاً وهو يهز برأسه: قلوب طيبة يا هو ، ما شلاّ ه [2] ! فيضحك النائب الآخر ويقول : وجماعتي أطيب !

كان وجه النائب يعبس حين يذكره « المازجون » [3] بوعوده الغزيرة . ولما جاء دوره خطب فيهم وأجاد الشكر ، وقال انه لا يضن على أنصاره بشيء حتى روحه . فصفقوا تصفيقاً حاداً ، وأطلقوا آخر ما معهم من خرطوش ، وعادوا الى ضيعتهم يبتهرون [4] ويتهددون . فنبض نائبهم قوي ، كما كان قبل الانتخاب ، وان انكمشت ابتسامته واصفرّت قليلاً ...

وانتظروا مهندسي الري والطرقات ، وترقبوا الصحف ليقرأوا مراسيم العزل والتوظيف وفتح المدارس . تذاكروا شؤون حقولهم التي تصلح جنائن ، والطريق المزفتة التي تنقل ثمارهم العتيدة [5] الى أسواق المدن . واستعرت [6] نيران المنافسة بينهم على من ستكون جنينته أحسن، وأخيراً تركوا الحكم للأيام ... وكان حكمها قاسياً ...

أما « صاحبهم » فكان مشغولاً بنفسه ، يعللها بمنصب أسمى ، ويستغل تلك المظاهرة. فهاب المصطلعون بالحكم «شعبيته» وأصاب السهم المعلّى [7] .

---

(١) القوال : منشد الزجل . (٢) ما شلاه : ما شاء الله .

(٣) المازجون : منشدوا الأفراح .

(٤) يبتهرون : يفتخرون بالادعاءات الكاذبة .

(٥) العتيد : المنتظر . (٦) استعر : اتقد ، انتشر .

(٧) المعلى : سابع سهام الميسر .

وانتظر جماعته حتى ملُّوا. عملوا حساب فضلهم عليه فوجدوا انهم لو لم يؤيدوه لكان اليوم يبيع مما يملك ليفي ديونه . إذاً فلهم عنده دين مستحق ، وما عذره ، وهو رجل الساعة ؟ واذا كان اليوم لا يعمل فمتى؟

وخرجوا من الكنيسة يوم أحد قال فيه الانجيل : اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم . فقال عقيدهم : نخوة[1] يا شباب ، اذا كان سيدنا يسوع المسيح ، وهو أبو الرحمة ، لا يعطي بلا طلب ، ولا يفتح لأحد بدون دق باب ، فكيف الحكومة ؟

وبعد التشاور وجهوا اليه ثلاثة انتخبوهم بعد جدال عنيف،فاستكان على مضض من ظنوا ان القرعة تصيبهم .

ومكث الوفد اسبوعاً في العاصمة حتى قابل الزعيم ثلاث دقائق ، وعاد من عنده مثقلاً بالوعود . وبعد أشهر ظهرت الميزانية وليس فيها شيء . لا طريق ، ولا مـاء ، ولا مدرسة ، ولا موظف ، ولا ولا ... فغضبوا غضبة مضرية ، ولكنهم بلعوها خوف الشماتة ... وكان صاحبهم يعلو ويسمو وآمالهم تكبر وتنمو ، ولا شيء يتحقق . شعاره معهم قول المثل العامي : اسقيك بالوعد يا كمون[2] .

وأخيراً عوّلوا على اقتحام المدينة جميعاً ، مهنئين ومطالبين «نائبهم» الجالس سعيداً على كرسي الحكم . واذا لم ينجحوا اتخذوا خطة أخرى ، وتعلموا درساً جديداً من الحوادث .

كان عهدهم ببيت « النائب » صغيراً ، وهو في شارع كذا ، فإذا به

---

(١) نخوة : مروءة .

(٢) كمون : نبات بذره من الأفاويه مثل يضرب لعدم الوفاء .

صار قصراً،وحوله عرصات فسيحة ظهروا قليلين فيها،فتهيبوا الموقف. على البوّابة جندي يخفر المدخل، فدخلوا الباحة بعد الاستئذان، وحاولوا الارتقاء في السلم الرخامي ذي الساعدين المعقوفين فمنعوهم . والتمسوا مقابلة « صاحبهم » فقيل لهم:مشغول بشؤون الدولة، خارجية وداخلية!

استقبلهم بالنيابة عنه أحد رجاله ، فأصروا على مقابلته هو لأن لهم قِبَله مطالب وليسوا بالمتطفلين عليه .

فأجابهم : اكتبوها ... فهز أحد الأهالي رأسه وقال: كأنك لا تعرف قول المثل عن الحبر والورق ؟

وصاح الجمهور : أين صارت الطريق ؟... ففات الرجل مَثَل الحبر والورق ، فضحك وقال لهم : معاليه مهتم بها .

ـ والماء ؟

ـ أيضاً .

ـ والمدرسة ؟

ـ أيضاً وأيضاً .

ـ والبلدية والمختار والناطور ؟

ـ كله يصير .

ـ هذا كلام سمعناه مرات.قل له يطل علينا على الأقل.لنا حديث معه.

ـ هذا غير ممكن الآن ، في رأسه ألف مشكلة . دوّخه شغله الكثير.

فقال جسورهم : ونحن تركنا شغلنا وقابلناه لمـــا زارنا ، وتقاتلنا لأجله . يتخبّا كأنه لا يعرفنا ؟

فقلب الكاتب شفتيه ، وهزّ كتفيه... وانفتحت البوّابة بعنف ، فدخل وسفق[1] الباب خلفه. فعلا الصراخ والصياح ، ولوّحوا بالنبابيت والدبابيس والعصي ، فهرع الخفير الى التلفون يطلب قوة تردّ الرجال المحمرّة عيونهم عن بيت الزعيم . ولكن شيئاً من هذا لم يقع .

وقع حادث غريب جداً . تحقق حلم سلم يعقوب الذي امتد بين السماء والأرض فصعدت عليه الملائكة ونزلت . هـذا سلم قصر الزعيم يقف في الجمـــاعة خطيباً . استحال ساعداه يدين رهيبتين أشار بهما الى الحشد فخرجوا جميعاً ، وأصغوا اليه بأفواه نصف مفتوحة ، فقال لهم :

« يا اخواني ، تريدون دخول القصر العظيم ، هيهات ، هيهات . في الدنيا سلالم مختلفة : سلالم حجرية ، سلالم خشبية ، سلالم من لحم ودم ، وأنتم واحد منها .

« أما سمعتم قول ذلك الفيلسوف : كانوا سلّماً لي فصعدت عليهم . ولذلك اضطررت الى دوسهم لإتمام سيري. أما هم فحسبوا أنني أستخدمهم للصعود والاستراحة عندهم .

« مساكين أنتم يا جماعة ! أنا أحمل النـاس على ذراعي ليدخلوا القصر الشاهق ، فما كافأ منهم بمسح أرجلهم بجبهتي . يستندون على أصابعي لئلا يسقطوا ، واذا دخلوا قعدوا يتنادمون ويسمرون ، وأظل خارجاً ، أقاسي حرّ الصيف وبرد الشتاء ، واذا منّوا عليّ فبقليل من المـــاء ، ومكنسة عتيقة ليذهبوا أقذارهم عن سواعدي وصلعتي[2] .

---

(١) سفق : ردّ ، لطم بعنف . (٢) الصلعة : الرأس المتساقط شعره .

« أنا سلم . أما أنتم فسلالم ومطايا تحملون الذين يصعدون على ظهوركم ورؤوسكم وأعناقكم . اقسم لكم بالله انني ما دخلت القصر ، وكثيراً ما ينسفونني ويهدمونني اذا تعرّضوا للخطر ... نحن في الهوى سوا يا اخواني ... » .

وتعجب الخفراء من صمت الجمهور العميق وتحديقهم الى القصر ، فقالوا لهم : لا تنتظروا ، فالزعيم خرج من البـــاب الخلفي . روحوا في سبيلكم .

وتعجب الجمهور من بلاهة الخفراء فقالوا لهم : ما سمعتم وعظة سلم القصر ؟

فصاح بهم عقيد الخفراء : مجانين أنتم يا بشر ، السلالم تتكلم ؟!

فاجابوا : نعم ، نعم ! وأبلغ وعظة سمعناها وعظتها .

فضحك العقيد وقـال لهم : مساكين أنتم ! من لم يكن لنفسه واعظاً كلّت عنه جميع المواعظ . امضوا بسلام . وانتظروا الدورة الآتية ... ولكن المجاذيب لا تتعلم ...

ملّ العقّال حياة القرية الصاخبة بعد ما تعودوه من العيش الهنيء الهادىء . رجعوا الى أنفسهم، فادركوا أن في تقسمهم أحزاباً سلب راحة وضياع مال. عرفوا انهم آلات مسخرة يديرها فلان وفلان طمعاً بوجاهة محلية رخيصة . فحاولوا إصلاح الحال ، ولكنهم لم يقدروا على توجيه بنيهم ، لأن كلاً منهم يتعصب لرجل تعصباً أعمى . اذا اجتمعوا في عرس

تشاجروا ، وان ضمهم مأتم حوّلوه ساحة عراك ، وإذا جاء عيد ، وما أكثر أعيادهم ، تسيل دماؤهم على حبل الجرس ، وتنوب العصي والشتائم عن تسابيح العيد وتهاليله . وهكذا أصبحت تلك المواسم مآتم للأمهات .

ورثى وجوه [1] القرى المجـــاورة لمنقلب جارتهم المضحك المبكي ، فتوافدوا اليها لإصلاح ما أفسدته الحزبية البلهاء ، ورتق ما فتقه الشيطان ولكنهم خابوا . فكل زعيم من هؤلاء الزعانف يدعي البراءة ويتنصل من التبعة ملقياً المسؤولية على كتفي خصمه . واذا دعاهم المصلحون الى اجتماع طمعاً باستحيائهم إذا وقعت العين على العين، لاذوا بمحاذير كاذبة، ومضوا في غوايتهم يشدد بعضهم بعضاً ، أو يقهروا خصومهم ويمحقوهم .

وهكذا صارت القرية الآمنة وكر شغب وعش نكايات: كبس بيوت واستغاثات ، نبابيت ودبابيس تنطق بتمجيد رؤوس فارغة . فلم يُرَ بعد هذا مَنْ يتجول وحيداً . يسيرون في الأزقة والدروب ثنى وجماعات ، معتمدين على خناجرهم وسكاكينهم . وقد تطلق مفرقعة فيعلو صراخ من يحب الاتهام زوراً وبهتاناً ، وترفع الشكوى حتى أزعجت برقياتهم مركز المتصرفية .

وبلغت أخبار القرية مسامع السيد المغبوط [2] فوجه اليها أحد أعضاء ديوانه ، فعاد كما جاء . زعم لصاحب الغبطة أن القلوب قاسية متحجرة لا يسمعون كلام الله ، فالسعي عبث ، والتعب ضائع مع أناس همج [3] أو

(١) وجوه : أعيان زعماء القوم .   (٢) السيد المغبوط : البطريرك .

(٣) الهمج : الرعاع من الناس ، الحمقى .

كالهمج . فرأى غبطته أن يرميهم بالمرسل البطريركي الخوري يوسف اللاذقاني لعله يلقي في تلك القلوب الصخرية بذور المحبة. وأمره أن يعمل لهم « رياضة » روحيـة ، لا تنقضي حتى يتوبوا ويعودوا الى الله . فقـد تعوّد هـذا الأب الحسن السيرة أن يتغلب على الشيطان الرجيم ويطرده من كل قرية عشش فيها .

الخوري يوسف طويل جداً ، كأنه القناة المثقفة، أصفر كالزعفران، لحيته كالتي رآها ابن الرومي في وجه حبيب قلبه البحتري ، أنفه معقوف كمنقاد النسر ، أهوج [1] ، ناري الطبع يهبّ كالبنزين اذا امتدّ اليه أقل قبس [2] ، يحب حتى الهوس حلّ المشاكل . وكلما تعقدت ازداد فيهـا رغبـة . وثق الناس بفضائله المسيحية حتى غالوا فيها ، فنسبوا اليه المعجزات وخصوصاً بعد غيابه سنوات في المهجر .

وبلغ الضيعة خبر مقدمه ، فاهتزت قلوب العجائز لهذه البشرى ، وحمدن الله الذي سيكحل عيونهن برؤية اللاذقاني قبل الوفـاة ، والتماس بركاته ودعاه .

أما البنيّـات فطرن فرحاً بتشريفه ، وهو من عرف لدى الخاص والعـام بالحملة على الشبان الذين يؤجلون الزواج . فإذا دخل قرية واعظاً يعنيه قبل كل شيء أن يعرف « اللفايات » ، أي تردد الشباب على هـذه وتلك ، فيستأصلها إما بزواج مقدس يباركه هو قبل تحوله عن القرية ، أو بقطع كل علاقة بين هذي وهـذا ، ففي شرعه أن كثرة الترداد تفسد

---

(١) أهوج : سريع الغضب والانفعال .   (٢) قبس : شعلة من النار .

النيات السليمة وتفرط ما نوى الشباب على عقده .

وإذا درى بعلاقة جنسية غير نقية شهّرها[1] من على المذبح. وإذا نصح المتحابّين وما ارتدعا لجا الى « الحرم » . وصاحب الغبطة لا يردّ لمرسله طلباً . وبالجملة هو عدو العشاق الأكبر . جبّار في الكنيسة ، لا يحابي ولا يصانع ، شعاره في أعماله الرسولية الآية القائـــلة : هوذا الفاس ملقاة على أصول الأشجار ، فكل شجرة لا تثمر ثماراً صالحة تقطع وتلقى في النار .

ألقى مقدمه الرعب في قلوب الرعية وخصوصاً الزعماء . خافوا على عنادهم من الاندحار فائتمروا على الثبات في وجهه .

قال أحدهم وهو كبيرهم: اعقلوا يا جماعة، أنتم لا تعرفون اللاذقاني، هذا خوري لا يلعب . توقّوه[2] ، قلت لكم . فبكلمة واحدة منه يخرب بيوتكم إلى أبد الآبدين . البطرك يسمع له ويصدقه ، والحكومة تلي البطرك . وقد فهمت انه جاءنا واعظاً ، ويصير قاضياً إذا خالفناه ، ويرمينا بحجره . توقّوه يا جماعة .

فتناظر الشبان ثم قالوا : يفرجها الله . أهلاً وسهلاً باللاذقاني .

وسألوا ام طنوس ، جدة الوجيه الذي ينتصرون له ، عن اللاذقاني، لأنه نزل في بيتهم يوم كان زوجها وكيل وقف الضيعة . فأخذت تخبر أخباراً عن عجائبه أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة . منها انها امتحنته ليلة، فوضعت له شمعة حدّ مخدته ولم تترك له علبة كبريت . وهـذا الخوري يستحيل أن يكلم امرأة ليلاً . فتحسس فلم يجد علبة النار ، فنفخ نفخة

---

(١) شهّر : فضح .　　(٢) توقوه : داروه .

غضبان لحرمانه صلاة الليل ، فاشتعلت الشمعة وركع يصلي فرضه .

وروت عجوز أخرى : انه كان يخبز « البرشان »[1] للقداس، ففرت دجاجة بعثرت ما أعدّه الخوري قرباناً وحطمته ، فزجرها داعياً عليها: ليتك في بوز[2] « الواوي »! ففرت الدجاجة فتلقاها ابن آوى غنيمة باردة ببركة اللاذقاني ودعاه الصالح ...

وظلت الضيعة هائجة مائجة منتظرة المرسل ، والمرسل لا يأتي ، الى أن ظهر يوماً بغته . دخل الكنيسة صباح الأحد ، والناس في القدّاس ، فعرفه من الخبر مَنْ لم يعرف وجهه ، وساد الهيكل سكون عميق . مشى في صحن الهيكل بوقار ، فخلت سروة تمشي . واستقر على «الخورس»[3] خاشعاً مصلياً. وقبل نهاية القداس مشى الى المذبح وقرأ على الناس مرسوم صاحب الغبطة، ودعاهم جميعاً الى حضور الوعظ: مرتين للرجال والنساء معاً، صباحاً ومساء ، ومرة للنساء وحدهن عند العصر ، وتسهيلاً لأشغال الضيعة ، وعد بانتهاء وعظة الصباح مع شروق الشمس ، والابتداء بعظة المساء بعد الغروب . فالحضور واجب ولا سيا ان القرية خلت من المحبة المسيحية ، فلا بد من إعادة السلام اليها طوعاً أو جبراً .

فهزّ المعتدّون بأنفسهم رؤوسهم ، وقال فتى جاهل : نبض المحترم قوي . فأسكته القاعدون حده .

---

(١) البرشان : خبز يكرس للقداس .   (٢) بوز : فم .

(٣) الخورس : مقام خدمة الدين من البيعة .

ومشى الوعظ بحسب البرنامج التي تعوّد وعّاظ الرياضــات[1] اتباعه: محبة القريب ، السعادة الأبدية، جهنم، الدينونة ، عواقب الانسان الأربع . فكانت ترتج الكنيسة وترتعد الفرائص[2] ، عندما كان اللاذقاني ينتفض على المذبح صارخاً : تذكر عواقبك يا انسان .

• كان اللاذقاني يؤخر المواعظ الراعبــة إلى آخر الرياضة ، ويقلل الأنوار في الهيكل عند القائها ، فيمتلىء الشعب رهبة إذ يرى على المذبح شبحاً رهيباً كانه مارد ألف ليلة وليلة .

ورأى أن مواعظه لم تؤتِ الثمر المطلوب فاخذه العجب ، ورماهم بأرهب عظاته . العظات معدّة ، وهو يعرفها واحدة واحدة ، فيختار منها ما يطابق مقتضى الحـال . كان إذا ألقى أصغر قنابله ترتفع الآهات وتعلو الزفرات ويتصاعد النحيب من زوايا الكنيسة ، فـــا بال الضيعة قاسية قلوبها ؟ إذاً فليلقِ قذيفة من العيار الثقيل .

والتفت فرأى دموعاً تترقرق على وجنتيّ المعّاز الهرم مخايل ساسين، ونظره عالق دائماً بوجه الخوري لا يتحول عنه أبداً . أفرح المشهد قلب اللاذقاني ، وظن أن كلامه وحركاته أثّـرت بالمعّاز فراح يبالغ فيها .

والتفت مثنى وثلاث ورباع فرأى الدموع تطّـرد فوق خـد المعّاز فحدثته نفسه باستغلالها ، فحوّل وجهه صوب الموعوظين وصاح : قـال

---

(١) الرياضات : الوعظ الديني .

(٢) الفريصة : اللحمة بين الجنب والكتف ترتعد عند الفزع أي فزع فزعاً شديداً .

السيد في انجيله الطاهر حين وعظ على الجبل : طوبى للنقية قلوبهم فإنهم يعاينون الله . عجيب غريب . لا يؤثر كلامي إلا في المعّاز . أما الوجوه والأعيان فقلوبهم متصلبة . نعم ، نعم ، ان حناجرهم قبور مفتحة، وسمّ الأفاعي تحت شفاههم ، كما قال النبي داود .

وسكت هنيهة، ثم تنحنح وقال : ان دموع العم ميخائيل تردُّ غضب الله عنكم أيها الأشرار. فدمعة توبة صادقة تخمد نار جهنم، ولكن يا ميخائيل، بالله قل لي ما يبكيك ؟ أنا متأكد انك نقي القلب وستعاين الله .

فتنهد مخايل وأجاب بعد ما ألحّ عليه الخوري مرات : يا حبيب قلبي انت ، يا معلمي خوري يوسف ! عندما تلوح بيدك وتشترب (تشرئب) أتذكر فحلنا [1] « برُوش » الذي أكله الذئب عام أول .

(١) الفحل : ذكر المعزى .

في ليلة شباطية كأنها العروس في ثوب الاكليل!، قالت ام طنوس لرجلها على إيقاع موسيقى أسنانها : أين نحن من المرفع[1] ؟ الكبش رزح.

---

(١) المرفع : اسبوع يسبق الصوم .

إليته ، يا بارك الله ، صارت أكبر من الجاروش[١] .

ـ اعلفيه . كلما زاد الخير نفع . لا تقولي إلا جا المرفع . بعد جمعة ونصف يا ام طنوس .

فرقص الأولاد تحت اللحاف وسنّوا أضراسهم لمعركة المرفع . اشتاقوا الى اللحم ، فقد ودّعوه في تشرين . ذبحوا كبشهم الابرش يوم عيد مار جرجس ، فأكلوا ما أكلوا ، وملأوا البراني[٢] شحماً ولحماً . تلك وقود أيام كانون ولياليه متى خرّت المزاريب[٣] . اللحم يدفىء العظام ، أما النار فتدفىء الثياب . هكذا خبرهم السلف الصالح .

هذا بعض سَمَر[٤] الليل . أما حديث النهار على أبواب المرفع فكان: كم رطلاً تجرد[٥] مرفعية مخول ؟ وكم يعمل ثني[٦] يوسف ؟ وجدي حنا لحمه رخص مثل الندي . وكبش ايليا لحمه عاسٍ . وقرقور حنينة ياكل ولا يجتر ، مسموم لا يسمن . وخروف ام طنوس يفوت العشرين رطلاً .

وقبل المرفع بايام يعاير بعضهم بعضاً ويتخاطرون ، والموعد الأحد في الثاني والعشرين من شباط . وإذ ذاك تُعرف القرعاء من ام قرون[٧] .

---

(١) الجاروش قطعتين حجريتين يطحن البرغل ما بينهما .

(٢) البرنية : اناء من خزف تستعمل لحفظ اللحم .

(٣) خرّت المزاريب : خر : سال ، والمزراب مصرف مياه السطح ، وهذ يعني ابتداء الشتاء . (٤) سَمَر : حديث تسلية .

(٥) جرّد : فصل اللحم عن العظم .

(٦) الثني : ما بلغ من العمر العامين .

(٧) تعرف القرعاء من ام قرون : مثل ، أي تنجلي الامور .

وجاء أحد المرفع فتحلّقوا في ساحة الكنيسة يتنافسون برفعياتهم . أحاديث حامية أشبه بالنقار واللغط منهـــا بالمذاكرة . الخوري يروح ويجيء ، تالياً صلاة الصبح الطويلة في كتاب الفرض ، يكاد ينشق صدره من أحاديثهم. أما جاؤوا ليسمعوا كلام الله، ويذكروا «موتاهم» بصلواتهم هذه جمعة الموتى ، فما بال هؤلاء المجانين لا يلهجون إلا باللحم والخمر ؟ نسوا تعاليم الكنيسة التي تأمرهم بالصلاة في هذه الجمعة . صح فينا المثل : عند البطون ضاعت العقول .

وأطبق كتابه ليقول لهم هذه الكلمة ، ولكنه خشي أن يجاوبه افرام الشقي فيقع الشر بينه وبين أولاده ، فأرجا ذلك ليقوله في الكنيسة .

ودخلوا الهيكل وكلهم يلهجون بالمرفع وأفراحه المنتظرة . وأقام الخوري صلاة الموتى الجهْورِيّة يعاونه الشمامسة [1] . وفي ختامها سأل الشعب أن يصلي لأجل راحة أنفس الموتى الراقدين بالرب ، وشرع يتلو قداسه .

لم يكن الاصغاء كالعادة ، فتمرمر الخوري على المذبح . لم تقع عينه ، وهو يبخر الشعب ، إلا على رجل واحـد متخشع يصلي بحرارة . تارة يسجد مقبلاً الأرض ، وطوراً يرفع نظره الى صورة قدّيس الضيعة ، ويقرع صدره بانسحاق قلب . كان الخوري يتعزّى إذ يرى هذا الفقير يصلي بحرارة فيقول في نفسه : أنا أعظم من ربنا ؟ أما قال لِلُوط : لا أهلك المدينة من أجل العشرة ؟ غنطوس وعيلته فوق العشرة .

---

(١) الشماس : دون القسيس ومعناها الخادم (سريانية) .

وهجمت عليه بغتة فكرة ثانية ، فقال : غنطوس يصلي بحرارة لأن ليس عنده مرفعية . الآن فهمت كلام الإنجيل : طوبى للمساكين، إن لهم ملكوت السماوات .

وشعر بتشتت أفكاره فجمعها ومضى في قدّاسه . وبعد أن تلا الانجيل قام في رعيته واعظاً ، فقال :

« يا اخوتي المباركين !

« جعلت الكنيسة المقدسة هـــذه الجمعة تذكاراً للموتى . وما معنى تذكار الموتى وكيف نذكرهم؟ بالبكاء والنحيب! لا . هذا ممنوع، والدليل قول بولس الرسول : ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي أن تحزنوا عليهم . اذاً ، فبمَ نتذكرهم يا اخوتي؟ نتذكرهم بصلواتنا ، نتذكرهم بتضرعاتنا، بصدقاتنا واحساناتنا الى المحتاجين منا . »

فتنهد هنا غنطوس عن غير قصد وبلا شعور ، وجأر بالصلاة هاتفاً: اعطنا خبزنا كفاف يومنا .

ومضى الخوري يقول : « ما وجدتكم فاهمين هكذا . ما سمعت في الجمعة الماضية الا حديث مرفعيات : هـذه الذبيحة تعمل كذا ، وهاتيك تعمل أكثر من هذي ، ونبيذ فلان أطيب من نبيذ فلان ، وخابية فلان باردة،وخابية فلان مثل النار... حديث لحم وخمر كان ضيعتنا المشهورة بالتقوى والعبادة استحالت خمّـارة .

« لا تكونوا مثل الذين قـال عنهم بولس الرسول : آلهتهم بطونهم . البطن مخزن التجارب فلا تحشوه باللحم والخمر .

« تذكروا موتاكم ، يا اخوتي ، في هـذه الجمعة . كانت جمعة الأموات فصارت جمعة الخوات [1] . جمعة الأعراس ، والسكر . جمعة الرقص والدبك . والشر والتقاتل .

« منكم ناس اذا قلنا لهم لا تشربوا الخمر ، قالوا مار بولس جوّز لنا ذلك لما قـال : قليل من الخمر يفرح قلب الانسان . وخذ قليلاً من الخمر لإصلاح معدتك . صار المجانين لاهوتيين. مار بولس قال: قليل من الخمر ، ولكن أنت ، يا ابني ، تشرب خابية ولا تروّى . مار بولس قـال : خذ قليلاً من الخمر لإصلاح معدتك . أما معدنا نحن اذا أصلحناها فكل طحين الشام لا يكفينا .

« وأنكى شيء هو قولكم خميس السكارى. متى كان للسكارى خميس؟

« كلوا ، يا اخوتي ، وسرّوا ، وافرحوا ، ولكن لا تنسوا الاحسان والصدقة . تذكروا وأنتم تأكلون ، مَنْ ليس عنده أكل .

« اشركوه في ذبايحكم . اشركوه بالخيرات التي أنعم الله بها عليكم » .

وكان غنطوس لا ينفك يصلي بحرارة كأنه لا يفهم ما يقال ولا يعنيه منه شيء . وكانت عين الخوري عليه دائماً ، فقال :

« فكروا بالقريب وأنتم ترقصون وتدبكون ، وتغنون وتزمرون . حافظوا على عادات أجدادكم الطيبة في هـذا الاسبوع . لا تعملوا كما يعمل غيرنا من جهال القرى . إذا لم يكن في الضيعة عرس عملوا عرساً كاذباً » .

---

(١) الخوات : الجنون .

فتغامز بعض الشباب بالأيدي والعيون كأنهم اهتدوا الى فرح جديد لم يخطر ببالهم .

وقال الخوري : يا اخوتي ، من عادات جدودنا أن يزوروا الضيعة من أولها إلى آخرها. وبهذه الزيارة يغسلون القلوب، ويتصافى المتخاصمون بهذه الطريقة . أنا مستعد أن أمشي معكم يوم « قطع الزفر »[1] .

فاجابه أحد المتورعين[2] : اقبلها راساً براس. اشكر ربك، يا محترم، إذا بقيت الحال على ما هي .

وختم الخوري عظته بالكلمة المأثورة : كما ترفّعون بخير تصومون وتعيّدون بخير .

واستحالت الضيعة ، كل جمعة المرفع ، مطبخاً : دعوات وولائم تقام هنا وهناك ، أهازيج وأغانٍ ، ميجانا وعتابا ومعنّى ، وأبو الزلف وموليّا . والقرّادي، شيخ الزجل في هذا الموسم، يقولونه مدحاً وجفاء. رقص وزمر ودبك . دقّ كبة وقلي أقراص . وقتار[3] اللحم المشوي ينبعث من كل بيت ... جنّت الضيعة على مرأى خوريها وسمعه ، وهو يسأل الله أن يمضي الاسبوع بسلام .

وخاب أمل الشباب بالعرس المنشود ، فعملوا عرساً كاذباً أنفقوا عليه بسخاء . فأدرك الخوري أنها غلطته إذ ذكّرهم لما وعظهم بما كانوا ناسين . ولكن الخوري ظلّ راضياً لأن جو الوئام لم يتعكر .

---

(١) قطع الزفر : الانقطاع عن المأكولات اللاحمة .

(٢) الورع : التقوى . (٣) قتار : رائحة .

ومشى الخوري وخوريته ليلة السبت الى بيت غنطوس يحملان أقراص الكبة وطنجرة هريسة [1] . وما بلغا البـاب حتى سمع الخوري غنطوس يقول لعيلته : صلوا مرتين « أبانا » ومرتين « السلام » لأجل عمكم المنقطعة أخباره في أميركا .

وعند انتهاء صلاة تلك العيلة البائسة دخل الخوري وزوجته بالطعام، فكان عشاء سري حقاً .

وصباح اثنين الصوم لم يحضر القداس وحفلة «الرماد» [2] غير طنوس وعيلته ، وبضعة عجائز وشيوخ . فتذمر الخوري ، ولكنه « قبلها راساً براس » كما قال له أحدهم .

وقعـد المصلون تحت سنديانة الكنيسة يتذاكرون حوادث المرفع في أثناء انتظارهم ساعي البريد . ثم انضم اليهم كثيرون من ذوي المهاجرين ، وكل يترقب النجدة من وراء البحر . فانكشف ذاك النهـار الميمون عن أعظم حدث في تاريخ القرية المتواضعة: رسالة من قنصل أميركا يسأل فيها عن غنطوس الياس المحفوظ له في صندوق حكومة الولايات المتحدة مبلغ مئة وسبعين ألف دولار تركة له من أخيه .

فغرز الخوري أصابعه في لحيته الأشبة [3] وصاح: هذا مرفع ياغنطوس! فاهتزّ غنطوس لهذه البشارة ومات موقتاً .

---

(١) هريسة : طعام يعمل من الحب المدقوق واللحم .

(٢) حفلة الرماد : احتفال كنسي ببدء الصوم الكبير .

(٣) الأشبة : الكثة ، المتشابكة .

لحيته عامرة شمطاء (١) ، فاثرة (٢) على وجنتيه كالعجين التاخ (٣) على حفافي المعجن . تكاثرت فانشقّت حزبين ، وعلى رأس كل حزب شارب حائم على المورد : كلاهما متدليان كالصفصاف ، يوقظهما « المحترم » (٤) كلما جدّ في الكلام ، فيرفعان رأسيهما هنيهة ، ثم يعودان الى التهويم (٥) شيئاً فشيئاً . على رأسه « قاووق » (٦) ناصل (٧) الصباغ ، تجهل ، أول وهلة ، أين تنتهي حدوده في صحراء جبهته البرّاقة . قاووق كفلكة (٨) المغزل فوق قامة طالت واستدقّت فضاع « أبونا » في جبّته .

---

(١) شمطاء : خالطها بياض . (٢) فار : ارتفع وتدلى .

(٣) التاخ : ظهرت حموضته فارتخى . (٤) المحترم : لقب لرجال الدين.

(٥) هوم : هز رأسه من النعاس وهنا تدلى .

(٦) قاووق : غطاء الرأس للكاهن الماروني .

(٧) نصل : تغير لونه وبهت . (٨) فلكة : هنة في أعلاه مستديرة .

يشدّ خصره شداً عنيفاً بزنّار كان في فوعة [1] صباه قرمزي اللون، فتخال خصره الزنبوري مفروضاً فرضاً . أما عينا الخوري فقادحتان قلما ثبت لهما أحد من أبناء رعيته . ومن يدم النظر اليه يغضّ طرفه ، غصباً عنه ، ويهتز كمن مسته الكهرباء .

ومن هذا « المركّب » النحيل ينبعث صوت جهوريّ عريض يوبّخ ويؤنب بلا مبالاة ولا خوف . صوت كاهن مؤمن بسلطانه الرسولي فلا يمالىء ولا يحابي . يعلّم ويعمل ناشداً الكمال المسيحي لنفسه ولرعيته .

انشأ « أخوية » [2] استمد روح نظامها من « أعمال الرسل » ، محاولاً احياء الاشتراكية المسيحية الأولى بين أبناء رعيته، فحقق كثيراً مما ابتغى واشتهى . وعمّت أخويته القرية ، فكان له في كل عيد ثورة على الجيوب المنيعة ، يتوقع خيرها الجزيل كل رقيق الحال .

وجاء موعد صلاة الأخوية ـ قرب ظهر الأحد ـ فدقّ الخوري الجرس أول مرة ، وطفق يصلي متمشياً تحت تلك الشميسة الناعمة ، شميسة مواتية يندر وجودها في كانون ، فاستبشر الخوري وعدّها نعمة .

وعند الدقّة الثالثة أطبق « شحيمته » [3] ودخل الكنيسة . ثم عاد وهو يقلب صفحات كتاب كرشوني [4] لمّاعة مبقّعة تزلق عنها الأصبع لكثرة ما تداولتها الأيدي ونقطت بالشمع . أكل الدهر حبر ذلك الكتاب

---

(١) فوعة الشباب : أوله . (٢) اخوية : جمعية دينية .

(٣) الشحيمة : كتاب صلوات فرض الخوري الماروني .

(٤) الكرشوني : يطلق على الكلام العربي المكتوب بالحرف السرياني .

الخطّي كما قرض الحبر الكثير الزاج بعض صفحاته فبدت كأنها مخرّمة . ولما وقع الخوري على الفصل الموافق لحظة في رأسه طوى زاوية الورقة وأطبق الكتاب ، ومشى الى الجرن الموضوع حدّ زاوية الكنيسة ، ثم استوى فيه فصار كأنه فوق منبر .

واستدارت حلقة أبناء الأخوية في تلك الشميسة، هؤلاء على حجارة، واولئك على جذع السنديانة الدهرية ، وبعض الصغار في جوف الجذع يتوشوشون ، فزأرهم الخوري فخرسوا .

أما النساء فقعدن ناحية ، على صفّة في ظل جدار الكنيسة المنخورة حجارته العتيقة ، تتوسطهن الخورية والشيخة .

شخصت أبصارهم جميعاً الى الخوري منتظرين ما يقرأ ، ثم ما يشرح ويفسر ويعلق من حواشي . كانت تعجبهم تعليقاته على هامش الموضوع أكثر من الكلام المكتوب المعاد . فالخوري ، على جفاء شكله ، خفيف الروح ، مرحٌ ، غير زمّيت [1] ، طيّب القلب ، اذا راودته النكتة في أقدس الساعات لا يصدّها .

أخذ يتجمع في ذلك الجرن ويتكوّم حتى اذا ما تمكن فيه شقّ كتابه، وهو يتمتم : أول من أمس كان عيد الميلاد ، وبعد أيام يجيء عيد الختانة أيام راكضة . ثم التفت الى القندلفت [2] وقال : دقّ دقة البداية يا سمعان . فقرع سمعان الجرس خمس ضربات وجلس . فتنحنح الخوري وسأل

---

(١) زميت : لا يتساهل بأمور الدين .

(٢) القندلفت : عربيها الوافه ، وهو خادم الكنيسة .

دون أن يلتفت : كِيلْ الجمهور ؟

فنظر سمعان الى الجدول وقال : باق فلان وفلانة .

فسعل الخوري وقـــال مغتاظاً : فلانة معنورة أمّ طفل . ولكن الشيخ بطرس ما هو عذره ؟

فقال أحدهم : رأس السنة ، حساب كمبيالات وتحصيلات .

فقال الخوري : المثل يقول : ساعة لك وساعة لربك . واتبعها بكلمة وهزة رأس أعجبت أبناء الأخوية فضحكوا. وشرع يقرأ فصلاً موضوعه: أحبب قريبك كنفسك .

ووافقت نهاية الفصل قدوم جناب شيخ الضيعة ، فاطبق الخوري كتابه والتفت اليه قائلاً : خلصت من سماع كلام آبائنا القديسين ، فسماع يا شيخ ، كلام هذا الخاطي . ربّنا وصانا ، يا اخوتي ، بمحبة قريبنـــا كنفسنا . سمعتم قصص الذين عملوا الخير وكيف كان جزاؤهم فوق . وسمعتم كذلك حكايات القادرين على الاحسان وما فكّوا ريق فقير ، وكيف استقبلتهم اخوتهم الشياطين تحت . المكاوي طالعة نازلة ، خذ وهات . على أيديهم ، على أرجلهم على رقابهم ، على صدورهم ، على بطونهم وظهورهم. ما تركوا من جلودهم مغرز إبرة بلا كيّ .

وأخيراً ذوّبوا الفضة الـــتي كنزها الغني الشحيح والذهب الذي خزنه ، وكل قرش أخـذه وأعطاه هذاك القليل الخير ، وصبّوها كلها دفعة واحدة في بطنه . ولوسيفورس[1] قاعد قبالته يتلذذ بالمنظر الشهيّ .

---

(١) لوسيفورس : الملاك الساقط رئيس الشياطين .

هذا الذي أصاب من حبّ ماله . وترك قريبه يشقى لأنـه جوعان ، عريان ، بلا مأوى . الشيطان ذكي منحوس ـ وجرّ واو منحوس جراً طويلاً ـ يخترع القصاص الملائم والمؤلم المنكي .

وفيما كان الخوري يعظ بحرارة صاح مكارٍ من خلف الكنسية : معنا بطاطا . بطاطا ممتازة . بطاطة بقعكفره .

فامتعض الخوري وعدّل شاربيه وصاح : تعال يا بيّـاع . اقعد اسمع كلام الله ونفّـق حمولتك .

ثم التفت صوب الخورية ـ زوجته ـ وقـال : عشرة أرطال تكفينا يا خورية ؟ فأيّـدت قوله بحنوة رأس ، وابتسمت مع الضاحكين .

وقرفص[1] المكاري بين الموعوظين . ومضى الخوري في الارشاد : يا أولادي . لا ، يا أولاد مريم ، ما معنى كلمة أخويّـة ؟

فأجاب أكثر من واحد : معناتها اخوّة .

فقال الخوري : إذا كنتم اخوة فاقسموا قسمة حق ، كما يقول المثل . لا ، يا اخوتي، أنا لا أطلب قسمة حق، بل ربع ربع ربع الحق. يعني : أعطوني من الجمل أذنه . نعم يا أحبائي ، عندنا عمل خيري كله أجر ، وصيت حسن . الأجر مؤجل ، والشرف معجّـل . فتنبهوا وانتظروا .

ومضى الخوري في حديثه يمطّ ويمغّـط ، فقال واحـــد : تفضّـل ، يا معلمي ، احكِ .

فايقظ الخوري شاربيه النائمين ، وقـــال : أخوكم منصور حنا بلا

(١) قرفص : جلس على ركبتيه .

بيت . عارٌ على ضيعة مثل ضيعتنا أن ينهدّ فيها بيت ، منذ سنتين ، ولا تعمّره .

فتعالت الأصوات : قائمة . ـ لائحة ـ امسكوا قائمة .

فقال الخوري : شيخ بطرس ، تفضّل .

فتلكأ الشيخ . فقال القندلفت : هذي قائمة ، قولوا .

فزجره الخوري بنظرة حادة : وإذ لم يلحظ صاح به : اعطِ الشيخ الورقة .

فقال أحدهم : قيّدوا ، شغل عشرة أيام .

وقال ثان : خمسة .

وقال ثالث : سبعة .

وقال مكار : شغل ثلاثة أيام على الدابة . وقال آخر : ريال مجيدي . وقال غيره : نصف مجيدي .

وكثر المتبرعون بأرباع المجيديات والبشالك والزهراويّات [1] .

ثم طغى التبرع فرقصت لحية الخوري الدبكة .

وانتظر الخوري دفعة الشيخ ، ولكن الشيخ ظل هادىء الأعصاب ، فقال الخوري : والشيخ بطرس ؟

فمأمأ جناب الشيخ وقال : ار ... ار ... ريالين .

فصرخ الخوري : وا لو ! ابن عمك منصور يدور على أبواب الناس ؟ افتح كيسك ، افتحه . الله يفتح بوجهك باب السماء ... الياس دفع نصف

(١) المجيديات والبشالك والزهراويات : من العملة التركية .

مجيدي وما عنده عشا ليلة،ومتّى مشتهِ العضّة بالرغيف ويدفع بشلكين، وأنت الشيخ بطرس ، يدخل لك كل طلعة شمس مبالغ ... تدفع ريالين ؟ هذي ما أنزلها الله بكتاب .

ولم ينفع الكلام ، وحرن الشيخ . ظلّ عند قوله لا يتزحزح . نتش الخوري القائمة وعدّها بنظرة مستعجلة وهزّ برأسه وقال : تأخرنا ، قوموا نصلّ .

وبينا هم خارجون من الكنيسة إذا بعجوز تدفع اليه بيد مرتعشة صرّة نقود قائلة : احسبها يا معلمي . فحسبها الخوري ، فأربت على ثلاثة ريالات ، فألقاها في الكيس وبارك ام جرجس .

وكانت السهرة تلك الليلة عند المحترم . وفيا هم يسمرون فرحانين بما عملوا ، جاء أحدهم وكان قد غاب عن الأخوية بإذن ، فقال : عرفت أنكم تبرعتم اليوم لأخينا منصور لتعمّروا بيته . لا تستأجروا معلماً . أنا أبني البيت من أول حجر الى آخر حجر .

فتناظر الحاضرون متهللين ، وقبّله الخوري في جبهته قبلة رنانة ، والتفت نحو الجمهور متحدثاً اليهم بكل جوارحه ما عدا لسانه .

وانتصف الليل وما شعروا . وفيا هم يتسلون بأكل الزبيب والتين اليابس والجوز واللوز إذا بصراخ حادّ : دخيلك ، يا معلمي ، عجّل يا خوري يوسف . بطرس حصل له عارض .

ألقت زوجة الشيخ بطرس كلمتها من الباب وعادت أدراجها وهي

تطبطب[1] :هذا كله من تغضّب الخوري... الله يقصف عمر البخيل... ساعة عمر مثل الأوادم تسوى الدنيا وما فيها. رجل دينه ومعبوده المال.

وسار الخوري مشمراً ، فسبقها الى البيت . رأى الشيخ بطرس قاعـــداً في فراشه يدعم رأسه بيديه التنتين . فتقدم منه جاسّاً نبضه ، وقال : بسيطة يا شيخ !

فأجاب الشيخ : قصة حلم بشع . هذي وحلة وعظة النهار ...

فضحك الخوري وقال : مليح : فإذاً زرت جهنم ورجعت . الحمد لله على السلامة .

فتضاحك الشيخ وأخرج من عبّه مفتاحاً أصفر معلقاً بتكة المصرّ[2] ، وزحف نحو الصندوق .

كان في نيته أن يدفع خمس ذهبات،فلما رأى أنه لا يزال حقاً على الأرض جعلها ثلاثاً . ولما واجه صندوقه اكتمل وعيه فاسقط المبلغ الى اثنتين .

وأدار المفتاح في القفل فطنّ ناقوسه تلك الطنّـة المحبوبة . فطرب الشيخ ولم تطاوعه يده على تسريح أكثر من واحدة من ذلك الجيش العرمرم . وبعد تردد طويل سقطت الليرة الذهبية في كفّ الخوري .

فحدّج[3] الشيخ بعينيه السوداوين ، ووقف هنيهة وقفة المتردد . وأخيراً أدخل يده في جيبه وهو يقول لمن معه : الشعرة من ظهر الخنزير بركة . امشوا ...

---

(١) طبطب : تكلم بكلام غير مفهوم .

(٢) تكة : رباط ، والمصرّ كيس النقود . (٣) حدج : حدق .

مأتم قروي

ولد شلهوب وعاش في قرية تصبّحها الشمس وتمسّيها، فانتفع بالنور السابق واللاحق . وكثيراً ما كان يدقّق في حساب عمره ، فيجد أنــه عاش عمرين بالنسبة الى جاره متّى الذي لا يفلح إلا إذا حمي النهار ، ويفكّ فدانه[1] قرب العصر. كان يتهلّل لهذه النتيجة فيشيع بشرٌ صارم في قسمات وجهه المتنافرة ، ويرضى عن نفسه كل الرضا ، فيثني عليها بصوت عالٍ : مثلك تكون الرجال يا شلهوب !

النوم عند شلهوب ابن عم الموت ، ولهذا قلّله ليطوّل عمره ، فكان

(١) فدانه : ثيران الفلاحة .

يقضي السهرة إما بحوك القصب سلالاً وقوصرات ، أو بخصف[1] النعال، أو بفتل حبال من الجلد فتل شزر[2] فتصير أطول عمراً .

ما مرّ قط بسمار أو قطعة حديد أكلها الصدأ ، أو طربوش عتيق ، إلا التقطها ليقايض[3] بما لا ينتفع به مباشرة ، فيكون للأولاد قضامي وحلاوة بلاش . أما مآثره التي يتباهى بهـــا ويعتدّ فمنها أنه تأهل في السادسة عشرة ، وأصاب أرضاً مغلالاً ، فكان له اثنا عشر ولداً وأربع بنات . كان يقلّب فيهم رأسه الصغير المدوّر وعينيه اللوزيتين ، ثم يزمّ بأنفٍ كمنقار البطة ويقول : الله يدبر . ومتى تجمعوا حواليه داعب هذا ، وزجر تلك ، ويده لا تنفك عن عمله .

وشاخ شلهوب فقسم ما يملك بين بنيه ، وراح ينتقل في تلك الأبراج الاثني عشر ، وهو لا يملك من دنياه التي أنماها غير أربعين ذهباً ادّخرها لتكون تكاليف رحلته الى الآخرة .

أما زوجته فقد استراحت وأراحت . ما كانت ترضى . لم تطب لها الحياة مع شلهوب لبخله وتقتيره[4] . وكان في قلب شلهوب منها حسرة ، فصارت بموتها حسرتين . عذبت قلبه بتدللها قبل الزواج ، وكلفته جهازاً ينسى حليب امه ولا ينساه ، كما كان يقول . واذا حسب ما بذّر في حياته جعل ثمن فسطان العرس المخملي ونفقة العرس في رأس القائمة .

---

(١) خصف النعل : أطبق عليها مثلها وخرزها .

(٢) فتل شزر : فتلاً شديداً . (٣) قايض : بادل .

(٤) قتّر على عياله : ضيق في النفقة .

كان يحسب هذا المبلغ وفائدته المركبة طوال خمسة وخمسين عاماً ، فيصفق كفاً على كف تحسراً على ثروة ضخمة أفلتت من يده ، ويقول بصوت عال : راحت ! فيخال بنوه أنه متحسر على المرحومة والدتهم ، فتتغرغر عيونهم بالدمع . ثم يتوغل شلهوب في دنيا ذكرياته فيتخيل مأتمها الحافل وما كلفه من ذهبات فتتزعزع أركانه . ثلاثة آلاف قرش ! ليتني ما سمعت من الناس وعملت بعقلي . كنت وفرت نصف المبلغ على الأقل .

وتلمس « كمره » [1] الذي كان لا يحله لا ليلاً ولا نهاراً فاطمأن . لم يكن يأسف على فراق دنياه كأسفه على هذه الذهبات التي سيتفرق شملها يوم دفنه ، والفراق مرّ ، فيقول : قلة عقل ، خوري واحد كثير عليّ . مسكين ابني داود ! ركبته العيلة . أمس كانت حرمته طائفة بالحـــارة تفتش عن اقة خبز . سمعتها تقول لأم جرجس : جمعة عمي عندنا ، وما في معجننا رغيف . فانسلخ قلبي .

وكبرت مروءة شلهوب عند هذه الذكرى ، فمدّ يده الى عبّه ليعطي كنته مجيدياً ثمن عجنة ، ولكنه استظهر [2] على التجربة بارادته الحديدية ، فلمّ تلك اليد وبزق على الشيطان . ان المبذرين اخوان الشياطين .

وعجت البقرة فصاح بكنته [3] : عشّي البقرة يا عمي، هذي حيوان لا يحكي ولا يبكي .

ثم عاد الى تفكيره . أدرك أنه يضيع الوقت بالتفكير ، فعذر نفسه

---

(١) الكمر : زنار أجوف يوضع فيه النقد .

(٢) استظهر : علا ، غلب . (٣) الكنة : زوجة الابن .

لأن العتمة تعوقه. ولو أنه ضوّا السراج كانت الخسارة أجسم ، فما يعمله لا يوازي ثمن الزيت ، فهو اذاً قد وفّر .

ونام تلك الليلة بعد صراع هواجس[1] عنيف ، فرأى أحلاماً غريبة: موتى يخالطهم كأنه وإياهم في شبابه . ورأى امرأته ، أيضاً ، جاءت تطالبه بأشياء أشياء . وحسر[2] اللحاف عن رأسه فرأى النور ينسل من شقوق الباب ،فنهض من فوره، وخرج يتمشى على المصطبة مزيحاً كابوس أحلام الليل عن صدره ، ولكنه غرق في أحلام اليقظة فقال : يظهر أن الله راضٍ عني . انتظرت عزرائيل مرات وما جاء . ثم استضحك وقال: الله يبعده .

وطفق يتأمل الضيعة واطارها الجميل ، فرأى منظرا عجباً . ولكنه لم يحس به كهذه المرة . كل ما في الحقل جميل ثائر : جنّت الزهور ، وتطاولت الأعشاب ، واشرأبت شفاه البراعم ، والسنونو تهبط وترتفع كأنها ترقص في الجو،فاعجبه المنظر .وتذكر الموت فقال عفوا :الله يبعده.

ومرّ واحد من لداته فعزم عليه فعرّج ، وقعدا يتذكّران أيام الشباب ويتحدثان عن الدنيا الزائلة . وذكر له شلهوب أنه أبصر في منامه زوجته . وتذاكرا في تأويل ذلك الحلم، فاجمعا الرأي على أن زوجة شلهوب محتاجة الى معونة روحية . فنوى شلهوب على إعطاء خوري الضيعة حسنة قداس .

---

(١) هواجس : أصوات خفية تسمعها ولا تفهمها .

(٢) حسر : كشف .

وأيقظ ابنه الصغير ، فأخرج المعزى من المراح[1] . وبعد أن استعرض شلهوب ذلك الجيش ، شيّع « الشيخ » ـ وهو كرّاز[2] عزيز على قلبه ـ بنظرات أبوية وابتسامات مملوءة إعجاباً ، ثم أخذ سبحته وتمشى يصلي فرضه .

وفي مساء هذا اليوم الجميل نفضت شلهوب البرداء[3] فاصطكت أسنانه . قاوم ما استطاع ، ولكنه لم يثبت فنام .

وطالت نومته وكثر عوّاده ، فهو على حرصه وتهالكه على الدنيا كان يغالي في عيادة المرضى ابتغاء للأجر . كانت مروّته عظيمة، جواد سخي بكل ما لا يمس كيسه ، ولكل شيء عنده حساب مقوّم .

وساءت حال شلهوب فاستعدت الضيعة ليومه . وليس المأتم في القرية بالأمر الهين. فعلى كل بيت واجبات كإطعام المؤاجرين،وتقديم المرطبات، والسيكارات ، والقهوة حتى الكحول والنقل والأركيلة .

وبان الموت في شلهوب فقعد الخوري حدّ رأسه لا يفارقه خوفاً عليه من عدو البشر . والناس شطران ، شطر يروح وشطر يجيء . والغادي يسأل الرائح : أين صار ؟ أما المحترم فكان يجيب الجميع بضجر : الأمر بيد الله ... ما بقي إلا القليل .

وقف دولاب العمل في القرية، فجميعهم ينتظرون الساعة، وعقرب الساعة بطيء جداً .

---

(١) مراح : زريبة الماشية . (٢) الكراز : تيس يسير في طليعة القطيع.
(٣) البرداء : الحمى مع البرد .

وكانت الحشرجة تتقطع فيخالون أنه مات ، حتى إذا امتدت يدٌ الى الكرْ ردّتها يد شلهوب وعاد يغرغر [1] .

وبلغ أنسباء شلهوب في القرى النائية أنه نوى الرحيل ، فتهافتوا على القرية فملأوها . واستحالت البيوت مطابخ ، فاستهلك العوّاد ما هيّأوه ليوم الدفن. فهرع صاحب الدكان الى البندر يتحوّج. وطال نزاع شلهوب فراح الناس يعلّلونه على عاداتهم ، فقال واحد : في رقبته ذخيرة عود الصليب ، فأجابه الآخر : من أين له الذخيرة ؟ فتشه الخوري فما وجد غير ثوب السيدة .

فقال آخر : اذاً واقد نير .

وبينما كان عوّاده [2] الغرباء يتغدون في أحد البيوت قرع الجرس حزناً ، فتنفس الجميع الصعداء وهرولوا الى بيت الفقيد . أما سمعان ، مجهّز موتى القرية ، فكان أرشق من النسيم. حلق ذقن الفقيد ، ثم انتزع « الكر » وشرع يلبّس شلهوب بذلته الدهرية : شروال جوخ ، وصدرية مخمل ، وزنار حرير مخطط ، وكَبَران. وبعدما أصلح هندامه أنامه نوماً مريحاً ، فبرز في أحسن سمت ، فاكتسى وجهه سيماء الطوباويين [3] .

وانعقد على الأثر مؤتمر المناعي [4] ، فشق كبير الضيعة الحديث قائلاً : كلنا غلة الموت ، شقي المرحوم وتعب ، ولكنه جمع . مات ، والحمد لله ،

---

(١) غرغر : صات صوتاً معه بحح عند الموت . (٢) عوّاد : زوار .

(٣) الطوباويون : القديسون المنعمون بالسعادة الأبدية .

(٤) المناعي : النعوة ، الخبر بالوفاة .

مجبور الخاطر بالمال والرجال .

وبعد هذه الخطبة البليغة التفت الى بطرس ابن شلهوب البكر يساله عن كبر المأتم وصغره .

فأجابه : الثوب الذي تفصّله نحن نلبسه .

فصاحت أخت الفقيد وهي عجوز درداء[1] : أملاكه نصف الضيعة وتقول : كبير وصغير .

فصاحت ابنته : لا تستخفوا فينا . انعوا البلادين[2] .

وانقطع الكلام ، فاستل الشيخ سبحته من جيبه وطفق يعدّ القرى التي اعتادوا أن ينعوا فيها الوجهاء . فزاد عددها على الخمسين وتجاوز عدد كهنتها المئة .

ومشت الأقلام على الأوراق ، فتقدم كهل من الشيخ وقال بصوت منخفض : انطون حرد[3] لأنكم ما نعيتم قرية زوجته .

فقال الشيخ : سيدنا البابا فقط معصوم من الغلط . انطون، لا تواخذنا يا عمي .

وتبادلا ابتسامة رضا زاد بها عدد الكهنة خمسة .

وقال مترعم : ما افتكرتم بسيدنا .

فصاح الجميع : محفل كبير بلا مطران ؟

فقال الخوري: المال لا يكفي الخوارنة. ما مع المرحوم غير أربعين ليرة.

---

(١) درداء : التي تساقطت أسنانها .

(٢) انعوا البلادين : أي بلاد جبيل والبترون . (٣) حرد : غضب .

فاصفرّت وجوه أبناء شلهوب ، فقال واحد من النـــاس : اجعلوا « المعلوم »[1] نصف مجيدي .

فقال الشيخ : لا ، يا جماعة ، لا تمسخوها . المال موجود .

ومـــال على بطرس يوشوشه . فقضي الأمر واقترض بطرس خمسين ذهباً .

وحمل الشباب نعي شلهوب الى البلاد ساحلاً وجرداً . لم ينسوا النادبين والنادبات .

وانصرف بعضهم الى إعداد غداء المحفل الكبير،فذبحوا خمسة رؤوس من معزى المرحوم وفي مقدمتها « الشيخ » الذي كان يحبه جماً .

وأفاق شلهوب من غفوته الطويلة ، فقالت له حفيدته الصغيرة : ذبحوا « الشيخ » يا جدي .

فأجاب شلهوب : الله يقطع رقبة من ذبحه . ونظر الى ثيابه وقال : من قال لكم حتى تلبسوني بذلتي ؟

فقالت البنية : قالوا انك مت .

ـ من قال ؟ لا ، ما مت بعد . وأين الكر ؟

وعلقت عيناه بوجه ابنه بطرس . إلا أن بطرس لم يكن يدرك شيئاً في تلك الساعة . كان مشغول البال بمن نعى ، وبما استدان ، وبمـا ذبح من القطيـع . ولكن شلهوب كان عند حسن ظن ابنه هـذه المرة ، فمـات بعد هنيهة وانفرجت الأزمة الشلهوبية .

---

(١) المعلوم : ما هو متفق عليه كبدل لشيء .

كانت لوسيا خصبة البطن ، فما دار القمر تسع دورات حتى أهلَّ الصبي فملأ الفرح البيت وتعداه الى القرية . فزوجها اسطفان محبوب من كبار القرية وصغارها . عرف بالفتوة والمرح ، فكنّوه [1] قبل الزواج بو مروّة . شاب تام الخلق ، وإن لم يكن آية في الجمال . شجاع ، غيور ، كريم النفس ، لا يتخلف عن فرح ، ولا يقصر في ترح [2] . قيدوم الشباب في الحوادث السوداء والبيضاء . وهو أول من يحدو للعريس ، وأول من

---

(١) كنوه : لقبوه .   (٢) ترح : حزن .

يندب الميت . حاضر القلب واليد واللسان . لا عيب فيه غير حَوَل[1] في إحدى عينيه ، فصحّ فيه قول المثل : يا حينو لولا عينو .

سلّف جميع الناس فهبوا جميعاً يهنئونه بابنه البكر ، فامتلأ بيته سكّراً ورزاً وصابوناً وفراريج . وكان اسطفان مزهوّاً بهذه النعمة يقعّد شاربيه بين دقيقة وأخرى ، ويقدم النقل والقمح المغلي لكل زائر وزائرة ، ويحشو جيوب الصغار لوزاً وزبيباً . يكاد الفرح يقطر من عينيه ، ولكنه يحاول الا يعرّض احداهما فينظر بالوراب .

وكانت الأم الراقــدة في زاوية ذلك البيت الطويل المتواضع تهشّ وتبشّ ، رادة التهنئات والتحيات بأحسن منها، مع أنها كانت ممغوصة[2] ولكن سرورها بثمرة احشائها المبكرة غطى على وجعها .

وبعد أشهر مرض الطفل فعالجته القابلة بالبابونج والحقن،فانكسرت شوكة الحمى ، ولكنه ظل كزهرة لا تيبس ولا تينع . اتسعت حدقتاه وقشط اللحم عن وجنتيه ، فأمست ذقنه حادة بعد استدارتها الفاتنة. كان الطفل يذوب وأمه تذوب معه ، فتضعضع الوالد . أمّ تبكي وولد تئن ، ووالد يقعد كئيباً حزيناً قدام باب بيته يشكو الى الله همه .

ورأت ام الياس ، طبيبة أطفال الضيعة ، وهي عجوز ربّت خمسة عشر ولداً ، إن الكيّ ضروري فكووه أولاً في القمة . وإذ لم ينجح طبها هناك انحدرت الى لحف الذقن ، ثم هبطت الى البطن فكوته ثلاثاً فوق

(١) حول : انحراف العين عن مركزها الأصلي .

(٢) المغص : ألم بالمعدة .

السرة[1]، ففارق بعد أيام .

وبعد عام رزق اسطفان ولداً آخر كان حظه كاخيه، ثم ثالثاً ورابعاً فلحقا بأخويهما حتى مات صبره وكاد يكفر بربه . لا يدري كيف يعزي زوجته التي يحبهـا فيطفر الى الحقل . أما الزوجة المسكينة فأين تهرب ؟

كانت تبكي كلما وقعت عينها على السرير وتقول في نفسها : الذنب ذنب مَنْ يا ربي ؟ من المذنب منا ؟ انـ كنتُ أنا أو زوجي فما خطيئة أطفال أبرياء حتى لا يعيش منهم واحد ؟ دخيلك يا مار جرجس ، وا لو صبي واحد فقط حتى نقدر ان نعيش. مسكين ابن عمي ! ما تغيَّـر أبداً. ما رأيت منه إلا كل خير .

ثم أقبل الخامس فأشارت احدى العجائز أن يسمّـوه باسم أحـــد الوحوش ليردّوا عنه « القرينة »[2] التي خنقت اخوتـه جميعاً . فقالت الام انها علقت في رقابهم جميعاً « كتاب مار قبريانوس » وطوق قصحيا . والله العظيم ما تركت واحداً بلا كتاب ولا طوق . عن مذبح كل قديس أخذت بركة . يا قلة الحظ .

فقالت العجوز : اعملي مثلما قلت لك ، سمّـيه نمراً أو أسداً أو فهداً فلا تقربه « المطرودة »[3] أبداً . نسوان كثير أصابهم مثلمــا أصابك وخلصتهم بهذي الواسطة .

---

(١) السرة : التجويف الصغير في وسط البطن وهو ما تقطعه القابلة بعـد الولادة . (٢) القرينة : روح شريرة .

(٣) المطرودة : تسمية للقرينة .

ثم كان مؤتمر خماسي من الجدين والأبوين والعجوز ، فاختاروا اسم فهد للمحروس الخامس ، وتهللت الام وعاشت زمناً بهذا الأمل الجديد .

وجاء يوم العماد [1] فحملت الولدَ عرّابته [2] ، ومشى والده وعرّابه خلفهما الى الهيكل حيث كان الكاهن والشمامسة وبعض الأقارب ينتظرون. وشرع الكاهن في رتبة [3] العماد . ولما بلغ قوله : أنا أعمدك يا ... سال العرّاب عن الاسم المختـــار ، فتعالت أصوات من الشعب : فهد ، فهد ، يا أبونا .

فرقصت لحية الخوري غضباً وقال : فهد ؟ ايش هو هـــذا الاسم ؟ الوحوش في غنى عن العماد . أنا لا أعمّد الضباع والفهود . هاتوا اسم قديس . فهد ، ما شاء الله !

ـ نرجوك يا محترم .

ـ لا لا لا ، مستحيل يا أولادي ، مستحيل . لا تجربوني .

وكان الجد من العارفين بهـــذه الأصول فصاح بهم : لا تغلطوا . الخوري ، الخوري معه حق . سمّ يا معلمي الاسم الذي تريده .

فتماسك الخوري وضبط نفسه وقال : أنا أعمدك يا ساسين باسم الآب والابن والروح القدس .

فهمس الشيخ في اذن جاره : هـــذا اسم قديس ابن عم فهد . ثم قال

---

(١) العماد : التنصير وهو سر من الأسرار المسيحية .

(٢) العراب : كفيل المعمد .

(٣) الرتبة : مجموعة صلوات وقراءات وأناشيد كنسية

للخوري : عال يا معلمي ، عـــال ، كأن الله قاعد على لسانك . أصبت عصفورين بحجر واحد .

وجاء دور الغداء فأكلوا في البيت طعاماً شهياً أعدته أم فهد، وتأنقت فيه ما شاءت ، وخرج الكاهن داعياً للولد بالسلامة ، وللبيت بالبركة ...

وفي ليل ذلك النهار استيقظت لوسيا على صراخ ولدها ، فأخذت تصلّب فوق سريره . ثم جاءت بكتاب مار قبريانوس فعلقته فوق رأسه في عمود السرير الأفقي ، فنام حتى الصباح .

ومرّت أيام وأسابيع لم يشكُ فيها الطفل ألماً ولم يوجعه شيء . ثم حبا ودبّ وتجاوز عمر اخوته ، وامه ما تزال مضطربة. خافت ألا يكون اسم فهد كافياً لصد « القرينة » ، فقالت في نفسها : لماذا لا نلتجيء الى مار ساسين سميّه في العماد ؟ مار ساسين قديس نشيط ، تفزّع به الأمهات الأولاد متى تشيطنوا .

وظل هذا الفكر يروح ويجيء حتى قلقت في احدى ليالي كانون وقلق زوجها معها فقالت له : ناوية أن أنذره لمار ساسين ، فما رأيك ؟ الأحسن أن نمسك الحبل على الطرفين .

ــ الرأي رأيك ، اعملي مثلما يلهمك ربك .

وفي الغد فصّلت لوسيا لفهدها ثوب راهب ، ونذرته للقديس ساسين وأرختْ شعره على أن تقصه في تمام السنة الرابعة يوم عيد القديس ساسين وفي مقامه ، وتزن ثقل الشعر ذهباً .

وبعد سنتين وبضعةِ أشهر كانت أم فهد وزوجهـــا في الطريق الى

حاقل » ومعها خروف يقوده زوجها ، وخرْج من القمح المدقوق على ظهر الدابة التي تركبها الأم والصبي. وما أطلوا على « حاقل » حتى رأوا الرؤوس تموج في ساحة كنيسة القديس ساسين كسنابل الحصاد . موسم يقصده المؤمنون من أماكن بعيدة . وفود وفود معها نذور وقرابين ، شمع وبخور ، زيت ونقود .

وبعد أن زاروا الكنيسة واستراحوا ذبحوا الكبش ، وأوقدت النار تحت الهريسة التي نذرتها ام فهد فطورا للمعيِّدين .

تلك كانت أول مرة شهدت فيها لوسيا عظمة عيد مار ساسين . انها لم تحضر إلا عيد قريتها ، وعيد قريتها ليس من فحول الأعيــــاد ، لأن القدماء لم يحسنوا اختيار قديس من أصحاب العجائب الكثيرة، والمعجزات الكبيرة . قديسهم وسط ، ولذلك كان عيده بين بين .

وقفت ام فهد كالمشدوهة تسمع وترى : رقص ودبكة ، أغاني عتابا وميجانا ، شباب تسامى للعلى وكهول . فتحت سوق عكاظ بين القوّالة. واحتدم القول حتى أدى أخيراً الى « الجفـــاء » [1] الذي يسميه الشعر الرسمي هجاء . ولولا العقلاء علق الشر .

هوذا ضيعة كبيرة جاءت جردَ العصا [2] ، فحسب العقّال للعاقبـة حساباً . كانت ام فهـــد مكروبة ولا تدري لماذا . أما أبوه فكان يمشي كالراقص ، يحيي هذا ، ويصافح هذاك . يعرف الكثيرين من الزائرين ،

---

(١) الجفاء : الهجاء .

(٢) جردَ العصا : أي الجميع بلا استثناء .

فهنّاوه بالسلامة . ودعاهم الى أكل الهريسة[1] على سلامة المحروس ، فوعدوه خيراً .

وكان الصبي يسأل أمه أسئلة ساذجة فتجيبه وهي كالساهية . ترتاع كلما اشتد الصخب ، وتتأهب للرجوع، ثم تتذكر انها ناذرة، وغداً موعد قص شعر الصبي ووضع النذر على المذبح .

وتلاحى[2] شباب قريتين فحجز العقّال بينهم وصالحوهم،فعادوا الى مجالسهم يشربون ويأكلون ويسمرون.وانقضت الليلة على سلامةوعافية.

وفي الغد كانت ام فهد في الهيكل راكعة قدام المذبح ، فجزّ الكاهن شعر فهد ، ووزنت الأم ثقله ذهباً، وقعدت بين النساء تصلي صلاة الشكر متضرعة الى مار ساسين حارس ولدها . أما أبوه فكان بين الرجال ، يحدّث هذا ، ويتندر على ذاك ، وزوجته تصرف على أسنانها متألمة من استهتاره . تنظر اليه نظرة تبكيت كأنها تقول له كلما وقعت عينها على عينه : سماع كلام الله يا رجل ، احترم صاحب المقام الذي حفظ لك ابنك . بيد انها كانت تتعزى إذ ترى أكثر المصلين مثله .

وما انتهى القداس حتى كانت ام فهد وبعض المؤاجرات يكسرن الهريسة ، بينا كان الشباب متحلقين حول حبل جرس مار ساسين . الجرس شهير يقصده الشباب الأشداء،وينتظرون عيده ليظهروا مواهبهم العضلية . فكان الحبل ينتقل من يد الى يد .

---

(١) الهريسة : نوع من الطعام يصنع من القمح المدقوق واللحم .

(٢) تلاحى : تلاعن ، تشاتم ، تلاوم ، تشابك .

وكان هناك شاب ذو شاربين معقوفين كذنب العقرب ، وأنف أقنى كأنه منقاد نسر ،عيناه كالجمر لكثرة ما وَقَد من الكحول. فاحمرت أعين الشباب حسداً ، واحتكوا به ، وكان الخبط واللطم واللكم . وماجت الجماهير في تلك الساحة حتى خلتهم قطعة واحدة تتحرك .

واستيقظت ام فهد من همكتها بالهريسة على صراخ الجماهير ، وسباب الشباب ، فما رأت فهداً حولها ، فصرخت : ابني ! ابني ؟

وزجت نفسها بين الجماهير تصرخ صراخاً يفتت الأكباد ويسمعه حتى صاحب المقام... ففعل صراخها في الجماهير ما لم تفعله همة المصلحين. فهمدت الضوضاء ، وانجلت المعركة عن عدة جرحى ، وبعج بطن فهد ، فأُكلت الهريسة عن نفسه ...

السلامة غنيمة !

النار في الموقد تبربر وتغني ، وابريق القهوة يدندن ، حتى إذا دبّ الخادم بالحطب هزج الابريق وبقبق . وهلال منبطح في الزاوية ملتف بعباءته. يجرد ساقه ورجليه اظهاراً لجوربيه المخططين وبابوجه المزركش يغصب نفسه على القراءة ناظراً من وراء نظارتين ذهبيتين . غرّته الابهة فركبها فوق أنفه الأفطس . كان يتزنر بجبل القد [1] أو الشمر، ويكوكي

(١) القد : الجلد .

خلف والده حاملاً الجراب فلا يبلغ الحقل إلاّ بعد ألف جهد . حتى إذا مشى القلم المجهول في لوح القدر ، تبدلت صورة هذا البيت .

فرّ أبو هلال من وجه العدالة إذ جرح أحد بني عمه جرحاً مميتاً ، فإذا الثروة في انتظاره بالريو ديجانيرو . ربح الجائزة الأولى في «البيش»[1] فاصبح بين ليلة وضحاها من أصحاب بيوت المـــال ، طويل التجارة ، عريض الجاه . وقد مشى قدماً ، فامسى سيداً خطيراً توقّره الجالية ، وسُمعت كلمته لدى أصحاب المقامات من رجالات البرازيل .

وأخذت السفاتج[2] ترد على ابنه هلال حتى ازدحمت ببابه ، فشخر ونخر . شاور والده في بناء بيت رفيع العماد نخساً من النظر اليه أبناء عمومته فأجابه :

ولدنا العزيز هلال .

أحسب حساب غدرات الزمان . السترة تكفينا . ما سمعت قول المثل : على قد بساطك مدّ رجليك ؟ لا تكبر فشختك يا ابني .

والدكم : مرهج .

وطوى رسالته هذه على حوالة بألفي ليرة انكليزية . فخطا هلال خطوة واسعة أدت إلى خطوات أوسع . وكثرت أقاويل الجيران ، هذا يقول : توفيق غريب عجيب . المـــال مكبوب على الطرقات حتى

---

(١) البيش : اليانصيب .

(٢) السفتجة : هي أن تعطي مالاً لرجل فيعطيك تعهداً يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له في مكان آخر .

يجمعه مرهج ؟ والله العظيم قصة عمنا مرهج قصة غريبة . وإذا بزوجته ترد قائلة : الدنيا سعود وبخوت .

ومثل هـــذا الكلام كان يُتداول في زوايا بيوت « غرشين » وعلى مصاطبها كلما اجتمع اثنان . أما عند بيت مرهج فتسمع : هاتوا الطين . قدموا حجارة . أصوات تتعالى على الحيطان ، ووجوه الجيران تتقلص وتتمدد وتصفر وتخضر ، وألسن تقول : كان هلال في شروال خام مصبوغ ، وصديرية ديما ، وكانت الأرض لا تطيق ثقالته ، فكيف به وقد لبس الجوخ ؟ من ينجينا من شره متى كمل القصر ؟

وما صفف قرميد بيت هلال حتى لاحت للقرية أشباح النفوذ الرهيب وتحققت ظنونهم. طمح هلال الى مشيخة الضيعة وراح يسعى لها. سخت نفسه عن مئتي ليرة انكليزية ان صيّره مدير الناحية شيخاً .

ودرى حزب الشيخ بما يطبخ هلال فتهيأوا للكارثة . كيف تفلت المشيخة منهم ؟ هـذا لا يكون . فأعدوا للأمر المال والرجال ، فغلا سعر السوقة وتدللوا حيناً،وخفض لهم الأنصار جناح الذل، وظلوا يداورونهم حتى اشتروا أصواتهم آخذين عليهم العهود والمواثيق . ثم حاموا حول صاحب الرفعة مدير الناحية فرضي بالتي هي أحسن ...

لم يكن عزل شيخ في عهد المتصرفية بالأمر الهين ، ففكر المدير بحل مريح مربح . فبقّى الشيخ في منصبه الرفيع ، وعمل من هلال بيكاً . كان موسم التبرع للاسطول العثماني ، فتبرع هلال بخمسين ليرة عثمانية إعانة للاسطول الشاهاني المظفر . ونامت المئة والخمسين الباقية عند المدير

نومة أهل الكهف . ففتح البيك هلال بيته على مصراعيه . سفرة ممدودة للرائح والجائي. أكل وشرب قهوة واركيلة وسكاير اكسترا عند البيك . سهرات تارة تكون صامتة تقضى بلعب الورق ، وحيناً باجتماع القوّالين يغنون للبيك الطازج ، داعين لأفندينا بطول العمر ... وهلال ينفق عن سعة . والحوالة في ظهر الحوالة .

هوذا رجال البيك ينصرفون من « الدار » قرب منتصف الليل ، ممسين[1] جنابه واحداً واحداً،وهو يرد كل مساء بأحسن منه، وخصوصاً لمن يودعون جنابه بالبكوية . ويكشر بوجه من يغلط ويقول : خواجا هلال . والويل لمن يقول : هلال ، فقط .

صار بيكاً بشطحة قلم ، وهو يحفظ بطاقة مدير الناحية ، في قلب قطعة من الأطلس الزاهي ، مدبجة بخيوط استعيرت ألوانها من قوس قزح ، وقد حف بها اطار يشع كعين الشمس ، عرضها في صدر القاعة ليقرأ كل زائر :

الى سعادة قائمقام كسروان المحترم .

إن صاحب الدولة مظفر باشا متصرفنا المعظم يشكر اريحية هلال بك مرهج لتبرعه بخمسين ذهباً عثمانياً ، اعانة لأسطول الدولة العليا ، ايدها الله ، فبلّغوا الموما اليه شكر أفندينا ، ودمتم محترمين .

مدير القلم التركي

ن . ر

---

(١) ممسين : ملقين تحية المساء .

وما خرج آخر واحد من السمّار حتى صاح هلال بك : فريدة ، هاتي ورقة عن الكنسول . عتم ، توقي .

النار لا تزال تترثر ، وابريق القهوة يبربر ، فارتفع الغطاء واندلعت القهوة على الوجاق ، فهرولت فريدة ، فصاح البيك : على مهلك . كبّ القهوة خير . ربما جاءنا مكتوب من الوالد . ضاقت يا فريدة .

فصاحت فريدة : وكيف لا تضيق فيك ؟ لو أعطوك مال القارون تبذرقه بيومين . اخبزوا ، اطبخوا ، حمّصوا البن ، هاتوا السكر ، أين الدخان يا فريدة ؟ كل مال البرازيل لا يشبعك .

ـ قلت لكِ ألف مرة هذا لا يعنيكِ . لا تنقّبي [1] . اعملي أركيلة .

ـ أركيلة ! راح الليل يا معلمي .

ـ نعم أركيلة . هاتي الورقة .

ونتشها بغضب ، فما صارت في يده حتى خربش عليها :

سيدي الوالد . ولكنه ضرب عليها وكتب : يا بيي ، وهو يقول : بلا سيدي بلا بطيخ أصفر . ثم بدأ كتابه كالمعتاد : بعد تقبيل أيديكم . ولكنه عاد فخربشها وقال : أنا هناك حتى أقبل يده ؟ ما قبلتها حتى أقول له ذلك . بحياتك يا ربي الهمني كيف أكتب حتى تصل البوليصة مثل البرق . انفضحنا ، كبّرنا « الفشخة » [2] فانفسخنا . مؤكد ان أولاد الحرام كتبوا له عن كل شيء . ما تركوا كبيرة ولا صغيرة حتى

---

(١) نق : صوّت كالضفدعة وهنا لا تتململي .

(٢) الفشخة : الخطوة .

خبروه عنهـــا . وخصوصاً ابن عمي بولس الحسود الكلب . رأى نفسه صغيرة ، لا أحد يسأل عنه . مؤكد هو الكاتب لوالدي . تركته رنجه وقالت لأم سليم : بيك مثل هلال أفضل بكثير من فلاح مثل بولس . كان الوالد يبعث الألف خلف الألف . ومنذ سنتين ما بعث بارة . معناتها أنه هناك أرذال يبخون . ركبنا الدين . وإذا تأخر الوالد انفضحنا . كل هذا هين عند حجز حوائج البيت ، أو الحبس .

ووقفت فريدة تتأمل اضطراب البيك ، وتنظر إذا كانت الأركيلة تدخّـن . فلم ينتبه هلال الى موقفها منـه . ولما أدرك انها سمعت بعض نجواه قال لهـــا : روحي نامي يا بنت . اتركيني وحدي . وانكبّ على الورقة بجدّة يكتب :

بعد السلام والكلام ، أخبرك حصلنا بجاهك وكدّك على عِزّ مـا حصل عليه أحد في بلادنا . ولكنه يتدهور إذا لم تعجّـل بإرسال الدراهم . عجّـل ، وإلا راحت البكوية طعام القرد . عجّـل . أنا على نار . انقطاع تحاريرك قطع ظهري . ابعث ألف ليرة بالتلكراف حالاً حالاً حالاً .

ولدك : هلال .

ثم أخذ المكتوب وأحرق بجمرة اركيلته زواياه الأربـع . ووضعه في مغلف كان أحد التلامذة نسخ له عليه عنوان أبيه، ونام على أمل أن يسلمه في غد الى ساعي البريد .

نام وملء رأسه الهواجس ، فقضى ليلته تلك بين الغافي والواعي . نام

ولكنه لشدة اضطرابه خال انه لم ينم ، فقضى ليلته لا ينتهي له حلم حتى يبدأ آخر . وأفاق مع الصبح فإذا به لا يتذكر إلا واحداً :

رأى أن بئره فارت كالقدر ، ولكن لون المـاء غير صاف . ثم طفى الماء فكاد يطمّ البيت فاستنجد وصرخ . فإذا بساعي البريد يدق الباب ، فقعد في فراشه يفرك عينيه وهو يقول : الله يعطينا خيرك .

فأجاب الساعي بعـــد السلام والاكرام : كله خير يا جناب البيك ، المدير يتغدى عندك يوم الاربعاء .

فوجم هلال . وستراً لضعفه أجاب بنبرة : أهلاً وسهلاً .

أما فريدة ، وكانت تهيّـىء القهوة للبيك ، فصاحت : العمى ، ما لهم شغل غير الأكل والشرب ؟ اطبخي وانفخي يا فريدة .

وقال البك : ومن أميركا ؟

فمطّ الساعي شفتيه ، وهزّ جفنيه وساد السكوت .

وبعد أيام رؤيَ كهل نحيل ، أصفر اللون، مرتخي الشاربين ، في يده حقيبة أكل الزمان شيئاً من زواياها الأربع، يقطع طريق الضيعة بضعف وتوان ، ولا يسأل عن أحد . يقف متأملاً كل شيء .

استغرب الأهالي زيه فأطلوا من الأبواب يرون الى أين يقصد ، وأي بيت يدخل . ولم ينزووا في بيوتهم إلا حين دخل بيت هلال بك، فقعدوا يرجمون . هذا يقول : غايته كذا ، وذاك : هذا مرسال .

ودخلت واحدة من اولئك النساء المترجلات على المجتمعين وقالت : يا جماعة ، ان صدق ظني ، هذا أبو هلال .

فصاح بها زوجها : مجنونة أنت ؟ أبو هلال يهز البلاد متى جاء . الله يرد عنا . يد البك قصيرة ولا يهدأ .

فدقت المرأة يداً بيد وصاحت بعناد : هذا هو . من يشارط منكم ؟

وكان هو ، ما عليه غير ثياب عتيقة ، وفي يـده حقيبة رثة فاضية : أغناه البيش ، وأفقرته البورصة .

قال الراوي :

كان عهدي به مدّ النهار كالذي صرعه عنترة في حومة الموت ، فإذا بذاك الشحم قد ذاب ، وأمسى قليلاً ظله ... كان ذا قفا كالطبل ، فإذا به لا يرج ولا يمور . كان يلبس الألبكا صيفاً ؟ والصوف المارينوس شتاء فكنت إذا ما رأيته منتصباً تخاله عدلاً قنطارياً من الشعر يستوعب مؤونة البيت من القمح. لقد دقّ جناب «البك» واسترق ، فماج في ثوبه الرحراح

حتى يحسبه الرائي انه مستعار وليس لجنابه أصلاً .

كدت أنكره حين بادرني بالتحية.ولكن نبرة خاصة في صوته لا تزال ترن في اذني منذ سنين ذكرتني به . أما الوجه الذي يحمله اليوم فلم أستطع فك مشاكله ولا حل رموزه الهيروغليفية إلا على ضوء صوته . كان ذا عينين تقاومان الخرز،فإذا بهما ذابلتان تشتكيان حتى ضوء النهار الغائم. وكان ذا وجه مرح طروب فإذا بـه كوجه طفل يتهيأ للبكاء . تكرّش وجهه ، واتسع فمه كمغارة الضبع . وشاء أن يحذف بضع صفحات من سجل عمره فاحفى شاربيه فتبشع ، وبان العيب الفاضح في عنوان كتابه.

أدهشني منه أن يستولي على المبادرة في التحية بعد أن كان لا يردها . كنت في الأمس أسيّج الطريق بقدي المشوق ، ووجهي الصبوح ، استعد على ابتسامة تقيد الأوابد ، ولكن البك ، في عز سلطانه ، كان يفر من المازق كالغزال الشارد ، لا يرعوي لروعة حسن ولا لسحر جمال ... فاقعد آسفاً على لحظة محيية أفلتت مني ... فليس رد تحية وبشة قليلة من موظف كبير بالأمر الهين ، وازداد عجبي حين قال لي : تفضل ، أين تستريح ؟ ثم جرّني معه جرّاً الى أول قهوة . وانزوينا .

قعد سيدنا البك ولكنها قعدة قلقة مقلقلة ، فكأن سعادته على شوك. نفيخ وفحيح ، تنهد وتأفف . اتطلع فارى شعرات جفنيه « البشيرين » واقفة على سلاحها . استعداد وتأهب في مناطق الوجه كلها . يريد جنابه أن أفتح أنا الحديث ، فاخـــذ يلقي شباك نظراته ويغمرني بالتفاتات معناها : تكلم ، فتجاهلت غمزاته وومضاته .

انتقل مولانا الى ايهِ ، ونعم ، ولكني ظللت معتصماً بالصمت والتجاهل. فاضطر الى القاء الدرر وقال لي: من أين جاءك هذا السكوت؟ أعرف ان لسانك يلحس أذنيك .

فاجبته : علمنا الجدود أن السكوت من ذهب .

فنفخ نفخة تنزّي بيدرا ، وهكذا انفتح الجراب . فقال : يرحمهم الله ، كانوا خيراً منا وأحسن .

فاجبته : لا خير ولا أحسن ، ولكن الحنين الى الماضي من طبع البشر . التمدن على قدم وساق . والمدارس ملء الأرض . والأمل بحياة جديدة ينعش القلوب . شباب طماح ...

وما سمع كلمة « شباب » حتى ازرقّ وجهه واخضرّ ، وكدت أسمع صريف أسنانه ، ثم فتح فمه متثائباً . وبينا هو يربت بأصابعه الجرداء باب المغارة ، قال مجمجماً : لا تذكر الماضي ما لم تترحم عليه .

قلت: ولماذا ؟ ابدأ بضيعتك، أليس جيرانك اليوم أحسن منهم أمس؟

فضرب رخام الطاولة بنربيج أركيلته ، فاشرأبت نحونا الأعناق . ولكنه لم يبال وصرخ: كيت وكيت من جيراني . ما بقي في الدنيا جيران مثل الناس . جيراني ؟ ليتك تقبر كل جار مثل جيراني . جيراني كانوا أول مَنْ عَيَّد يوم عزلي ، ولولا الحياء « نوّرت » بيوتهم .

قلت : اذاً جيران أوادم ، فنحن بالف خير يا مولانا ، ما دام في الدنيا حياء .

فهز جمجمته هزات ، فقلت: وأصحابك الجدد أليسوا أرقى وأكيس

من الذين آخيتهم في ماضيك الـ . . . في الماضي العتيق ؟

فامتعض أولاً ، ثم زالت الامتعاضة حين أصلحت تعبيري وقال : أصحابي ! وأين هم أصحابي ؟ كلهم ذئاب كاسرة . فسدوا مثلما فسد الزمان الذي نحن فيه .

قلت : والجماعة ؟

فتنهد وقال : أية جماعة ؟ حزبنا ؟ صار حزبنا بلا راس . لا تذكر شيئاً من هذا . كل واحد يشدّ صوب صدره . الناس مع الواقف . انهم لا يذكرون شيئاً من تضحياتي . لا المال ولا الجهاد ولا ولا . . . كأني لم أعمل شيئاً يستحق الذكر .

قلت : الرب يعوّض . عندك أولاد . المستقبل لهم .

فتنفض كديك الحبش ، وانفتحت حدقتاه ، وطفرت منها عينان حمراوان خلتها بيضتيّ عيد ، وقال : كل البلا من أولادي . لا يرجى منهم خير . خاب الأمل . يضحكون مني . يهزأون بماضي والدهم . لا يذكرون يوم كانت الناس على أبوابهم مثل النمل . نسوا كل ذلك . أولاد مناحيس . شرب عرق ، ولعب قمار ، ورقص الى آخر الليل . هذا شغل اولادي . طيروا ما جمعت .

ولما عجزت عن سماع كلمة ثناء منه،نهجت نهجاً آخر وقلت: وكيف ترى الطبيعة ؛ هل تغيرت مثل الناس ؟

فقال : أية طبيعة ؟

فأشرتُ بيديّ التنتين وقلت: الطبيعة. . . كم يوجد طبيعة في لساننا ؟

فهزّ رأسه وقال : تريد الطبيعة المعروفة ؟ فهمت . اي نعم ، كل شيء فسد ، لم يبق شيء كما كان . الهواء فسد ، والأرض فسدت ... أين موسم الحرير اليوم ؟ أين الغلال في وقتنا الحاضر من الغـــلال الماضية ؟ خيرات كانت دافقة . كان رطل القمح بقرشين يا شيخ . لا أمراض ولا وباء . صحة مثل الحديد . انظر اليوم ، الأكل بالقراريط . الدنيا مقلوبة رأساً على عقب ... ألا ترى بعينيك ؟

قلت : أرى ما تراه أنت ، فما سبب كل هذا ؟

فاجاب : السبب... السبب... السبب. وظل يمضغ السبب ويعلكه.

فقلت : الاستقلال طبعاً .

فالتفت ليرى إذا كنت جاداً ، ولكنني لم أدعه في حيرته . فقلت : تذكر جلستك هنا منذ سنوات ، كنت تحاضر عن محاسن هـذا الزمان . كنت ترى كل شيء مليحاً ، وتغضب لهمسة انتقاد .

فتمكن من كرسيه وحدّق إليّ بغضب وقال : ماذا تعني ؟

قلت : أعني كل هذه المساوىء فينا ، ونحن نتهم بهـــا الزمان ... مسكين الزمان ! ما زال الزمان كما كان ، وما زال أهله خيراً مما كانوا .

فقال : لا أوافق على هذا .

فقلت : توافق أو لا توافق ، هـذه حقيقة وعليك أن تعرفهـا . فلو ظلت المياه في مجاريها لكنت ترى الدنيا بألف خير . ان الذي ساءت حاله هو أنت ، فخلت أن كل ما حولك قد ساء . فلو عدت الى حضن ابراهيم لما قلت : ان الناس في جحيم . فهذا النسيم الذي تصوره لنا أحاديثك ريحاً

سموماً يستحيل في الحـــال برداً وسلاماً ، وتقول للناعقين كما تنعق أنت الآن : في فمكم التراب ، سدوا بوزكم ، كل ما في البلاد يكذبكم .

فاطرق صاحبي وأخذ يفتش في جعبته عن آخر سهم . ولما وجدها فارغة تحامل على نفسه وقام . وكأنه أبى أن يخرج من المعركة مغلوباً ، فقال ، وكان المطر قد انحبس :

ـ ما رأيك في هذا الطقس ؟ هل مرَّ مثله على البلاد ؟

قلت : هذا كله من الاستقلال .

قال : يعني ...

قلت : وما معنى قولك يعني ؟

قال : والأمراض التي لم نكن نسمع بها ؟

قلت : وهذي أيضاً وصّى عليها الاستقلال .

فكظم البيك . ودرى أن الحديث استحال استهزاء ، فشاء أن يغير المجرى . فقلت : دعني أكمل . وأين جارك الذي مات أمس ، وبيت عمك الذي احترق منذ جمعة ، والجسر الذي سقط البارحة ، والقطار الذي حاد عن الخط أمس الأول ، وحمـــارة جاركم التي ضربها « الملعون » فماتت مأسوفاً على شبابها الغض ؟ كل هـذه البلايا والمصائب سببها الاستقلال ؟ أليس كذلك ؟

فنهض البك عن كرسيه ، والامتعاض ملء وجهه المتجعد . ترك طربوشه على الطـاولة عربون العودة ، وبقيت وحدي أفكر في هؤلاء

الناس الذين يقيسون الدنيا بمقياس غضبهم ورضاهم . وفيما أنا أتبحر بقول الشاعر :

ان نصف الناس أعـــداء لمن ولّـي الأحكام ، هذا ان عدل

تذكرت المثل السائر : فلان يحكي أكثر من قاضٍ معزول .

لم يخرجني من منطقة تفكيري إلا صوت صبي من باعة الصحف ينادي : معنا جريدة الوطن . تعيينات جديدة . ثم أقبل عليّ وبسط العدد أمامي قائلاً : اقرأ اسمك فيها لعلك تعطيني البشارة ، ان شاء الله.

فعبست وقلت للفتى : ومن قال لك أنني طالب وظيفة ؟

فقال الولد : ما لك غضبان ؟ اتهمتك بسرقة حتى غضبت كل هذا الغضب ؟

فضحكت وقلت : طيّـب ، خلّ لي العدد .

وبعدما قبض ثمنه شاء أن يدلني على اسمي طمعاً بالبشارة . وما كان أشد دهشتي حين قرأت :

« عيـّن الأستاذ فؤاد ابراهيم قاضياً فى محكمة بـداية الجدل فنهنئه . وبهذه المناسبة نرى لزاماً علينا أن ننوّه بخدمات والده الجليل بطرس بك ابراهيم،فقد قضى الشطر الأكبر من حياته في القضاء، وكان مثال النزاهة. إننا نتمنى أن يصح في نجله الكريم الأستاذ فؤاد قول فيلسوف الشعراء :

« وينشأ ناشىء الفتيان منا على مــا كان عوّده أبوه »

فقلت في نفسي : صدفة غريبة ! وقعدت أنتظر عودة بطرس بك وأخيراً جاء يهدج ويلهث .

فقلت له : أطلت الغيبة يا بك ، وقد حدث في غيابك ما حدث .

فقال : وماذا صار ؟

فقلت : تقرأ او اقرأ لك ؟

فقال : نسيت نظارتي في البيت ، تفضل اقرأ . وماذا في هذه الأيام غير أخبار المصايب والبلايا والضربات السخنة ؟

فلما تلوت على مسامعه خبر تعيين ابنـه قاضياً ، قلت : أهذا خبر سيّـىء يا مولانا ؟ كنت أحب أن أسمع رأيك الجديد في زماننا وأهله ، ولكن الأفضل ارجاؤه الى البيت عندما نقوم بواجب التهنئة .

فنهض وهو يقول : أهلاً وسهلاً . ننتظرك الليلة .

فقلت : نعم لنسمع الاسطوانة الجديدة ...

فما زاد جوابه على ضحكة صارخة دلتني على أنـه شمل « الزمان » برضاه ...

من رأى الخوري يتمشى مستعجلاً ظنّ أنه يقيس سطح قبوه[1] ... زكّى غيظه وحنقه لون سمرته فصار باذنجانياً . يتحدث ويشير كأنه يماشي شخصاً . يسيّره شعوره الداخلي ، فتارة يبطىء وطوراً يسرع . ومن رآه تحت أذيال تلك العتمة الرمادية الهابطة على الضيعة رويداً رويداً خال ان أحد عمالقة التوراة قد نشر .

وقبل أن يلف الليل القرية بشملته السوداء مرّ بطرس على الطريق

---

(١) القبو : البناء المعقود بعضه الى بعض .

الملازق[1] بيت الخوري ، فطار عقل الكاهن حين وقع نظره عليه،فبصق من حيث لا يشعر ، وعلت همهمته ، وحثّ مطيته كأنه رائح الى دفن ويخاف أن تفوته الصلاة وما يليها ... ثم انفجر يقول : دكان بطرس خرب الضيعة . كنا بألف خير قبل هذا الدكان . عوّد الناس على الشرب ولعب الورق ، فهجروا الحقول . الكروم وبساتين الزيتون والتين أكلها الشوك والعليق . الأرض كلها بور ، قندول وبلان . كانت الضيعة تبيع من كل الأصناف ، فصرنا لا زرع ولا ضرع .

حنا طنوس كان يطبخ قنطار تين ويبيع قنطارين وأكثر ، واليوم اشتهى اولاده قشرة التين . ومن أين يأتي التين ؟ الأرض ان أطعمتها تطعمك ، وإذا دينتها توفيك القرش عشرين . ولكن الني كان يديّنها راح ، وترك اولاده غارقين في دكان بطرس ، لا شغل ولا عمل . شغلهم القمار وشرب بيرة وعرق .

وأخذ يفتش عن أسماء المشروبات الحديثة فما دار على لسانه اسم واحد من أسمائها ، فانتفض وأشار بيده إشارة غضب وقال : مشروبات غريبة ما لها دين ولا مذهب . ما عاد يعجبهم النبيذ والعرق. ولكن الشرب هين عند القمار ... يا عضرا نجّينا ! تدرجوا من لعب المنقلة والداما والطاولة الى لعب الورق ، ومن لعب الورق الى القمار . متى كان الانسان يبيع الطنجرة ؟ جرجس بن حنا طنوس باع الطنجرة حتى يقامر . يا خراب الضيعة !

---

(١) الملازق : الملتصق .

ضيمتك تخرب قدام عينك ، يا خوري يوسف ، وأنت واقف قبالها مثل الخيال ! لا لا لا لا . وبّخ وأنّب ولا يهيننك أحد كما قـــال بولس الرسول .

يعلم الله انّـا ما قصرنا، ولكن على من تقرأ زبورك يا داود ؟ ناس مثل الحيطان . إذا لم نسكّـر دكان بطرس راحت الضيعة ، وعلى الشرف والطهارة ألف سلام .

بنات ونسوان ، شباب ورجال في دكان بطرس الملعون ، يقابلهم بضحكته الشيطانية . يتدحرج بينهم مثل البرميل . كرشه قاعد قدّامه كأنه في الشهر التاسع. لعنة الله على هاتيك السحنة الملعونة ! المنافق يعمل حاله مثل المهرّج ويضحك على ذقون الناس . والناس حمير لا ينقصهم إلا الذّنب . كان أفقر واحـــد بالضيعة فصارت الليرات معه مثل التراب . تعجبك ضحكته عندما يزوي هاتيك العين الحولاء ؟... الشيطان بذاته .

وكانت زوجة الخوري تتنصّت ولكنها لا تسمع إلا كلمات متقاطعة، ما فهمت منها إلا ما دلها على أنه يتكلم عن بطرس ودكانه. وبطرس عزيز على الجميع، ودكانه ملتقى الخلاّن... يحول عينه الحولاء صوب الجيوب، وليفعل الناس في دكانه ما شاؤوا ، فهو غير قيّم على الأخلاق . لا يعنيه إلا أن يبيع ويقبض .

وتقدمت زوجة الخوري منه وقالت : نسيت حالك يا خوري . نحن في كانون . الطقس بارد .

فكزّ المحترم وقال : ما عليك . الطقس بارد . وأنا حامي .

فقالت في نفسها : الله يطفيك . ثم قالت له بلطف : اقعد ، تدفأ واحك ، من يعارضك ؟

ودخل الخوري . وقبل أن يقعد انتفض رافعاً رأسه ويديه نحو السماء ، فلاحت أصابعه كالمدرى[1] ، وانتفشت لحيته كالبلاّنة وصاح : غضب الله ، من فوق ، ينزل عليك يا بطرس ، خربت الضيعة . سألني الوعاظ عن دكان بطرس فانكرت الحناء وأثرها محافظة على سمعة الضيعة. أما الآن فغير ممكن أن أسكت .

ـ اسمع مني ، يا خوري ، ما لك وما لهم . كلهم من حزب بطرس. يديّـن هذا ، ويقرض هذاك . ولولا نفوذه ما عيّـنوه أمس مختاراً ، وما سألوا عن أحد . هذا شر ، ما لك وما له .

ـ اسكتي ، يا خورية ، لا تشوري . هذا شغلي ، هذا واجب كهنوتي ديني . من يحمل عني خطيتي يوم الدين ؟ أنت ياحرمة ؟ وأنتِ كم مرة قلتُ لك: لا تدخلي دكان بطرس ، لا تشتري شيئاً من عنده. كوني مثلاً صالحاً ، لا توصلي موسى بطرس الى لحيتي ، سمعتِ ؟

ـ ايش بك الليلة يا خوري ؟ نحن يجب أن نكون لعموم الضيعة .

ـ هذا مطلوب من الخوري لا من الخورية . الخوري يكون للعموم . فهمتِ؟ الآن أقدم عريضة لسيدنا البطرك التمس فيها « الحرم » لبطرس ومن يدخل دكانه . القمار ممنوع دينياً .

ـ ليس هـــذا من رأيي يا خوري . اسمع مني . لا تتعب نفسك

(١) المدرى : آلة على شكل أصابع اليد تستعمل لفصل التبن عن القمح .

وتقلق الضيعة .

ـ من سالك عن رأيك حتى تقولي لي ليس هذا من رأيي ؟ كان يقع في « الصينية » أيام الآحاد لا اقل من مئة قرش،فصارت لا تجمع إلا عشرة قروش . كانت « صينية » عيد الميلاد تجمع خمسمائة قرش ، البارحة ما جمعت إلا أربعين . أكل البيضة وقشرتها ابن الحرام . القرش الذي كان كان يحطه الولد في الصينية صار يشتري به علكة من دكان بطرس . أنا ساكت ، ولكن كيف أسكت عن القمار ؟ من يسرق فسطان أمه ويبيعه؟ ابن رشدان باع فسطان أمه المخمل في البترون ولعب بحقه . يا خزيتنا ويا هتيكتنا (١) .

قومي هاتِ الدوا .

فترددت الخورية وأخذت تتفرس في وجه الخوري ، فصاح بها : ما عرفتيني بعد ، أنا خوري يوسف .

ـ ايش بك الليلة ؟

ـ قومي قلت لك .

وقدمت له الدواة ولفيفة الورق الطويل العريض ، فنشر واحدة منها وانكب يكتب لصاحب الغبطة .

وتحلحلت الخورية، فصاح الخوري:الى أين ؟ الى الدكان ان شاء الله .

فقالت الخورية : حس عياط. فقال الخوري:وماذا نسمع بعد اليوم غير العياط ؟ القلة تورت النقار يا خورية . قولي لي : ما لك وما لهم .

(١) الخزية : العار ، والهتيكة الفضيحة .

حرّق أنيابه فاسمع صريف القعو بالمسَد[1]، وأخذ يقرأ ما يكتب: فيا سيدنا الكلي الطوبى، ان هـــذا الدكان جهنم أرضية، فإذا لم ترشقوا صاحبه بالحرم الكبير[2] راحت الفضيلة وطار الدين. نصير مثل البهائم، لا بل البهائم خير منا. البهيمة لا تقامر على غداها وعشاها. أما أولاد ضيعتنا فصاروا يقامرون على كل شيء، ولا يستبعد أن يسرقوا أواني الكنيسة الفضية والذهبية ليقامروا.

وكانت الخورية تسمع وتتمرمر. وخبرت أخاها القادم من الدكان عما نوى عليه زوجها، فقال لها: اتركيه يعمل مثلما يريد. الحالة لا تطاق يا اختي، سمعت العياط طبعاً. سكر خليل وجرمانوس وكان ختـــام السكرة ضربة سكين.

فصاحت الخورية: ضربة سكين!

فقال أخوها: نعم، نعم. وقريباً يلعب الرصاص. اتركي الخوري.

فقالت الخورية: وماذا عمل بطرس؟

فاجاب أخوها: بطرس مشغول باله. خبرته امرأته أن ابن غاريوس أخذ ثلاثة رجال يعرفهم من الدكان وغدّاهم في بيته، فقامت قيامته عليه لأنه خسّره بضعة قروش.

---

(١) القعو بالمسد: القعو: محور البكرة، والمسد: الحبل، أي صوت الحبل لدى مروره حول محور البكرة.

(٢) الحرم: قرار يصدره مرجع ديني كبير يمنع من يرمى بـــه من ممارسة حقوقه الدينية.

فرقصت لحية الخوري غضباً ، وأخـــذ يشد على مغلف العريضة البطريركية ، وهو يلصقه، كأنه يشد على رقبة بطرس الغليظة، ويقول: هذا النوري يريد أن يمحو صيت الضيعة وكرمها . يريد أن يحرم الضيافة ابن الكلب حتى يربح قرشين ثلاثة . ومتى رحنا الى القرى والضياع مَن يطعمنا إذا عرفوا اننا نبيع الغرباء الخبز والبيض والزيتون ؟ الله يقصف عمره ما أرداه .

ثم التفت بالخورية وقال متهزئاً : قولي لي، بعد : لا تطلب « الحرم » . هذا لا يكف شره عن الضيعة غير « الحرم » . عندما ينقطع النـاس عن المعاطاة معه وتقف حركة دكانه يتربّى .

فقالت الخورية : ومن يسأل عن « الحرم » اليوم ؟ الذين كان يخوّفهم « الحرم » ما بقي منهم أحد .

فمدّ الخوري يده الى حذائه القريب منه . فحنت الخورية رأسها لتتقي الضربة، ولكن المحترم لم يفعل توقيراً لأخيها . فقال الأخ للخورية: لا تقولي مثل هذا الكلام يا اختي . نسيتِ انك انت خورية ؟

فصاح الخوري : تغيرت اختك يا سلوم . دائماً تعارض وأنا صابر .

وبينا هم في هـذا الحديث جاء أحد الآباء يشكو ولده الذي يسرق كل ما تصل يده اليه ، ويقايض عليه في الدكان إذا لم يكن معه دراهم .

فصاح الخوري : هه ، قولوا لي بعد لا تحرمه .

وما سمع الشيخ كلمة « الحرم » حتى وقع على يديّ الخوري يقبلها، ثم أخـذ يبحث عن رجله المتحصنة تحت ذيل جبته ليقبلها أيضاً . فنبح

الكلب وهجم ، فزجره الخوري ، فعاد الى مقعده ، ولم تنقطع موسيقى هريره .

وقال الخوري للرجل : قـل لهـذه المجنونة بنت عمك أن الحرم هو لعنة الله . ومن تحل عليه مصيره الخراب والهلاك اذا لم يصلح سيرته الفاسدة.

وبينا هم يتحدثون عن ويلات الدكان علا الصياح ، وهرع بعضهم الى بيت الخوري يسالونه الاسراع للحجز بين العائلتين المتحمتين بسبب ضربة السكين .

فقال الخوري لفتى من ذوي قرباه كان عنده : ألبس ثيابك ، واغدُ عليّ لتأخذ مكتوباً الى بكركي .

قال هذا وهو يشدّ حذاءه ، ثم توجه الى حيث المتشاجرون . وبعد ما حسم الخلاف قال لبطرس ، وهو عائد الى بيته : ما قلت لك يا بطرس لا تسقِ أحداً في دكانك ؟ ما قلت لك لعب القمار يخرب الضيعة ؟

ولما جاء الأحد كان الحرم في عب الخوري ، فتلاه على مسامع رعيته بعد قراءة الانجيل . فهدر الشباب ، وهمهم الشيوخ ، وأراد بطرس أن يحتجّ ، فاسكته عتل [1] من جماعة الخوري . فانسحب من القداس وقعد قدّام دكانه يبتهر [2] . فقال له أحد العقلاء : لا تهدّ ولا تقدّ ، « الحرم » على القمار والسكر يا بطرس ، فلا تقع ولا توقع الناس .

وهدأت الرجـل أياماً ، وانكف الكثيرون عن ارتياد الدكان حتى

(١) العتل : الجافي الغليظ ، الشديد من كل شيء .

(٢) ابتهر : افتخر ، أيضاً الادعاء الكاذب .

أفاق الناس ليلاً على صياح بطرس واستغاثته : احترق الدكان !

وكثر القيل والقال . قال فريق : هذا الحرم . وقال آخرون : الحرم لا يحرق البيوت ، ولكنه يضرّ بالشخص . أما الخوري فاحتار في حل هذه المشكلة، وهو يعرف قصصاً كثيرة عن مفاعيل الحرم. اما أن يحرق دكاناً وكل ما فيه من بضاعة فهذا كثير .

وبعد كد ذهن واجتهاد عنيفين وصل أخيراً الى هذا الحل الوسط : إن لم يكن هذا الحادث من مفاعيل الحرم فهو دون شك من تأثيره . فالله لا يترك دينه . انه ينجده من وقت الى آخر ليعتبر البشر .

ونام مطمئناً الى هذا الظفر . وقبل أن يغطي رأسه بلحافه قـــال للخورية : كيف رأيتِ « الحرم » يا خورية ؟

فقالت : يحرق بيوت الناس ... وبصوت لا يُسمع : ويروي غليل الخوري ...

وظل الخوري والناس مشغولين بتعليل هذه الأعجوبة . حتى كان بعد ظهر السبت، فقرع الخوري الجرس، وأقبلت الرعيّة على الاعتراف، وفي طليعتهم حنينة زوجة بطرس صاحب الدكان .

وبعد أخذ وردّ اعترفت حنينة للخوري بأنها هي التي أشعلت النار في الدكان . فعجب الخوري وصاح : أوه ! أنت حرقت دكانك يا بنتي ؟ هذي من يعملها غير المجانين .

فاجابت حنينة : أحسن من أن يحترق قلبي وقلبك ... حلّني يـــا بونا .

حنا ديب من بيت حطّ عليه الدهر . ولد في علّية تسامي الكنيسة وتنظر اليها شزراً . أكل جده ديب حصرم الوجاهة فضرس والده . باع توته وزيتونه وكرمه وتينه حتى العلية ، ولم يترك لابنه حنا غصناً يقع عليه الطير . فشبّ حنا واكتهل في قبو جاثم على كتف « الوطا » ، تلك البطحاء الواسعة اللابسة من ورق الزيتون ثوباً لا يبلى . إذا سرّحت فيها

نظرك من قدام قبو حنا تخالهـــا مظلات جيش مرابط في ذلك الغور . ترتفع بينها شجرات عفص وسنديان وبطم ركبها العريش فبدت كأنهـا عذارى دوار في ملاء مذبل . على حفافي هـــذا المنخفض المنبسط تنوء الأشجار المثمرة بأعبائها . وفي وسطه طريق عـــام يربط ثغور لبنان : صيدا وبيروت وجونيه وجبيل ، بقصباته المشهورة : دوما وبشري واهدن . كان ذلك يوم كان لبنان منيعاً لم تهتك حرمته الوعرة طريق الدواليب، فقلما خلا ليل من قفل مكارين تلطف أجراس بغاله وجلاجلها وحشة الدرب .

كثيراً ما كان يسمع النـاس عياط المكارين : يا حنا ، ما عندك ماء تسقينا ؟ وكان حنا يهتز للسقيا ، على قلة الماء في القرية وبعـــد البئر عن قبوه . فكان لا يمسي إلاّ وجرّته ملآنة استعداداً للطوارىء ، وهو ابن بيت أطعم بسخاء ، فكيف لا يسقي ؟ والماء لا يكلفه إلا قليلاً من التعب. فعند كل غروب شمس كان يُرى منتصباً كالبرج فوق أرجـاء بئر الدرب أو بئر الدكان يملأ جرته « البغّـالية » [1] . ثم يحملها بيده اليمنى دون أن تنطوي قامته الشامخة . وإذا التقى أحـداً ، وهو على حاله تلك ، ينبسط وجهه تجملا ولكنه لا يبتسم ولا يضحك .

ان رؤية بيت دبّ فيه ثم هجره ابن خمس كانت تؤلمه جداً . وكيف يتحامى [2] ذلك، والآبار كلها حول الكنيسة أو قربها، وهو محتاج الى الماء؟

---

(١) الجرة : وعاء من خزف (الفخار) والبغالية منه أكبر حجماً .

(٢) يتحامى : يتجنب ، يتوقى .

لا بد اذاً من النظر الى عليّة بيت الكريدي. وتذكر أيام عزه في الطفولة. ومع أن حنّا مسّته العضّة بالرغيف [1] ، كان يتجمّل ويري الناس أنه بالف خير شبعان مكفي مثلهم ، بل كان يفوقهم بأنفة يدل عليها شمم طبيعي في هيكله المتناسب بدانة وطولاً . كان في خده صعر [2] لا يستقيم، وكبرياء موروثة . اذا دخل بيتاً ، ولم تبسط له طرّاحة أو مسند على الأقل ، يظل واقفاً ، ثم يلوذ بعذر وينصرف . عرف الناس هذه الخصلة فيه ، فإذا رغبوا في مسامرته ، أو كانوا في حاجة الى « شريك » في لعب الورق ، مدّوا له الطرّاحة والمسند ، فيقعد بطل لعبة « الداكا » وتختم السهرة باكل الجوز والتين اليابس والزبيب .

كان لحنّا شاربان معتدلان ، لونها خروبي كجلدة وجهه ، يركزهما حين يؤاتيه « الورق » . وإذا خانه الحظّ حكّ نقرة في ذقنه . ومتى غُلب يصعد الدم الى وجهه فيسودّ . ثم لا يلبث أن ينقلب الى وكره . فيستقبله كلبه غبار محيياً بذنبه ، مقبلاً بملء شدقيه ، حتى اذا سمع حس انسان أو حيوان وقف على حائط المصيطبة قدّام باب القبو وطفق ينبح، ولا يزال يهرّ حتى يبتعد الحس أو ينقطع ، فيعود ليقعد حد صاحبه الذي يربت له ظهره مثنياً على نخوته .

كان حنّا يحدث كلبه كانه بشر ، وكثيراً ما كان الكلب أنوف عفيف ، فيه كثير من أخلاق صاحبه ، لا يطوف على الأبواب كرعاع

---

(١) مسته العضة بالرغيف : للدلالة على الفقر .

(٢) صعر خده : أماله عن النظر الى الناس تهاوناً وكبراً .

الكلاب.رباه حنا على عزة النفس والأنفة ، فهو لا يتبذل ويلحق بصاحبه في الضيعة . وان كان لا يتركه في البرية ، بل يظل مع ابن خاله الحمـــار يتداعبان . واذا غاب حنا وحماره ، ينطر غبار القبو ولا يبرحه .

وكان خلاف على الناطور ، فانشقت الضيعة حزبين : حزب يؤيد الناطور السابق ، وحزب لا يريده. فسعى محبو السلامة في فض الخلاف، فلم يقعوا على شخص يرضى عنه الجميع . فقال الخوري:حنا ، يا أولادي. هـذا رجل طيب أمين ، بيته على كتف « الوطا » ولا يملك عريشة ولا زيتونة ، وما قال أحد أنه قطف عنقود عنب ، أو حبة زيتون . ضيعتنا تحتاج الى ناطور أمين ، صاحب ذمة مثل حنا .

وفوتح حنا بذلك فأجاب : الدهر يجور على السلاطين . الحاجة لا تصيّـر ابن ديب الكريدي كلب الضيعة . لا لا لا .

قال حنا هذا ورفع يده باباء . فوقف كلبه على سلاحه . وازداد حنا حدة ، فهرّ الكلب ، فاضطر حنا أن يبتسم له حتى يسكت .

وبعد مساع عنيفة قبل حنا عصا النطارة وأظهر عبقرية عجيبة . كان بخلاف النواطير صامتا ، فلا يعرف أحد أين يكون . ان خراج القرية ذو التواءات ، والوطا مشتبك الأشجار ، ولكن صمت حنا ذلل هذه الصعاب كلها وهابه الذين يعبثون بالأرض . أما كلبه غبار ، رفيقه الدائم،فكان يلزم الصمت حين يامره حنا بذلك . وكثيرا ما كان يستنيبه فيرسله وراء خروف ضال أو عنزة شاردة ، فيسوقها أمامه ويجيء بها اليه . فيأخذ حنا الضريبة المفروضة له على كل رأس .

وظل حنا في وظيفته هـذه عشر سنوات لم يلطخ اسمه بشهادة زور أو سوء أمانة . وفي أيام المواسم حين كان يخشى غزو الثار ، كان لا ينام إلا غراراً. يرابط كل ليلة في مخرم فيصون الكروم والاجاص والسفرجل. ولا يستريح باله حتى يتم قطاف الزيتون . وفي ذلك الحين يتبرع له الفلاح الوسط برطلين ثلاثة حلوان[1] سهره وتعبه. أما الملاّك الكبير فلا يعطيه أقل من خمسة . وبعضهم كان يعطيه عشرة .

وفي أحـــد أيام الشتاء انتصب حنا كالمارد على شرف[2] من صخور الكروم ليشمل بنظره خراج مملكته . قلب رأسه صوب كسارة العين ، والفتاح ، والبياضة[3] ، فما رأى بهيمة في غير موضعها . فتطاول لسطوته التي أمست تغنيه عن اللف والدوران والوقوف بالمرصاد . نعم ، ليس كانون كشهر أيلول حين تكون المؤونة على العود ، فاليـــد في الصيف ممدودة ، ولكن متى كانت الحال هكذا : لا معّازة ولا بقّارة ، ولا قطع أحراج ؟ أعجبت حنا نفسه كثيراً ، وشكر ربه على هذه النعمة ، ورفع يديه ابتهالاً وحمـداً ، فإذا بالصخر يزحل من تحته ، وظلا منحدرين معاً حتى استقرا على شفير النهر .

وكان في الجبل المناوح[4] معّاز يرعى قطيعه فصاح : راح طعام القرد . الله يسهّـل ... الله يسهّـل. استراحت المعّازة والبقّارة . ولكن

---

(١) حلوان : جزاء لقاء عمل . (٢) شرف : المكان العالي .

(٣) كسارة العين ، الفتاح ، البياضة : أسماء أمكنة .

(٤) المناوح : المقابل .

حنا نهض وأخذ ينفض ذيل شرواله ، ويمسح يديه المفلوقتين[1] . ثم طلع في الجبل يفتش عن عصاه وطربوشه المغربي . كان طربوشه عالقاً في رأس شجرة زعرور فتسلقها وأخذه . أما عصا الرعاية فلم يجدها . فعـــاد الى البيت على أمل أن يعود فيفتش عنها في غد .

وما بلغ الرامية ، وهي ساحة عمومية تحت بيته ، حتى خفّ كلبه غبار الى استقباله ، يبصبص بذنبه، ويرتمي على صاحبه كأنه فرح بنجاته.

ونام حنا تلك الليلة ، ولكن أفكاره لم تنم . طفق يحاسب نفسه وقال: خطية مَن برقبتي ؟ والله العظيم ما اتهمت أحـداً زوراً ، ما حكمت على أحد بتخريب إلا بعد ما رأيته بهذه العين التي يأكلها الدود . فما هو ذنبي إذاً حتى وقعت هذه الوقعة ؟

وبعد أخـذ وردّ طويلين استخلص من الحادث الجلل أن الله راض عنه ، والبرهان نجاته ، فلو سقط طير سقطته ما سلم . وكان آخر سهم رماه في فضاء التخمين قوله : لو كنت متّ كانوا قالوا : مستاهل ، رجل ظالم . أنا ما ظلمت ، ولكني وقّفت الناس عند حدهم . نشكر الله .

وأيقن البقّارة أن حنا لن يغدو الى النطارة كعادته ، فسرحت أنعامهم في الأرض المحمية[2] . فإذا بـــه يفاجئهم ويدحرهم الى الأرض البور[3] .

---

(١) المفلوقتين : المشقوقتين .

(٢) الأرض المحمية :أرض الأشجار المثمرة التي يمنع البهائم من دخولها للرعي.

(٣) الأرض البور : أرض الأشجار الحرجية التي تدخلها البهائم للرعي .

وجاء أول السنة المارتيّة التي كانت تؤرّخ بها الدولة العثمانية،فاتفقت كلمة الضيعة على تجديد ولاية حنا ، فظلت عصا النطارة في يده ، وفتش الناس عن مشكلة اخرى تغذي حزبيتهم .

وفي صباح يوم من أيام الربيع ، استيقظت الضيعة على دقات حزن فهلعوا . ولما علموا أن الميت هو حنا خفّ الجزع . وقع في حفرة قدام بابه لا يزيد علوها على قامة[1] فانتشل منها ميتاً . وكان الحزن عليه خفيفاً لأنه خاتمة أسرته ، فكاد أن يكون مأتمه صامتاً لولا بناته . أما زوجته فكانت تبكي على مهل . لم يمش أمام جثمانه غير كاهن واحد هو خوري الضيعة ، وكان ترتيله نيئاً لأن لا مسعف له . فحنا كما عرفناه لا يملك مالاً فينعى الى قرى عديدة .

مشت القرية كلها في جنازته شاعرة أن رجلاً من الطيبين مات . لم يتفجعوا عليه ولم يبكوه ، ولكنهم قدروا أمانته بصمتهم .

وكان كلبه غبار في عداد المشيعين . يمشي من عن يمين التابوت كئيباً حزيناً . أثّر منظر هذا الكلب الوفي في المؤاجرين فكانوا ينظرون اليه باعتبار وتقدير حتى قال أحد ظرفائهم :

ـ هذا الكلب أحق بالتعزية من زوجة حنا ...

أما الصغار فكانوا يداعبونه ، ولكنه يجدّ ، فيتركونه وشانه .

وعاد النـــاس عند الظهر نافضين أيديهم من تراب الفقيد ، ما عدا

---

(١) قامة : طول الانسان .

الكلب فإنـه نام على التراب المهال على باب القبر . كان يشق عينيه إذا ناداه من مرّ باسمه ، ثم يغرق في كآبته العميقة .

وعند الصباح رأى الناس التراب منبوشاً ، والكلب قد لفظ أنفاسه في ما حفر . فجرّوه من المنطقة المكرّسة . وظلوا عاماً يتحدثون عن وفاء غبار ويخلقون لموته أسباباً وعللاً .

أما القول الفصل فكان حين فتح باب قبر حنا ، بعـد سنة ونصف ، بوجه ضيف جديد . رأوا أشلاء حنا مبعثرة خارج تابوته ، فعلموا أن « غبار » مات حزناً وجزعاً على صاحبه إذ لم يستطع إنقاذه .

عرفته يومَ كنت في أسكلة جبيل . واني لأضحك من نفسي كلما تذكرتُ كيف تهيّبت صمته وسمته يوم اجتمعت به . عرفته ، أول مرة ، في سهرة أحد أبناء عمومته، فرأيتُ عجبا : صدراً عريضاً نافراً كالترس،

ورأساً كالبطيخة كانه وُدِعَ موقتاً بين كتفيه الناشزتين [1] ، تندلقُ تحت ذقنه غدّة تخفي رقبته الصغيرة . عينان تبصّان فوق أنفٍ صغير بالقياس الى ذلك الوجه المفرطح [2] .

راعني صمته فحسبت له حساباً ، وأخذت ألم أطراف حديثي وأزن كلماتي . أحكي وعيني معلقة بوجهه . أنتظر كلمة من فيه لأعرف زيادته أو نقصه كما علمني العم زهير . ولكن ابراهيم لا يتكلم .

وانصرفنا وصاحبنا ما فرّط بشيء من وقاره . فقلت لرفيقي في طريقنا الى البيت : حقاً ، الصمتُ زينٌ .

فقال : تعني صمت الشيخ ابراهيم ؟ هذا رجل مجنون عاقل .

قلت : مجنون عاقل ؟ ! هذا فوق علمي ، فسّر ، حفظ الله عقلي وعقلك .

فأجاب : تقول الناس انه مجنون ، ويقول هو : الناس مجانين ، لا يفهمون عنه . يتحدث غالباً كالمجانين ، وأحياناً كالعقّال ...

فقلت لرفيقي : شوّقتني الى حديثه . فقال : ان نطق أبو الهول تسمع من القصص والأحاديث ما يموّنك شهراً .

ونمت تلك الليلة وخيال ابراهيم يطوف حول سريري. وما أصبحت حتى كنت عنده ، فوجدته منهمكاً في حساباته ، منكباً على دفتر طويل مرقّم ، كتب في صفحته الأولى :

---

(١) الناشز : ما كان ناتئاً مرتفعاً عن مكانه .

(٢) المفرطح : المنبسط ، العريض .

عند السلطان عبد الحميد مليون ونصف ليرة .

عند الامبراطور غليوم خمسة ملايين .

عند المسيو لوبه مليونان .

عند قيصر روسيا سبعة ملايين .

عند والي بيروت ٣٠٠ ألف ليرة .

وهناك أرقام غير هذه ، لا تعد ولا تحصى ، لم يسعها دفتر ابراهيم ، فاستعان بحيطان بيتـه . كان كلما سمع باسم ملك أو عظيم نزّل اسمه في سجله وحيطانه .

حدثني ابراهيم عن علاقته المالية مع بيت روتشلد حديث واثق جاد. قال : انهـا بلغت المئة من الملايين . الجماعة أمناء ، ولكن حلاوة المعاملة أخذ وعطاء .

فقلت له : ديّـن أهل بلدك . الغريب يتعبك .

فتنفس كالقنفـذ وحلق . فالتفتُ لأرى أين أنا من الباب ، ولكن ضحكةً بلهاءَ أطلتْ على أثر ذاك الهيجان أمنتني ، ولا سيا حين قال : أنا مجنون ؟! من يديّـن مجانين ؟ أنا أدين مئة ليرة ومائتين ؟ أنا لا ألعب بهذه المبالغ الصغيرة. البارحة سلمت البنك العسملي عشرين مليوناً . كنت أدين مبالغ صغيرة ، ولكني صرفت الكتّاب واسترحت من بلادتهم . نوم للظهر ، طق حنك في المكاتب ، شرب قهوة وتدخين . خربوا بيت الشيخ ابراهيم . الله يخرب عمرهم .

ورأى من شبّاكه المطل على الطريق غنّاماً يسوق قطيعاً صوب

بيروت ، فنهض وقال : استأذن . هذا القطيـع لي . لي جمعة منتظر . لا بد من مرافقته الى نهر ابراهيم ...

فقلت : أرافقك اذا أمرت .

فضحك وقال : هـذا كلام من يعرف قيمة البشر . تفضل . أهلاً وسهلاً . نشكر الله ، حظينا بواحدٍ عـــاقل . أهل بلدنا كلهم مجانين ، يضحكون عليّ لأني أرافق غنمي الى قرب النهر . بحياتك قلْ لي من يسيب زرقه ؟

وبعد أن قطعنا ميلا قلت له : رعيانك أمناء ، والشمس على الغياب، فما قولك في رجعتنا ؟

فقال : لا باس . عددت الغنم ثلاثمائة راس . أنا في التجارة اسلّم تسليم أعمى .

وبعـد أن زوّد الرعاة بنصائحه الثمينة وودّعهم ، قال لي : معك سيكارة ؟ قلت : نعم . لا تواخذني يا شيخ ، ظننت أنك لا تدخن .

فقال : ظنك في محله ، ولكن أحياناً يضيق صدري . أنا مهموم :

ـ أنت مهموم! الملوك والسلاطين مديونة لك ويضيق صدرك؟ ايش خليت للفقراء والمساكين يا شيخ ابراهيم ؟

فهمهمَ وغمغم ، فقلت له : لا بد لك من حرمة . تزوّج تنفرج همومك .

فقهقه ، وألقى على كتفي يداً كالمهدّة، فسمّرني على قارعة الطريق، وقال : طفت الدنيا وما لقيت واحدة ملائمة . انت تعرف بنات البلد .

عاشرتنا أربع خمس سنين . اسمع اعدّ لك ، وكذّبني اذا قدرت .

أسمى قامتها طويلة ، طلعة مثل البدر ، تلميذة الراهبات ، تفهم من الاشارة ، ولكن يا حينها لولا عينها ! شرسة ، كلامها نبر مثل رشق الحجارة .

ومَيّ بنت أصل، جمال ومال . أنا صاحب ملايين ، ومها زاد الخير نفع . ولكنها متكبرة تحتقر البشر. نظرت بعينك كيف سلمتُ بتواضع على الرعيـــان وسألتهم عن أحوالهم . اذا أنا ما حاسنتهم وجاملتهم يسرقوني ... وواحدة مثلها لا تطيق الراعي يخشّ البيت .

وسلمى دينها ومعبودها دفاتر الموَض الجديدة،تسأل مأمور البوسطة عنها كل يوم . حديثها وشغلها البيزيك والباصرة . وأنا مشغول مع المديونين وكلهم ملوك وسلاطين .

وجوزفين حلوة جداً ، ولكنها تقامر . بطيِّر التركة إذا استولت عليها بعدي .

ـ العمر الطويل يا شيخ براهين .

ـ وعمرك يطول . تدكّ بيرا ووسكي حتى تنتفخ . فما رأيك ببيت صاحب ملايين مثلي يصير قهوة للرائح والجائي ؟

وحلق بي وقـــال : ربما قلتَ لي ُخذْ سنيه . آه من سنيه ! كنتُ فكرتُ فيها ، ولكن نفرتُ منها بعد ما سمعتها تسبّ اخوتها ، وتلعن أمها ، وتظل معبسة بوجه أهل بيتها ، مع انهـــا تبتسم لعابر الطريق . لا شك انها تعاملني كاهلها متى رفعنا الكلفة .

ومرتا كسلانة لا تفيق إلا قرب الظهر ، ثم تمضي النهار بين غسل وجه ، وضفر شعر ، ونتف حواجب . الشغل عندها عيب . إذا عملت فنجان قهوة تذمرت وقالت : تقبر القهوة ما أثقل دمها ! بحياتك خبرني أين تصير الملايين اذا تزوجتُ واحدة مثلها؟أكثر المديونين عدّوهم الدفع. ومَن يقيم دعوى على سلطان وامبراطور ، قل لي !

ـ لماذا ديّنتهم ؟

ـ ديّنتهم يا سيدي ، علقنا . سماع أكفّ لك . وبهية زرناها فقعدنا على كرسي تحمل عليه شبر غبار . بيتها منبوش مثل شعرها ، شعر جنية! ثياب موسخة ، فما يصير بحال الشيخ براهين اذا أخذناها ؟

انظر ترتيب ثيابي ونظافتي ... كيف ... هكذا يكون صاحب الملايين .

وهيلانة لسانها مثل المبرد . شغلها الحكي في قفا النـــاس . رفيقاتها عدوّاتها ، حمارة متفلسفة . قالت : ابراهيم من ياخذه ؟ نسيت المجنونة أن ابراهيم تلميذ عينطورة. يحكي الفرنساوي مثل البلبل. نس با موسيو؟ بارول دونور جاتيه له برميه دان ما كلاس . جميلة هيلين لو ما تكون مدعية متعجرفة .

وسعدى وقحة ، متفرنجة ، لا تنطق إلا بالسب واللعنات . تصرف فوق طاقة أهلها . تضرب الخادمة كما تضرب الحيوان . هني من يقاربها يا شيخ ؟

قلت : لا أحد .

فقال : اذاً ، الحق معي .

قلت : معلوم ، مؤكد . اما ...

فانتفض وقال : بلا أمّا ، وبلا مما . سماع ما كفيّت بعد : وليلى جاهلةومن يقنعها أنها جاهلة؟كل دخل‌اخوتها لا يكفيها ثمن بودرةوحمرة. وجميلة لا تعرف شيئاً من أمور البيت، غريبة عن أورشليم ، تستعين ببنات الجيران على تفصيل قميص ، وترقيع صديرية . وإذا كانت لا تحسن تدبير نفسها فكيف تدير بيت صاحب ملايين ؟

وأخيراً تنهد تنهيدة بقرة وقال : ما بقي إلا « المحروسة » . عرفتها طبعاً . آه ! هذي كانت موافقة جداً ، ولكنها تكبرت علينا . عَرَفَتْ أني أحبها من كل قلبي فتدللت . قالوا لي انها جنّت . مسكينة ! تمر أغلب الأحيان على الطريق فينسلخ لها قلبي . صارت تهرب من الناس . مـــا صدقت حتى رأيت بعيني .

والتفتَ فرآها، فقال لي : أنظر ، هذي هي . تأمل كيف مالت عن الدرب . حقيقة ان الانسان متى فقد عقله صار كلا شيء .

فقلت : والديون ، يا ابراهيم ، متى تحصلها ؟

فقال : أمس طالبت السلطان عبد الحميد مطالبة مرّة . خوّفوني من حالته المالية . يفرجها الله يا شيخ . ملايين كثيرة .

وكان في الاسكلة مجنونـة اسمها حلا يشتدُّ جنونها على الهلّـة [1] ، فقال لي ابراهيم : سماع صريخها ، هذي حلا . مسكينة ! جننهـــا واحد

(١) الهلة : أي كلما هلَّ القمر .

اسمه مرقص . يا حلا ، سدي بوزك ، خمّنتِ أنك وحدك بجنونه ؟

وهمّ بالعود إلى حديث النساء فإذا بأربعين خمسين رأساً من البقر تساق صوب بيروت ، فقال : هذي البقر لي .

ووقف يحدث أصحابها ، ويوصيهم بالصبر على البيع ليحصلوا على أحسن الأسعار : توقوا أولاد الحرام . خذوا ، خذوا ، هذي توصية لوالي بيروت خليل بك . كتبت له أن يعطيكم عشرة آلاف ليرة . قيّدوها على الحساب .

ونظرت لأرى كيف يكون كتاب التوصية عنـــده ، فإذا به لم يعطهم شيئاً .

ـ اشتروا البضاعة اللازمة لحمص وحماة . برجوعكم نحاسبكم ، ونكرمكم ...

والتفت اليّ وقال : في الحركة بركة .

وارتعد ابراهيم فجأة فروّعني . اهتز عضواً عضواً كمن ركبته الحمى النافضة . وكان يصحب تلك الرجفة اهتزازات كالموسيقى الموقعة ، ولّدها اصطكاك أسنانه وهمهمته . فتركته وفررت خائفاً مذعورا . وما ابتعدت عنــه قليلاً حتى انقطع ذلك الايقاع . فالتفت فرأيته مهرولاً ليلحق بابقاره .

على باب الله !

رؤوس شهوركم وأعيادكم كرهتها نفسي ،
وإن أكثرتم من الصلاة فلا أسمع لكم .
اشعيا

رأيتهم ليلة عيد الميلاد .

ثالوث غريب الزيّ والوجه واللسان : أب صديق يحبو الى الخمسين ، وأم فتية لا ترفع بصرها حيـاء وخفراً ، وصبيّ فيه من الحسن كل معنى طريف .

تخير البؤس في وجوههم ثلاثتهم ، وفاحت رائحة الفقر من أردانهم. يمشون كمن لا عهد له بهذه الأرض ، فكأنهم رجال الكهف قد بعثوا .

أبصرتهم عند خمسة أبواب ، وتواروا عني في ثلاثة ، ثم ما عدت رأيتهم .

نظرت هذه العائلة عند بوّابة دير يعدّ رهبانه فطور الميلاد،فاللحوم تمذّب على النـــار ، ورائحة قتارها تفتح لُهي المكظوظين[١] . أما عن الخمور المعتقة فلا تسل ، فأصغرهن سناً تذكر حكم الأمير بشير ، تتلألأ في الأباريق البلورية وقـــد اشتعل رأسها شيباً . والديوك تنقف أعناقها انتقاماً من « جدها » ديك بطرس الجاهد . والفواكه تنقّى وتصفف .

هناك بباب ذاك الدير سمعت هـذه العائلة البائسة تطلب خبزاً باسم من قال:وكنت جوعاناً فاطممتوني.ثم رأيتها تُصرف خماص[٢] البطون. اشتهى الصبي ليمونة فمدّ اليها يده فانتزعت منه وفركت أذنه ...

وعند باب دير آخر سمعت الام تطلب من الراهبة قميصاً عتيقاً لولدها المقرور ، ولزوجها الحافي حذاء مرقعاً ، ولها فسطاناً كيف كان ، فردّت الراهبة في وجهها الباب ، ولولا لطف الله لهرس[٣] أصابع الصبي .

وعلى باب قصر سيدة مترفة لحت الام تعرض ولدها خادماً باللقمة ، ثم لا تستجاب طلبتها . وتؤتى تلك السيدة بجرو كلب فتشبعه ضماً وشماً

---

(١) المكظوظ : الممتلىء من الطعام .
(٢) خماص : ضامر البطن من الجوع .
(٣) هرس : دقه دقاً عنيفاً .

وتقبيلاً، ولا تستحي . تطعمه أشكالاً وألواناً من الطعام والحلواء ،و«ابن الانسان» ببابها يأكل بعينيه ما لا يشتهيه ابن الكلب ، ثم لا يُجاد عليه به .

وعن باب « قيصر » شاهدت صاحب اذنـــه يطردها ويدفعها الى الشرطي . ليتهم سجنوها فاستراحت !

ورأيتها أمام بيت « قيافا » تضحك بملء فيها، كأن ما فيه من أصباغ وألوان وتماثيل أنساها بؤسها . ثم خشن الصبي الوديع وجذب ذيل أمه صارخاً : أماه ! لا نريد قوتاً من هنا فخبزهم مرّ .

وفي نصف الليل مرّت « العائلة » أمام باب الكنيسة ، وبعـــد تردد دخلتها ...

ها هي بين المعيّدين تحدّق الى المغارة مستغربة ... ولما خطر رئيس الكهنة بطيلسانه وتاجه وصولجانه، دهش الصبي وتزعزع. وتعالى الغناء: المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام . فقطب وعبس كأنما عاودته ذكرى قديمة . ولما خشخشت الفلوس : وتعالى صراخها على « الصينية » الفضية، هتف الصبي : بيتي بيت الصلاة يدعى ... وهجم على الطبق ، فضربه الشرطي وطرده ، لأن السوط لم يكن معه فيعرفوه به ، كما عرفناه عند كسر الخبز .

وبعد القداس صادفتها تطوف في المدينـــة . طلبت مأوى وقوتاً فأعياها . واستجارت برواق[1] الهيكل من الليل المطير[2] فقلّعوها .

---

(١) الرواق : سقف في مقدم البيت أو كساء مرسل على مقدم البيت من أعلاه الى الأرض . (٢) المطير : المنتشر .

فتاهت في المدينـة . وما انفكت سائرة حتى تجاوزتها نافضة غبارها عن أرجلها .

انتهت الى قرية ما دخلهـا الملوك فافسدوها . كان فقراء الضيعة ساهرين ، على عادتهم ، يهجسون بملكوت الله ، يتذكرون حكاية الميلاد في الماضي السحيق ، فرحبوا بالعائلة البائسة ورثوا لحالها . أدخلوها بيتاً قزماً ، وأضرموا النـار حتى تلاقت سماء البيت واللهب . ثم مدّوا لضيوفهم سفرة من « حواضر »[1] البيت القروي .

أثّر منظر الصبي بإحدى النساء فاهتزت للكرم وهرولت الى بيتها . ثم رجعت ومعها بيضة، هي البيضة الوحيدة في القرية،خبّأتها أم يوسف لمثل هذه الساعة العصيبة .

وعظمت غبطة القرويين بضيوفهم الثلاثة : أما ربحوا أجراً ليلة العيد ؟ أما أطعموا فقيراً وقبلوه باسم يسوع ؟

وتعالى الدعاء لأم يوسف من جميع قراني[2] البيت . قـد بيّضت وجه الضيعة ، فمن عنده بيض في كانون غير ام يوسف الدهرية ؟

وعمل الخيـال عمله فرأت الضيعة في ضيوفها رمز « العائلة المقدسة » فاقتسموها بينهم . أنامت ام يوسف الصبي مع أولادها ، ونامت المرأة عند امرأة اخرى ، ونام الأب في بيت ثالث .

---

(١) حواضر البيت : ما يخزن في البيت من المأكولات دون الاستعانة من خارجه .

(٢) قراني : زوايا .

ونما ايمانهم بما رأوا فصار يقيناً ، فأشرع شيخ صديق يخبر القرية بما رأى ، فتحامل الكاهن العجوز على نفسه وجاء . لشدّ ما دهش الناس إذ لم يروا أحدا ، إلا ورقة تحت المخدة حيث كان الصبي نائماً، وقد كتب عليها : جاء الى خاصته وخاصته لم تقبله ...

فلما قرأها الخوري سمعان صك وجهه وقال : ما كان أسعد سمعان الشيخ ! وما أتعسك يا خوري سمعان! وأجهش ، ثم شرع يبكي كالطفل.

وطار الخبر الى المدينة مع الصبح . كتب الخوري سمعان الى رئيسه الروحي بما وقع في قريته ، فاستهزأ وغضب . دعا اليه أحد خوارنته وأمره أن يكذب الخبر في قداس الساعة العاشرة ، فامتثل الكاهن وقال للشعب بعد تلاوة الانجيل :

أيها الأبناء الأعزاء .

بلغت مسامع راعينا الصالح الكلي الاحترام تلك الاشاعة المضحكة التي جاءتنا اليوم ، صباح هذا العيد المبارك ، من قرية بطباب ، فالصبي الوقح الذي تجاسر ومد يده الى « الصينية » في قداس نصف الليل ستؤدبه حكومتنا الجليلة، أيدها الله، متى قبضت عليه.هي جادة خلفه، ولكنني، على قصر معرفتي ، ارجّح بل أؤكد أن غضب ربنا حلّ عليه فانشقت الأرض وبلعته مع أبيه وامه .

يا اخوتي المباركين، ان سيدنا يسوع المسيح ، له المجد ، لا يظهر بهذا الشكل الزري[1] ،بل يأتي ببهاء ومجد عظيمين ليدين الأحياء والأموات.

---

(١) الزري : الذميم ، المحتقر الذي لا يعد شيئاً .

هكذا قالت الرسل .

نحن منتظرون ، أيها الاخوة الأحباء ، أن نلقى ربنا في السحب ، كما يقول مار بولس الرسول . فلا تخافوا من هذه الأخبار والأراجيف [1] ولا تصدقوها .

ان ربنا قال لنا من فمه القدوس : أنا معكم الى منتهى الأجيال .

أما « جدنا » الخوري سمعان الذي روّج هذا الخبر وصدقه من كل عقله ، فهو ، كما تعرفون ، صار « اختيار » ، الله يساعده ويساعدنا عليه وعلى أخباره ...

فضحك فريق ، وتنهد آخر .

ومضى الخوري يتم قداسه. ثم لمّ الصينية كالعادة ، ولم يحدث شيء...

---

(١) الأراجيف : الأخبار المختلقة الكاذبة السيئة .

الفهرست

القسم الأول

كتب للمؤلف ٥
كلمة الناشر ٧
بابا نويل ١١
الأرملة مارينا ٢٨
ركبوه العجل ٤٦
وعظة أبونا اسطفان ٥٦
طبيب امرأته ٦٨
البهائم تفكر في مصيرها ٨١

قصصي واخباري

مدارس الأمس ومدارس اليوم ٩٣
كيف تعلمنا ١٠١
اولى معاركي الأدبية ١٠٨
سنتان في مدرسة الحكمة ١١٦
صباحية ١٣١
استسقاء ١٣٧
مار عبدا والمطران ١٤٥
حقاً قام ولكن بلا صيام ١٥٢
عين كفاع ١٥٧
عيد الصليب من عين كفاع ١٦٧
مجلس القرية يلوم الحكومة ١٧٥
رسالة الى الدباس ١٨٤
وداع الرئيس حبيب باشا ١٨٨
بمناسبة الدستور والاستقلال ١٩٠
عن المونوبول والغلاء ٢٠٤
رسالة شقت طريقاً وبنت جسراً ٢١١
جينا للضيعة جينا ٢١٨
حكاية الماء ٢٢٣
روداج ٢٢٩
مذكرات شباط ٢٣٧

القسم الثاني

دايم دايم	٢٤٥
معلم	٢٦١
جبور بك	٢٧٠
معاز الضيعة	٢٨٨
الناس	٢٩٨
جان أفندي	٣٠٧
ام لطوف	٣١٦
وجه غريب	٣٢٤
موعظة القيامة	٣٣١
لص جواد	٣٤٧
ام مخول	٣٥٢
صلاة نائب	٣٧٢
وعظة وديك	٣٨١
وجه مقيت	٣٨٩
مهاجرة	٣٩٨
نفخ نفخ	٤١٧

القسم الثالث

حجارة الضيعة	٤٣٣
لا يا بونا	٤٤١
ميلاد	٤٥٣
مغرور	٤٦٢
قاطع طريق	٤٧٠
من مشاكل القرية	٤٧٩
المسيح حقاً قام	٤٨٦
أبو القنباز	٥٠١
حديث خرافة	٥٠٨
ابن عزرائيل	٥١٥
هيكل	٥٢٢
ابراهيم القصصي	٥٣٠
السلالم	٥٣٦
حزبية بلهاء	٥٤٤
مرفع	٥٥١
مرشد الاخوية	٥٥٨
مأتم قروي	٥٦٥
حظ ونصيب	٥٧٤
السلامة غنيمة	٥٨٢
حردان	٥٩٠
دكان الضيعة	٥٩٨
الناطور	٦٠٧
الجنون فنون	٦١٥
على باب الله	٦٢٣